لعنة وطن

من حرب لبنان إلى حرب الخليج

كريم بقرادوني

طبعة منقّحة مع فهرست

النَاشر
عبر الشرق للمَنشورات ش.م.م.
بيروت - لبنان

لعنةُ وَطَنْ

من حَرب لبنان إلى حَرب الخليج



كريم بقرادوني

الفصل الأول

مصيدة الرؤساء

هي أكثر من حرب، انها لعنة. هكذا تتراءى لي ازمة لبنان. فمع أن اللبنانيين وغير اللبنانيين اقترفوا خلالها كل الاخطاء والخطايا، اعتقد ان المأساة اللبنانية ليست من صنع البشر وحدهم. ان في بعض خفاياها شيئاً من لعنة الالهة. بلا هوادة لاحقت اللعنة الوطن والشعب والجمهورية وستة رؤساء للجمهورية.

تسلم سليمان فرنجية الحكم عام ١٩٧٠ بزخم وقوة، غير انه اضطر عام ١٩٧٦ إلى تسليم الياس سركيس الامانة خارج القصر الرئاسي، وفي ظل حكومة منقسمة فحلّت الازمة بدل أن تُحلّ.

ورافق عهد الياس سركيس انتشار الجيش السوري في لبنان. وتزامنت نهاية عهده عام ١٩٨٢ مع غزو الجيش الاسرائيلي واغتيال بشير الجميل بعد واحد وعشرين يوماً من انتخابه. إنه اول رئيس لبناني يستشهد، يومها تحوّلت المأساة إلى لعنة.

واستهل امين الجميل حكمه في ٢٣ أيلول (سبتمبر) ١٩٨٢ في جو من الامل، وأنهاه بصورة دراماتيكية. كان أول رئيس للجمهورية لا يؤمّن انتخاب خلف له، فترك الجمهورية الممزقة في عهدة حكومة عسكرية برئاسة العماد ميشال عون، ليل ٢٢ أيلول (سبتمبر) ١٩٨٨.

وتلقف ميشال عون السلطة كمن «يتسلم كرة نار» لم تتأخر في احراقه واحراق ما تبقّى. فاستسلم لقوة النار السورية، التي أطاحت به، فلجأ إلى السفارة الفرنسية في ١٣ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٩٠ بعد ان اقتحم الجيش السوري، لاول مرة، قصر الرئاسة في بعبدا، ومقرّ وزارة الدفاع وقيادة الجيش اللبناني في اليرزة.

وسبق سقوط عون انتخاب رينيه معوض رئيساً للجمهورية في ٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٩. واستشهد بعد سبعة عشر يوماً، في ذكرى الاستقلال في ٢٢ تشرين الثاني (نوفمبر). فتحولت الذكرى إلى موعد مع اللعنة التي حلّت بثاني رئيس للجمهورية. وصار محتماً على الوطن الجريح ان ينتخب كل مرة رئيسين ليستشهد احدهما ويحكم الآخر. وخلف الياس الهراوي الرئيس الشهيد وما فتىء يصارع المأساة والقدر.

في موازاة رؤساء الجمهورية الموارنة ضربت الحرب رؤساء الحكومات السنّة. ذهبت الرصاصة الاولى، في ١٣ نيسان (ابريل) ١٩٧٥ بحكومة رشيد الصلح، وانهى اتفاق ١٧ ايار (مايو) ١٩٨٣ الحضور السياسي لشفيق الوزان، واغتال منطق الحرب رشيد كرامي في اول حزيران (يونيو) ١٩٨٧، وبقي سليم الحص يعاني ويعاند. وشكّل عمر كرامي، شقيق رشيد، في نهاية عام ١٩٩٠ حكومة اتحاد وطني ضمت كل قادة الميليشيات المتقاتلة.

وحدهم رؤساء مجلس النواب ظلوا في منأى عن اللعنة، ولم تشهد هذه الحرب الطويلة الا تعاقب رئيسين لمجلس النواب فقط، هما: كامل الاسعد، الذي ترأسه من عام ١٩٧٠ إلى عام ١٩٨٤، وحسين الحسيني، الذي انتخب للمرة الأولى عام ١٩٨٤، واعيد انتخابه المرة الأخيرة عام ١٩٩٠ لمدة اربع سنوات.

استهدفت حرب لبنان رؤساء الجمهورية، فتساقط ستة منهم خلال ستة عشر عاماً، بمعدل رئيس واحد لكل سنتين ونصف. واستهلكت الازمة اربعة رؤساء للحكومة، بمعدل رئيس لكل اربع سنوات. وتولى رجلان فقط رئاسة مجلس النواب بمعدل رئيس لكل ثماني سنوات. منطق العدد هذا يشير إلى أن الرؤساء الموارنة هم الضحية الأولى يليهم الرؤساء السنّة، ثم الرؤساء الشيعة. وتوحي الارقام بأن الشيعة اصبحوا اقوى من الجميع، والسنّة اقوى من الموارنة. اما في منطق السياسة فقد اهتز وضع رئاسة الجمهورية وثبت موقع رئاسة الحكومة وتعزز موقع رئاسة مجلس النواب. يبقى منطق التاريخ، وهو الاقسى، ومعه تساوى اللبنانيون في الخسارة. الرابحون خسروا والمنهزمون خسروا، والكل في المصيدة.

مات الرئيس عاش الرئيس

مساء ١٤ أيلول (سبتمبر) ١٩٨٢ وبعدما تأكدنا من مصرع الرئيس المنتخب بشير الجميل، شاهدتُ وزير الخارجية السابق شارل مالك، هذا المفكر المهيب، وأحد واضعي الاعلان العالمي لحقوق الانسان، يركع امام بيار الجميل والد بشير ويقول له: «المجد لله في السماء، ولك وللبنان الصبر على الارض».

سقط الرجل الهادر، وسقط معه مشروع كامل يرمي إلى إعادة توحيد البلاد في ظل دولة قوية. عمَّ الالم واليأس قلوب الناس وراحت الجمهورية تتأرجح بين الزلزال والزوال. وابتدأ الوطن يتخبط في اللعنة. وظهر أمين الجميل كأنه الخليفة الطبيعي لبشير.

في تلك الليلة الحزينة، صعد بعض اعضاء المكتب السياسي لحزب الكتائب إلى منزل رئيسه بيار الجميل، في بكفيا، وما أن فاتحوه برغبتهم في ترشيح امين، حتى انتفض قائلاً: «نحنا بيت الجميل مش معمولين تنعمل رؤساء. انا حذّرت بشير من مغبة ترشيحه والآن احذركم من مغبة ترشيح امين». وفهم العارفون بحقيقة بيار الجميل مقصده فدعوا إلى اجتماع للمكتب السياسي في غيابه.

في اليوم التالي، تقرر بالاجماع ترشيح امين الجميل. ومنذ تلك الفترة كان بيار الجميل يردد كلما اختلف احد منا مع امين: «انا لم ارشحه؛ انتم الذين رشحتموه. وضعتموه على الصليب فتحملوا مسؤوليتكم». وكان لقرار ترشيح امين اسبابه الموضوعية. منها، رغبة حزب الكتائب بالاحتفاظ بمركز الرئاسة، ومنها الرغبة في ايجاد البديل للحيلولة دون الفراغ الرئاسي لأن ولاية الياس سركيس كانت ستنتهي خلال اسبوع. ورحت اتفرج على السياسيين يتصرفون بوعي او بلا وعي على اساس «مات الرئيس، عاش الرئيس» وكأن الرئاسة صنم لا علاقة له بالبشر. ووقفت أتأمل الرجال يتراكضون نحو المصيدة.

كانت المداخلات الخارجية كثيرة. وانحصر الصراع على الرئاسة بين امين الجميل والرئيس الاسبق كميل شمعون. وسرعان ما راح اللاعبون الكبار يحددون مواقفهم. في ١٦ ايلول (سبتمبر) صعد وزير الدفاع الاسرائيلي اريل شارون إلى بكفيا لتقديم التعازي ولأخذ الضمانات بأن امين ملتزم بسياسة بشير. واختلى شارون مع بيار وامين الجميل

اللذين اكدا له انهما اطلعا على محضر آخر اجتماع بينه وبين بشير وانهما يلتزمان بمضمونه. وقد أدّت هذه الطمأنات إلى اتخاذ موقف سريع من الحكومة الاسرائيلية بتأييد امين.

وقرّ الرأي الاميركي على دعم الجميل بدلاً من شمعون بعد ان اجرى فيليب حبيب اتصالات مكثفة مع مختلف الاطراف المعنية. وقرر رونالد ريغان ايفاد القوات المتعددة الجنسيات إلى بيروت مجدِّداً تمسكه بالمبادرة الاميركية لحل ازمة لبنان والشرق الاوسط.

وتحركت فرنسا من جهتها، واوفدت مبعوثاً اقترح التمديد للرئيس سركيس، ولو لفترة عامين، وتأليف حكومة اتحاد وطني. لكن سركيس رفض العرض بحزم، وابلغ الجانب الفرنسي انه لن يبقى دقيقة واحدة بعد انتهاء ولايته في ٢٣ ايلول (سبتمبر).

وتصرفت سوريا بكثير من الروية؛ فعارضت ترشيح كميل شمعون واوحت عن بعد، ودون التزام منها، بأن امين هو في نظرها افضل من بشير. وهكذا ابقت سوريا الابواب مفتوحة للتعاون مع امين الجميل من دون ان تتحمل وزر الموافقة عليه.

وكان الضياع سيد الموقف في الوسط الاسلامي واول الذين التقطوا انفاسهم كان رئيس الوزراء السابق صائب سلام، الذي ابلغ امين ان «التجمع الاسلامي» الذي كان يضم اكثرية النواب المسلمين قرر دعمه، كما أيّده رئيس مجلس النواب، كامل الاسعد، وكتلته، ورأى المسلمون ان انتخاب امين الجميل رئيساً هو الثمن الاقل المطلوب دفعه لسحب الجيش الاسرائيلي من بيروت الغربية واحلال الجيش اللبناني والقوات المتعددة الجنسيات فيها.

وهكذا في ٢٠ ايلول (سبتمبر) ١٩٨٢، كان امين يحظى بإجماع لبناني واقليمي ودولي. وفي ٢١ تمّ انتخابه رئيساً بدلاً من بشير، وبما يشبه الاجماع الكامل، في المجلس النيابي. وبعد ست سنوات من حكم متصدع، غادر امين قصر بعبدا دون ان ينتخب بديل له. في تلك الليلة اهتزت المارونية السياسية.

كنتُ لفتُ نظر الرئيس الجميل قبل شهرين من انتهاء ولايته إلى ضرورة الاعداد لتأمين خلف له؛ فعلى هذا الاستحقاق يتوقف برأيي مصير الجمهورية والوطن. وشرحت اهمية انجازه وفق المهل الدستورية ومهما تكن الظروف، لأنه في حال حصول فراغ في رئاسة الجمهورية يفقد لبنان شرعيته الدولية ويسقط آخر رمز لوحدة الوطن والاستقلال وتضيع الخصوصية اللبنانية التي ميزته وامتاز بها. لكن مشاعر متناقضة كانت تنتاب امين، الذي كان يأمل أن تمدَّد ولايته في حال الفراغ، ويشعر في الوقت نفسه ان مجمل القوى اللبنانية

والعربية والدولية تريد ذهابه. لذا كان يعيش تجاذباً بين رغبة وواقع: رغبة في التمديد وواقع استحالته.

ولم يكن أمين الجميل اللاعب الوحيد في انتخابات رئاسة الجمهورية، كانت هناك سوريا واميركا والقوات اللبنانية والجيش اللبناني. كانت سوريا تريد الامساك بلبنان وتشريع وجود جيشها فيه من خلال اشتراطها ان يتعهد رئيس الجمهورية المقبل، ومسبقاً، على اجراء الاصلاح السياسي وتنظيم «العلاقات المميزة» بين لبنان وسوريا. والقوات تفضل اجراء الانتخابات شرط ان يأتي رئيس متعاطف معها، يحقق لها بعضاً من طموحاتها. وقائد الجيش، ميشال عون، كان يرى ان انتخاب رئيس هو بمثابة تمديد للازمة وليس حلاً لها، وبالتالي لا ضرورة لاجراء الانتخابات في هذه الظروف. اما واشنطن فكانت تعمل من اجل ايجاد رئيس يتم الاتفاق عليه بين سوريا والمسيحيين الذين يمثلهم في نظرها رئيس الجمهورية والقوات اللبنانية والجيش اللبناني. وقد اطلقت على هذا المرشح تسمية «الرئيس التوافقي». ولمست مدى انعدام الوزن لدى الفعاليات المسيحية والمارونية خصوصاً. تعي الاكثرية الساحقة اهمية انتخاب رئيس، لكن لا احد يتفق مع الآخر على اسم المرشح. والمصيبة ان كل ماروني يعدّ نفسه مرشحاً محتملاً لرئاسة الجمهورية.

ودخلت الانتخابات الرئاسية مرحلتها العملية على هامش القمة العربية التي عقدت في الجزائر في حزيران (يونيو) ١٩٨٨ حيث التقى الرئيسان أمين الجميل وحافظ الاسد واتفقا على ان يقترح الرئيس اللبناني على الرئيس السوري بعض الاسماء التي يراها مناسبة لتولّي منصب رئاسة الجمهورية.

وبعد اسبوع من القمة اوفد أمين الجميل الوزير جوزف الهاشم إلى العاصمة السورية لاستكمال البحث في انتخابات رئاسة الجمهورية. وتمّ الاتفاق على ان يعود الوزير اللبناني لاحقاً إلى دمشق، حاملاً لائحة باسماء اربعة مرشحين او خمسة تقوم سوريا باختيار واحد منهم. لكن امين الجميل ارتأى ان يجتمع بسمير جعجع في القطارة قبل ان يتابع المفاوضات مع دمشق.

في اوائل تموز (يوليو) ١٩٨٨ ابدى لي أمين الجميل رغبته في الصعود إلى دير القطارة في جرود منطقة جبيل، حيث كان يقيم سمير جعجع بصورة مؤقتة، بعد ان تعرض لثلاث محاولات اغتيال متتالية، مما اضطره إلى ترك مقره في الكرنتينا. ويرمز دير القطارة إلى انطلاقة سمير العسكرية والسياسية: منه بدأ مسيرته واليه يعود كلما شعر بخطر داهم، او كلما احتاج إلى قسط من التأمل والراحة.

يوم ٩ تموز (يوليو) ١٩٨٨ انطلقت وأمين يرافقنا ضابط طيار ومساعد، على متن طوافة قادها الرئيس شخصياً من دون خريطة طيران وبكل ثقة في النفس. وعندما اقتربنا من دير ميفوق كانت الحرارة مرتفعة والريح قوية فاستعصى علينا الهبوط. جرب أمين مرتين ولم يُفلح، وفي المرة الثالثة اصطدمت مروحة الطوافة بشريط كهربائي من التوتر العالي فارتجت الطوافة وتهاوت. اطلق الضابط الطيار صرخة تنبيه، ورسم الضابط المساعد اشارة الصليب، عندها ادركت اننا نجتاز مهلكاً. وما هي الا ثوان حتى سيطر امين على الطوافة وانزلها بصورة اضطرارية على بيدر، وما ان لامست الارض حتى راح القمح يتطاير في كل اتجاه، ونجونا. لم يظهر على أمين الارتباك وقال: «الله كبير».

وعند لقائنا سمير بادره أمين قائلاً: «تصور لو حصل لنا مكروه، من سيقنع العالم ان الحادث غير مدبر؟» اجابه سمير: «كان العالم سيعتقد ان كريم اتى بأمين ليصالحه وسمير، وسمير اغتنم الفرصة ليغتالهما سوية». اما تعليقي فكان أن طلبت من سمير دفع التعويضات عن الاضرار إلى صاحب البيدر.

دام اجتماع القطارة الذي شارك فيه نادر سكر، احد مقربي سمير، طول النهار. استعرضنا في مستهله الاوضاع السياسية المحيطة بانتخابات رئاسة الجمهورية، وانتقلنا إلى درس اسماء المرشحين، وهم كثر، اسماً اسماً. واتفقنا بسرعة على الاسماء التي نستبعدها ونضع عليها فيتو وهي ثلاثة: سليمان فرنجية وريمون اده وميشال عون. الاول بسبب عداء سمير له، والثاني بسبب عداء أمين له، والثالث بسبب عداء أمين وسمير معاً. وتعثَّر الاتفاق حول الاسماء التي نراها جديرة بتسلم الحكم وراحت الاسماء تتساقط الواحد تلو الآخر: الشخص الذي لا يعترض عليه أمين كان يلقى معارضة سمير والاثنان يعترضان على معظم المرشحين. وقد خُيِّل إليّ في لحظة انه قد انتفت المؤهلات عند كل الموارنة لتبوُّء الرئاسة، فقلت مازحاً: «اذا كنتم لا تجدون مارونياً واحداً لترشيحه فلنتخلَّ عن رئاسة الجمهورية للمسلمين وانا كفيل بحل الازمة اللبنانية فوراً».

وفي ختام الاجتماع اتفقنا على ثلاثة مرشحين هم: رينيه معوض وميشال اده وبيار حلو. وكان التعليق النهائي لأمين الذي قال: «لست مستعجلاً في فتح بازار انتخابي مع القيادة السورية. ولست مستعداً للتفرد باللعبة بل اريد اشراك الادارة الاميركية فيها. لن ارسل اللائحة دفعة واحدة بل اسماً اسماً، واتركوني اتفاوض في النهاية مع الرئيس الاسد مباشرة».

في الواقع لم يوفد أمين جوزف الهاشم مجدداً إلى الاسد، وطلب من الادارة الاميركية ان تأخذ على عاتقها كامل المفاوضات مع سوريا حول موضوع رئاسة الجمهورية. وجاء

الرد الاميركي متحفظاً. لم يقبل مورفي ان يقوم بزيارات مكوكية بين دمشق وبيروت، وابدى استعداده للقيام بزيارة واحدة في الوقت المناسب. ودفعني هذا الموقف الاميركي المتحفظ إلى أن اطلب من الجميل ان لا يتأخر في التجاوب مع عرض الاسد في الجزائر، وان يحمل جوزف الهاشم اللائحة التي اتفقنا عليها في اجتماع القطارة، خوفاً من ان تتبنى دمشق ترشيح سليمان فرنجية، وتُحمِّلنا مسؤولية تعطيل الانتخابات الرئاسية. لكن امين لم يحرك ساكناً واتكل على الدور الاميركي مما اثار غضب القيادة السورية التي تطلعت إلى جس نبض القوات.

في أواخر تموز عاد احد الصحافيين اللبنانيين الكبار، الذي يصر على عدم ذكر اسمه، من دمشق حاملا معه اشارة تفيد ان المسؤولين السوريين مستعدون لاستقبال موفد من القوات اللبنانية بصورة سرية. وبعد دراسة مستفيضة قرر سمير ايفاد زاهي بستاني، مدير عام الامن العام سابقاً، ممثلاً عنه. ووافق زاهي بعد تردد ينبع من طبعه وطبيعة المهمة. وتمت الزيارة الاولى إلى دمشق في ٣٠ تموز (يوليو) ١٩٨٨ بعد انقطاع كامل بين سوريا والقوات منذ كانون الثاني (يناير) ١٩٨٦. واجتمع زاهي مع اللواء عدنان الحمداني، احد كبار المسؤولين في المخابرات السورية وبحضور مساعده في لبنان اياد حمود. وقد اكد اللواء ان الرئيس الاسد لا يكن الحقد لاحد، ولا ينحاز إلى فريق ضد آخر، ويبني سياسته على مواقف الاطراف من المسائل الاساسية. وعدَّد ثلاث مسائل استراتيجية: العلاقة باسرائيل، والموقف من الاصلاح السياسي، ومفهومنا للعلاقات اللبنانية ــ السورية. وشدد المسؤول السوري على ضرورة التفاهم حول الامور الاستراتيجية قبل التطرق إلى موضوع الانتخابات الرئاسية. واكد ان موضوع العلاقة مع اسرائيل لا يقبل المساومة ويفترض ان تحسمه القوات، وان العلاقات اللبنانية ــ السورية المميزة لا تتعارض مع استقلال لبنان ووحدته، وان الاصلاح السياسي يجب ان يتفق عليه اللبنانيون ولا تملك سوريا بشأنه تصوراً مسبقاً. والمح إلى انزعاج دمشق من علاقة القوات بالعراق ومنظمة التحرير الفلسطينية. وربط استمرار الحوار بمدى تجاوب القوات مع النقاط المطروحة.

وكان في حوزة زاهي مجموعة من الاجوبة على مجمل المواضيع فردّ، ان سمير جعجع يكن كل احترام وتقدير للرئيس الاسد، وان القوات اللبنانية ليست مرتبطة بأي مشروع اسرائيلي او عربي يحمل في طياته اي اذى لسوريا. وفي شأن العلاقة مع اسرائيل اجاب زاهي: «القيادة الحالية في القوات لم تؤسس العلاقة مع اسرائيل بل ورثتها. وهذه العلاقة في طبيعتها افراز من افرازات الحرب ناتجٌ عن خوف المسيحيين من سوريا وحلفائها. وفي

حال التفاهم بين القوات وسوريا، والانتقال من حال الحرب إلى حالٍ اخرى، فان سمير جعجع جاهز ليقطع العلاقة مع اسرائيل».

وتلاحقت المحادثات بين القوات وسوريا، وكان زاهي يشدد خلالها على ضرورة الاتفاق على موضوع الرئاسة بمعزل عن الطروحات السياسية. وفي منتصف آب (اغسطس) توقفت هذه الاتصالات اثر اعلان سليمان فرنجية ترشيح نفسه لرئاسة الجمهورية، وتأييد دمشق له، وتعيين جلسة الانتخاب يوم ١٨ آب (اغسطس) ١٩٨٨.

لم يفاجىء ترشيح سليمان فرنجية احداً. لكن ردة فعل القيادات والنواب هي التي فاجأت فرنجية الذي كان يتصور ان المعركة محسومة لصالحه. والتقت مجموعة من الكتل والشخصيات النيابية على اعتبار هذا الترشيح «تحدياً»، وانها تفضل «مرشحاً توافقياً». وعمل أمين وسمير على تعطيل جلسة الانتخابات، عن طريق منع اكتمال النصاب القانوني. ومع اختلاف في الحسابات أيّد عون هذه الخطة، ولم يكتمل النصاب.

الإنتخابُ المستحيل

انتابت لبنان والمنطقة حرارة التخوف من الفراغ الدستوري، وانصبت الجهود على اجراء الانتخابات في موعدها الدستوري، أي قبل ٢٢ أيلول (سبتمبر) ١٩٩٠. وتحرك مساعد وزير الخارجية الاميركي لشؤون الشرق الاوسط، ريتشارد مورفي، إلى سوريا ولبنان، في ١٣ أيلول (سبتمبر) ١٩٩٠ بغية ايجاد مرشح تتفق عليه دمشق مع الفعاليات المسيحية.

وكان جون كيلي سفير الولايات المتحدة في لبنان قد طلب من القيادات المسيحية التفاهم على لائحة من ثلاثة مرشحين او اربعة لكي تعرضها الادارة الاميركية على الرئيس السوري. ووضع كيلي شرطاً صريحاً: ان تكون اللائحة موحدة بين الجميل والقوات. وكنت بدأت مع كيلي منذ ايار (مايو) اجتماعات دورية بمعدل اجتماع في الاسبوع. ودفعتنا اجواء مضطربة كانت تسيطر على البلاد إلى ان نضع نوعاً من الاصطلاح الرمزي لتعيين مواعيد اجتماعاتنا. فحين كنا نحدد بواسطة الهاتف ساعة ما في يوم معين للاجتماع، كان المقصود في الواقع الساعة التي تسبقها في اليوم السابق لذلك اليوم. وقد اصر كيلي ان نتخذ هذا الحد الادنى من الاجراءات الامنية لأنه كان يملك معلومات عن لائحة اغتيالات.

يوم وصول مورفي إلى الشرق الاوسط، عقدنا اجتماعاً في بيت المستقبل، ضم أمين الجميل وسمير جعجع بحضوري وحضور مدير الاستخبارات في الجيش اللبناني العقيد سيمون قسيس. وتم الاتفاق على تزويد مورفي بالاسماء الثلاثة التي اتفقنا عليها: رينيه معوض وميشال اده وبيار حلو.

وفي اليوم التالي، في ١٤ أيلول (سبتمبر)، ابلغتُ اللائحة إلى السفير كيلي الذي فاجأني بالقول ان الدكتور ايلي سالم مستشار الجميل اعطاه لائحة مغايرة تضم كلاً من بيار حلو وميشال اده ومانويل يونس بدلاً من رينيه معوض. اصررت على اللائحة المتفق عليها، واصر كيلي على عدم تسلمها، وقال: «ستفوتون على انفسكم رئاسة الجمهورية اذا لم تتفقوا على لائحة واحدة. واني من منطلق ضميري المهني لا استطيع ارسال لائحة متنازع عليها إلى ادارتي في واشنطن». سارعت إلى الاجتماع بأمين وسمير، وبعد مراجعات مضنية تمّ الاتفاق على ابلاغ كيلي اربعة اسماء ليحملها مورفي إلى دمشق هي: حلو واده ويونس

ومعوض. وبعد أن تأكد كيلي ان هذه اللائحة تحظى بموافقة الجميل وجعجع، ارسلها إلى الخارجية الاميركية يوم سفر مورفي إلى دمشق.

في نهاية هذا اليوم، وفيما كان جون كيلي يودعني لمست انه متعب بعض الشيء فقلت له: «المرحلة متعبة لكنها مشوقة وهي جديرة بأن تكتب مذكراتك عنها». تطلع إلي مبتسماً وقال: «اعتمد عليك في تأريخ هذه المرحلة وآمل ان يكون عنوان كتابك المقبل «السلام الموعود» بدل «السلام المفقود»، الذي كتبته منذ ست سنوات». وكان هذا آخر لقاء لي مع كيلي.

في صبيحة ١٨ أيلول (سبتمبر) ١٩٨٨ يوم وصول مورفي من دمشق إلى بيروت، نُقل كيلي فجأة إلى فرانكفورت بسبب وعكة صحية، وحلّ محله القائم بالاعمال دانيال سمسون. وكرت سبحة المفاجآت!

وصل مورفي إلى بيروت ليبلغنا أن الاتفاق مع دمشق تمَّ على اسم خامس من خارج اللائحة هو النائب مخايل الضاهر. وبينما كان مورفي مجتمعاً مع الرئيس الجميل، عقد مساعده ديفيد نيوتن اجتماعاً مع العماد عون الذي رفض ما سماه «التعيين»، ثم مع سمير جعجع ومعي في منزل القائم بالاعمال الاميركي، رفضنا خلاله ترشيح الضاهر على اساس انه مخالف للمبادرة الاميركية، التي كانت تقضي بأن نقترح اسماء ويختار الجانب السوري واحداً منها.

في بداية الاجتماع تلا علينا ديفيد نيوتن محضراً مطبوعاً يلخّص فيه مضمون المحادثات الاميركية ــ السورية. وعرفت لاحقاً ان نسخة عن المحضر ذاته تمت قراءتها لأمين الجميل وميشال عون. وشرح لنا الديبلوماسي الاميركي ان المفاوضات مع دمشق كانت شاقة وطويلة. وقد عقد مورفي خمسة اجتماعات مع خدام كادت ان لا تصل إلى نتيجة حتى اللحظات الاخيرة. وكان المفاوض السوري في غاية التصلب، يطالب بالموافقة على الاصلاحات قبل الانتخابات، والاتيان بسليمان فرنجية رئيساً للجمهورية. وبعد ثماني عشرة ساعة وافق المسؤولون السوريون على ان يستبدلوا سليمان فرنجية بمخايل الضاهر كمرشح إجماع، وان يرجئوا البت بالاصلاح السياسي إلى ما بعد الانتخابات. وختم الديبلوماسي الاميركي كلامه: «حاول مورفي ان يحصل من دمشق على اسم مرشح ثان فلم يوفَّق. نعرف ان ما نعرضه عليكم صعب. ولكن ننصحكم بالقبول. اما مخايل الضاهر واما الفوضى».

عندما رفضنا العرض الاميركي ــ السوري قدَّم نيوتن حجة أخيرة كان يعتقد انها ستقنعنا وقال: «استطاع مورفي ان يحصل على موافقة صريحة من حافظ الاسد على تأليف حكومة اتحاد وطني تضم كل الافرقاء بمن فيهم القوات اللبنانية».

لكن هذا العرض الاخير لم يبدل من موقفنا. وبينما كنا في طريق العودة إلى مقر قيادة القوات في الكرنتينا، سمعنا في الاذاعة ان العماد ميشال عون رفض اتفاق مورفي ــ الاسد ووصفه «باتفاق الاذعان». وكان الاجتماع بين الجنرال والدبلوماسي الاميركي اكثر حدَّة من اجتماعنا. طلب نيوتن من عون «حماية الانتخابات» لانجاح مخايل الضاهر. اجابه عون: «انتم في لبنان وليس في اميركا، وإذا كنتم مصرين على اجراء هذا التعيين بالقوة فاحضروا الاسطول السادس لحماية الجلسة». منذ ذلك التاريخ بدأ الخلاف بين ميشال عون الذي قيل فيه يوماً «انه مرشح الاميركان» والادارة الاميركية.

وكاد مورفي عند مغادرته بيروت، عصر يوم ١٨ أيلول (سبتمبر)، خائباً وتعباً، ان ينسى زيارة البطريرك الماروني فمرّ به بضع دقائق قبل ان يستقل الهليكوبتر عائداً إلى واشنطن.

مساءً دعا الجميل إلى اجتماع موسع في منزله في بكفيا، حضره فريق عمله المؤلف من جوزف الهاشم وايلي سالم وغسان تويني وسيمون قسيس، وجميل نعمه مدير عام الامن العام، ورفيق شلالا المستشار الاعلامي، وجوزف ابي خليل احد كبار المقربين. ثم انضممنا اليه على التوالي سمير وانا وداني شمعون، ومارون حلو، ونبيل كرم، والأخيران عضوان في المجلس الاعلى لحزب الوطنيين الاحرار.

استهل الرئيس اللبناني الاجتماع واوضح انه قد حصل توافق اميركي ــ سوري على شخص مخايل الضاهر وان مورفي يعدّ نفسه قد حقق انجازاً كبيراً بحمله دمشق على التخلي عن ترشيح سليمان فرنجيه. واطلعنا امين ان مورفي كان في غاية الصراحة وابلغه ان اميركا تدعم ترشيح مخايل الضاهر. وطلب منه دعم هذا الترشيح واجراء الانتخابات في موعدها الدستوري وعدم تأليف حكومة انتقالية. ورد على مورفي أنه لا يعارض شخص مخايل الضاهر بل يعترض على طريقة الترشيح ومضمون الاتفاق السوري ــ الاميركي. وانهى أمين كلامه قائلاً: «انا متحفظ والبطريرك مشمئز. سمير غير موافق. والجنرال عون رافض. علينا ان نختار بين القبول بمخايل الضاهر مع بعض الشروط كي نكسب الوقت ونحدّ من الخسائر أو نرفض هذا الترشيح ونتخذ موقفاً سلبياً ونتحمل كل النتائج».

واعطى الرئيس اللبناني الكلام لغسان تويني الذي اخبرنا ان مورفي كان متعجرفاً إلى

حدود التهديد المبطن اذ قال له: «دبروا حالكم. نحن سنركب الطائرة ونمشي. ولا تعيشوا في الوهم».

وتوالى الحاضرون على الكلام ورفضوا نتائج محادثات مورفي في دمشق، ونددوا خصوصاً بطريقة «الفرض» التي اتبعها الموفد الاميركي في اختيار مرشح وحيد للرئاسة. وتفرّد جوزف ابو خليل بموقف مميز؛ اذ اقترح على الحضور ان يتريثوا في الرفض ويدرسوا امكان القبول بالضاهر. لكن التيار الرافض كان جارفاً. وقد تأثرت بطرح جوزف ابو خليل لأنني كنت من الداعين بشكل قاطع إلى اجراء الانتخابات في موعدها المحدد مهما كانت النتائج. وفي ذهني انه يجوز الخلاف حول اسم المرشح للرئاسة، لكن لا يجوز الخلاف حول مبدأ اجراء الانتخابات الرئاسية.

وتصاعد خطر شغور مركز الرئاسة وتصاعد الخطر على الجمهورية نفسها. وبدأ الاميركيون بممارسة ضغوط معنوية على كل الاطراف تحت شعار «إما مخايل الضاهر وإما الفوضى». وحرك الخوف سلسلة اتصالات تلاحقت بشكل محموم، اذ لم يبق من الولاية الا ثلاثة ايام. وبدأ السباق مع الوقت، وبدأت عملية قيصرية لاخراج الرئيس العتيد من عنق الزجاجة.

ليل ٢٠ أيلول (سبتمبر) اجتمعت بالرئيس الجميل بحضور جوزف الهاشم وايلي سالم وسيمون قسيس. واطلعني على احتمال قيامه بزيارة الفرصة الاخيرة إلى دمشق، وقال لي: «لقد وصلنا إلى ساعة الحقيقة. الكل اصبح اسير مواقفه وحساباته. انا لم يبق عندي ما اخسره وافكر في لعب الورقة الاخيرة». واستوضحت الجميل: «على اي اساس يستقبلك الاسد؟» فكان جوابه: «لست متأكداً من شيء. أنّي انتظر غسان». شجعته على المحاولة شرط ان يتفق عليها مع سمير جعجع. وكنت في الواقع اشك في ان يقبل الاسد استقبال الجميل في آخر يومين من ولايته، فيما رفض الاجتماع به في دمشق على مدى عامين رغم المداخلات الاميركية والسعودية والجزائرية. لم يكن هناك مجال للجدل في نظري حول مبدأ الزيارة بحد ذاته، لكن النقاش ضروري حول هدفها ومضمونها. فاذا كان سفر الجميل إلى دمشق ليس موضوع مناقشة فإن مضمون المفاوضات التي سيجريها يجب ان يخضع لعملية تفاهم لبناني وبصورة خاصة بين القيادات المسيحية.

ووصل غسان تويني وتبعه الشيخ سليم الخوري احد الصناعيين اللبنانيين. وكان غسان متحمساً، واكد للرئيس الجميل ان حسين الحسيني اتصل بعبد الحليم خدام الذي ابلغه موافقة دمشق على الزيارة. وسأل الرئيس اللبناني غسان اذا كانت الاتصالات واضحة

وايجابية، فقال نعم، وأخذ سماعة الهاتف واتصل بحسين الحسيني وقال له: «انا اتكلم من عند الرئيس الجميل وهو مستعد للتوجه غداً إلى دمشق على اساس الملاحظات التي دونتها في دفترك الصغير».

ولم يشرح لنا امين ولا غسان مضمون «هذه الملاحظات» ولا قصة «الدفتر الصغير». وتعمدت ان لا اطلب توضيحات وان اسجل تحفظي حول الطريقة المتبعة، فراهنت مع غسان على مبلغ مئتين وخمسين ليرة لبنانية ربحها في اليوم التالي اذ أصررت على ان زيارة دمشق لن تتم في حين كان رأي غسان معاكساً.

كان غسان تويني في تلك الليلة اللولب والنجم. ينظر. يتذكر. يستدرك. يحلل. يستنبط. انه رجل الساعات الحرجة والمهمات الكبيرة وهو يحضّر ضربة معلم.
طوال عهد امين الجميل كان غسان تويني يبدو غير مرتاح إلى دوره ولا إلى مركزه. تحمَّل المسؤولية في فترات وابتعد عنها في فترات تبعاً لتقلب الظروف والادوار. كان يعد نفسه اهم من كل الفريق الرئاسي مجتمعاً ويوحي انه متفوق على الكل «ومعلم» الكل وانه غير مقتنع بأحد ولا حتى بأمين الجميل.

تبهره السلطة وتشده كالمغناطيس فيقع في شباكها. طموحه الدائم ان يكون وزير خارجية على طريقة هنري كيسنجر. لكنه يقبل ان يكون وزيراً مع حقيبة اخرى، في اي من الحكومات وهو قادر ان يحوّل وزارته مهما كانت اهم من كل الوزارات. ومستعد ان يكون نائباً فيصير مجلس النواب في نظره سلطة اكبر من سلطة الحكومة. ويرضى ان يكون ولو مختاراً في قرية، فتصبح المختارية مهمة وطنية والقرية عاصمة.

ما زال يمارس السياسة منذ اربعين عاماً، صحافياً ونائباً ووزيراً وسفيراً ومحاضراً. حركة لا تهدأ ولا تستكين. لا يريح ولا يستريح. يفضل الحركة مع الخطأ على الجمود من دون اخطاء. يكتب عن الحاكم معارضاً، ثم يحاول ان يحكم معه ويكتب له، ثم يغادره ليعود صحافياً يكتب منتقداً حقبة شارك في صنعها. لا يحب الامور السهلة ويفتش عن المواضيع المعقدة. حلم يوماً ان يجمع فكر شارل مالك وجاذبية كميل شمعون لكنه بقي في النهاية غسان تويني هذا الاورثوذكسي الذي ينظر إلى البعيد فتستهويه ثقافة اليونان وتشده عظمة روسيا.

على نقيض غسان كان جوزف الهاشم صامتاً وايلي سالم واجماً والرئيس متضايقاً. وقال: «هذه آخر ليلة نسهر في القصر». وظهرت على وجهه معالم خيبة الامل. وقعت كأس المشروب من يدي وانكسرت وقلت: «إنكسر الكأس وما انكسر الشر، هذه علامة شؤم».

اجاب امين: «عم تكسر من حساب الرئيس القادم». ضحك بعصبيّة واطلق مجموعة تساؤلات مقتضبة تدل على حالته النفسية وقال: «ماذا أبقينا؟ وماذا تركنا؟ وأية دولة؟ وأية جمهورية نسلّم؟ وأي رئيس للجمهورية سيتسلم؟ قد لا اسلم رئيساً آخر فأكون آخر الرؤساء. وغداً سينتقدونني لانني لم اسلّم كما تسلمت». انه كلام الصدق والالم يكشف فيه امين عن باطنه الانساني ويخلع عنه اقنعة المداور والمناور. شعرت عندها بالتعاطف الخفي معه وتحركت فيَّ مشاعر الصداقة التي تربطنا منذ امد طويل.

وقبل مغادرتي القصر بعد منتصف الليل، اشرت مجدداً لأمين ان زيارته لدمشق قد تكون بداية مشكلة في الشرقية اذا تفرَّد بالقرار، كما قد تكون باب فرج اذا أمّن لها تغطية واسعة. واقترحت عليه ان يستدعي على الفور جورج سعاده رئيس حزب الكتائب وداني شمعون رئيس حزب الاحرار وسمير جعجع قائد القوات اللبنانية. وكان جواب أمين «بعد ما في شي أكيد. هوديك كلن ما بيهموني، بيهمني سمير».

صباحاً اتصل الجميل بسمير واعلمه بعزمه على التوجه إلى دمشق. تحفّظ سمير لأنه كان مقتنعاً ان أمين يذهب إلى دمشق لضمان مستقبله الشخصي وليس مستقبل الجمهورية. بعد رفض سمير تردد أمين الجميل في ركوب الطوافة وكأنه شعر ان الرحلة ستكون مكلفة. لكن المستشارين اصروا عليه بحجة ان الموعد حُدّد وان مراسم الاستقبال صارت جاهزة وانه لا يجوز ان يظهر في صورة غير القادر على اتخاذ قرار بزيارة دمشق فيكون كمن يقاطع الرئيس السوري.

فور سفر الجميل إلى دمشق، بادر ميشال عون إلى الاتصال بسمير جعجع الذي صعد برفقة نادر سكر إلى وزارة الدفاع، حيث التقى الرجلان للمرة الأولى منذ القطيعة التي بدأت في أيلول (سبتمبر) ١٩٨٦ إثر مقتل العقيد خليل كنعان قائد اللواء الخامس في الجيش اللبناني واتهام عون للقوات بمقتله.

فاجأ لقاء عون — جعجع الاوساط السياسية في بيروت، لكنه عُدَّ انقلاباً في دمشق حيث كان الاسد مجتمعاً بالجميل. وروى لي أمين انه وصل إلى العاصمة السورية فارغ اليدين لا يعرف اي موقف يتخذ في ضوء معارضة سمير. وحاول ان لا يدخل مباشرة في صلب المشكلة مع الاسد فلم يتطرق إلى اسم المرشح وطرح اشكالية مكان انعقاد جلسة الانتخابات وطالب ان تتم هذه الانتخابات في حماية الجيش اللبناني. اجابه الاسد: «اذا كانت المشكلة امنية فقط فأنا مستعد ان اتعهد علناً امن كل النواب وان اضع بتصرف كل نائب كتيبة كاملة من الجيش السوري لحمايته».

وتابع أمين روايته فاخبرني ان الاسد تعامل معه بهدوء وكياسة. وفيما كان الجو يميل إلى شيء من الايجابية ادخل مساعدو الرئيس السوري ورقة تحمل نبأ يفيد ان العماد عون والدكتور جعجع مجتمعان في وزارة الدفاع في اليرزة. تعجب الرئيس السوري وسأل الرئيس اللبناني اذا كان على علم مسبق بهذا الاجتماع. ويضيف امين انه منذ تلك اللحظة تبدل مناخ المحادثات، وراح الرئيس السوري يتصلب في موقفه ويتساءل عن ابعاد اللقاء المفاجىء. ولم يكن بمقدور الرئيس اللبناني ان يقدم جواباً واضحاً فعلّق الاسد متسائلاً: «كيف تريد ان ينفذ قائد الجيش اي اتفاق بيننا او يحمي اي انتخاب ما دام يقوم بانقلاب؟».

اوحى الاسد ان الامور أفلتت من يد امين وان لا فائدة من الاتفاق معه. وفهم امين ان مهمته قد انتهت. فما كان منه الا ان اختصر اجتماعه وعاد خائباً بلا نتيجة. ولم يخف أمين فشله وقال لي: «لم اقدر ان احصل من الاسد على اي شيء». لكنه تأثر إلى حد بعيد بكلام الاسد الذي قال له في نهاية اللقاء: «اثبت التاريخ انه لم يتفكك كيان وطن وتوحد في ما بعد. لبنان هو في حالة تفكك الآن، فانتبهوا».

وتوجه امين فور عودته من دمشق إلى مقر البطريركية المارونية حيث كان البطريرك مجتمعاً بالنواب المسيحيين وأخبر الحاضرين ان موقف القوات كان ايجابياً في المساء وتبدّل في الصباح مما جعله يصل دمشق من دون قرار. وكان يلمح بشكل خفي إلى تعارض في الموقف بيني وبين سمير. كما اشار بوضوح ان زيارته لم تحقق أي نجاح بسبب الاجتماع المفاجىء بين عون وجعجع.

وخيم القلق في كل الاوساط وشكّل النواب المسيحيون المجتمعون في بكركي ثلاثة وفود للقاء رئيس الجمهورية وقائد الجيش وقائد القوات اللبنانية. ووصل إلى قصر الرئاسة رينيه معوض وخاتشيك بابكيان وحبيب كيروز الذين التقوا امين الجميل. واطلع رينيه معوض رئيس الجمهورية ان البطريرك الماروني قد تلقى رسالة من الكاردينال جون اوكونور رئيس اساقفة نيويورك، دعا فيها المسيحيين إلى القبول باتفاق مورفي — الاسد قائلاً ما معناه: لم يعد لديكم بكل اسف خيار ديمقراطي فانقذوا على الاقل الجمهورية. وتميّز النائب الارمني خاتشيك بابكيان بموقف تحذيري ومؤثر شرحه على التوالي امام أمين الجميل وسمير جعجع.

قال بابكيان: «اذا لم تتم انتخابات رئاسة الجمهورية فكل الطرق ستؤدي إلى التقسيم. واذا ضاعت رئاسة الجمهورية ضاع لبنان. ألم تتساءلوا يوماً لماذا تدعم الطائفة الارمنية

رئيس الجمهورية انى كان؟ بالطبع ليس هذا الموقف من قبيل الصدفة، بل انه نتيجة قرار اساسي ينبع عن قناعة ثابتة وهي انه في حال سقوط رئيس الجمهورية المسيحي يهجر الشعب الارمني لبنان. واليوم في حال عدم انتخاب رئيس جمهورية فان الهجرة ستبدأ. العالم تعب منا. مليون ونصف مسيحي في مواجهة مئة وعشرين مليون مسلم. اميركا واوروبا والفاتيكان والعرب، كلهم يحمِّلون المسيحيين مسؤولية الكارثة القادمة. يجب ان نتحلى بالواقعية ونجد حلاً». واقترح بابكيان تأييد سليمان فرنجية لرئاسة الجمهورية.

وكان أمين الجميل في حالة ضياع وكأنه استسلم للقدر، ورد قائلاً: «حاولت ان اتجنب المشكلة من خلال زيارة دمشق لكن احداً لم يساعدني. المشكلة ليست لدي بل لدى القوات اللبنانية. اريد ان نخرج من المأزق ولكن ليس على حساب وحدتنا الداخلية. بين الوقوع في المأزق والحفاظ على وحدتنا فضلت استمرار الوحدة. اتفقوا مع سمير وانا موافق سلفاً».

رفض سمير بشدة اقتراح النائب الارمني القاضي بانتخاب فرنجية وأجاب: «فرنجية هو اصل الازمة والمشكلة». ورد جعجع مطولاً على منطق بابكيان وتخوفاته وقال: «رئاسة الجمهورية لم تعد تنفعنا بشيء. اصبحت شبيهة ببكركي اسماً من دون مسمى. يطلقون على البطريرك الماروني لقب «بطريرك انطاكية وسائر المشرق» وهو لا يمون حتى على كل لبنان وبالكاد على كسروان وجبيل، وما زلنا نتمسك بالتسمية! كذلك رئاسة الجمهورية لم تعد تدير لا الحكومة ولا الجيش ولا الادارات العامة وما زلنا متمسكين بها. خلينا ننظر إلى الامور بواقعية. نحن لسنا هواة حرب لكننا مستعدون ان ندافع عن حريتنا وكرامتنا حتى الموت».

وساد الاحباط والبلبلة. وشعرت ان لبنان ينزلق نحو الهاوية. وخفت على الوطن. رئاسة الجمهورية في نظري هي آخر ضابط، وفي غيابها يتفكك الوطن. سيؤدي الفراغ الرئاسي إلى تحكم الجيوش الاجنبية والمنظمات اللبنانية وغير اللبنانية بالارض وإلى انتزاعها شرعية الامر الواقع في غياب الشرعية الدستورية، كما سيؤدي إلى فتح باب الصراع على السلطة في الشرقية من دون رادع. وحيال هذه التطورات اصبح همي في ربع الساعة الاخير تأمين استمرار الشرعية اللبنانية لا من خلال رئيس صار مستحيلاً، بل من خلال حكومة انتقالية ما زالت ممكنة. وتوجهت انا وسمير ليل ٢١ ــ ٢٢ أيلول (سبتمبر) ١٩٨٨ للاجتماع بالرئيس الجميل في منزله الشخصي في سن الفيل بحضور سيمون قسيس.

وكان بالفعل بمثابة اجتماع اشباح. اصر الرئيس الجميل على ان نجلس على شرفة منزله

وقد اطفأ الانوار. لم يكن احدنا يرى الآخر. وشعرت ان العتمة تتسرب إلى القلب وان الجمهورية نفسها تندفع إلى ليل طويل. خيم الوجوم على اللقاء المعتم. كان امين يفكر في عهده الضائع، وكنت افكر في الرئاسة، وكان سمير يفكر في الحكومة القادمة، وقطع الصمت قائلاً: «ألم يحن، يا رئيس، وقت تأليف الوزارة بعد كل هذا التردد؟» وكان سمير يطرح السؤال ليحمّل أمين مسؤولية عدم تأليف حكومة قبل اكثر من عامين، حين اعلن رشيد كرامي المقاطعة لعهده، وقبل أكثر من عام حين اغتيل رشيد كرامي وتولى الدكتور سليم الحص مهام رئاسة الحكومة بالنيابة، وقبل اشهر حين اعلن الاخير استقالته. فهم أمين ما يقصده سمير لكنه لم يرد واخرج قسيس من جيبه لائحة بحكومة من اربعة عشر وزيراً برئاسة رئيس الجمهورية السابق شارل حلو او النائب بيار حلو. كانت اللائحة تحمل جعجع وزيراً لكنها لم تكن تضم عون. فسارع سمير إلى المطالبة بادخال عون تفادياً للانشقاق في الشرقية وللمواجهة بين الجيش والقوات. عبَّر أمين عن انزعاجه باشارة من يده. حاولت ان اشرح موقف سمير وقلت: «ان خسارة رئاسة الجمهورية لا تعوض الا بقيام قوة شرعية متماسكة ولا يجوز ابقاء ميشال عون خارج اللعبة. انني اتوقع ان لا تعترف سوريا وحلفاؤها بهذه الحكومة وان تقوم في لبنان حكومتان تدعي كل منهما الشرعية: حكومة الرئيس سليم الحص الذي تراجع عن استقالته، وهو سيرفض الحكومة الانتقالية، وستدعمه دمشق في هذا الاتجاه، وفي المقابل حكومة دستورية، التمثيل الاسلامي فيها ضعيف او موضع تشكيك، وسلطتها لن تتعدى حدود المنطقة الشرقية. لهذا لا يجوز أن يبقى الجيش خارج الحكومتين، كي لا يتحول إلى حكومة ثالثة».

وبعد برهة من الصمت، انتفض الجميل فجأة وكأنه استفاق من حلم مزعج وقال: «طيب انا موافق على ادخال ميشال عون شرط تعيين قائد للجيش مكانه لأنه لا يجوز الجمع بين الوزارة وقيادة الجيش».

تركنا منزل الجميل في الثالثة صباحاً وقال لي سمير: «غريب امر أمين يؤكد لنا منذ ثلاثة أشهر ان الحكومة جاهزة ويبدو لنا قبل ساعات من رحيله وكأنه لم يجهز شيئاً». فأجبته: «لم تعد المشكلة بين يدي أمين الجميل صارت بين أيدينا».

كان اليوم الاخير من ولاية أمين طويلاً ومحموماً. صباح ٢٢ أيلول (سبتمبر) ابتدأنا نسمع على الراديو ان الجميل استدعى شارل حلو الذي اعتذر ورشح النائب بيار حلو، وان قائد الجيش زار القصر، وان مجموعة من النواب والشخصيات استدعيت لتأليف الحكومة. لكننا كنا نشعر ان الولادة لن تكون سهلة وان باب المفاجآت مفتوح خصوصاً وان المقاطعة الاسلامية لعهد أمين كانت قائمة منذ أكثر من سنتين. بعد الظهر اتصل بي العقيد قسيس وطلب بصورة دراماتيكية ان نتوجه انا وسمير إلى قصر بعبدا. وقال: «ما في شي ماشي الامور مخربطة». صعدنا إلى القصر ومنذ اللحظة الأولى تأكدت صحة مخاوفي. افلتت اللعبة من ايدي الجميع، وصار كل واحد اسير حساباته لمرحلة الجمهورية بلا رئيس.

ظهر بيار حلو، المكلف بتشكيل الحكومة الانتقالية، منهكاً وهو يكرر: «لا أريد تشكيل حكومة من دون المسلمين». وكان يحيط به رينيه معوض والوزير السابق ميشال إده. وكان سيمون قسيس وجميل نعمه يعقدان الاجتماعات والخلوات في غرف مشرّعة الابواب. مجموعات صغيرة تعمل منفردة. لا احد يمسك اللعبة والخيوط. تحولت مسألة التمثيل الاسلامي في الحكومة إلى عقدة. النائب عثمان الدنا مستعد لكنه متحفظ، والنائب عبده عويدات لا يعطي جواباً قبل معرفة كامل التركيبة الوزارية. وكاظم الخليل لا يقبل الصعود إلى بعبدا الا باستدعاء شخصي من الرئيس. النائب حميد دكروب من كتلة الرئيس كامل الاسعد كان راغباً في المشاركة، لكن الاخير كان يلاحقه باتصالات هاتفية ليطلب اليه عدم المشاركة. وحده فاروق المقدم، وهو شخصية من طرابلس في شمال لبنان، كان جاهزاً وحاضراً.

ولم يكن التمثيل الاسلامي المشكلة الوحيدة، فقد ظهرت أيضاً عقدة التمثيل المسيحي. وفد حزب الطاشناق الارمني ابلغنا ان وضع الارمن لا يسمح لهم بالانحياز في الصراع الداخلي وبالتالي يفضلون ان نختار ارمنياً من دون ان يلتزم الحزب به. راحت الشخصيات المسيحية تتراجع الواحدة تلو الاخرى، ولم يبق غير الكتائب والاحرار والقوات. ولعل

المفارقة الكبرى كانت ان كل الناس تشتغل في تأليف الحكومة باستثناء الرئيس الجميل. وحين سألنا عنه قيل لنا انه يحضّر رسالته الاخيرة إلى اللبنانيين.

حالة اضطراب في اروقة قصر بعبدا وصالوناته بين الخامسة والتاسعة مساء اسماء تتراكم ولوائح تذهب وتجيء، وآراء تتناقض. حالة فوضى. برج بابل سياسي. الكل يتحدث إلى الكل ولا احد يفهم على احد. التلفونات تنهال على الجميع، والصحافيون يطوقون القصر ووسائل الاعلام المحلية والدولية تبث الترجيحات. والساعات الاخيرة من ولاية الجميل تنفد لتطرح اسئلة عن مصير جمهورية ووطن.

حوالى التاسعة والنصف، استدعى الجميل جميع الموجودين في القصر اضافة إلى العماد ميشال عون لتدارس الصيغة الحكومية. وطُرحت في الاجتماع ثلاث صيغ:

الأولى حكومة برئاسة سليم الحص تضم فاعليات الشرقية والغربية، وكان يُجري الاتصالات بشأنها غسان تويني وداني شمعون وجوزف الهاشم. وقد اصطدمت هذه الصيغة برفض الحص اشراك سمير جعجع. واقترح في المقابل حكومة من اربعة عشر وزيراً تضم جورج سعاده بصفته رئيساً للجبهة اللبنانية وأبلغ اقتراحه هاتفياً إلى داني شمعون.

أما الصيغة الثانية برئاسة بيار حلو فقد اصطدمت بعقبة التمثيل الاسلامي، خاصة وان الرؤساء الروحيين الثلاثة للطوائف الاسلامية كانوا قد اصدروا قبل ساعات بياناً يؤكدون فيه ان حكومة الحص القائمة هي الحكومة الشرعية الوحيدة، ويرفضون اي مشروع لحكومة انتقالية برئاسة ماروني، ويطلبون من جميع المسلمين ان يقاطعوا سلفاً اي حكومة من هذا النوع. وقد أثّر هذا الموقف في بيار حلو فاعتذر.

اما الصيغة الثالثة فكانت اقتراحاً باسناد رئاسة الحكومة إلى داني شمعون لكنها لم تلق تجاوباً، وشعر الجميع بفشلها، خصوصاً عندما اعتذر عون عن المشاركة في حكومة يرئسها حزبي قائلاً: «لا استطيع ان اكون وزيراً في حكومة حزبية أو يرئسها حزبي، حفاظاً على تماسك المؤسسة العسكرية». بادره داني بالقول: «مبروك يا جنرال تفضل استلم».

عندها قال الجميل: «الوقت صار داهماً وما بقى فينا نتسلى. انا لا أؤلف حكومة الآ بموافقة سمير جعجع والجنرال عون». وتوجه إلى سمير قائلاً: «هل تقبل أن يكون ميشال عون رئيساً للحكومة؟» وقبل ان يرد سمير تدخل عون ليقول: «انا لا اقدر ان أؤلف حكومة من سياسيين. انا استطيع ان أؤلف حكومة من المجلس العسكري الذي يضم الضباط الكبار في الجيش اللبناني ويمثل الطوائف الست الرئيسية».

في تلك اللحظة اتضح لي ان الصيغ الوزارية فشلت، وان الخيار بات اما ترك البلاد بلا حكومة حرة واما القبول بحكومة عسكرية. وساد صمت قطعه أمين مخاطباً سمير: «هل توافق على اقتراح الجنرال عون؟» بدا سمير شديد الانزعاج واجاب: «يا فخامة الرئيس تطلب منا الموافقة على شيء هو من مسؤوليتك. كررت لي مرات عدة ان الحكومة جاهزة منذ وقت طويل وان لا مشكلة. وها نحن قبل ساعتين من انتهاء ولايتك بلا حكومة. اني لا اعترض على شخص الجنرال عون الموجود بيننا، بل اعترض على فكرة قيام حكومة عسكرية قد لا تلاقي تأييداً من اصدقائنا في الخارج، وتعطي ذرائع اضافية لخصومنا». ورد أمين: «طيب انا اعرف انك تحمِّلني المسؤولية. هذا امر نتكلم فيه فيما بعد، اما الآن فالمطلوب منك ان تجيب على اقتراح الجنرال». استأذن سمير الحضور وطلب ان أختلي واياه في غرفة مجاورة وعندما هممنا بالخروج قال لنا أمين: «انظرا إلى الساعة انها العاشرة والثلث ولم يبق الا ساعة ونصف فلا تتأخرا».

اختليت وسمير في غرفة مجاورة وكان في حالة غضب شديد. استعرضنا الوضع سريعاً وقال سمير: «اذا رفضنا العماد عون فهذا يعني الصدام الفوري مع الجيش وهذا ما لا اريده. وبالنتيجة ما علينا الاَّ الموافقة». ثم خرج لينادي العماد عون. دخل الجنرال وكانت يده مجبرة بسبب حادث سير تعرض له قبل ايام، شعره مشعث وكأنه لم ينم، غير انه كان يبدو واثقاً من نفسه، في عينيه لمعان السلطة وعلى فمه ابتسامة النصر. بقينا وقوفاً وبعد كلام قصير امسك جعجع دون انتباه بيد عون التي تؤلمه وقال له: « انا معك ولكن لي مع أمين الجميل حساباً لن يتأخر».

في تلك اللحظة ولدت الحكومة العسكرية. وعندما دخلنا نحن الثلاثة ابلغ سمير المجتمعين بموافقته وخرج دون ان يسلِّم على الرئيس. وبينما كنا نهم بمغادرة القصر ارسل أمين احد مرافقيه ليطلب من سمير ملاقاته فأجابه سمير في فورة غضب: «ما بدي شوفو». وأكملنا طريقنا.

خرجنا انا وسمير في سيارتي وطلب مني ان اسلك طريقاً غير الطريق العادية. وقال لي: «يا كريم أمين الجميل ضحك علينا. منذ البداية كان يريد ان يأتي برئيس للجمهورية يتحالف معه ضدنا، او ان يحول دون انتخابات رئاسة الجمهورية. ومنذ البداية كان لا يريد ادخالنا في الحكومة وابقاء ميشال عون خارجها. ضحك علينا. يريد تسليم ميشال عون علّه يتحالف معه لضربنا. لكن لن اترك له الوقت الكافي، وسأوجه اليه الضربة قبل ان يستفيق».

هكذا انتهت احدى اكثر الولايات صعوبة في تاريخ الجمهورية. خرج الرئيس، وبقي

القصر بلا رئيس، ضاعت آخر فرصة للتعايش بين الجميل والقوات، وابتدأ سمير يخطط لعملية انهاء أمين الجميل وتمت العملية بعد عشرة ايام في ٣ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٨٨ حين دخلت القوات اللبنانية منطقة المتن الشمالي، وسيطرت على مواقع الجميل العسكرية والمدنية ووضعته في منزله في ما يشبه الاقامة الجبرية مما اضطره إلى ترك لبنان. ووقع أمين في مصيدة سمير.

وبعد أن نفذ سمير عملية المتن قال لي: «اكبر مجرم بحق لبنان هو أمين الجميل. واسوأ وقت في حياتي هو الذي قضيته معه. حاول حتى اللحظة الاخيرة ان يتفق مع سوريا وان يدعم مخايل الضاهر بهدف ضربنا. وكان سيحاول لو تركناه ان يجعل من المتن منطقة نفوذ ممنوعة علينا على غرار ما فعله سليمان فرنجية في منطقة الشمال. لكن هذه المرة قضيت عليه. لقد انتهى أمين الجميل إلى غير رجعة».

لم ينقذ الحظ هذه المرة الرجل المحظوظ. لقد حالف الحظ أمين منذ بداية حياته وكأن قدره ان ينجح حيث يفشل الآخرون. ورث النيابة عن خاله موريس الجميل، الموسوعة الفكرية المشدودة إلى التجديد والعصرنة، الذي توفي قبل اوانه عام ١٩٧٠. خلفه أمين نائباً عن المتن الشمالي في عمر يناهز الثامنة والعشرين، وكان اصغر النواب سنّاً. وورث الزعامة عن ابيه بيار، الذي اسس اكبر الاحزاب اللبنانية واقتطع فيه أمين مكانة مرموقة، وحوَّل منطقة المتن إلى إمارة خاصة به. وورث أخيراً الرئاسة في ٢١ أيلول (سبتمبر) ١٩٨٢عن شقيقه بشير الذي اغتيل بعد انتخابه في ١٤ أيلول (سبتمبر) ١٩٨٢ رئيساً للجمهورية، فخلفه وهو في الاربعين من العمر وصار اصغر رئيس جمهورية يحكم، لأن بشير استشهد قبل ان يتسلم مقاليد الحكم. وقد اتكل طويلاً على نجمه وكان يردد: «يوم ١٤ أيلول (سبتمبر) ظهراً، كان العالم يعتقد انني انتهيت، وبعد الظهر من اليوم ذاته صرت رئيساً للجمهورية».

حلم ان تكون له شعبية والده وثقافة خاله، وحاول ان يحقق الاثنتين معاً. نظّم اقليم المتن الكتائبي سياسياً وشعبياً ما بين عامي ١٩٧٠ و١٩٧٥، وقاد الميليشيا العسكرية والمعارك الضارية بين عامي ١٩٧٥ و١٩٧٦ علّه يكسب القواعد الشعبية. واطلق ما بين عامي ١٩٧٦ و١٩٧٩ جريدة الريفاي، ثاني الصحف اللبنانية الناطقة باللغة الفرنسية، وبيت المستقبل وهو اكبر مركز للتوثيق والدراسات السياسية في لبنان، عساه يجذب النخبة المثقفة. ومع انه بقي دون شعبية والده وثقافة خاله، فإنَّه بزَّهُما معاً وتبوأ مركز رئاسة الجمهورية، فحقق ما عجز عنه السلف.

جميل الوجه، انيق المحيا، أكثر ارتياحاً إلى ارتداء ربطة العنق منه إلى ارتداء بزة القتال. ينشط على نمط رجل الاعمال العصري اكثر مما يتصرف كالزعيم التقليدي. يهتم بالعلاقات العامة والاتصالات الشخصية. يستقبل بكثير من الدماثة واللطف وحسن الضيافة، وتساعده في هذا المجال زوجته جويس. يهوى الموسيقى والجمال والجميلات، ويحب كرة المضرب وقيادة السيارات والطوافات. وقد أدار البلاد كما يقود الطوافة: يعلو بها بشكل عمودي وينخفض بسرعة، ينعطف يميناً ويساراً ولا يتبع طريقاً ثابتة. ينطلق من حيث يريد ويهبط حيث يشاء.لقد أوصل لبنان إلى أعلى درجات الأمل في بداية عهده، ووصل به إلى أقصى حالات اليأس في نهاية ولايته.

يتكلم احسن مما يخطب، ويتمتع بفن المفاوضة أكثر من موهبة الخطابة. يعتمد البراعة الشخصية ليمرر الحلول والتسويات. وكثيراً ما اخطأ التقدير ولم يحسن قراءة الاشارات، لأنه ينطلق من المقاييس الذاتية المبنية على علاقاته الشخصية ويغفل المعطيات الموضوعية. يتقن سياسة الابهار فيطلق الشعارات البراقة، كوصفه عهده بـ «مغامرة الانقاذ» او كقوله: «اعطونا السلام وخذوا منا ما يدهش العالم».

الاعلام في نظره اهم من السياسة. اقدم في بداية عهده على اعمال غير مضمونة وغير ضرورية بهدف احتلال مانشيت الصحف. وزرع حكمه بمبادرات اعلامية كثيرة وثوابت سياسية قليلة. انه نقيض سلفه الياس سركيس الذي كان يتعاطى السياسة ويهمل الاعلام، وهذا خطأ، في حين ان أمين كان يركّز على الاعلام اكثر من السياسة، وهذا خطأ ايضاً.

عرف أمين ان يميز شخصه عن بيئته السياسية. وتعمّد الظهور بمظهر «المعتدل» في عالم المتطرفين وبـ «العاقل» في عالم المجانين. ندد بـ «فاشية» شقيقه بشير، و«انعزالية» والده بيار، و«عسكرة» حزب الكتائب. لم يخف عواطفه مرة عام ١٩٨٤ وقال لي: «بالنسبة اليكم بشير هو حلم اما بالنسبة إلى الباقين فهو كابوس».

تقاربنا على مقاعد المدرسة في سيدة الجمهور، وتصادقنا في كلية الحقوق، وتعاونا داخل حزب الكتائب في السبعينات وتباعدنا سياسياً في الثمانينات. اختلفنا في بداية عهده والتقينا في نهايته. انها قصة طويلة مليئة بالتضامن والتخاصم، أصررت خلالها ان أميز بين الصداقة والسياسة فلم افلح. التعامل مع أمين صعب وقد خبره كل من تعاون معه. انه يريد كل شيء كل الوقت، ولا يعطي في المقابل اي شيء في اكثر الاوقات. قلّما يتحمل المعارضة او الانتقاد، واذا تحملهما فعلى مضض. وقلّما يفتش عن المشورة، واذا وصلته فلا يأخذ منها الا ما يناسبه ويعجبه. جمع اخطر صفتين في السياسة: الانانية والعناد.

في بداية الحرب اطلق على نفسه لقب «عنيد»، وكان يفخر بهذه التسمية التي تنطبق عليه بكل حسناتها وسيئاتها. العنيد شجاع بطبيعته، وأمين من هذه الطينة: كشاف متحمس، وطالب يتظاهر ويشاكس، ومقاتل في مقدمة المحاربين وقد نجا من الموت مراراً. عاش في رئاسة الجمهورية حالات خطر عديدة، عندما قصف القصر الجمهوري، وتعرض للاجتياح ولم يغادره. كان يصرّ على الصعود إلى بكفيا يومياً حيث الجبهة العسكرية مشتعلة على رمية حجر. جازف أمنياً بإقامة احتفالات عيد الاستقلال في الشطر الغربي من بيروت، وقيامه بزيارة صيدا إثر الانسحاب الاسرائيلي منها عام ١٩٨٥.

مارس العناد السياسي فلم يبرم اتفاق ١٧ أيار (مايو) مع تل ابيب وكان يردد: «إبن بيار الجميل لا يوقّع اتفاق استسلام مع اسرائيل، وأُفضّل ان اقطع يدي على ان اوقع مثل هذا الاتفاق». لم يستثمر هذا الموقف عربياً ولا سورياً، واتكل على الولايات المتحدة الاميركية التي خذلته. فاختلف مع اسرائيل ولم يتفاهم مع سوريا، انطلاقاً من مقولة خاطئة تزعم ان اميركا قادرة ان تحل محل اسرائيل وسوريا معاً. لم يستمع جيداً إلى نصيحة الرئيس الاسبق سليمان فرنجية الذي قال له: «ما دمت قررت ان تلغي اتفاق ١٧ أيار، فاذهب قبل ذلك إلى دمشق واتفق مع الاسد». وهكذا خسر أمين عندما نظّم اتفاق ١٧ أيار ولم يربح عندما الغاه.

سعى لاسترداد بعض من سلطته المتهاوية، عن طريق تأليف حكومة اتحاد وطني في اوائل عام ١٩٨٤، والامساك بقراري الكتائب والقوات في اواخر العام ذاته. لكنه لم يع حجم الانقلاب في موازين القوى ومدى اهمية الفرص الضائعة، فاصطدم بسوريا وعاندها، ولم يوافق على الاتفاق الثلاثي عام ١٩٨٦، وكان يكرر: «زرت دمشق احدى عشرة مرة ولم اتنازل عن اي شيء ولا مرة». وفي الواقع، لم يقدم أي تنازل لسوريا طول عهده الصعب، مع كل اعمال الترغيب والترهيب التي مارستها دمشق حياله.

حاول بشكل عام أن يحافظ على علاقة لبنان مع محيطه العربي والعالم. ولم يقطع علاقته مع العالم العربي على الرغم من مقاطعة سوريا له، فاستمر في تواصل مع السعودية ومصر والاردن والعراق وليبيا والجزائر ومنظمة التحرير الفلسطينية وغيرها، وتمسك بعلاقات لبنان مع أوروبا، وبصورة خاصة، فرنسا والفاتيكان والمانيا.

سقط في الخطأ المميت الذي وقع فيه كثيرون قبله من شاه ايران إلى انور السادات: صدّق الاميركيين في كل شيء واعتمد عليهم. وقع في فخ «المتأمركين» من السياسيين والمستشارين والذين يعتقدون ان اميركا هي كل شيء في حين ان اميركا لا يهمها الا اميركا

وتستخف بكل ما تبقى. لقد افشلت واشنطن أمين الجميل ثلاث مرات على الاقل: مرة عندما لم تؤمن له في اوائل عهده اتفاقاً يسحب اسرائيل من لبنان مع ان جورج شولتز وزير الخارجية الاميركية تدخل بصورة مباشرة، ومرة ثانية عندما لم تسهِّل له في اواخر عهده تفاهماً مع سوريا حول الاصلاحات السياسية من خلال الحوار الذي ادارته ابريل غلاسبي، ومرة ثالثة عندما عقد مورفي مع الاسد صفقة تتناول رئاسة الجمهورية أدّت إلى انهاء عهده من دون انتخاب رئيس.

انه ذكي لكنه يميل إلى التذاكي. يتمسك بثوابت لبنانية لكنها تضيع احياناً في خضم مناوراته الكثيرة. غلطته أنه يعدّ نفسه الاذكى والادهى. كان يتصور انه بمقدوره ان يحارب بالآخرين ويتخلى عن خساراتهم ويبقى هو المنتصر الوحيد والمحظوظ الدائم. الانسان اناني بالسليقة، والسياسي اناني بالممارسة. لكن كل سياسي ناجح يضبط انانيته ليتعايش والاخرين، فيربح ثقتهم. الحظ اوصل امين إلى الرئاسة، والانانية والظروف افشلته. «الانا» عنده طاغية لا حدود لها. مشكلته انه يخلط بين القضايا الكبيرة والحسابات الصغيرة.

طمح في بداية عهده إلى ان يكون الرئيس الحل وكان يردد: «اريد حلاً سريعاً». وحاول ان يكون كل شيء في بلد لا يتحمل المغامرات الكبيرة ولا الانتصارات الكلية. اراد ان يكون رئيس جمهورية كفؤاد شهاب، يبني جيشاً قوياً ودولة حديثة وفي الوقت ذاته ان يكون رئيس الجبهة اللبنانية ككميل شمعون، ورئيساً لحزب الكتائب كبيار الجميل، وقائداً للقوات اللبنانية كبشير. اعتقد في لحظة ان بمقدوره ان يختصر في شخصه كل هذه الادوار؛ فكان يوزع اهتمامه بين ما يحدث في مجلس الامن القومي في البيت الابيض، وما يحدث في قسم الكتائب في بكفيا. حاول ان يربح وحده كل شيء فخسر في النهاية كل شيء.

وفي منتصف حكمه تراءى له ان «الحل السريع» قد تلاشى وان عليه ان يصمد بانتظار الحل الآتي، وقال لي في بداية عام ١٩٨٥: «سيكتب التاريخ اني حافظت على لبنان حتى يحين موعد الحل. ليس ديغول الذي حرر فرنسا بل الحلفاء. اهمية ديغول انه كان حاضراً ليجلس على طاولة المفاوضات ويحول دون حل على حساب فرنسا. هذا هو دوري».

وعاكسته الاحداث في نهاية عهده، ولم يقدر ان يحافظ على شيء. سنوات حكمه كانت عِجافاً. انهار خلالها كل شيء: الوطن والشعب والدولة والمؤسسات والليرة والاخلاق، ورئاسة الجمهورية.

ولج الرئاسة قائداً شاباً يطفح املاً وقوة وغادرها رجلاً منهكاً بالخيبات والاتهامات. بدأ كحل وانتهى كمشكلة. قد يتسامح اللبنانيون مع أمين في الشؤون السياسية والعسكرية،

وجل من لا يخطىء، لكن لا يسامحه احد في ادارته الشؤون الحياتية والمالية. الكل يحمِّله عن خطأ او عن صواب مسؤولية تدهور الليرة والاخلاق العامة وتكاثر الفضائح والصفقات المريبة: ان لا يحقق السلام والازدهار اللذين وعد بهما شيء، وان يصير لبنان فقيراً ومنحطاً شيء آخر. في الحالة الاولى قد يجد عدة اسباب تخفيفية، ولكن في الحالة الثانية الحكم قاس مهما تكن الاعذار مصيبة. في عهده حلّت لعنة الفقر والتخلف والانحطاط على وطن كان يوماً غنياً ومتقدماً ومشعاً.

يعيش أمين في منفاه حالات تلهف وتشاؤم. يؤكد حيناً لانصاره انه «عائد على حصان أبيض»، ويسر حيناً آخر لبعض المقربين انه قد «لا يعود ابداً وقد لا يعود لبنان». لكنه لا يعترف في أي حال انه فشل. ما زال يتصور ان الكل مخطئون ومذنبون وهو الوحيد البريء والمصيب. انه حقاً عنيد.

بَين الحكومَة والرئاسَة

ظهر ميشال عون، رئيس الحكومة الانتقالية، وكأنه تغلب على لعنة الرؤساء، وبدت الشرقية ومعها الشرعية في اوج قوتها. جيش لبناني مقاتل إلى جانب قوات لبنانية مقاتلة، والاثنان يملكان قدرات عسكرية لم تتوفر لهما في أي وقت مضى، وفي جو من التعبئة السياسية لم تشهده البلاد من قبل.

لم يعر ميشال عون موضوع انتخاب رئيس جديد للجمهورية أي اهتمام مع أن الهدف من حكومته الانتقالية كان ملء الفراغ في الرئاسة في اسرع وقت. وانكب على ادارة الشرقية والشرعية وكأنه بدأ عهداً جديداً. وخاض خلال سنتين حربين طاحنتين. اعلن ضد سوريا في ١٤ آذار (مارس) ١٩٨٩ «حرب التحرير» التي انتهت في تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٨٩ باتفاقية الطائف، تبعها انتخاب رينيه معوض رئيساً للجمهورية الذي اغتيل، فخلفه الياس الهراوي. كما شنّ الجنرال ضد القوات اللبنانية في ٣١ كانون الثاني (يناير) ١٩٩٠ «حرب الالغاء» التي استمرت إلى حين قام الجيش السوري في ١٣ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٩٠ باختراق مواقع عون العسكرية واخرجه من قصر بعبدا ووزارة الدفاع الوطني.

وتصورت للحظة ان رينيه معوض الذي انتخب رئيساً للجمهورية في ٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٩ سيكون قادراً على تحويل اتفاق الطائف إلى مشروع مصالحة وطنية من خلال التفاهم مع مختلف الاطراف حتى ميشال عون. لكن اللعنة نزلت به بعد سبعة عشر يوماً فقط من انتخابه فاستشهد.

انتخب رينيه معوض للمرة الاولى نائباً عن زغرتا في العام ١٩٥٧ وله من العمر اثنتان وثلاثون سنة. ونجح في هذه الانتخابات وهو خارج منطقته فاراً من وجه العدالة لأن القضاء اللبناني كان اصدر مذكرة توقيف بحقه وحق سليمان فرنجية إثر صدام دامٍ وقع في قرية مزيارة في شمال لبنان، مما اضطرهما إلى اللجوء إلى اللاذقية في سوريا.

وبعد حادثة مزيارة وبسببها اكتشف معوض باكراً ان العنف لا يحلّ المشاكل ولا يولد الا العنف. واقتنع، ككل الشهابيين منذ بداية الستينات، ان لبنان لا يقوم على غالب

ومغلوب، بل على تسوية لا يخسر فيها الضعيف كل شيء ولا يربح فيها القوي كل شيء. فلا الحلول العسكرية مفيدة، ولا الحلول المفروضة مجدية.

من الصعب ان يبهرك رينيه معوض من بعيد ولكن من الصعب ان لا تحترمه عن قرب. انفه الطويل يسمح له بأن يشم الريح من مسافة. قامته القصيرة تسمح له بالتسلل كالسمكة في كل المياه اللبنانية. بحدسه يشعر بالمشكلة، وبعقله يحاول ان يحلها. يعرف الثوابت ولا تغيب عنه المتغيرات. لا يمشي بسرعة بل يتمهل، ولا يتكلم بسرعة بل يتحفظ، ولا يقدم بسرعة بل يحاذر. لا يحب الربح بالضربة القاضية، بل يفضل الكسب بالنقاط. انه لاعب شطرنج اكثر ممّا هو لاعب بوكر.

يتحرك في السياسة على طريقته الخاصة، يبدو للوهلة الاولى متردداً يراوح مكانه وما يلبث ان يجس النبض، ثم يقارب الموضوع ويطرح السؤال وينتظر الجواب، وهو على استعداد لكي يعاود الكرّة بعناد. في كل مرة يفصح عن امر اضافي ويتقدم خطوة إلى الامام دون ان تحس بحركته. كلما سدت بوجهه الابواب سعى إلى فتح اكثر من ثغرة. لا يُكابر ولا يُغامر بل يعترف بالمشكلة والواقع. لكنه لا يستسلم ويثابر فلا ييأس من احد ولا من اي شيء. يتعاطى السياسية كالرسام امام اللوحة: لمسة وراء لمسة ولوناً بعد لون حتى تكتمل الصورة. انه فنان السياسة اللبنانية.

يتقن فن التوازنات. وازن بين العائلات في بلدته زغرتا حيث الصراع عنيف على الزعامة. ووازن بين العائلات المسيحية المتنازعة بين زغرتا وبشري، فهو الزعيم الزغرتاوي الوحيد الذي تزوج من اهل بشري. ووازن بين المناطق فتعاون مع صديقه الدائم رشيد كرامي. ووازن بين الشمال والشرقية على الرغم من الجرح البليغ الذي احدثته عملية اهدن، فاستمر بمثابة صلة الوصل؛ يمضي الشتاء في الشرقية والصيف في اهدن. وازن بين الموارنة والدروز؛ فبقي على تواصل مع كمال جنبلاط والمير مجيد ارسلان، ومن بعدهما مع وليد جنبلاط. ووازن في كل انحاء لبنان بين المسيحيين والمسلمين بكثير من الانفتاح والتفهم. انه مثال التعايش ورجل التوازن والاتزان والموازنات. انه «الميزان اللبناني» كما كان يسميه صديقه الراحل الياس سركيس.

لم ينشط رينيه معوض كثيراً في انتخابات الرئاسة عام ١٩٨٨، وكأنه كان يعلم مسبقاً انها لن تتم في موعدها الدستوري، فترك المرشحين الآخرين يلهثون. لكنه نشط كثيراً منذ اعلان «حرب التحرير» وكأنه توقّع ان تؤدي هذه الحرب إلى انتخابات رئاسية.

عندما اجتمع شمل النواب في الطائف، راح يتصرف وكأنه واثق من النجاح. وفور

انتخابه، في الخامس من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٩، انكب على وضع برنامج عمل من ثلاث نقاط:

اولاها المصالحة الوطنية الشاملة بدءاً بالمصالحة المسيحية. كان هاجسه الاول ان يداوي الجرح الماروني المفتوح منذ اثنتي عشرة سنة من خلال مصالحة فرنجية وجعجع. وكان معوض يخطط لاشراك سمير وسليمان طوني فرنجية حفيد الرئيس فرنجية في حكومة واحدة. وكانت المهمة صعبة جداً لكنها لم تكن مستحيلة عليه.

ثانية هذه النقاط هي التنظيم اللامركزي. وقد اولاه رينيه اهتماماً كبيراً. وكان يرى في اللامركزية لا فرصة لمشاركة الاجيال الجديدة في صناعة المستقبل وحسب، بل الوسيلة الفضلى لتحميل الشباب مسؤولية الحكم المباشر. وقد شعر ان الحرب اقصت الكثير من الطاقات وكان هدفه وقف هجرة الادمغة والعمل على استعادة ما هاجر منها.

وثالثة هذه النقاط الاعمار. ادرك تماماً ان المشاكل الاقتصادية والاجتماعية تحوّلت إلى كابوس ومأساة، وان الدولة القادرة هي التي تبسط سلطة القانون وتحل الميليشيات وفي الوقت ذاته تؤمِّن العدالة الاجتماعية وتساهم في التنمية الاقتصادية. ولم يخفِ تفاؤله في هذا المجال وكأنه كان موعوداً بمساعدات اكيدة.

الذين عرفوا رينيه معوض قبل انتخابه دهشوا للتبدل الذي طرأ على الرجل بعد الانتخاب. فمن رجل مستريح ومريح، تحوّل إلى رجل يُقبل على العمل بلا هوادة، ويتخذ القرارات بلا انقطاع، كأنه في سباق مع الوقت والاحداث. قضى الاسبوع الاخير من حياته في اهدن حيث استقبل المهنئين والقى الخطب وفي الوقت ذاته عقد اجتماعين اساسيين مع سفير الولايات المتحدة الاميركية ومع نائب رئيس الجمهورية السورية.

تقبّل اوراق اعتماد السفير الاميركي جون مكارثي، الذي عاد إلى لبنان بعد غياب دام عدة شهور، بسبب خلافه مع الجنرال عون. وأضفى السفير العائد على زيارته شيئاً من «الفولكلور الاميركي» عندما اتصل وبشكل شبه علني بسمير جعجع طالباً منه الدعم الصريح والمباشر للشرعية واتفاق الطائف، وكأنه كان يحرضه على الاقدام على مواجهة مع ميشال عون. وقد احرج هذا التصرف الاميركي «شبه العلني» الرئيس اللبناني.

اما الاجتماع الاهم والادق فجرى مع نائب رئيس الجمهورية السورية عبد الحليم خدام الذي جاء مهنئاً ومفاوضاً. طالب معوض ان تقوم دمشق بسحب جيشها من منطقة البترون لتثبت بالدليل الحسي ان اتفاق الطائف لا يرمي إلى تشريع وجود الجيش السوري في لبنان إلى الابد، بل إلى برمجة انسحابه تدريجياً. في المقابل ركّز عبد الحليم خدام على

موضوع تأليف اول حكومة للعهد، صيغة واسماء. ولم يرق الطرح للرئيس اللبناني الذي خرج من اجتماعه مع خدام وعدم الارتياح باد على وجهه، لكنه لم يبح بشيء. بمقدورك ان تقرأ الصعوبات على وجهه ولكن لن تسمعها ابداً على لسانه. كل ما قاله لبعض النواب المستفسرين: «في شغلة طلبها مني ابو جمال ما ريحتني». ولم يكشف ماهية هذه «الشغلة»؛ انه سر الدولة وهو رجل دولة وقد ذهب ضحية مفهومه للدولة.

أدرك معوض منذ البداية انه رمز الدولة وعليه ان يتصرف كرمز، مهما تكن الاحوال. كان يردد على مسمع الكل: «اريد ان اعيد إلى الرئاسة الصورة التي كانت تتحلى بها قبل الحرب. مكاني الطبيعي في القصر الجمهوري في بعبدا ولن اقبل ان ابقى لاجئاً في مقر مؤقت في الرملة البيضاء».

ولم يرَ اي اسباب تخفيفية تبرر تصرف ميشال عون تجاهه. كان يقر ان الجنرال يتمتع بشعبية كبيرة لكن هذه الشعبية لا تبرر تعطيل الشرعية. وكان يعرف ان اعتماد الموكب الرسمي خطر، لكنه أصرّ عليه ولم يوافق على استعمال سيارة جانبية مؤكداً: «علينا على الاقل الحفاظ على مظاهر الشرعية بانتظار بسط سلطة الشرعية». لم يلبس السترة الواقية من الرصاص، مع يقينه ان محاولات اغتياله على قدم وساق، وراح يتظاهر انه مرتاح وواثق لان الشرعية العادلة والمعتدلة، في نظره، لا خوف منها ولا عليها وكان يقول للمقربين: «أنا لم اؤذ نملة في حياتي فلماذا يريدون قتلي؟». تعمّد ان تحميه عناصر من الجيش اللبناني لا يعرفهم جيداً بدل مرافقيه الذين اختبرهم في السراء والضراء، وقال: «رئيس الجمهورية يحميه الجيش لا مرافقوه».

عاش رينيه معوض هاجس الاغتيال من دون ان يترك هذا الهاجس يتحكم بعقله وتصرفاته. قبل ان يغادر باريس إلى القليعات، حيث جرى انتخابه رئيساً، التقى ابنه ميشال وقال له: «يمكن بكرا ينتخبوني وبعدها يغتالوني، انت مسؤول، يا ميشال، عن امك واختك». وكان هذا هو اللقاء الاخير بين الاب والابن.

يوم ٢٠ تشرين الثاني (نوفمبر) قرر رينيه معوض الانتقال من اهدن إلى بيروت لاحياء ذكرى الاستقلال في العاصمة مع انه تبلغ العديد من التحذيرات حول التحضيرات لاغتياله. وقبل مغادرته اهدن التقى الرئيس فرنجية مودعاً فنصحه الاخير بعدم التوجه إلى بيروت وعرض عليه قصره الرئاسي قائلاً: «الغربية فيها مئة زاروب ما منعرفها، ابق هون».

وفي ضوء معلومات حول امكانية تفجير طائرة «الميدل ايست» التي ستقل الرئيس

اللبناني إلى بيروت، ارسل المسؤولون السوريون طائرة سورية لنقله إلى مطار دمشق، ومنها إلى بيروت. وافق رينيه معوض على تبديل الطائرة غير انه طلب ان تهبط في مطار بيروت. وعندما وصل إلى منزله قال لزوجته نايلة: «انظري، وصلنا وما صار شيء». صارحته نايلة بمخاوفها واستحلفته ألّا يتوجه إلى القصر الحكومي لالقاء كلمة بمناسبة عيد الاستقلال، فأجابها بحزم: «اللبنانيون متشوقون إلى رؤية الشرعية كاملة. يريدون ان يروا بأم العين رئيس الجمهورية ورئيس مجلس النواب ورئيس مجلس الوزراء سوية وجنباً إلى جنب، وفي مكان شرعي. اعدك إنّي سأخرج للمرة الاخيرة فقط لاحياء ذكرى الاستقلال، وبالفعل كانت المرة الاخيرة.

الثاني والعشرون من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٩ يوم ذكرى الاستقلال كان عصيباً، وفيما رجال السلك الدبلوماسي وكبار الموظفين من عسكريين ومدنيين يهنئون الرئيس بهذه المناسبة كان المسؤولون الامنيون في حالة توتر وانفعال. واتصل كثيرون بالرئيس ناصحين، فكان يجيبهم: «كيف سأقنع المواطن العادي ان الدولة قادرة على حمايته، ما دامت غير قادرة على حماية رئيس الجمهورية في عيد الاستقلال؟». وبلغ التوتر اشده قبيل مغادرة الرئيس مقره، واعطيت الاوامر بمنع وقوف اي سيارة على الطريق المؤدية إلى القصر الحكومي. لكن العبوة القاتلة كانت هذه المرة ــ ولاول مرة ــ موضوعة في محل مهجور على حافة الطريق لا في سيارة واقفة. وانفجر رينيه معوض وانفجرت معه الدولة. أصبح رمزاً لقدر لبنان المشؤوم. انه ضحية اخرى من ضحايا لعنة الرؤساء.

ودخل لبنان من جديد مرحلة الشؤم واجمع النواب فوراً على انتخاب الياس الهراوي رئيساً للجمهورية. وشكل سليم الحص أُولى حكومات العهد الجديد. وانحسر الكلام عن المصالحة الوطنية لتحل محله لغة التهديد بالحسم العسكري. ورد عون على التهديدات بالدعوة إلى مهرجانات شعبية حاشدة، فراحت الجماهير تؤم قصر بعبدا وراح الشعب يحمي الجيش. وتلبدت الغيوم. وحبس لبنان انفاسه. ودخل الزعماء الموارنة في مواجهة مكشوفة: ميشال عون يؤلب الجيش والشعب ضد الياس الهراوي، وسمير جعجع يعدّ العدّة لمواجهة عون، والياس الهراوي يخطو خطوة إلى الامام واخرى إلى الوراء، والبطريرك في حيرة من امره. فَقَدَ الموارنة التوازن وصار معهم لبنان في حالة انعدام الوزن.

وعمت حالة شعبية مؤيدة للعماد عون وقامت مظاهرات منافسة مؤيدة للدكتور جعجع. ودخلت الشرقية نفق التجربة الكبرى، ووقع الصراع الكبير بين الجيش اللبناني والقوات اللبنانية في ٣١ كانون الثاني (يناير) ١٩٩٠. ضرب الزلزال كل شيء. التعاسة

والفقر والدمار والدماء في كل مكان. الهجرة في تصاعد والفقر في ازدياد، انه الوطن الحزين والجريح. انها اللعنة.

وتداخلت الخطوط الداخلية والمخططات الخارجية. وكثرت الوساطات العربية والغربية المعلن منها والسري. لكنها اصطدمت جميعاً بموقف ميشال عون الذي كان يؤكد في كل مرة: «يمكن ان يسحقني العالم لكنه لا يمكنه ان يحملني على توقيع اتفاق الطائف». وبقي يعاند ويكابر مع ان فشله في القضاء على القوات اللبنانية وانحساره داخل الشرقية، جعلاه ضعيفاً سياسياً وعسكرياً، وإن بقي قوياً شعبياً ومعنوياً.

ظلَّ يراهن على متغيّرات تقلب الموازين لمصلحته. وبالفعل حصلت المتغيرات لكنها جاءت لغير مصلحته. فاجتاح العراق الكويت خلال ساعات، في ٢ آب (اغسطس) ١٩٩٠ وصعقت المنطقة واهتز العالم وانبرى الرئيس الاميركي جورج بوش يحشد مع حلفائه وبموافقة الدول الكبرى اكبر تجمع عسكري في التاريخ. لكن الرئيس العراقي صدام حسين لم يرف له جفن وقرر المواجهة الصعبة. وتحوّل الشرق الاوسط بركاناً قابلاً لاشعال حرب عالمية او حرب كيميائية ونووية اقليمية. وربطت ازمة الكويت مصير جورج بوش بمصير صدام حسين. فانكب الرئيس الاميركي المحرج على توسيع رقعة تحالفاته وخاصة العربية منها. واحتلت سوريا، وهي الجار التاريخي والخصم التقليدي للعراق، موقعاً مميزاً. وافادت دمشق ببراعة من حرج واشنطن في زاوية الخليج للحصول على «تفويض اميركي» بانجاز «الحل السوري» في لبنان. ونزولاً عند طلب الحكومة اللبنانية قام الجيش السوري في ١٣ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٩٠ بعملية عسكرية صاعقة، ادت إلى استسلام الجنرال المتمرد خلال ساعات، واضطراره إلى طلب اللجوء السياسي من السفارة الفرنسية في لبنان. فانتهى البطل لاجئاً. وتوقفت المسرحية وسقط المسرح. واطبقت المصيدة على ساكن القصر الجمهوري وخيّم شبح اللعنة من جديد وعَبَرَ الحلم.

الفصل الثاني

السّلام الملغـوم

عندما دخل الجيش الاسرائيلي إلى لبنان في حزيران (يونيو) ١٩٨٢ بدت الحكومة الاسرائيلية مستعجلة إلى تحقيق حلّ سريع للمشكلة اللبنانية. فهي تعودت الحرب الخاطفة وترغب في حلّ خاطف. وحين اجتاز الجيش الاسرائيلي الليطاني، اقتنعت بأن هذه الحرب أكثر من عملية تأديبية وان مشكلة لبنان والشرق الاوسط وُضعت على نار حامية. وكنت انتقد باستمرار الضربات الاسرائيلية ضد المنظمات الفلسطينية في الجنوب لأنها تؤذي الكل ولا تنفع احداً، وتصيب الجنوب بضحايا مجانية ودمار عبثي، وتؤجج العنف الداخلي والنزاعات اللبنانية من دون تبديل في الموازين او فتح نافذة لحلول. وكان موقفي هذا مصدر ازعاج واحراج داخل الكتائب والقوات والجبهة اللبنانية.

كان بشير الجميل متأكداً من ان اسرائيل ستقوم بعمل ما خلال السنة ١٩٨٢، منذ بدايتها، لكنه لم يكن يملك تصوراً واضحاً لحجم العملية. كان يقول لي ان الحكومة الاسرائيلية تتأرجح بين عملية ليطاني ثانية، اي عملية محدودة داخل الجنوب اللبناني، وعملية واسعة تصل إلى أبواب بيروت، والفارق كبير بين عملية «ليطاني ثانية» وعملية «بيروت اولى». وكان بشير يتخوف من مواقفي المتعاطفة مع سوريا ومنظمة التحرير الفلسطينية، ويخفي عني الكثير من التفاصيل، ويكتفي بمكاشفتي بالعناوين العريضة.

في احد اجتماعات المكتب السياسي لحزب الكتائب، واجتماعات الاحزاب مملة عادة، كنت اجلس إلى جانب بشير، أقرأ مقالاً في مجلة «المستقبل» عن سيناريو للحرب وضع تصوره أرييل شارون وزير الدفاع الاسرائيلي، وينطلق هذا السيناريو من فرضية قيام الفدائيين الفلسطينيين بعملية ضد باص تلامذة فيردّ الجيش الاسرائيلي باجتياح الجنوب حتى بلدة الدامور الواقعة على بعد عشرين كيلومتراً من بيروت. وبصورة عفوية اشرت لبشير

إلى هذا المقال وكتبت له على ورقة: «هل هذا ما تنتظر؟» وردّ بشير بعبارة مكتوبة: «ما تحكي مع حدا قبل ما احكيك».

بعد ايام خلوت ببشير، فأطلعني على مضمون اجتماع مهم جرى مع اريل شارون في بيروت خلال شهر كانون الثاني (يناير) ١٩٨٢، في بيت بشير بالاشرفية، وحضره والده بيار، والرئيس كميل شمعون، وعدد من المساعدين. في هذا الاجتماع، أبلغ شارون الحاضرين ان ثمة قراراً اسرائيلياً بتدمير البنية التحتية لمنظمة التحرير، وان البحث يدور داخل الحكومة الاسرائيلية حول عمليتين: واحدة محدودة ذات بعد أمني، تقضي على الآلة العسكرية الفلسطينية في جنوب لبنان وتصل إلى الليطاني، وثانية كبيرة ذات بعدين، امني وسياسي، تدمّر الآلة الفلسطينية لا في جنوب لبنان فقط بل في بيروت أيضاً. واضاف شارون: «ان العملية الكبرى تفترض مشاركتكم في معارك بيروت وتتوقف على مدى استعدادكم لتوقيع اتفاقية سلام مع اسرائيل. انه خيار صعب لأنه يعني مقاطعة العرب لكم، وعزلكم في العالم العربي». واستحلفني بشير ان يبقى هذا الامر طيّ الكتمان، لأنه من «اسرار الدولة». وعلّق على اللقاء بقوله: «قبل الاجتماع كنت متخوفاً من ردّة فعل الشيخ بيار ومرتاحاً لموقف الرئيس شمعون، وفوجئت كثيراً عندما اظهر الشيخ بيار خلال الاجتماع حماساً للعملية الكبرى اكثر من الرئيس شمعون». وسألت بشير: «ماذا عن الجيش السوري؟» فأجاب: «ان اسرائيل حريصة على عدم الاصطدام به كي لا تثير حفيظة الولايات المتحدة». شرحت لبشير بكثير من الدقة مخاطر الحرب الاسرائيلية واقترحت عليه امرين: الأول ان نقوم باتصالات مع دمشق، بغية ايجاد اتفاقٍ يحول دون حرب مجهولة النتائج سياسياً، ولو معروفة النتائج عسكرياً. والثاني ان نفتح خطوطاً مع منظمة التحرير، علّنا نجد ترتيباً لادخال الجيش اللبناني إلى الجنوب والحيلولة دون المغامرة الاسرائيلية.

وفي الواقع كان بشير قد بدأ بالتفكير جدياً في رئاسة الجمهورية، وبتوحيد لبنان عن طريق طرح شعار «الـ ١٠٤٥٢ كلم٢»، وهي مساحة لبنان في حدوده المعترف بها دولياً. كما اخذ يتعود فهم العامل العربي في لبنان ولا يكتفي باحتساب العامل الاسرائيلي دون سواه. استمع إلى كلامي ملياً ثم قال: «كيف يمكن ان نعمل هذه الاتصالات دون ان نمس بمصداقيتنا؟» فأجبته: «ان سيناريو الحرب صار متداولاً في الصحف ولم يعد سرّاً وبمقدورنا ان نطرح على القيادتين السورية والفلسطينية عملاً مشتركاً للحيلولة دون الاحتمالات المتداولة». وافق بشير بشيء من الحذر، فأصْررتُ على ان تتم هذه الاتصالات مع السوريين والفلسطينيين بمشاركته الشخصية.

وفي هذا السياق نجح العقيد جوني عبده، مدير الاستخبارات في الجيش اللبناني في جمع بشير مع مسؤولين سوريين وتمت اجتماعات عدّة في منزل عبده بين بشير ورئيس الاستخبارات السورية في لبنان، العقيد محمد غانم. كما استطعنا فتح قنوات باتجاه منظمة التحرير فاستقبل بشير «أبو الزعيم» مرات عدّة.

صارح بشير الجانبين السوري والفلسطيني بأنه على استعداد كامل للدعوة إلى اقامة علاقات لبنانية ــ سورية جديدة، على اساس برمجة انسحاب الجيش السوري من لبنان بصورة تدريجية، واعادة تنظيم العلاقات اللبنانية ــ الفلسطينية على اساس التزام المنظمة الكامل باتفاق القاهرة. ولم يتورع عن الايحاء للجانبين انه في حال استمرار الوضع الراهن، ستغتنم اسرائيل الفرصة لشنّ حرب على لبنان.

وباعتقادي ان هذه الاتصالات كادت ان تسفر عن نتائج لولا قيام احدى المنظمات الفلسطينية بمحاولة اغتيال سفير اسرائيل في لندن شلومو ارغوف في اوائل حزيران (يونيو)، وجاء الردّ الاسرائيلي فورياً وكان يرمي في احد جوانبه إلى افشال هذه الاتصالات.

شارون: "ودّعوا لبْنان"

عندما تقدم الجيش الاسرائيلي من الجنوب إلى بيروت راحت القيادات الاسرائيلية تضغط على بشير للمشاركة في هذه الحرب. وكنت من الذين يقفون بشدة للحيلولة دون اشتراك القوات في عمل عسكري، والتقيتُ في هذا الاتجاه مع الرئيس الياس سركيس ووزير الخارجية فؤاد بطرس والعقيد عبده، ودعمت موقفي بحجتين: الاولى انه لا يجوز لأي قوة مسيحية او لبنانية ان تتحالف مع اسرائيل لضرب الفلسطينيين، لأن هذا الامر خطأ تاريخي، والثانية انه اذا اراد بشير ان يكون رئيساً للجمهورية، فلا يمكن ان يشارك اسرائيل بضرب المناطق الاسلامية وهذا خطأ سياسي. وفي الواقع تحاشى بشير الانسياق مع اسرائيل في حربها في لبنان، على الرغم من شتى انواع الترغيب. وتصاعدت وتيرة الضغوط الاسرائيلية بعد اسبوعين من بدء الاجتياح وطالب شارون بشير باصرار ان تقدم القوات اللبنانية على عملية محدودة في بيروت يستغلها الجيش الاسرائيلي للبدء باقتحام العاصمة. وكان شارون يكرر لبشير انه بحاجة إلى «شرارة» والباقي عليه.

وكنت مع رفاق آخرين نرفض مبدأ هذه العملية. وقد اقترحت على بشير العكس تماماً، وقلت له: «دورك ان تنقذ بيروت، فهي عاصمة لبنان السياسية وعاصمة العرب المعنوية. لا يجوز ان تُدمَّرَ عاصمة دولة تطمحُ أنتَ لتكون رئيس جمهوريتها. اذا عرفت كيف تنقذ بيروت لا تصبح رئيساً لبنانياً وحسب، بل تصبح ايضاً زعيماً عربياً. دورك غداً ان تعمل على اخراج الجيش الاسرائيلي والمنظمات الفلسطينية والجيش السوري. ان انهاء الاحتلالات هو بداية الحل اللبناني الحقيقي». واقتنع بشير وراح يطالب بـ «انسحاب كل الجيوش والمنظمات غير اللبنانية من لبنان». وكانت حكومة شفيق الوزان قد اتخذت غداة الغزو الاسرائيلي الموقف ذاته وابلغته إلى جامعة الدول العربية والامم المتحدة.

في ٣٠ حزيران (يونيو) ١٩٨٢ تلقى بشير دعوة رسمية لزيارة الطائف، باسم اللجنة الوزارية العربية التي اجتمعت للبحث في الغزو الاسرائيلي للبنان، والتي تضم ممثلين عن السعودية وسوريا ومنظمة التحرير الفلسطينية والجزائر والكويت ولبنان. وقد نظّم الاميركيون سفر قائد القوات اللبنانية بدقة تامة. فنقلته طوافة من سلاح الجو الاميركي

من جونيه إلى قبرص حيث استقل طائرة سعودية خاصة، لتحمله إلى الطائف. وقد فرحت لهذه الدعوة ورأيتها بمثابة أول «اعتراف عربي» بالقوات اللبنانية، واشارة ضمنية إلى عدم الاعتراض على بشير كمرشح لرئاسة الجمهورية. وشعرت ان التيار العربي الذي امثل داخل القوات والكتائب والجبهة اللبنانية سيتغلب على التيارات الاخرى المناهضة، وان بشير سيعي اهمية تفاهمه ومحيطه العربي القريب والبعيد.

عند انتخابه رئيساً للجمهورية في ٢٣ آب (اغسطس) ١٩٨٢ عقد بشير سلسلة اجتماعات مع فريق عمله لوضع خطة المفاوضات المقبلة لانسحاب الجيوش والمنظمات الاجنبية من لبنان. وكان يسود الاجتماعات تياران: تيار يقترح بدء مفاوضات فورية مع اسرائيل حول انسحابها من لبنان، وبالتزامن مع الانسحاب السوري والفلسطيني، وكان هذا اقتراح السفير فيليب حبيب مبعوث الرئيس رونالد ريغان. والتيار الثاني، الذي كنت ادافع عنه، يدعو إلى مفاوضات فورية مع دمشق بغية برمجة انسحاب جميع الجيوش والمنظمات غير اللبنانية من لبنان. وكنت ادافع عن موقفي من زاويتين: الاولى ان اي اتفاق سوري ــ لبناني يمكن ان تقبل به اسرائيل عن طريق الولايات المتحدة، في حين ان اي اتفاق لبناني ــ اسرائيلي لا يمكن ان تقبل به دمشق مهما تكن الضغوط الاميركية والسوفياتية، هذا في حال توافر مثل هذا الموقف لدى موسكو. والثانية انه لا يجوز التفاوض حول الانسحاب السوري من لبنان مع اسرائيل وربط هذا الانسحاب بالانسحاب الاسرائيلي لأن ذلك يشكل تحدياً سافراً لا تقدر دمشق على تحمله ولن تتردد في اللجوء إلى كل الوسائل لاحباطه.

في ظل الاجتياح الاسرائيلي تعمدت زيارة دمشق وحدي في ٢٠ حزيران (يونيو) ١٩٨٢ وكنت أحس ان الذهاب إلى العاصمة السورية واجب قومي. لقد تعدت زياراتي إلى سوريا في السابق الخمسين مرة في السنوات العشر الماضية، ولكن هذه الزيارة بالذات كانت تحمل نكهة اخرى. الزيارات السابقة كانت تدخل في خانة المصالح السياسية المشتركة. أما هذه الزيارة فكانت تعبِّر عن شعور بالتضامن القومي الذي يتعدى السياسة والمصالح.

وفي الطريق إلى الحدود السورية انتابتني مسحة من الكآبة. «طريق الشام» التي تصل بيروت بدمشق تقطعها الدبابات الاسرائيلية! الازمة اللبنانية ما زالت تكبر منذ عام ١٩٧٥ في حين ان لبنان ما زال يصغر. كل الجيوش غير اللبنانية حاضرة في وطني وحده الجيش اللبناني غائب! وفيما كنت اغوص في افكاري الحزينة، توقفت سيارتي فجأة امام حاجز

اسرائيلي، فنقزت عند رؤية جندي اسرائيلي يتفحصني، ثم سمح لي بالمرور من دون ان يطرح عليّ اي سؤال. شعرت في هذه اللحظة بالهزيمة وبالوطن المهدور. وكدت ان ابكي لولا وجود السائق والمرافق إلى جانبي. وعند وصولي إلى وزارة الخارجية السورية قبّلت عبد الحليم خدام بحرارة وقلت له: «ليس عندي، يا أبو جمال، موجب سياسي يحملني على المجيء. لكني تعمدت الحضور من دون موضوع، كي اثبت لنفسي ان الدبابات الاسرائيلية لا تقدر ان تمنعني من التواصل مع دمشق. طريق الشام ستبقى مفتوحة». وتأثَّر «ابو جمال» وبادلني التحية فقال: «نحن لا نستطيع ان نخرج منكم ولا تستطيعون ان تخرجوا منا. فالانسان لا يقدر ان يخرج من جلده. قد نتفق وقد نختلف، في بعض الامور وفي بعض الاحيان. لكننا في النهاية كيان واحد. ما يصيب الواحد منا يصيب الآخر حتماً».

بعد هذه المقدمة العاطفية دخل خدام في السياسة ليقول: «لا تخطئوا في بناء موقفكم على اساس ضعف سوريا او قوتها. سوريا الضعيفة تكون اكثر تشدداً معكم، وسوريا القوية تصبح اكثر مرونة. لا تتمنوا اضعاف سوريا. نحن لسنا دولة من العالم الثالث. وليس هناك قوة دولية او قوة عربية تقدر ان تفرض علينا خطوة لا نريدها، او ان تمنعنا من القيام بخطوة نريدها. سوريا حقيقة فرضت نفسها في الشرق الاوسط... لم تدخل اسرائيل لبنان لتحجِّم الفلسطينيين لمصلحة لبنان، ولا يتكبَّد الجيش الاسرائيلي الخسائر الا لمصلحة اسرائيل دون سواها. لاسرائيل مطامع تريد تحقيقها، لكنها تصطدم بقرار الرئيس الاسد الذي لا يتركها تحقق اي مطمع، وسنرغمها على الخروج من لبنان، وسنزيل آثار العدوان فيه. اما سوريا فقد دخلت لبنان لتحقق مصالح لبنانية لا مصالح سورية بحتة. سوريا ليست المشكلة الآن، اسرائيل هي المشكلة».

وتطرقنا بالطبع إلى موضوع انتخابات رئاسة الجمهورية واطلعت خدام على احتمال انتخاب بشير وقلت له: «سيعلن بشير ترشيحه قريباً. اريد اعلامكم بهذا الامر بصورة غير رسمية كي لا تضطروا إلى اتخاذ موقف رسمي. لن اطلب تأييدكم ولكن اريد ان تعرفوا ان ترشيحه ليس موجهاً ضدكم ولا تعتبروا نجاحه تحدياً لكم». وعندما سألني عن حظوظ بشير في الرئاسة اجبته «انها جدية»، قال لي: «كبِّر عقلك، يا كريم».

وبنتيجة الاجتماع اتفقت مع خدام على متابعة الاتصال وعدنا انا وجورج سعادة وجوزف ابو خليل إلى دمشق في ١٦ آب (اغسطس) ١٩٨٢، اي قبل اسبوع من انتخاب بشير واجرينا محادثات تركزت على الانتخابات الرئاسية. وتساءل خدام عن برنامج بشير للرئاسة وقال: «بشير الجميل قائد القوات اللبنانية له صورة واضحة. ولكن ما هي صورة

بشير الجميل الرئيس؟ أهو قائد القوات اللبنانية نفسه ام هناك صورة اخرى، وما هي؟ اني لا اطرح هذا الموضوع من باب الاحراج وبنية سلبية بل من باب الايجابيات. يهمنا ان تكون الامور واضحة فيما بيننا وان تكون لديكم مواقف واضحة قد نؤيدها وقد نعارضها. من هنا نقول بضرورة صياغة برنامج وطني تلتف حوله كل الاطراف في هذه الاوضاع الاستثنائية، ويهمنا بناء دولة قوية واستعادة استقلال لبنان وسيادته». اجبته انه بمقدوري التأكيد «ان لا جدل حول وحدة لبنان وانتمائه العربي وسيادته، وبشير مصمم على توحيد الارض والشعب، وحل الميليشيات وبناء جيش قوي، وسحب كل الجيوش والمنظمات غير اللبنانية من لبنان». وابديت الملاحظات الآتية: «ان كل هذه الامور لا تتم الا بالاتفاق بين لبنان وسوريا. وان بشير لا يقبل ان يكون لبنان مشروع مؤامرة على سوريا. وان احسن من يقدر على بناء العلاقات الفضلى بين لبنان وسوريا والعرب هو الرئيس القوي. وبشير يتمتع برصيد كبير يمكن ان يسحب منه. واني أرى إجلاء كل الجيوش غير اللبنانية عن لبنان وبالتخصيص الجيش الاسرائيلي هو انتصار عربي، ولسوريا دور قومي في هذا المجال. واننا نريد معرفة موقف الرئيس الاسد ونصيحته لأن تل ابيب ستطالب حتماً بإجراء مفاوضات مباشرة مع لبنان وتوقيع معاهدة سلام». اجاب خدام: «لسنا موهومين على الاطلاق. اسرائيل لم تدخل لبنان لتأمين مصالحكم بل لتأمين مصالحها ومصالح الاميركيين، ومن ثمّ لن تخرج بناء على طلبكم. ولن نبخل بأي تضحية لاخراج الجيش الاسرائيلي من لبنان. بالنسبة إلينا كل التضحيات تتضاءل امام اخراج الاسرائيليين. بعد فترة زمنية سيتضايق بشير بالذات من الاحتلال الاسرائيلي. لذا نطالبكم بوضع برنامج وطني ترسمون فيه تصوركم لاسس الحكم الوطني في لبنان، وكيفية التعامل مع مختلف القوى السياسية والاجتماعية وتحديد مهام الجيش اللبناني. والمطلوب قبل كل شيء ان توضحوا موقفكم من الاحتلال الاسرائيلي والقضية الفلسطينية والوجود الفلسطيني المسلح، ومفهومكم للعلاقات المميزة مع سوريا وللعمل العربي المشترك».

وقبل نهاية اللقاء رأى جوزف ابو خليل ان حل الازمة اللبنانية صعب ومعقد ولا بد من عملية جراحية موجعة وقال: «نحن مستعدون لقلب الطاولة معكم». اجابه خدام: «كل شيء وارد. خلينا نشوف شو رح بيصير».

بعد يومين من انتخاب بشير رئيساً للجمهورية، وصلت القوات المتعددة الجنسيات وبدأ خروج المنظمات الفلسطينية والجيش السوري من بيروت وفق اتفاق عقده فيليب حبيب مع ياسر عرفات وحافظ الاسد. وفي ٣٠ آب (اغسطس) ١٩٨٢ غادر ياسر عرفات بيروت إلى اثينا.

في اول أيلول (سبتمبر) توجه بشير إلى نهاريا واجتمع برئيس الوزراء الاسرائيلي مناحيم بيغن. وعاد في حالة غضب ظاهر وقال لي: «مش ماشي الحال مع اسرائيل. بيغن يريد مني ان اوقع معاهدة سلام فورية وقد رفضت طلبه وقلت له: بامكانك ان تعتقلني ولكن ليس بامكانك ان تحملني على توقيع معاهدة لست مُقتنعاً بها». وكان هذا اللقاء على حد قول بشير من اسوأ الاجتماعات في حياته، اذ ان بيغن كان يعاني حالة توتر على الصعيدين الشخصي والسياسي. فعلى الصعيد الشخصي، كان قد انزلق واصيب برضوض في رجله كما كان يتألم لحالة زوجته المصابة بمرض عضال. اما على الصعيد السياسي، فكان مستاء من موقف الرئيس ريغان الذي اعلن في اليوم ذاته مبادرة للسلام في الشرق الأوسط تحمل في طياتها رغبة واشنطن في اعطاء قوة دفع جديد لاتفاقية كمب ديفيد، وفي استثمار العمل العسكري الاسرائيلي في لبنان لطرح حل سياسي اميركي في الشرق الاوسط. وكان بيغن يعتقد ان اميركا تحاول ان تسرق منه انتصاره في لبنان.

في هذه اللحظة شعرت ان بشير يعي تماما مسؤولية الرئاسة ومستلزمات الحكم والوحدة والسيادة فتفاءلت، وقلت له: «حسناً فعلت برفضك الانصياع لبيغن. وبرأيي اننا سنواجه صراعاً اميركياً ــ اسرائيلياً حول لبنان. القيادة الاسرائيلية تستعجل ابرام كامب ديفيد لبناني جديد من دون اميركا، واميركا مستعجلة لتوسيع كامب ديفيد السابق بإدخال الاردن، وفي الوقت نفسه لا هذه ولا تلك تفرد للمصلحة اللبنانية موقعاً في اولوية اهتماماتها». ولاحظت ان اول مؤشر لبداية التجاذب الاميركي ــ الاسرائيلي تجلّى في استقالة وزير الخارجية الكسندر هيغ في ٢٥ حزيران (يونيو) والذي كان يريد ان تتطابق السياسة الاميركية مع اسرائيل في لبنان والشرق الاوسط بصورة مطلقة ومئة بالمئة. ورأيت ان الحالة اللبنانية لا تتحمل هذا التجاذب وعلينا طرح معادلة تخرج عن النطاق الاميركي ــ الاسرائيلي فنبدأ المفاوضات مع سوريا حول الانسحابات من لبنان. كما اقترحت على بشير تعميق اتصالاته بالصف الاسلامي في لبنان ومع العالم العربي. وذكّرته بأن اشارات مشجعة تلوح في الافق. كامل الاسعد يؤيده بشكل كامل وهو زعيم شيعي مقتدر. ورئيس الحكومة الاسبق صائب سلام على استعداد للتعاون معه وهو زعيم سني يتمتع بموقع راسخ. وتعمدت ان يحس بشير ان الخيار العربي ممكن ومفيد وانه ليس سجين الرهان الاسرائيلي وحده. وكان لكلامي تأثير كبير فيه وفاتحني انه كان يريد ان يخفي عني شيئاً حدث في نهاريا وفي بيروت، وهو ان تسليمي منصباً وزارياً في عهده يصطدم بـ «فيتو» من جهتين: من مناحيم بيغن ومن بيار الجميل. بيغن قال لبشير «لدينا معلومات انك تفكر في تعيين كريم بقرادوني وزيراً للخارجية، هذا الامر لا يريحنا لأن بقرادوني عميل

سوري». واضاف بشير: «أما الشيخ بيار فيريد ان يتمثل حزب الكتائب بغيرك، انت مشكلة لا تحتمل». ضحكت وضحك بشير، وأثّر كلامه فيّ وزادني تصميماً على الالتزام بمسيرته، وعلى الاستمرار في محاولة الانتقال من الرهان الاسرائيلي إلى الخيار العربي. وزادت قناعتي بوطنية بشير وقدرته على تجسيد القرار اللبناني المستقل. وكنت ادرك مدى صعوبة تغيير صورة بشير «الاسرائيلية»، لكنني كنت واثقاً من انه غير مرتبط بالخارج، وانه على استعداد لاعادة النظر في الرهانات التي فرضتها ضرورات الحرب، وان لديه من الشعبية والشخصية ما يسمح له بتخطي حالة اليأس من العرب إلى حالة الاعتماد عليهم. وكبر الحلم بأن يقود بشير ثورة سياسية بعد ان نجح في قيادة مقاومة عسكرية، فنعبر من «الجمهورية الاولى» إلى «الجمهورية الثانية» عن طريق تحديث المؤسسات وتجديد «الطاقم» السياسي واطلاق جيل جديد متحرر من الاقطاع والعقد الطائفية. وكنت آمل ان يكون الرئيس حافظ الاسد هو عبد الناصر الجديد الذي يعرف ان يثق ببشير لادارة الشؤون اللبنانية الداخلية وينسّق معه في الشؤون الخارجية.

بعد اجتماع نهاريا، ادرك بشير ان علاقته باسرائيل لن تكون سهلة، واتجه إلى الاعتماد على اميركا. وصادف وصول كسبار واينبرغر وزير الدفاع الاميركي إلى بيروت، لكي يتفقد القوة المتعددة الجنسيات، وعرض عليه بشير ان تعتمد واشنطن الاراضي والموانىء اللبنانية قاعدة عسكرية واستراتيجية لها في الشرق الاوسط. وكان بشير يعتقد ان هذا الاقتراح في حال تنفيذه يجعل من لبنان منطقة أمن أميركية؛ ولا تعود تتجرأ اسرائيل ولا سوريا على التدخل في شؤون لبنان الداخلية، او المس بسيادته الوطنية وسلامة اراضيه. وقد فوجىء الوزير الاميركي بهذا العرض واستغربه لكنه وعد بنقله إلى البيت الابيض.

والتقينا أنا وبشير بعد فترة وجيزة الياس سركيس وجوني عبده، وعَهدَ الرئيس اللبناني بناءً على طلب بشير، إلى العميد سامي الخطيب قائد «قوات الردع العربية» في الذهاب إلى دمشق لتأمين اجتماع لي ولجوني عبده مع القيادة السورية، فور تسلم بشير مقاليد الرئاسة. وعاد الخطيب بردٍّ ايجابي مبدئي بشأن هذا الاجتماع، على ان يتم تحديد موعده لاحقاً. لكن اغتيال بشير في ١٤ أيلول (سبتمبر) اسقط هذه الفرصة.

عندما تسلم امين الجميل رئاسة الجمهورية، في ٢٣ أيلول (سبتمبر) ١٩٨٢ كان بعيداً عن كل هذه التصورات، لأن بشير كان يحرص على عدم اشراكه في اي منها. وسرعان ما وقع أمين في الوهج الاميركي. واعتقد ان بمقدوره ان لا يقدم على خيار اسرائيلي،

رداً على سياسة شقيقه، ولا على خيار سوري، رداً على سياسة الياس سركيس، بل على خيار اميركي يتخطى القدرتين السورية والاسرائيلية معاً. وراح يتصرف وكأنه الخيار الاميركي في الشرق الاوسط. واخذ «يلزم» الاميركيين مسؤوليةَ ايجاد الحل. وتبنى طبيعياً الاقتراح الاميركي ببدء المفاوضات الاسرائيلية ــ اللبنانية بمعزل عن سوريا ومنظمة التحرير.

في الاجتماعات النادرة التي عقدتها مع الرئيس امين الجميل في بداية عهده، ابديت بعضاً من تحفظاتي على السياسة المتبعة، مع علمي المسبق بأن كلامي لن يلاقي عنده اي تجاوب، لأنني كنت مسجلاً لديه في خانة شقيقه بشير. وطرحت رأيي في ضرورة بدء مفاوضات لبنانية ــ سورية متزامنة مع المفاوضات اللبنانية ــ الاسرائيلية او قبلها. وكررت مخاوفي من ان اسرائيل ستطلب الكثير وسوريا لن تقبل بشيء، وان اميركا ستفضل دوما اسرائيل على لبنان. وسألته عن ضمانته في المفاوضات تجاه اسرائيل وتجاه سوريا فاكتفى بالقول، مشيراً إلى صورة رونالد ريغن الموضوعة إلى جانبه: «هذه هي ضمانتي».

في البداية ظهرت الضمانة في محلها. وشاركَتِ الولايات المتحدة الاميركية مباشرة، وبناء على طلب امين، في تذليل العقبات تمهيداً للمفاوضات بين لبنان واسرائيل، وقد أصرَّ الحكم اللبناني على ان يسبغ على المفاوضات الطابع العسكري، في حين أصرَّت اسرائيل على اعطائها الطابع السياسي. وتأجل افتتاح المفاوضات ما يقارب الثلاثة اشهر، في انتظار حل اشكالات المكان والمفاوض وجدول الاعمال. في الشكل، كانت تريد اسرائيل اجراء المفاوضات في القدس وعلى مستوى وزراء الخارجية وكان لبنان يرغب فيها على الحدود وعلى مستوى العسكريين. اما في الاساس، فلبنان يتمسك باتفاق الهدنة الموقع مع اسرائيل عام ١٩٤٩، وبرمجة انسحاب الجيش الاسرائيلي، في حين ان تل ابيب تجد اتفاق الهدنة لاغياً، وتطالب بتطبيع العلاقات مع لبنان من خلال معاهدة سلام. واوفد الرئيس الاميركي مبعوثين له في وقت واحد، فيليب حبيب وموريس درايبر، للدلالة على الاهمية التي يوليها لبدء المفاوضات المباشرة بين الدولتين. وضغطت واشنطن باتجاه «حل وسط» وجرى الاتفاق على بدء المفاوضات، في خلده وكريات شمونه، وعلى مستوى كبار الموظفين المدنيين والعسكريين في وزارتي الخارجية والدفاع، وبمشاركة مباشرة من واشنطن.

وبدأت المفاوضات في ٢٨ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٢ في خلده، وترأس الوفد اللبناني السفير انطوان فتال، وضمّ القاضي انطوان بارود والسفير ابراهيم خرما والعميد عباس حمدان والعقيد سعيد القعقور والعقيد منير رحيم. وترأس الوفد الاسرائيلي دافيد

كيمحي، وضمّ ايليا كيم روبنشتين والسفير شمويل ديفون واللواء ابراشا تامير والعميد مناحيم اينان والعقيد حمام آلون. وترأس الوفد الاميركي موريس درايبر، وعاونه كريستوفر روس وآلن كريزيكو الذي حلّ مكانه مايكل كوزاك فيما بعد، وبول هير والعميد اندرو كولي والعقيد باتريك كولينز الذي حلّ مكانه المقدم دافيد انطوني.

واصطدمت هذه المفاوضات خلال خمس جولات بتحديد اولويات جدول الاعمال. فتقدم الجانب الاميركي في ١٠ كانون الثاني (يناير) ١٩٨٣ بـ «جدول اعمال مركب» يتضمن من جهة مواضيع انهاء حالة الحرب، والترتيبات الامنية، واطار العلاقات المتبادلة، وبرنامج الانسحابات الكاملة والضمانات المحتملة، ويقترح من جهة ثانية تأليف لجان فرعية تبحث هذه المواضيع دفعة واحدة.

مع بدء المفاوضات، ساد جو من التفاؤل الرسمي بقدرة واشنطن على التوصل إلى اتفاق مع اسرائيل وتسويقه مع سوريا، رافقه مناخ من الشك الشعبي، بسبب اندلاع الاشتباكات بين القوات اللبنانية والحزب التقدمي الاشتراكي في الجبل، وتصاعد حملة سوريا وحلفائها اللبنانيين ضد هذه المفاوضات، واتهامهم الولايات المتحدة الاميركية بأنها تعمل على «نزع عروبة لبنان»، ورفضهم الشروط الاسرائيلية، وتصميمهم على رفض اي اتفاق يمس امن لبنان ووحدته وسيادته وامن سوريا ومصالحها.

في موازاة المفاوضات قام أمين الجميل بزيارة السعودية في ٢٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٢، واوفد إلى واشنطن وزير خارجيته ايلي سالم الذي اجتمع في ١٥ كانون الأول (ديسمبر) مع رونالد ريغان وحمّل مبعوثه الشخصي جان عبيد رسالة سلّمها إلى حافظ الاسد في ١٥ كانون الثاني (يناير) ١٩٨٣. وسرعان ما ابتدأت حرب الجبل بين القوات اللبنانية والحزب التقدمي الاشتراكي تخيم على مجرى المفاوضات. وفي الجولة الثالثة عشرة التي انعقدت في ٧ شباط (فبراير) ١٩٨٣، اثار انطوان فتال موضوع امن الجبل، بناء على طلب الرئيس اللبناني، ورأى ان جيش الاحتلال الاسرائيلي مسؤول عن سلامة المواطنين في المناطق التي يحتلها، واتهمه بعدم تطبيق اتفاقات لاهاي وجنيف. وكانت مصادر في القوات اللبنانية قد اتهمت في اليوم السابق الجيش الاسرائيلي بالانحياز إلى جانب الاشتراكيين الذين دخلوا مدينة عاليه واحرقوا بيت الكتائب فيها.

واخذت اسرائيل توظف التناقضات وتفجِّرها. الدروز يتهمون «القوات الكتائبية» كما يسمونها بالسعي إلى الهيمنة والسيطرة على الجبل. وتشك الكتائب والقوات بالموقف الاسرائيلي الذي ابتدأ يضيق عليهم ويحدّ من حرية تحركهم. وكان بشير الجميل قد جازف

في صيف ١٩٨٢ بإرسال وحدات عسكرية من الكتائب والقوات إلى الجبل وبنيته سحبها، فور تسلمه الحكم ليحل الجيش اللبناني محلها. لكن اغتيال بشير وتعثر المفاوضات مع اسرائيل حالا دون صعود الجيش اللبناني. وزاد في تفجير الاوضاع، اقدام بعض عناصر من الكتائب والقوات على ارتكاب مجموعة من التحرشات والمضايقات والاعتداءات ساهمت في توحيد كل الدروز وتعبئتهم. وكنت قد عارضت قرار بشير القاضي بإرسال وحدات عسكرية إلى الجبل، لأني اعرف مدى الحساسية الدرزية تجاه الكتائب والقوات، وحتمية حصول تجاوزات فردية تضاعف من هذه الحساسية. فلا افراد الكتائب والقوات كانوا مهيئين للتعامل مع الدروز، ولا الدروز كانوا مستعدين لتقبّل القوات...

كانت جريمة صبرا وشاتيلا، التي ادت في أيلول (سبتمبر) ١٩٨٢ إلى مقتل مئات المدنيين الفلسطينيين، تعصف بالمجتمع الاسرائيلي وتزلزل فيه بعض القناعات الراسخة وتهدد الكثير من القادة السياسيين والعسكريين، وكانت اصابع الاتهام موجهة خصوصاً إلى اريل شارون. في العادة كانت الاحزاب الاسرائيلية تختلف في السياسة وتتفق في زمن الحرب، وللمرة الأولى اختلفت القيادات الاسرائيلية بسبب لبنان حول الحرب والسياسة معا. ولجأ شارون إلى كل الوسائل، المباشرة وغير المباشرة، لابرام اتفاق سريع مع الجانب اللبناني، يشكل انتصاراً خارجياً يسمح له بلملمة وضعه الداخلي المطعون به. وكان هو وبيغن يصرّان على ان يأخذا من امين ما رفضه بشير، اي معاهدة سلام. لكن أمين كان مصمماً على ان لا يعطي اسرائيل ما لم يعطه لها بشير.

لم يكن شارون يتحمل بطء المفاوضات اللبنانية ــ الاسرائيلية وتعثرها. وكان مستعداً للعب كل اوراقه كي يخفف من الحملة الداخلية عليه. فسعى إلى اتفاق سريع مع الرئيس الجميل مباشرة، وبمعزل عن الولايات المتحدة الاميركية. اجرى اتصالا بسامي مارون، احد اصدقاء الرئيس اللبناني، وعرض عليه ورقة عمل عرفت فيما بعد بـ «ورقة شارون»، وتضمنت ترتيبات امنية منها اقامة محطات اسرائيلية للانذار المبكر داخل لبنان، ولم يعترض المفاوض الاسرائيلي لاحقاً على احتمال اقامة محطات سورية مماثلة. وكاد هذا الاتفاق ان يتطور لولا تدخل الاميركيين الذين ما ان علموا بالامر حتى اغتاظوا وهددوا الجميل بوقف وساطتهم الرسمية، والامتناع عن تقديم اي ضمانة اميركية مستقبلا. فطوى الرئيس اللبناني صفحة هذه الاتصالات التي لم يكن قد التزم بها بصورة مباشرة.

ولم يهدأ اريل شارون. فسعى للضغط على أمين عن طريق والده؛ وتوجه إلى منزل بيار الجميل في آخر كانون الثاني (يناير) ١٩٨٣، وذكّره باجتماع كانون الثاني (يناير)

١٩٨٢. قال شارون: «عندما طرحت عليكم خطورة دخول الجيش الاسرائيلي تحمستم ووافقتم واكدتم انكم معنا». فسارع بيار الجميل إلى القول: «هذا صحيح. لقد قلت لكم اننا معكم، ولكن لم اقل لكم اننا ضد العرب». ادرك شارون اختلاف الحسابات، فاغتاظ وهاج وخرج وضرب الحاجز الخشبي بين الصالون والباب الخارجي بصدره فكسره. وقال لبيار الجميل: «انزع صور بشير عن الحائط وودّع لبنان».

الجميّل: "الإرهاب السوري"

ردت سوريا باستراتيجية النفس الطويل. وبدأت تسهيل دخول طلائع «حرس الثورة» الايرانيين إلى البقاع، واعادت تسليح ميليشيا الحزب الاشتراكي بزعامة وليد جنبلاط، وكذلك ميليشيا «امل» بزعامة نبيه بري. تمكنت من الحصول على دعم سوفياتي على الصعيدين السياسي والعسكري. ونجح الرئيس الاسد في اقناع الزعيم السوفياتي يوري اندروبوف بتعويض سوريا ما فقدته في المواجهات العسكرية مع اسرائيل في لبنان. كما تمكن بصبر وجهد، وببراعة وشراسة، من النفاذ مجدداً إلى الساحة اللبنانية مستغلاً دعم موسكو له في مواجهة القوة المتعددة الجنسيات ذات الصبغة الاطلسية، ومستفيداً من التسابق الاميركي ــ الاسرائيلي وما رافقه من تجاذبات اسرائيلية داخلية.

اثر ذلك رفعت دمشق وتيرة معارضتها العلنية للمفاوضات اللبنانية ــ الاسرائيلية، رافضة مسبقاً اي نتائج يمكن ان تنجم عنها «قبل ازالة آثار العدوان». وتذكرت كلام عبد الحليم خدام، وقلت للصحافي الفرنسي مارك كرافتس الذي زارني عام ١٩٨٣ «ان سوريا لن تقبل بأي نتيجة للمفاوضات، وان كلامها حول ازالة آثار العدوان يعني عودة جيشها إلى كل المناطق اللبنانية وحتى إلى المواقع ذاتها التي انسحب منها ومهما طال الزمن». وقد صحّت توقعاتي حين عادت القوات السورية إلى الشطر الغربي من بيروت عام ١٩٨٧ وإلى بعض المناطق الشرقية عام ١٩٩٠.

وبقدر ما كانت سوريا عام ١٩٨٣ في موقف المهزوم المصمم، كانت اسرائيل في موقف المنتصر المرتبك. وفيما كانت سوريا تخرج من قاع هزيمتها كانت اسرائيل تتخبط في ذيول جريمة صبرا وشاتيلا، فتخلى شارون عن حقيبة الدفاع في ضوء نتائج تحقيقات لجنة كاهان، واستقال بيغين من رئاسة الحكومة تحت وطأة المعارضة الشعبية المطالبة بسحب الجيش الاسرائيلي من لبنان. واخذ الوقت يلعب لمصلحة سوريا وضد مصلحة الحكم اللبناني.

دمشق تتقدم دون استعجال، وتل ابيب تتراجع، وواشنطن تستمهل الامور والحلول، ولبنان يتعثر وينزف. شارون يريد الحصول على اتفاق سلام مع لبنان لينقذ مستقبله السياسي، وريغان يريد اتفاقاً يربط الحل في لبنان بالحل في الشرق الاوسط، والاسد يرفض

هذه الاتفاقات كافة. وبين اسرائيل المستعجلة وسوريا المتربصة واميركا المستهترة راح لبنان يدفع ثمن السلام الملغوم.

وبتبدل موازين القوى وتصاعد التجاذبات بدأت الالغام تنفجر. عندها اقترحتُ على قيادتي القوات اللبنانية وحزب الكتائب ان تعملا بسرعة لنشر الجيش اللبناني، منعاً لاشتعال حرب طائفية في الجبل تهدد التركيبة اللبنانية نفسها. لم تكن الكتائب والقوات اللبنانية قادرتين على الانسحاب من الجبل اذا لم يحل الجيش اللبناني مكانهما، ولم يكن الرئيس الجميل مستعداً لايجاد مخرج للقوات عن طريق ارسال الجيش. وكانت ذريعة امين ان الجيش اللبناني لا يتواجد مع الجيش الاسرائيلي. اما الواقع فهو ان امين الجميل وبعض مستشاريه كانوا يراهنون على انهاء القوات في الجبل وانهاك وليد جنبلاط عن طريق القوات بحيث يدخل الجيش اللبناني كَمُنْقِذ لا كَمَخْرَجٍ. اما قائد الجيش العماد ابراهيم طنوس فكان يطلب اعطاءه الحدّ الادنى من الوقت ليبني جيشاً مقاتلاً من اربعين الف جندي. وكان يعمل لهذا الهدف من دون حساب ومن دون كلل. وقد فاجأ الجميع في الداخل والخارج بمن فيهم الاسرائيليين والسوريين والاميركيين، بالسرعة والدقة اللتين اعاد بهما تركيب الالوية والوحدات المفككة. وقد نفح روح الشجاعة في رجاله واعاد اليهم معنوياتهم، وكان مثال الاقدام والمثابرة، فأطلق عليه زملاؤه تسمية «البولدوزر» اي الجرافة.

وراحت الفرص تضيع والصراعات تتداخل وتتعقد. وابتدأت خطوط تماس جديدة ترتسم في الجبل فتقسمه إلى اثنين: الجبل المسيحي والجبل الدرزي. وعمل الجيش الاسرائيلي على ترسيخ خطوط التماس هذه وتغذية الخلافات، وصب الزيت على النار، وتفكيك حالة التعايش التاريخية. وازدادت الخلافات بين امين الجميل والقوات اللبنانية. وفي المقابل توحدت الطائفة الدرزية حول وليد جنبلاط.

شعرت قيادة القوات ان الامور أخذت تفلت من يدها، وموازين القوى تنقلب لغير مصلحتها. وازداد حجم الهجرة المسيحية من الجبل وكأنه انذار مسبق. وكان لا بد ان تتخذ قرارا لطمأنة مسيحيي الجبل عن طريق ارسال رجل معروف بجرأته وقدرته. فاختارت سمير جعجع قائد جبهة الشمال ليتوجه إلى الجبل بانتظار صعود الجيش اللبناني. وتردد سمير في قبول المهمة، لانه كان يعرف ان المعركة خاسرة سلفاً. كنت اوافقه تقويمه لأن المعركة اصبحت مواجهة بين كل الدروز ضد بعض المسيحيين.

واتخذ سمير القرار الصعب، فصعد مع قواته إلى الجبل علّه يحوّل معركة خاسرة إلى

معركة متوازنة. وتمكّن في البداية من تثبيت مواقع القوات؛ الأمر الذي زاد من ضراوة المعارك. وكانت قيادتا الكتائب والقوات في بيروت تعتقدان ان الاتفاق الاسرائيلي — اللبناني سيؤمن حلا في الجبل، وان المطلوب من سمير هو الصمود بعض الوقت بانتظار نهاية المفاوضات الجارية.

وكنت في هذه المرحلة مستنكفا عن الادلاء بالاحاديث الصحافية لكنني تعمدت التصريح إلى مجلة «العرب» في عددها الواقع في ٢٠ شباط (فبراير) ١٩٨٣ وقلت: «لا اتصور ولا يجوز ان نعمل على تنظيم معاهدة صلح مع اسرائيل. أتصور ان نعقد اتفاقاً امنياً مرتكزاً على اتفاقية الهدنة... لانهاء حالة الحرب مع اسرائيل... ولا يريد لبنان ولا يجوز له ان يذهب وحده إلى السلام مع اسرائيل... كان لبنان اول دولة عربية اوقفت الحرب مع اسرائيل ويجب ان يكون آخر دولة توقع السلام... مسؤولية العرب كبيرة جدا... وإلّا يدفع لبنان، على الرغم منه، الثمن الاكبر».

في ٧ آذار (مارس) ١٩٨٣ التقى الرئيس اللبناني للمرة الأولى الرئيس السوري في نيودلهي حيث تعقد قمة دول عدم الانحياز. واجتمع بياسر عرفات. وصرح امين الجميل إثر هذين اللقاءين: «اننا سنتوصل إلى اتفاق مثمر لمصلحة لبنان وسوريا في نطاق علاقات اخوية جداً». لكن حافظ الاسد تساءل في كلمة القاها في المؤتمر: «ماذا يبقى من الاستقلال اذا رضخت بعد مصر بلدان كسوريا ولبنان لمطالب اسرائيل، التي تسعى لاقامة نظام امن خارج حدودها وعلى اراضي الدول المجاورة؟».

وعلا صوت الاتحاد السوفياتي متهما الولايات المتحدة الاميركية بـ «احتلال» لبنان و«تجزئته» وفرض معاهدة سلام من نوع اتفاقية كمب ديفيد عليه. اكدت موسكو انها ستعمل بكل طاقتها وبالتعاون مع اصدقائها وحلفائها في الشرق الاوسط على تنفيذ القرارات الدولية التي تقضي بانسحاب الجيش الاسرائيلي فوراً من لبنان دون قيد او شرط.

ونشط الحكم اللبناني في كل اتجاه: وفدان نيابيان لبنانيان، الاول برئاسة أمين الحافظ، رئيس وزراء سابق، والثاني برئاسة لويس أبو شرف، نائب كسروان، يجولان على معظم العواصم العربية. أمين الجميل يصل الليل بالنهار، في حركة دائمة يدير الاتصالات مع غسان تويني، منسّق المفاوضات للانسحابات الاجنبية، ووديع حداد المستشار الرئاسي لشؤون الامن القومي. ايلي سالم يجتمع مع رؤساء البعثات الدبلوماسية العربية والاجنبية المعتمدين في لبنان ليطلعهم على سير المفاوضات ويزور العديد من العواصم: دمشق،

الرياض، عمان، باريس، لندن، روما، وخصوصاً واشنطن التي استقبلته مرات عدة وفي احداها كان يرافقه صائب سلام مبعوث الرئيس الجميل الخاص.

بعد اثنتين وثلاثين جولة بقيت المفاوضات اللبنانية — الاسرائيلية تراوح مكانها، فقرر جورج شولتز، وزير الخارجية الاميركي، التوجه إلى الشرق الاوسط والتدخل المباشر لوقف دوران المفاوضات في حلقة مفرغة. وصل في ٢٦ آذار (مارس) ١٩٨٣ إلى مصر، ثم انتقل منها إلى اسرائيل وزار بيروت بعد يومين حيث شدد الجانب اللبناني على ثلاث قواعد: عدم تعريض سيادة لبنان لأي انتقاص، عدم الاساءة إلى مركز لبنان في العالم العربي، عدم منح اسرائيل ولا سوريا ولا منظمة التحرير الفلسطينية اي وجود دائم في لبنان. وقام الوزير الاميركي بوساطة مكوكية بين بيروت وتل ابيب وانتقل مرات عدة بين العاصمتين ما بين ٢٧ آذار (مارس) و٦ أيار (مايو) ١٩٨٣، توصل خلالها إلى اتفاق بين الجانبين. وفي ٧ أيار (مايو) اجتمع شولتز للمرّة الاولى بالاسد الذي ابلغه ان دمشق لا توافق على ما يمس باستقلال لبنان ومصالحه، وامن سوريا ومصالحها وتالياً امن الامة العربية ومصالحها. ووصف الرئيس السوري الاتفاق اللبناني — الاسرائيلي بـ «اتفاق الاذعان». وايّدت ايران الموقف السوري ضد ما اطلق عليه تسمية «مشروع شولتز».

وتسارعت القرارات: في ١٣ أيار (مايو) عقدت الجولة الرابعة والثلاثون من المفاوضات اللبنانية — الاسرائيلية وتم الاتفاق على النص النهائي. في ١٤ منه وافق مجلس الوزراء في جلسة استثنائية على المشروع. في اليوم التالي اطّلع مجلس النواب في جلسة سرية على النص النهائي وجدد دعمه للحكم باجماع ثمانين نائباً، وصادق الكنيست الاسرائيلي على المشروع بأكثرية كبيرة. وفي ١٧ أيار (مايو) وقّع رؤساء وفود كل من لبنان واسرائيل والولايات المتحدة على الاتفاق في خلده وكريات شمونه باللغات الاربع: الانكليزية والفرنسية والعربية والعبرية.

فور الاعلان عن الاتفاق، دعا الرئيس اللبناني جورج شولتز للعودة إلى الشرق الاوسط ليقنع سوريا بالانسحاب من لبنان، خصوصا وان اسرائيل اصرت في اللحظة الاخيرة من المفاوضات على ربط انسحابها من لبنان بانسحاب الجيش السوري منه. وكانت الحكومة الاسرائيلية قد تبادلت مع الحكومة الاميركية رسالة جانبية، أكدت فيها تل أبيب ان جيشها لن ينسحب من لبنان اذا لم ينسحب الجيش السوري. كما اشترطت قبل الانسحاب ان تحصل على معلومات حول الجنود الاسرائيليين المفقودين وإعادة اسرى الحرب. بهذا الموقف زرعت تل أبيب لغماً في اتفاق ١٧ أيار، واعطت دمشق حق نقض هذا الاتفاق او على

الاقل امكانية جعله غير قابل للتنفيذ. والتقطت دمشق الفرصة السانحة واعلنت ان «اتفاق الاذعان» لن «تكتب له الحياة». ولم تنقض سوريا الاتفاق اللبناني ــ الاسرائيلي وحسب، بل كل السياسة الاميركية في لبنان أيضاً. وظهر السلام الاسرائيلي ملغوما.

تدهورت الاوضاع الامنية والعسكرية بعد التوقيع على الاتفاق. وانفجرت اشتباكات عنيفة في الجبل، وامتدّ القصف السوري بشكل مفاجيء إلى بيروت وكسروان والمتنين. وسبق الانفجار ورافقه قيام حافظ الاسد بزيارة السعودية، ثم بزيارة ليبيا، حيث اتفق مع معمر القذافي على ضرورة مواجهة اتفاق ١٧ أيار وتقويضه، ومساعدة لبنان على تحرير ارضه بكل الوسائل. وأكد الرئيس السوري، في ٥ حزيران (يونيو) ١٩٨٣، ان العرب الذين رفضوا اتفاق كمب ديفيد لا يمكنهم الا ان يرفضوا اتفاق الاذعان في شأن لبنان، لأنه يشكل خطراً لا يحتمل على امن العرب ومصالحهم. وأعلن الزعيم الايراني آية الله الخميني ان الاتفاق اللبناني ــ الاسرائيلي يعزز النفوذ الاميركي في المنطقة، ويفرض اسرائيل على لبنان المسلم وعلى بلدان اسلامية اخرى.

في المقابل أكد مناحيم بيغين في تصريح ادلى به في ٣ حزيران (يونيو) ١٩٨٣، انه يرفض سحب القوات الاسرائيلية من جانب واحد. وقال نائبه يهودا بن مئير ان اسرائيل لا تنوي ابداً اللجوء إلى القوة ضد سوريا لاجبارها على سحب قواتها من لبنان. ونقل في ٩ حزيران (يونيو)، عن مسؤول اسرائيلي قوله ان بلاده لا تعترض على ترتيبات امنية في البقاع اللبناني بين بيروت ودمشق تكون ثمناً لانسحاب القوات السورية من لبنان.

وابتدأ لبنان يدفع الثمن الاكبر. وراح الفلسطينيون يدفعون الثمن الباقي. وقد شهدت منطقة البقاع في حزيران (يونيو) حركة تمرد داخل منظمة «فتح» بين الموالين لياسر عرفات وآخرين منشقين عنه بقيادة «أبو موسى» تدعمهم سوريا. وأدّت الاشتباكات إلى سيطرة المنشقين على كل المواقع الفلسطينية في البقاع. وفي ٢٤ حزيران (يونيو) طردت دمشق ياسر عرفات ونائبه خليل الوزير، أبو جهاد، ومنعتهما من «التردد» إلى سوريا والمناطق اللبنانية الواقعة تحت النفوذ السوري. وغادر ابو عمار إلى تونس حيث حذّر من «مجزرة جديدة ينوي الجيش السوري ارتكابها ضد الشعب الفلسطيني»، واتهم لاحقاً الرئيس السوري انه اتفق مع شولتز على اخراج القوات الفلسطينية من البقاع. وبدأت القطيعة المريرة التي لا تنتهي بين حافظ الاسد وياسر عرفات.

وتزامن ضرب منظمة التحرير الفلسطينية في البقاع مع تجدد القصف السوري على مناطق القوات اللبنانية في الجبل وفي الشرقية بشكل عنيف. وبدت واشنطن تعيد حساباتها

عندما صرّح جورج شولتز في ٢٩ حزيران (يونيو)، ان سيطرة سوريا على منظمة التحرير الفلسطينية يمكن ان تسهّل انسحاب القوات الاجنبية من لبنان. وفهمت دمشق الرسالة وشدّت على خناق امين الجميل.

وصل شولتز إلى السعودية في ٤ تموز (يوليو)، وانتقل في اليوم التالي إلى بيروت ومنها إلى دمشق، حيث أكد في نهاية اجتماعه بالاسد انه لم يتوصل إلى اي اتفاق، وانه ستشكل لجنة عمل اميركية ــ سورية لمواصلة الحوار. وأكد الاسد بشكل قاطع انه يرفض الاتفاق وان قراره نهائي وغير قابل للتعديل ولا رجوع عنه. ولم يكلّف الوزير الاميركي نفسه عناء العودة إلى بيروت، واكتفى بايفاد فيليب حبيب ليطلع امين الجميل على نتائج اجتماعاته الفاشلة، في حين توجه هو إلى اسرائيل والاردن ومصر، واعداً انه سيعود عاجلا ام آجلا. والواقع انه لن يعود إلا بعد خمس سنوات في نهاية عهد امين الجميل.

وكان على أمين ان يذهب إلى واشنطن التي وصلها برفقة رئيس الحكومة شفيق الوزان، في ١٩ تموز (يوليو) ١٩٨٣، علّه يقدر ان يحمي الحكم اللبناني من انقلاب المعادلات ومن المصير الاسوَد للبنان، في ضوء السلام الاسرائيلي الملغوم، والتراجع الاميركي المنظور، والتشدد السوري المتصاعد.

عند بدء اجتماع امين الجميل وشفيق الوزان بالمسؤولين الاميركيين تعرضت المناطق الشرقية لقصف عشوائي من مدفعية الجيش السوري وحلفائه اللبنانيين. واغتاظ امين الجميل وتكلم على «الارهاب السوري» وقال: «اذا لم يتوقفوا فان القنابل ستعود إلى دمشق نفسها».

وجاء الرد السوري حاسماً. قصف مدمّر، ألهب مناطق الشوف وعاليه، والمتنين الجنوبي والشمالي، وكسروان ساحلاً وجبلاً، وبيروت الشرقية، ومطار بيروت الدولي، مما ادى إلى سقوط ما يقارب العشرين قتيلاً واكثر من خمسين جريحاً. ومن ناحية اخرى أُطلق سراح الاميركي، ديفيد دودج الرئيس السابق للجامعة الاميركية في بيروت، الذي كان قد خطف منذ سنة، مما حمل البيت الابيض على اصدار بيان يشكر فيه «الجهود الانسانية» التي بذلها الرئيس السوري حافظ الاسد وشقيقه رفعت.

وفي ظلّ هذه المناخات، عاد امين الجميل وشفيق الوزان من واشنطن خائبين. واقرّ مجلس الوزراء الاسرائيلي انسحاباً جزئياً للجيش الاسرائيلي من لبنان. وصرح اسحق شامير، وزير الخارجية الاسرائيلية، اثناء زيارته واشنطن في نهاية حزيران (يونيو)، «هذا هو قرارنا، والاميركيون لا يعارضون ولا يتدخلون في هذه المسألة». واكد وزير الدفاع الاسرائيلي،

موشي ارينز، في بداية آب (اغسطس)، ان لا تغيير في برنامج الانسحاب الاسرائيلي. وحذّر من «ان اسرائيل لن تكون مسؤولة عما يجري في منطقة الشوف بعد انسحاب قواتها منها». انها دعوة لانفجار حرب الجبل ولامساك سوريا بالورقة اللبنانية.

وبدأت الحكومة الاسرائيلية سياسة الارض المحروقة، واعتمد الحكم السوري سياسة الهجمات الموجعة، وبدا اكيداً ان لدى سوريا «سياسة لبنانية». ولدى اسرائيل «سياسة لبنانية»، اما الولايات المتحدة فلا «سياسة لبنانية» لديها. والضمانة الاميركية التي يتكل عليها الجميل صارت وهماً وسراباً.

ولمس المعنيون اللبنانيون مدى غياب الاهتمام الاميركي بلبنان عندما قررت الحكومة الاسرائيلية تنفيذ المرحلة الاولى من سحب جيشها من الجبل. وكان امين الجميل قد طلب بالحاح من واشنطن العمل على تعديل القرار الاسرائيلي، او على الاقل تأجيل تنفيذه فترة ليتسنى تجهيز قوة من الجيش اللبناني تحل محل الجيش الاسرائيلي. وكُلِّف بهذه المهمة روبرت ماكفرلين، مبعوث الرئيس الاميركي الخاص الذي سيرقّى لاحقاً إلى مرتبة مستشار الامن القومي في البيت الابيض. وجاءت النتيجة مضحكة.

رفضت اسرائيل بشكل قاطع تعديل القرار، ولم توافق على تأجيل الانسحاب الا ما يقارب الاسبوع. ولم تقبل، على الرغم من المراجعات الاميركية المكررة، مبدأ التنسيق مع الجيش اللبناني ليحل محل الجيش الاسرائيلي، بحجة ان الحكم اللبناني لم يبرم اتفاق ١٧ أيار بعد، ولم تسمح بصعود مجموعة صغيرة من الضباط اللبنانيين بقيادة ميشال عون في مهمة استطلاعية. فقد حرص الاسرائيليون على تحريض الاهالي لنصب كمين نجا منه ميشال عون باعجوبة. كان هذا الكمين رسالة اسرائيلية موجهة إلى المساعي الاميركية أكدت تل ابيب فيها معارضتها انتشار الجيش اللبناني في الجبل ولو بعد انسحاب الجيش الاسرائيلي منه. ولم تغضب واشنطن، وتم الانسحاب الاسرائيلي الاول وفق الخطة المرسومة له اصلا لجهة الوقت والشكل والطريقة بفارق اسبوع. ان السياسة الاميركية في لبنان تخيب آمال اكثر الناس تفاؤلا وثقة بواشنطن، ومراهنة اللبنانيين على الولايات المتحدة فيها كثير من السذاجة وخداع الذات.

واغتنم وليد جنبلاط، بمعاونة المنشقين الفلسطينيين، وبدعم مدفعي سوري، فرصة انسحاب الجيش الاسرائيلي من الجبل كي يشن في اوائل أيلول (سبتمبر) ١٩٨٣ هجوماً كاسحاً على وحدات الكتائب والقوات. وقاوم سمير جعجع ورفاقه الهجوم بضراوةٍ أياماً

عدّة ثم اضطروا إلى الانكفاء مع من تبقى من الاهالي. واقترف المهاجمون مذابح اودت بحياة المئات من المدنيين. ولم تحرك اسرائيل ساكناً.

واستمرت المعارك بين الجيش اللبناني والقوات الدرزية والفلسطينية والسورية ما يقارب العشرين يوما، وتوقف الهجوم الدرزي على ابواب سوق الغرب، بعد ان تدخلت البوارج الاميركية وقصفت مواقع المهاجمين. وبذلت السعودية، عن طريق موفديها بندر بن سلطان ورفيق الحريري، الجهود المكثفة لانجاح وساطتها التي تتضمن الدعوة إلى وقف اطلاق النار، وعقد مؤتمر للحوار الوطني لحل المشاكل المتنازع حولها.

قبع سمير مع اهالي الجبل الذين نجوا من جحيم المعارك محاصرين في مدينة دير القمر. ونظّم سمير ورفاقه الدفاع عن المدينة واشرفوا على ادارة حياة الرجال والنساء والاطفال والشيوخ. كانت الذخيرة متوفرة بحدها الادنى لكن المواد الاولية من خبز وحليب وادوية اقل وفرة. وسيطر على الاهالي هاجسان: هاجس اقتحام الدروز المدينة من الخارج، وهاجس نفاد المواد الغذائية في الداخل. وبدأت مفاوضات معقدة وطويلة لانهاء الحصار.

عرضت اسرائيل ارسال طائرة هليكوبتر لاخراج سمير فرفض. وعرضت الحكومة اللبنانية ارسال قوى من الجيش او الامن الداخلي لاخراج المحاصرين، فرفض وليد جنبلاط واشترط تسليم سلاح الكتائب والقوات لترك المدنيين ينتقلون إلى بيروت. قمنا باتصالات مع البطريرك الماروني والسفير البابوي ادت إلى ارسال مواد غذائية إلى دير القمر بمواكبة السفير الايطالي، ولم تسفر عن حل لمشكلة المحاصرين.

بعد فشل كل المساعي الديبلوماسية والسياسية، ابتدأ سمير يحاول ترك دير القمر بطريقته الخاصة ومن دون ان يتكل على احد. وكنت متأكداً من انه في حال تمكن من الخروج، فستأخذ المسألة طريقها إلى الحل بالنسبة إلى المدنيين، لأن الحصار بات يستهدفه اكثر مما يستهدفهم. وقرر فؤاد ابو ناضر، رئيس هيئة الاركان في القوات اللبنانية، الصعود إلى دير القمر، واتفق مع سمير على ان يخرج الثاني من البلدة المحاصرة، ولو لفترة مؤقتة، يتولى ابو ناضر خلالها القيادة بدلا منه.

مرة جديدة كان على سمير ان يأخذ قراراً صعباً فاتخذه. وضع خطة تقضي بانتقاله سيراً على الاقدام إلى بيروت ليلاً، وعبر خطوط الحزب التقدمي الاشتراكي. كان الليل بالغ القساوة وطويلاً. يأس وانهيارات. عذابات المحاصرين وعذابات المنتظرين. حفنة صغيرة جداً كانت تعرف ان سمير سيمشي في هذا الليل في رحلة محفوفة بالاخطار، وان الطريق

التي سيسلكها لا تبعد في بعض الاحيان اكثر من خمسين مترا عن حواجز الاشتراكيين. انتظر سمير افول القمر. حمل بندقيته، ورافقته مجموعة صغيرة، وبدأ مشواره. اقدار كثيرة كانت تكتب في تلك الليلة المفتوحة على كل المخاطر والمفاجآت. وفيما كان سمير يمر على مسافة قصيرة قرب احد الحواجز الاشتراكية، تحركت عناصر منه في دورية مفاجئة مرّت على مسافة قريبة جدا، اذ كان سمير ومجموعته تحت حافة الطريق التي عبرتها الدورية.

في ليلة الاقدار الصعبة كنت افكر كمن يكافح الوقت. لا قرار الذهاب كان سهلاً ولا قرار الرجوع. وشعرت بأن زلزال الجبل لن يمر ببساطة وانه سينجب المزيد من الزلازل. وفجأة دخل سمير باب منزلي في الاشرفية. كان يرغب في امرين: تناول طبخة دافئة وتدخين سيجار. كان قد اطلق لحيته وفي عينيه مزيج من الغضب والتصميم، وفوقهما هدوء المحاربين الاشداء. واول ما قال لي: «ان تجربتي في دير القمر جعلتني اقتنع بالثورة على كل شيء». عندها لم اتمالك عن ملاحظة الشبه بين بشير وسمير. كان الاول قوة هادرة والثاني قوة هادئة. رجع سمير من حرب الجبل، وفي تلك الليلة بدأ عصر الانتفاضات.

ما ان شاع خبر خروج سمير من دير القمر حتى انحلّت العقدة، وجرى اتفاق عن طريق الصليب الاحمر الدولي، يقضي بإجلاء كل الاهالي من البلدة المحاصرة. ومع الاجلاء التام، في اواخر عام ١٩٨٣، غاب الشق المسيحي من الجبل وصار درزيا. وغابت تجربة التعايش الدرزي — الماروني.

سقط الجبل مسيحيا وسقط معه النموذج التاريخي في التعايش اللبناني. ولئن اقترفت بعض العناصر في الكتائب والقوات الثأر بحق الدروز، فقد عالج الحزب التقدمي الاشتراكي الخطأ بالخطأ فمارس قاعدة الثأر بالاضافة إلى التهجير. ان مذابح المسيحيين احيت في ذاكرتهم الجماعية مجازر الدروز في القرن التاسع عشر وخصوصاً في عامي ١٨٤٠ و١٨٦٠.

حين «يعطس» الجبل يصاب لبنان بالزكام. ان علاقة الجبل بلبنان هي علاقة الجرح بالالم. عندما يُجرح الجبل يتألم لبنان وتهتز طائفتان تاريخيتان فيه هما: المارونية والدرزية. ما انقسم الجبل مرة في تاريخنا المعاصر وبقي لبنان موحداً، ولا توحّد الجبل مرّة وبقي لبنان مقسماً. ويعلمنا التاريخ ان الزعامات المارونية والدرزية تبادلت الادوار حيناً، وتقاتلت عليها احياناً اخرى. ففي كل مرة برزت زعامة درزية فذّة وقابلها تراجع ماروني، كما حصل في زمن الامارة في القرن السابع عشر، التحق الموارنة بالقيادة الدرزية التي حمتهم وحافظت على حقوقهم ودورهم. وفي كل مرة ظهرت زعامة مارونية فاعلة رافقها ضمور درزي،

كما حصل في زمن بشارة الخوري واميل اده في بداية القرن العشرين، التحق الدروز بالقيادة المارونية التي رعتهم وضمنت لهم حقوقهم ودورهم. واذا صادف تزامن زعامتين قويتين مارونية ودرزية فانهما تتحكمان بمسار الاحداث، كما حصل ايام كميل شمعون وكمال جنبلاط. فعندما تحالفا وحّدا لبنان خلفهما، واسقطا في مطلع الخمسينات بشارة الخوري، رجل الاستقلال المظفر. وعندما تخاصما اضطرب لبنان والتحقت الاكثرية المارونية مع قلة درزية بكميل شمعون، والاكثرية الدرزية مع قلة مسيحية بكمال جنبلاط، ووقعت احداث ١٩٥٨. علاقة الموارنة والدروز علاقة جدلية لا مثيل لها بين الطوائف الاخرى.

عام ١٩٨٣ كان سقوط الجبل بداية صعود نجم وليد جنبلاط. هذا «الاقطاعي» بالوراثة هو سليل اسرة مليء تاريخها بالامجاد والمآسي معا. تداخل تاريخ الجنبلاطيين وتاريخ جبل لبنان ليؤلفا قصة لا تنفصم. لقد ترك اسلافه بصماتهم على صفحات الزمن لكنهم انتهوا مقتولين او مغلوبين. عقدة المأساة الكبيرة ترافقه.

خلف وليد جنبلاط اباه عام ١٩٧٧، وهو دون الثلاثين من العمر، في زعامة الطائفة الدرزية واليسار اللبناني. وبدا متردداً ومتقلباً: لا يثق باصدقائه ويجهل نيات اعدائه. لكن سرعان ما اخذ يمهر السياسة اللبنانية بطابعه الخاص. عرف كيف ينحني عام ١٩٨٢ امام العاصفة الاسرائيلية التي اجتاحت الجبل ولم يستسلم. وعرف كيف ينبري عام ١٩٨٣ مع المد السوري، فبسط نفوذه على الجبل إلى حد لم يبلغه كمال جنبلاط في اوجه، واصبح الزعيم الاوحد في طائفته والاقوى في لبنان. انه السياسي الوحيد الذي استطاع في هذه الحرب ان يرث والده ويحافظ على التركة والوصية ويثمنهما.

الكثرة الساحقة من اللبنانين تجهل شخصية وليد ولا تدرك كنه سياسته. انه رجل يحب الحياة والمرح والمال وقيادة السيارات. ولو لم يكن ابن السلالة الجنبلاطية لكان «بوهيميا» يسيح في العالم ويمرح مع المراهقين. وهو في الوقت ذاته رمز جيل الحرب الحائر؛ يفتش عن ذاته وعن المستقبل، فيصطدم بالاخرين وبأثقال الماضي. يحلم بوطن مثالي فلا يجد الا الوطن الضائع. انه يعيش حلم «القوي العادل» الذي يحمي حقه وحق الضعفاء ولطالما طالب بـ «حكم الاقوياء» و«سلام الفقراء».

يحب النكتة ويتقنها، والكلمة عنده لاذعة كالسهم تصيب الهدف والمقتل. يتكلم بطلاقة وهو مولع بالثقافة والسفر. يتخذ من التاريخ الدرزي لغة تخاطب وتواصل مع طائفته والعالم. يطمح إلى التجديد والخروج عن المألوف والمتعارف عليه. ويشدّه التطرف حينا

إلى الرد على الخطأ بخطأ اكبر منه واخطر؛ فيعتمد منطق الثأر، ويسقط اسير نوبات التعصب التي تخرجه عن الثوابت والتوازنات.

تضجره السياسة الباهتة ويملّ الروتين اليومي. انه من الندرة القادرة على الحركة والتحريك. خطوة منه، ويتبدل الكثير من التوجهات التي كانت تظهر لوهلة وكأنها من الثوابت. وخطاب يلقيه يخض الوسط السياسي، ويخلف وراءه ردودا تعكر مستنقعات السياسة الهامدة. انه «الاوكسيجين اللبناني» الضروري لاستمرار زخم السياسة خصوصا في زمن الركود والجمود.

يخطىء الذين لا يرون في سياسة وليد الاّ مجرد تقلبات مزاجية فيستخفون بطروحاته ونقلاته. لقد استوعب، وبسرعة كبيرة، زعامة كمال جنبلاط، فأمسك بالطائفة والحزب والمنطقة. كما ادرك، قبل غيره، معنى اجتياح اسرائيل للبنان وخلفيات انسحابها المفاجىء منه. ووعى بعمق ماهية دخول سوريا إلى لبنان وبقائها فيه منذ عام ١٩٧٦. عرف كيف يستفيد من التقلبات السياسية والثوابت الجغرافية. تعاطى بحنكة مع التجاذب الاقليمي واعاد ترميم الزعامة الجنبلاطية، ولو بوسائل مستهجنة كالعنف والاكراه والتهجير. ولم يتردد في الاستعانة بالقوى الاجنبية. انه منطق الحرب. هكذا اقتطع «الشوف الكبير» كأن الامارة الدرزية انبثقت من جديد.

كان لبنان الكبير ينهار، وكان وليد جنبلاط يبني «الشوف الكبير» الذي يتحكم بباقي لبنان. فالشوف هو المفصل بين الطوائف والمناطق، وخط التماس بين التوازنات والانفجارات. من يحكم «الشوف الكبير» يهيىء ذاته لحكم لبنان الكبير. وقد تنبه وليد إلى مجموعة اخطاء اقترفها، فراح في المرحلة الاخيرة يصحح المسار تجاه المسيحيين بشكل خاص، وينمّي الكيانية اللبنانية في الروح الدرزية، ويعمّق البعد العربي في خياراته الوطنية. في البداية ظهر وليد وكأنه مشكلة وسرعان ما تحول جزءاً من الحل. انه الماضي الذي اصبح مستقبلاً، انه العقدة والحل معاً.

كيسنجر أو عبقرية الخداع

تمنيت لو يتخذ امين الجميل قراراً فورياً بالغاء اتفاقية ١٧ أيار ردّاً على سقوط الجبل، فيحمّل تل ابيب وواشنطن تبعات الفاجعة. وبنظري ان اسرائيل والولايات المتحدة الاميركية مسؤولتان عن هذه الكارثة المسيحية واللبنانية. ومما لا شك فيه ان اسرائيل كانت تستطيع، لو ارادت، ان تحول دون هجوم الدروز وتهجير المسيحيين، فتوقف الاشتباكات في ظلّ جيشها، وتمنع الاقتتال بعد انسحابه. لو وجّه الجيش الاسرائيلي مجرد انذار جدي إلى الاطراف بعدم اطلاق النار لما تجرأ احد على القتال. لو نسَّق الجيش الاسرائيلي انسحابه مع الجيش اللبناني، او على اقل تقدير مع القوات اللبنانية، لما وقعت الكارثة. اكثر من ذلك، اني اتهم اسرائيل بانها تعمدت اشعال حرب الجبل واسقاط المسيحيين والكتائب والقوات للضغط على الدولة وامين الجميل الذي رفض ابرام اتفاق ١٧ أيار. كما اني مقتنع كل الاقتناع ان واشنطن لم تلتزم بالوعود التي قدمتها للحكم اللبناني، ولم تبذل الجهد اللازم لتأخير انسحاب الجيش الاسرائيلي، او على الاقل لتنظيم هذا الانسحاب مع الجيش اللبناني، ولم تول الوضع اللبناني الاهتمام الضروري، وقد انصب اهتمامها على مراعاة مصالحها ومصالح اسرائيل، وحتى مصالح سوريا على حساب مصلحة لبنان والمسيحيين فيه. اني احمِّل الولايات المتحدة الاميركية القسط الاوفر من مآسي حرب لبنان وسقوط الجبل.

هذا الكلام لا يعفي اللبنانيين، مسلمين ومسيحيين، من مسؤوليتهم، بل هو موجه في الاصل اليهم. على المسيحيين بصورة خاصة ان يتذكروا دوما ان اميركا تخيب آمال المعتمدين عليها، وان اسرائيل تؤذيهم في كل مداخلاتها. علينا ان نعي بدقة ووضوح اهداف السياساتين الاميركية والاسرائيلية في لبنان والشرق الاوسط.

تحرص الولايات المتحدة الاميركية في الشرق الاوسط على عاملين اثنين دون سواهما: اسرائيل والنفط، وكل ما تبقى متفرع عنهما او نتيجة لهما. ولبنان لا يملك نفطاً ولا يشكل تهديداً لاسرائيل.

ويتسم الموقف الاميركي حيال الازمة اللبنانية بالازدواجية: تعلن واشنطن غير ما تضمر وتفعل عكس ما تقول. تتمسك الادارة الاميركية في خطابها السياسي بوحدة لبنان واستقلاله وسيادته وسلامة اراضيه، وسحب كل الجيوش الاجنبية منه، وحل الميليشيات، واقامة سلطة مركزية قوية فيه، وعدم التخلي عنه، وعدم السماح بحل مشاكل المنطقة على حسابه. أمّا في الواقع الميداني فتعمل السياسة الاميركية على تقسيم لبنان بين اسرائيل وسوريا وتوطين الفلسطينيين فيه، او في احسن الاحوال على تعليق مصيره إلى حين حل ازمة الشرق الاوسط على حسابه.

وتبنت الادارات الاميركية المتعاقبة منذ منتصف السبعينات، بوحي من عبقرية الخداع التي تميزت بها سياسة هنري كيسنجر تجاه لبنان، خطة تقضي بحل المشكلة الفلسطينية على حسابه بدلاً من حلها في الضفة وغزة او في الاردن. وقد تكوّن في المرحلة الكيسنجرية تيار خفي صنّف دول الشرق الاوسط نوعين: دولاً دائمة، وجودها ضروري، ودولاً مؤقتة، يمكن الاستغناء عنها. ورأى في لبنان دولة غير مكتملة المقومات: حدوده الجغرافية مصطنعة، وتركيبته السياسية هشة وغير قابلة للحياة. ولم يتردد بعض صانعي القرار الاميركي في طرح لبنان كأحـد الحلول الممكنة للمشكلة الفلسطينية ولأزمة الشرق الاوسط، على اساس ان اسرائيل ترفض التخلي عن الضفة وغزة، لاسباب ايديولوجية واستراتيجية، والملك حسين اظهر كفاءة عالية في ضبط المنظمات الفلسطينية المسلحة وفي التعاطي المرن مع اسرائيل والدول العربية. في المقابل رأت المدرسة الكيسنجرية ان الفلسطينيين يقيمون فعلا في لبنان، وقد انشأوا فيه مؤسساتهم العسكرية والسياسية والاعلامية والمالية، وان المسلمين اللبنانيين يرحبون بهم ويرون فيهم عونا لهم في مواجهة الحكم الماروني. وهكذا ارتسم امام العقل الاميركي ان الحل الامثل والاكثر واقعية ينطلق من توطين الفلسطينيين في لبنان، مما يرضي اسرائيل ولا يخرب الاردن، ويريح العرب، ولو ادى إلى تقسيم لبنان او تفكيكه.

زار هنري كيسنجر لبنان مرة واحدة في ١٦ كانون الاول (ديسمبر)١٩٧٣ اثناء قيامه بمهمته المكوكية بين مصر وسوريا واسرائيل عقب حرب تشرين (اكتوبر) ١٩٧٣. وحفاظا على أمن الزائر استقبله رئيس الجمهورية سليمان فرنجية في مطار رياق العسكري في البقاع، بدلا من مطار بيروت الدولي الملاصق للمخيمات الفلسطينية. وجاء تعليق وزير الخارجية الاميركية فظاً، اذ قال لاحد مرافقيه: «ما هذه الدولة التي لا يقدر رئيسها ان يستقبلني في عاصمته؟» وربما في تلك اللحظة اندلعت شرارة الحرب اللبنانية في الذهن

الاميركي، خصوصاً ان كيسنجر يتقن فن حل المشاكل «على الحامي» وليس «على البارد».

ولم يستمع الرئيس فرنجيه لاحقاً إلى النصيحة الاميركية في عدم التوجه إلى الامم المتحدة، ممثلا الملوك والرؤساء العرب، ومدافعاً عن القضية الفلسطينية، بمناسبة القاء ياسر عرفات اول خطاب له من على منصة الامم المتحدة. وطالب فرنجية في كلمته اقامة دولة فلسطينية على ارض فلسطين. وأُهين الرئيس اللبناني عند وصوله إلى نيويورك، فاقدم رجال الامن الاميركيون على تفتيش حقائبه وحقائب الوفد المرافق له بحجة انها تحتوي على كمية من المخدرات. وفي مناخ من القطيعة بين لبنان والولايات المتحدة الاميركية انتقلت شرارة الحرب عام ١٩٧٥ من الذهن الاميركي إلى الارض اللبنانية.

وافقدت الحرب لبنان حضوره، وكانت واشنطن تتعامل على الدوام مع لبنان على انه «وظيفة» اكثر منه «وطنا». وظيفة لبنان من المنظور الاميركي ان يكون الدولة العازلة بين سوريا واسرائيل، ومركز التبادل التجاري والمالي بعد تطبيق المقاطعة العربية ــ الاسرائيلية، ونقطة انطلاق الثقافة الغربية في الشرق، ونموذج التلاقي بين الاسلام والمسيحية. وبدّلت الحرب المعطيات. اصبح لبنان دولة مواجهة بين سوريا واسرائيل، وملجأ الحركات الاصولية والفلسطينية واليسارية، وتراجع دوره المالي والاقتصادي. واضحى عديم الجدوى بحد ذاته، وضرورة لحل مشاكل الاخرين فيه فقط.

ما هرول الاميركيون مرة إلى لبنان الا عندما كانت اسرائيل معنية سلباً او ايجاباً. مكث فيليب حبيب كموفد شخصي عن الرئيس الاميركي مدة سنتين، لتسوية النزاع بين اسرائيل وسوريا في البقاع، في ما عرف بـ «أزمة صواريخ سام»، ولوقف اطلاق النار بين اسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية عام ١٩٨١، ولارسال المارينز والقوات المتعددة الجنسيات لاخراج المنظمات الفلسطينية والجيش السوري عام ١٩٨٢. وبلغ الاهتمام الاميركي ذروته عندما لاحت امكانية عقد اتفاق بين لبنان واسرائيل عام ١٩٨٣ وتابع روبرت ماكفرلين، الذي حلّ محل فيليب حبيب، المفاوضات اللبنانية ــ الاسرائيلية بصورة تفصيلية وتدخل جورج شولتز مرات عدة لانجاحها. وتقلّص الاهتمام الاميركي فور الغاء اتفاق ١٧ أيار، فقرر البيت الابيض سحب المارينز من لبنان عام ١٩٨٤، مع علمه المسبق انه يلحق باميركا هزيمة نكراء لمصلحة سوريا، وان الرهان اللبناني على واشنطن سيتحول إلى كارثة.

رافقتُ الازمة اللبنانية المفتوحة منذ عشرين سنة، وما لمستُ مرة ان واشنطن تملك تصوراً اميركياً لحل الازمة اللبنانية، او تجهد للعثور على مثل هذا التصور. تنقل تصورا

سورياً او مصرياً او سعودياً حيناً ولا تغفل التصور الاسرائيلي في كل حين، لكنها لم تحمل مرة واحدة تصوراً اميركياً خاصاً بلبنان. واذكر ان الرئيس اللبناني الياس سركيس، المعروف بتأييده لاميركا والمشهود له بطول الصبر، ضاق ذرعاً بسياسة الدولة العظمى التي لا تهتم الا بحل مشاكل غير اللبنانيين في لبنان، وقال لفيليب حبيب في احد لقاآتهما في ٢٢ تموز (يوليو) ١٩٨١: «انصحك ان لا تعود مجدداً إلى لبنان، ان لم تكن تحمل خطة حل للازمة اللبنانية... لبنان يتعذب منذ سنوات وانتم تتفرجون عليه... لا تكاد تقع حادثة بسيطة تعني اسرائيل حتى تسرعون ولا تغادرون المنطقة قبل حلها. اما اذا كان الامر يتعلق بالمسألة اللبنانية، فانكم تكتفون بتوجيه رسالة او نشر بلاغ في الصحف».

هذا الكلام وغيره لا يؤثر في الادارة الاميركية، التي لا ترى مصلحة حيوية لها في لبنان او منافساً حقيقياً في الحل. لا احد من اللبنانيين يزعجها. كل اللبنانيين من اقصى اليمين إلى اقصى اليسار «اميركيون» بالطبع أو بالتطبع. ولا لوبي لبناني يضغط على صانعي القرار او يؤثر في الانتخابات الاميركية.

وتتطابق المصالح بين اميركا واسرائيل في الشرق الاوسط بصورة علنية ودائمة، وتتلاقى المصالح بين اميركا وسوريا في لبنان احياناً، وبصورة غير مستقرة، وفي جو من الحذر المتبادل. وقد وفّر تقاطع المصالح لواشنطن الفرصة لتدير منذ عام ١٩٧٦ لعبة شديدة التعقيد عرفت بـ «الخطوط الحمر» وهي آخر افرازات عقل كيسنجر الجهنمي.

اتفاقية «الخطوط الحمر»، في الشكل، غير مكتوبة وغير معترف بها رسمياً، ودمشق تنكر وجودها، لكن الاطراف المعنيين يعملون بوحيها. واهميتها انها قلبت في الاساس الموقف الاسرائيلي رأساً على عقب. ففي حين كانت اسرائيل ترى في دخول الجيش السوري إلى لبنان تهديدا مباشرا لامنها، اقنعها كيسنجر بضرورة الموافقة على هذا الدخول. ودافع عن وجهة نظره من الناحيتين العسكرية والسياسية. عسكرياً، انتشار الجيش السوري في لبنان يخفف ميدانيا من قدراته في الجولان. اما سياسيا، فان هذا الدخول يورط دمشق في الازمة اللبنانية المعقدة، ويلهيها عن شؤون المنطقة ويحمّلها مسؤولية المنظمات الفلسطينية وحلفائها اللبنانيين. فتضطر وهي، الدولة الصديقة لموسكو، ان تضرب الفلسطينيين خوفاً من غزو اسرائيلي، وان تضبط التحالف اليساري ــ الاسلامي المؤيد للعمل الفدائي. وقد دفع كمال جنبلاط غالياً ثمن جهله الخطة الكيسنجرية. وكان جنبلاط يتصور ان الطيران الاسرائيلي سيضرب الجيش السوري ما ان يجتاز الحدود اللبنانية ــ السورية في المصنع.

واحكاماً لخطته قام كيسنجر بعملية تمويه واسعة، فأطلع الرئيس الروماني نيقولاي شاوشيسكو على الموقف الاميركي المؤيد للاصلاحات التي ينادي بها كمال جنبلاط كحل للأزمة اللبنانية. وكان كيسنجر يعرف ان الرئيس الروماني على اتصال دائم بمنظمة التحرير الفلسطينية. وبالفعل نقل شاوشيسكو في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٥، إلى أبو عمار، الموقف الاميركي الذي كان يبدو جديداً ومؤيداً للمحور الفلسطيني ــ التقدمي مما شجّع عرفات على تثبيت تحالفه مع كمال جنبلاط، اعتقاداً منه ان واشنطن شرعت في التخلي عن مساندتها للمسيحيين. وبناء على هذه المعلومات المدسوسة صعّد التحالف الفلسطيني ــ الاسلامي مواجهته السياسية مع سوريا وضغطه العسكري على المسيحيين.

وكان لا بد اكمالاً لمخطط كيسنجر من حمل المسيحيين على القبول بالدخول السوري الذي يعارضونه. فامتنعت اسرائيل عن التجاوب معهم لجهة تزويدهم بالاسلحة اللازمة لكسب الحرب او على الاقل لوقف تدهورهم الميداني. وراح المبعوث الاميركي دين براون يمارس عليهم حرباً نفسية. يدافع حيناً عن مطالب الحركة الوطنية ويرى الاصلاح السياسي ضرورة ومطالب كمال جنبلاط محقة، لدرجة انه اعلن مرة ان برنامج الحركة الوطنية السياسي، يمكن ان يتبناه الحزب الديمقراطي الاميركي، وحينا آخر يصور للمسيحيين مستقبلاً قاتماً، ويفهمهم انه لا مجال للاعتماد على اي تدخل غربي لمصلحتهم، فلا اميركا مستعدة لارسال المارينز ولا فرنسا قادرة على التحرك مراعاة لمصالحها العربية، وان لاسرائيل حسابات دقيقة ومعقدة. وقد وضع براون المسيحيين امام خيار واحد: اما الرحيل عن لبنان واما الاستعانة بسوريا. وهذا ما عناه عندما عرض على الرئيس سليمان فرنجية في بداية عام ١٩٧٦ فكرة ترحيل المسيحيين بواسطة بواخر اميركية تُرسل خصيصاً لنقلهم مع منحهم تأشيرات دخول إلى الولايات المتحدة. وهكذا صار المسيحيون بين مطرقة الفلسطينيين والتقدميين العسكرية وسندان الاميركيين السياسي، ولم يعد امامهم الا مخرج واحد وهو طلب دخول الجيش السوري إلى لبنان. وبين شاوشيسكو وبراون واسرائيل وقع الجميع في مصيدة كيسنجر.

وادت سياسة «الخطوط الحمر» عملياً إلى تقاسم سوريا واسرائيل النفوذ في لبنان: اسرائيل في الجنوب وسوريا في باقي المناطق. ووافقت اسرائيل على دخول الجيش السوري في حزيران (يونيو) ١٩٧٦، بعد ان اشترطت ثلاثة تدابير احترازية وهي: ان لا يتخطى الجيش السوري في انتشاره حدود الليطاني والنبطية جنوبا، ان لا يستقدم اسلحة استراتيجية

كصواريخ سام إلى داخل لبنان، ان لا يستخدم سلاح الطيران وسلاح البحرية السوريين في الاجواء والمياه اللبنانية.

و لم تخرق الخطوط الحمر خلال خمس عشرة سنة الا مرتين: مرة حين ادخلت دمشق عام ١٩٨١، بطاريات «صواريخ سام» إلى البقاع، ومرة ثانية حين اجتاحت اسرائيل لبنان عام ١٩٨٢، واصطدمت بالجيش السوري في اعالي المتن والبقاع. ولا يحسب قصف الطائرات السورية منطقة نفوذ العماد عون عام ١٩٩٠، خرقاً للخطوط الحمر، لأنه جاء في ضوء تقارب اميركي ــ سوري بعد دخول العراق إلى الكويت.

وتطورت «الخطة الكيسنجرية» في العقل الاميركي. فقد دعم رونالد ريغان الدول العربية المعتدلة وفي طليعتها السعودية، عن طريق بيعها طائرات الاواكس، وهي احدث محطات انذار مبكر انتجتها التكنولوجيا الاميركية لكشف الطائرات والصواريخ المعادية. وتصور الرئيس الاميركي خطأً انه قادر على اقناع السعودية لتحذو حذو مصر فيسير في خطاها العديد من الدول العربية؛ ويتحول اتفاق كمب ديفيد من معاهدة سلام منفردة إلى حل شامل لازمة الشرق الاوسط. وكانت اميركا لا ترغب الدخول في مواجهة مفتوحة مع العرب ولا مع اسرائيل، بسبب اتفاق ١٧ أيار كي لا تتأثر سياستها الشرق اوسطية. و لم تخف واشنطن نيتها في توطين الفلسطينيين في لبنان ولو أدى هذا المشروع إلى الاستغناء عن لبنان جزئياً او كلياً. ورأت الادارات الاميركية المتعاقبة ان استمرار الاقتتال بين اللبنانيين يجعلهم بحاجة إلى وصاية خارجية، وبدت سوريا الطرف المؤهل لممارسة هذه الوصاية، وهذا ما حصل تدريجيا في اتفاق الطائف عام ١٩٨٩. وما زال المسؤولون الاميركيون يرددون على مسمع اللبنانيين، ان يعملوا حساباتهم بأن الفلسطينيين الموجودين في لبنان سيبقون نهائياً فيه.

وبواقعية كاملة يجب ان ندرك كلبنانيين ان الخيار بين لبنان واسرائيل غير مطروح في الاصل من وجهة النظر الاميركية. تدعم الولايات المتحدة اسرائيل على الدوام لا تجاه لبنان وحسب بل حيال كل العرب مجتمعين. اميركا مع اسرائيل ظالمة كانت ام مظلومة. وفي كل مرة ينحصر خيار واشنطن بين لبنان وسوريا، تختار بعد المناورة والمراوغة دمشق، على حساب بيروت.

إثر الاجتياح الاسرائيلي عام ١٩٨٢، خُيِّل لحكومة تل ابيب ان حرب لبنان هي الفرصة المؤاتية لتطوير معاهدة كمب ديفيد بضم لبنان اليها، فتتحول من معاهدة ثنائية بين اسرائيل ومصر إلى اتفاق مثلث الاطراف بين اسرائيل ومصر ولبنان. حاولت اسرائيل الحصول

على اتفاقية سلام مع الدولة اللبنانية كمؤسسة شرعية متكاملة. وعندما لم تبرم الدولة اللبنانية اتفاق ١٧ أيار تخلت اسرائيل عن التعامل مع بعض الاحزاب المسيحية ثم يئست من الاتفاق مع الدولة اللبنانية فعقدت صفقات منفردة مع الطوائف اللبنانية وفضلت اخيرا تقاسم لبنان مع الدولة السورية بصورة خفية. وقد رأى مناحيم بيغين ان اتفاق ١٧ أيار «لم يكن مثاليا وكنا نريد شيئا افضل». وهذا يعني في نظر اسرائيل ان هذا الاتفاق لا يستحق حرباً مع سوريا لضمان تطبيقه.

وبمعزل عن الدعوات العقائدية التي تشير إلى مطامع اسرائيل الدائمة في المياه اللبنانية، ورغبتها في تفجير الصيغة اللبنانية القائمة على التعايش الديني المناقض للصيغة اليهودية، لا بد من التوقف ملياً امام حدثين: تدفق المهاجرين اليهود من الاتحاد السوفياتي وتصاعد الانتفاضة الفلسطينية في الداخل الاسرائيلي المحتل. في ضوء هذين التطورين ستحتاج اسرائيل إلى مزيد من الارض والمياه لاستيعاب اليهود الجدد. كما قد تقدم على طرد الفلسطينيين إلى الدول العربية المجاورة لانهاء الانتفاضة، فيتدفقون إلى لبنان كما حصل مرات عديدة في الماضي القريب. وفي الحالين بقي لبنان هو المستهدف لأنه الحلقة الاضعف.

وفي ضوء هذه القراءة السياسية، أُحذِّر من عودة السياسة الاسرائيلية ــ الاميركية إلى العمل قبل عام ١٩٩٥ على اقامة اكثر من وطن بديل للفلسطينيين وقد يكون الضحية لبنان بالاضافة إلى الاردن.

وبصراحة وبساطة يكشف رونالد ريغان في مذكراته تحت عنوان «حياة اميركية» مدى المكابرة الاسرائيلية ومدى الرضوخ الاميركي لها. ويؤكد انه ككل رئيس اميركي يؤمن ان اسرائيل هي حجر الزاوية الذي لا بديل عنه في الشرق الاوسط، ولا يجسر على مجابهتها. اما اسرائيل فتقدر ان تقطع الوعود لسيد البيت الابيض وتعود عنها من دون ان تخشى عقاباً. وبوعي كلي لا يخفي ريغان المطالب السورية في لبنان. وهو يدرك تمام الادراك ان دمشق «لا تعترف بحق لبنان في الوجود وان نيتها، في المدى البعيد، ان تجعل لبنان مستعمرة لها وان تجرد المسيحيين فيه من كل نفوذ سياسي». ويسجِّل ان واشنطن تتعامل بحرقة وأسف مع دمشق وهي عالمة بالاهداف السورية.

قد تصبح الولايات المتحدة يوماً ــ وهذا ما اعتقد ــ «شرطي العالم» كما تدَّعي، لكنها لن تكون في اي يوم «طبيب العالم». ويبرر الاميركيون عدم حل الأزمة اللبنانية بحجة ان الوضع اللبناني شديد التعقيد، وان القادة اللبنانيين انانيون وقصيرو النظر. صحيح ان لا احد يقدر ان يدافع عن تقصير الساسة اللبنانيين وبؤسهم، لكن لا احد يستطيع

ان يجاري الاميركيين في اعذارهم. ولو فعلوا عشر ما اقدموا عليه في الخليج لكانت الازمة اللبنانية قد حُلت منذ زمن بعيد.

وتصل الوقاحة الاميركية حداً لا يوصف، حين يشبّه جورج شولتز الوضع اللبناني بـ «الكوليرا»، وحين يصف بعض المسؤولين الاميركيين لبنان بـ «المزبلة»، والواقع الاليم ان العقل الاميركي يحسب ان الحل اللبناني يتطلب استثماراً بكلفة عالية وعائدات منخفضة، فيحجم عن الاقدام ويترك لاسرائيل من دون تحفظ، ولسوريا مع بعض التحفظ، امر تدبير شؤون لبنان ومشاكله.

وفي نظري ان اسرائيل هي اساس المشكلة اللبنانية. الفلسطينيون هم ضحية اسرائيل ولبنان ضحية الضحية والجلاد معاً. وقد نجحت السياسة الاميركية إلى حد بعيد في حصر حرائق الشرق الاوسط في لبنان، واستخدامه لوقت طويل في تخزين التوترات السياسية والعسكرية والعقائدية. لكن لبنان قنبلة موقوتة، انفجرت في الكويت في بداية التسعينات، وقد تنفجر في مناطق اكثر حساسية في المستقبل الآتي.

انني لست معادياً للولايات المتحدة عقائدياً، العكس هو الصحيح، فاني قد مارست السياسة من موقع الصديق للاميركيين. وما زلت اعتقد ان واشنطن، ان حسمت وعدلت، قادرة على حل الازمة اللبنانية في وقت قريب، بصفتها زعيمة العالم الحر، وحامية النظام العالمي الذي تدّعي الدفاع عنه. ولكن اخشى ان تكون اميركا قد سلّمت لبنان الضعيف إلى جيرانه الاقوياء، وفضّلت منطق القوة على منطق الحق. وسيذكر اللبنانيون طويلا ان الولايات المتحدة قد جيشت العالم خلال اسابيع قليلة في موضوع احتلال الكويت، وابدت تصميماً لا هوادة فيه وأجبرت الجيش العراقي على الانسحاب بعد ستة أشهر فقط. في المقابل ما تزال تتفرج على احتلال لبنان منذ أكثر من ست عشرة سنة وكأن الامر فيه نظر.

والحقيقة المرة ان في الكويت نفطاً وفي لبنان بشراً من دون نفط، وان حقوق النفط في نظر واشنطن اهم من حقوق الانسان. انها اللعنة الاميركية التي حلّت بوطن الانسان منذ ايام كيسنجر واللعنة الاسرائيلية التي اصابته منذ قيام الدولة اليهودية.

الأسد: الإنتصار الكبير

فتح انتصار وليد جنبلاط الباب امام اسقاط اتفاق ١٧ أيار عسكرياً وحقق التحالف السوفياتي ــ السوري كسباً. وسجل الحلف الاميركي ــ الاسرائيلي تراجعاً. وابتدأت دمشق تستعيد قوة موقعها المميز في لبنان. وراحت تطالب امين الجميل بالغاء اتفاق ١٧ أيار والولايات المتحدة بسحب القوات المتعددة الجنسيات من بيروت والضواحي، واسرائيل بالانسحاب الكامل. ووصف حافظ الاسد الوجود الاسرائيلي في لبنان بـ «الغزو الاول» والوجود الاميركي بـ «الغزو الثاني».

في ظل تبادل واشنطن ودمشق الحملات الاعلامية اقدمت، في ٢٣ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٨٣، مجموعة من الاصوليين الشيعة، بدعم من سوريا، على عمليتين انتحاريتين، ففجرت مقر قيادة المارينز الاميركية ومبنى فرقة المظليين الفرنسيين، مما ادى الى سقوط مئات القتلى والجرحى.

واتضح للرئيس اللبناني ان افضل الحلول هو احياء مسيرة الحوار الوطني التي دعت اليها السعودية. فاتصل بالرئيس السوري حافظ الاسد، والعاهل السعودي الملك فهد، ووجّه اليهما الدعوة لارسال مراقبين عنهما لحضور مؤتمر الحوار الوطني في جنيف.

افتتح المؤتمر في ٣١ تشرين الأول (اكتوبر) برئاسة امين الجميل وحضور عبد الحليم خدام وزير الخارجية السورية، ومحمد ابراهيم المسعود وزير الدولة السعودي، واشترك فيه من اللبنانيين: كميل شمعون وسليمان فرنجية وصائب سلام ورشيد كرامي وعادل عسيران وبيار الجميل ووليد جنبلاط ونبيه بري. ركز عبد الحليم خدام على وجوب الغاء اتفاق ١٧ أيار، كشرط ضروري لانجاح الحوار اللبناني ــ اللبناني. وردّ امين الجميل أنّ لا بديل للاتفاق بالنسبة الى لبنان، في الظروف الاقليمية والدولية. وانهى المؤتمر اعماله بعد ثلاثة ايام، بالاتفاق على هوية لبنان العربية، وبالفشل امام عقدة اتفاق ١٧ ايار. وصدر بيان ختامي يدعو رئيس الجمهورية الى الاستمرار في السعي لانهاء الاحتلال الاسرائيلي، واجراء الاتصالات الداخلية والدولية اللازمة. وتقرر عقد الحلقة الثانية في ١٤ تشرين الثاني (نوفمبر).

وعاد الوضع الامني الى التدهور. واتصل امين الجميل بحافظ الاسد الذي دعاه الى زيارة دمشق في ١٤ تشرين الثاني (نوفمبر) بدل الاجتماع في جنيف. وقبل يومين من موعد اللقاء اصيب الرئيس السوري باضطراب في نبضات القلب، وارتفاع في معدل السكري بسبب الارهاق والجهد المتواصل الذي بذله منذ الغزو الاسرائيلي. واضطر الى ملازمة المستشفى ثم المنزل مدة شهر كامل، كاد يهتز خلاله الحكم السوري.

ووظف الرئيس اللبناني فترة نقاهة الاسد بأن زار الرياض والمغرب وليبيا وباريس ولندن وروما والفاتيكان وواشنطن، حيث سعى الى ادخال بعض التعديلات في اتفاق ١٧ ايار، علّها تلقى موافقة دمشق. لكن رئيس الحكومة الاسرائيلية اسحق شامير، الذي حل محل مناحيم بيغن المستقيل، حذّر من مغبة تغيير «حرف واحد» في الاتفاق اللبناني — الاسرائيلي. واتخذ رونالد ريغان الموقف نفسه واعرب عن تمسكه بالاتفاق من دون تعديل. وكالمرة السابقة، وفيما كان امين الجميل في واشنطن في ٣ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٨٣، انفجر الوضع الامني على كل المحاور وسقطت القذائف في محيط القصر الجمهوري ووزارة الدفاع في اليرزة. كانت الرسالة السورية في غاية الوضوح: طريق الحل تمر عبر دمشق لا عبر واشنطن. وردت هذه المرة واشنطن بأن شنت طائرات البحرية الاميركية غارات على المواقع السورية التي اطلقت صواريخ ارض — جو على الطائرات المهاجمة. وبرز فوراً الدعم السوفياتي، اذ حذرت موسكو الولايات المتحدة من اي محاولة «لمعاملة سوريا مثل غرينادا»، مذكرة ان الفارق يكمن في «ان الاتحاد السوفياتي يدعم سوريا». واستمرت المبارزة ولو محدودة بين الطيران الاميركي والصواريخ السورية، التي اسقطت في منتصف كانون الاول (ديسمبر) طائرتين، توفي قائد احداهما واسر قائد الثانية. فقصفت البارجة الاميركية «نيوجرزي» مواقع المدفعية والصواريخ السورية. وبسبب المواجهة الاميركية — السورية الحامية، لم يوجه الاسد بعد ان تعافى دعوة للقاء الجميل، ودخلت العلاقات بين بيروت ودمشق في عنق الزجاجة. وبدا امين الجميل في مأزق خانق ولبنان معلقاً على الصليب بين الاوهام الاميركية والحقائق المرّة.

حاولت السعودية التوسط لعقد الحلقة الثانية من مؤتمر جنيف، لكنها اصطدمت بالتشدد السوري الذي اشترط الغاء اتفاق ١٧ ايار قبل المؤتمر. وعاد القصف العشوائي يلف المناطق. وبدأت تحرشات حركة امل بالجيش اللبناني في بيروت الغربية والضاحية الجنوبية. واعلن امين الجميل في ٥ شباط (فبراير) ١٩٨٤ انه وضع برنامجاً اصلاحياً، سيطرحه على مؤتمر الحوار الوطني. واشار الى امتناعه عن ابرام اتفاق ١٧ ايار، متعهداً بالسعي

الى صيغة تضمن الانسحابات. وقدّم شفيق الوزان استقالته من رئاسة الوزراء، افساحاً في المجال لتأليف حكومة اتحاد وطني. لكن سياسة اليد الممدودة لم تحل دون سقوط بيروت كما سقط الجبل وبالطريقة ذاتها. فقد انتشر مسلحو حركة امل في ٦ شباط (فبراير) في الشوارع الرئيسية والفرعية من بيروت الغربية حيث دارت معارك مع الجيش اللبناني الذي اخلى مواقعه وتراجع الى خطوط التماس في بيروت الشرقية. واثر سقوط بيروت الغربية قرر رونالد ريغان سحب وحدات المارينز وانسحبت القوة المتعددة الجنسيات وراءها.

لم افهم ابداً لماذا لم يقاتل الجيش اللبناني حفاظاً على العاصمة، وانكفأ الى الشطر الشرقي منها، ثم راح يمطر الضاحية الجنوبية، ذات الكثافة الشيعية، بوابل من القصف المدفعي المجنون. اخطأ الحكم في ادارة معركة بيروت على غرار ما فعل في الجبل وظهر انسحاب الجيش اللبناني من الشطر الغربي من العاصمة بمثابة بداية خروج القرار من يد رئيس الجمهورية. كما اسفر القصف المدفعي على المناطق الشيعية عن توحيد الطائفة الشيعية حول نبيه بري في مواجهة امين الجميل.

يطلقون عليه لقب «الاستاذ»، اذ مارس مهنة المحاماة في بداية حياته. لقيته للمرة الأولى في الجامعة اللبنانية في منتصف الستينات من خلال الحركة الطالبية، وكان رئيس رابطة طلاب كلية الحقوق والعلوم السياسية. وعرفته في منتصف السبعينات مقرباً من الامام موسى الصدر وحائزاً على ثقته. فقد كان ينتدبه في المهمات الدقيقة، وخصوصاً في مهمة الاتصال الدائم مع المنظمات الفلسطينية، حيث اكتسب خبرة واسعة وعلاقات اوسع. وخلف الامام عام ١٩٧٨ في قيادة حركة امل. واظهر روحاً قتالية في مواجهة الاجتياح الاسرائيلي عام ١٩٨٢ واقتنص الزعامة الشيعية من خلال حركة ٦ شباط (فبراير) ١٩٨٤، التي اسقطت الجيش اللبناني في بيروت الغربية والضاحية الجنوبية. جاء محامياً مغموراً من الجنوب، وكسب معركته العسكرية الاولى في بيروت، وثبّت موقعه السياسي في دمشق.

بدأ حياته السياسية مطالباً «بالثورة من داخل النظام» وانتقل بعد حركة ٦ شباط (فبراير) للدعوة الى «الثورة على النظام» ورضي في مؤتمري جنيف ولوزان «باصلاح النظام». يتمسك بمبدأ الغاء الطائفية السياسية، كي يفسح في المجال امام طائفته الاكبر عدداً لتتبوأ مركز رئاسة الجمهورية. وقد حلم مرة ان يكون اول رئيس شيعي لجمهورية لبنانية جديدة.

عندما عيّن وزيراً عام ١٩٨٤ في حكومة الاتحاد الوطني، كان الاكثر مشاكسة والاقدر على الكلام والمطولات. وقد اكتشف عقم الحوار مع اهل النظام وكان يردد: «لن يغيروا

شيئاً ولن يتغيروا». وسرعان ما استوعبه النظام وتراجعت زعامته وتقلصت «حركة امل» امام مد «حزب الله» الاصولي المتطرف الحائز على دعم ايران.

عقدة الشيعة هي عقدة المستقبل اللبناني. الحل معهم متعب، ومن دونهم مستحيل. شهدت الستينات انفجار الطائفة الشيعية سكانياً واجتماعياً واقتصادياً وسياسياً وعقائدياً. وحوّلها موسى الصدر في السبعينات من كتلة ديمغرافية جامدة، إلى مشروع سياسي ينشد العدالة للمحرومين ولو بقوة السلاح. وتبدو الطائفة الشيعية بحجم طموحات نبيه لكنها اكبر من طاقاته، فهو مضطر إلى ان يستعين بدمشق ليحافظ على زعامته المهددة دوماً.

انه رجل صعب من طائفة صعبة في الزمن الصعب وفي الصراع الصعب. اصطدم بحركة «المرابطون» السنية وقضى عليها، واشتبك مع الحزب التقدمي الاشتراكي الدرزي الذي فضل اخلاء العاصمة. قاتل الفلسطينيين في حرب المخيمات ثلاث سنوات حتى الثمالة الى حين تدخل الجيش السوري فانقذه واسقط مناصري ياسر عرفات. ويقاتل «حزب الله» في بيروت والجنوب حتى النهاية فيتمدد حيناً وينحسر احياناً ويحتكم الى دمشق دوماً. انه يعاني من وهم القوة ومأزق الزعامة.

بعد خمسة ايام من سقوط الشق الغربي من العاصمة، وصل إلى لبنان الوسيط السعودي من اصل لبناني رفيق الحريري في ١١ شباط (فبراير)، حاملاً مشروع حل يتضمن الغاء اتفاق ١٧ أيار وكان جواب الجميل ان هذا الاتفاق ليس هدفاً بحد ذاته، وانه اصبح المشكلة الاساسية التي يدرسها حالياً. وفهمت دمشق ان الرئيس اللبناني ما زال متمسكاً بهذا الاتفاق فوجهت في ١٤ شباط (فبراير) ضربة اخرى إلى الجيش اللبناني الذي تراجع عن مواقعه في الشحار الغربي ومثلث خلده، التي احتلها مسلحو الحزب التقدمي الاشتراكي وحركة امل. وتخلت واشنطن عن امين بصورة دراماتيكية. فبالاضافة إلى سحب المارينز، جمدت تزويد الجيش اللبناني بالدبابات والاسلحة لاعتقادها ان هذا الجيش غير مؤهل كقوة مقاتلة. بعد هذا التخلي الاميركي المفضوح، لم يعد امام الرئيس اللبناني الا طريق الشام. فاوفد مستشاره جان عبيد الذي اجتمع في دمشق مع الوسيطين السعوديين بندر بن سلطان ورفيق الحريري، ووزير الخارجية السورية عبد الحليم خدام، ومهّد لزيارة قام بها امين الجميل إلى دمشق في نهاية شباط (فبراير) ١٩٨٤، حيث تفاهم مع الاسد على الغاء اتفاق ١٧ أيار. ورسم خدام واقع الحكمين اللبناني والسوري عندما نظر إلى الرئيسين وهما جالسان جنباً إلى جنب، فهمس في اذن جان عبيد: «غريب امر هذين الرجلين: واحد يصنع كل

يوم معجزة لانقاذ بلده، وواحد يحتاج إلى ان تصنع له كل يوم معجزة لانقاذه».

في ٥ آذار (مارس)، عقد مجلس الوزراء اللبناني جلسة تقرر فيها الغاء اتفاق ١٧ أيار واعتباره «باطلاً» وكأنه لم يكن مع كل ما ترتب عليه من آثار. كما تقرر ابلاغ قرار الالغاء الى الاطراف الموقعين عليه.

وابدت الولايات المتحدة اسفها للقرار اللبناني. واستنكرت اسرائيل التدخل السوري. وشكر الرئيس السوري نظيره اللبناني على هذه «الخطوة»، واعلن ان سوريا تشعر انها حققت «نصراً كبيراً». وتلقى الاسد رسالة تهنئة من الزعيم السوفياتي كوستانتين تشيرنينكو الذي ابدى ارتياحه لالغاء هذا الاتفاق الذي «ارادت الولايات المتحدة واسرائيل فرضه على لبنان».

سقط السلام الملغوم وعقدت الجولة الثانية من مؤتمر الحوار الوطني في لوزان في ١٢ آذار (مارس) ١٩٨٤. وتركز البحث حول وقف اطلاق نار فعلي وثابت، واصلاح النظام السياسي، وتأليف حكومة اتحاد وطني. وتعددت الطروحات السياسية. طرح كميل شمعون باسم حزبي الكتائب والاحرار اقامة جمهورية اتحادية في لبنان. طالب وليد جنبلاط باللامركزية الادارية الموسعة. نادى نبيه بري بالغاء الطائفية السياسية. عرض سليمان فرنجية صيغة متطورة من «الوثيقة الدستورية». قدم امين الجميل ورقة عمل مبنيّة على معظم الاقتراحات الواردة. ودام المؤتمر اسبوعاً كاملاً و لم يقدر المجتمعون فيه على التفاهم حول الاصلاحات الدستورية، بل اكتفوا بتشكيل لجنة امنية عليا برئاسة رئيس الجمهورية، انيط بها تنفيذ خطة امنية لاقامة بيروت الكبرى، وهيئة تأسيسية لوضع مشروع دستور جديد للبنان الغد.

وبقيت الاوضاع الامنية متوترة ومضطربة. وقام امين الجميل في منتصف نيسان (ابريل) بزيارة دمشق مجدداً، حيث جرى الاتفاق على تأليف حكومة وحدة وطنية. وتشكلت هذه الحكومة في آخر نيسان (ابريل) وضمت بصورة اساسية الزعيمين المعارضين وليد جنبلاط ونبيه بري، والزعيمين الموالين كميل شمعون وبيار الجميل، بالاضافة الى عادل عسيران وسليم الحص وجوزف سكاف وعبدالله الراسي وفيكتور قصير، برئاسة رجل الازمات والمصالحات رشيد كرامي.

ولد رشيد كرامي للسياسة، وولدت السياسة له، فامتهنها منذ صباه، و لم يمتهن غيرها حتى اغتياله في اول حزيران (يونيو) ١٩٨٧. ورث الزعامة الطرابلسية عن والده وهو

في العشرين من العمر. لكنه سرعان ما تفوّق على زعامة الاب، ووسّع اطارها لتشمل كل لبنان وديار العرب. انتخب نائباً عن دائرة طرابلس عام ١٩٥١، واعيد انتخابه دون انقطاع حتى مماته. عيّنه بشاره الخوري عام ١٩٥١ وزيراً للعدل، وكان له من العمر ثلاثون سنة، فبرز كأصغر وزير عرفه لبنان في حينه. وثبّته كميل شمعون وزيراً للاقتصاد الوطني في ثلاث حكومات متتابعة. وعيّنه عام ١٩٥٥ رئيساً للحكومة وهو في الرابعة والثلاثين من العمر ليصبح اصغر رئيس للوزراء عرفه لبنان. لكن سرعان ما وقع الخلاف بين شمعون وكرامي حول علاقة لبنان بالحركة الناصرية، فاستقال كرامي وانضمّ إلى صفوف المعارضة. واختاره فؤاد شهاب، عام ١٩٥٨، ليشكل حكومة الانقاذ الوطني، التي اخرجت لبنان من ازمة ١٩٥٨. فظهر كالابن المدلل للحكم الشهابي.

ترأس الحكومات منذ الستينات عشر مرات في اكثرية الظروف الاستثنائية. كان رئيس حكومة ١٩٦٩ في عهد شارل حلو حين انفجرت الازمة بين الدولة اللبنانية والمقاومة الفلسطينية وادت الى توقيع اتفاقية القاهرة. وانتهج في تلك السنة «سياسة المقاطعة» اكثر من ستة اشهر، ارضاء للمقاومة الفلسطينية، فما كان يؤلف الحكومة وما كان يعتذر. كما ترأس آخر حكومة في عهد سليمان فرنجية عام ١٩٧٥، حين اندلعت الحرب اللبنانية، والتي ادت الى صياغة ما يسمى بالوثيقة الدستورية عام ١٩٧٦. وانيطت به رئاسة الحكومة في عهد امين الجميل بعد الغاء اتفاقية ١٧ ايار مع اسرائيل وانعقاد مؤتمري جنيف ولوزان للمصالحة الوطنية. وقد شهدت حكومته سقوط الاتفاق الثلاثي الذي وقعته حركة امل والحزب التقدمي الاشتراكي والقوات اللبنانية برعاية سورية. ومارس من جديد «سياسة المقاطعة» ارضاء لدمشق فما كان يحضر اجتماعات مجلس الوزراء وما كان يستقيل، وعطّل القرار اللبناني ما يقارب السنة والنصف.

مسيرته مليئة بالتناقضات، لكنها نموذج للحالات اللبنانية الصعبة. كان يمينياً مع اليسار، ويسارياً مع اليمين، ومتوازناً مع الجميع. قريب من موسكو وله اكثر من قناة مع واشنطن. حليف القاهرة وجمال عبد الناصر في نهاية الخمسينات، وصديق دمشق وحافظ الاسد منذ منتصف السبعينات. عروبي حتى العظم؛ طالب بالوحدة الاقتصادية والتعاون العسكري مع سوريا عام ١٩٥٦، وبالوحدة السياسية مع الجمهورية العربية المتحدة التي ضمت سوريا ومصر عام ١٩٥٨. لكنه بدأ يفهم تدريجياً حدود العروبة في لبنان منذ عام ١٩٥٨. واقتنع باستقلال لبنان وسيادته ونظامه الديمقراطي الحر مع التشديد على حتمية التضامن مع العرب وبصورة خاصة سوريا، ومع قضاياهم وبصورة خاصة القضية

الفلسطينية. كان يدافع عن المسلمين بكل قواه، ويتباهى باسلاميته، ويمارس الشعائر الدينية بكل امانة غير انه ما فهم الاسلام ظلماً ولا المطاليب الاسلامية انتهاكاً للدولة. كان رجل دولة في الحكم وخارجه. حافظ على المؤسسات والاموال العامة كمحافظته على بيته وماله الخاص.

ساهم بفعالية في تحديث اجهزة الدولة في المرحلة الشهابية. لم يكن رجل دولة فقط، بل كان دولة في رجل. وظل ينادي بالوحدة الوطنية فيما كانت الحرب تلتهم الوطن الى درجة انه ظهر لوهلة وكأنه يسعى وراء المحال. وحين استشهد شعرت الدولة بأنها ترملت واحس الوحدويون بانهم انتكسوا.

عندما كان يتطرف لم يحرق الجسور وترك دائما للصلح مكانا. وعندما كان يعتدل لم يعزل نفسه او يبتعد عن قاعدته بل سهر على استمرار شعبيته. عرف كيف يواجه سياسياً كمال جنبلاط على يساره، وموسى الصدر في الوسط، وسليمان فرنجية على يمينه. طوع مواقفه لتشكل تعديلاً في مواقف حلفائه وليس انقلاباً عليها.

لم يجذبه العنف ولم يؤمن بالقوة العسكرية. لم تراوده لحظة فكرة المشاركة في المعارك او اقامة ميليشيا خاصة به، لأنه رآها مضادة لمفهوم الدولة والوحدة اللبنانية والديمقراطية. لم يوافق مرة على استعمال الجيش اللبناني في مواجهة المنظمات الفلسطينية او الميليشيات اللبنانية، لقناعة لديه، ولو خاطئة، ان توريط المؤسسة العسكرية في الصراع الداخلي يؤدي اما الى انقسامها وانهيارها، واما الى الانقلاب وتسلمها السلطة. كان من المؤمنين بالحرية والعدالة، وعمل بكل قواه ليحافظ على النظام الديمقراطي. في الوقت ذاته اصرّ بكل قواه على اصلاحه ليصبح اكثر عدلاً.

عام ١٩٧٥ وفيما كان رشيد كرامي يترأس احد اجتماعات «لجان التنسيق اللبنانية ـــ الفلسطينية»، طُرح موضوع دفع رواتب جيش لبنان العربي الذي انشق عن الجيش اللبناني، وتردد فترة ثم رأى انه لا مفر من دفع هذه الرواتب، وبموافقة مختلف الاطراف، فنظر الي قبل ان يوقع على جدول دفع الرواتب قائلاً: «غريب امر هذه الدولة. انها الوحيدة في العالم التي تدفع للذين يتمردون عليها».

لم تكن تنقصه النكتة ولا الكياسة ولا المرونة ولا الصلابة. لم يكن جافاً فيقطع ولا طرياً فيُعصر. كان يربك الحكام الذين عارضهم ويريح الرؤساء الذين تعاون معهم. اتقن فن الحكم وفن المعارضة معاً. عرفته عن كثب عام ١٩٧٥ وادركت ان فيه وراء برودة ظاهرة واعصاب فولاذية قلب رجل يتأثر كالطفل احياناً. رأيته يتألم وتغرورق عيناه عندما

تقع حادثة اعتداء على مواطن، او يحصل خطف بريء، او قنص امرأة او طفل. عقله البارد ساعده على تحمل الازمة بلا انفعال، وقلبه الحار حثَّه على استعجال الحل بكل الوسائل. كان رشيد كرامي قوة بذاته دون مدفع ودون ميليشيا، ورجل نفسه لا رجل الآخرين. قوته في توازنه وخبرته. حارب بالكلمة والموقف وفتش عن الوفاق السياسي طريقاً مستقيماً للحفاظ على وحدة لبنان والشعب وسلامة الارض والمؤسسات. كان السلطة الهادئة والمهدئة. كان الرجل ــ الازمة وفي الوقت ذاته رجل الازمات. انه الحالة اللبنانية التي لا غنى عنها.

تعثرت انطلاقة حكومة الوحدة الوطنية بسبب الخلافات بين اعضائها، مما اضطر امين الجميل ورشيد كرامي الى الاستعانة في كثير من الحالات بعبد الحليم خدام ليسوي النزاعات ويتخطى التناقضات. ومثلت دمشق دور المرجعية الضرورية لتسيير امور الحكم اللبناني.

اخذت الامور تميل الى شيء من الهدوء والاعتدال. وقرر مجلس الوزراء في ٢٣ حزيران (يونيو) ١٩٨٤ تعيين العماد ميشال عون قائداً للجيش وتسمية المجلس العسكري. وفي اوائل تموز فتح مطار بيروت الدولي امام الملاحة بعد توقف قسري دام مئة وستين يوماً. ونظر اللبنانيون الى هذه الخطوة بمثابة انتقال من مرحلة الى مرحلة: من العصر الاسرائيلي وما حمله من سلام ملغوم ومعارك، الى العصر السوري وما سيحمله من اتفاقات وانتفاضات.

الفصل الثالث

عصر الانتفاضات واتفاق الصقور

لكل حدث مهم اسبابه القريبة والبعيدة. فقلّما وقع حدث مهم وكان وليد ساعته. وانتفاضة ١٢ آذار (مارس) ١٩٨٥ اثّرت في الاحداث اللبنانية، وكان لها اسبابها البعيدة والقريبة.

في نهاية الستينات قدتُ، بصفتي رئيساً لمصلحة الطلاب الكتائبيين، تياراً من الشباب يطالب بتطبيق قواعد الديمقراطية داخل الحزب، وبحق الحزبيين في المعارضة وفي انتقاد حكم الشخص او العائلة. كنا نطمح إلى تنظيم جماهيري عصري، لا إلى تنظيم ظاهره ديمقراطي وباطنه عائلي او فردي. وكان يسود الحزب في هذه المرحلة جو من «الستالينية» يتمثل بالطاعة، واحياناً بالعبادة لشخص بيار الجميل، وهو رجل يتقن فن القيادة والزعامة والنجومية. ورحت أُطلق تياراً تغييرياً يمكن ان نسميه اليوم بـ «البريسترويكا». واصطدم هذا التيار بآل الجميل مجتمعين، من بيار إلى امين إلى بشير، وصولاً إلى الحرس القديم في الحزب. ولاقت افكارنا الكثير من التفهّم لدى بعض القياديين المخضرمين والكثير من التجاوب في القاعدة الطالبية والعمالية.

وتعمدت ان لا اواجه الخطأ بالخطأ، وأن لا ابني زعامة شخصية في مواجهة الزعامة التقليدية. وقصدت ان اؤسس التيار الاصلاحي في حزب الكتائب على قواعد فكرية وتطلعات مستقبلية. ومارست، خلافاً لقوانين الحزب واعرافه، اصول الديمقراطية داخل مصلحة الطلاب بحيث اعتمدت التصويت في اتخاذ القرارات، والانتخاب في اختيار الكوادر. وثارت ثائرة «حراس الهيكل» واعتبروا ان هذه الممارسات تخريب وتدمير. وكان بيار الجميل شديد الحساسية في هذا الموضوع ويشبّه هذه الحركة بـ «الميكروب» ويقول:

«الميكروب صغير لدرجة لا يقدر معها الأنسان ان يراه بالعين المجردة لكنه اذا ما نخر السنديانة يسقطها في النهاية».

وخاف الحزب أكثر من «الميكروب الفكري» الذي كنا نطرحه من خلال النقاشات والمحاضرات والندوات والمؤتمرات. وساهمت في هذه الحركة بوضع دراسة حول تركيبة الحزب عام ١٩٦٧ تحت عنوان «هيكلية الكتائب»، وتوصلت إلى ثلاث نتائج وخلاصة. النتيجة الأولى أن حزب الكتائب هو «حزب المسيحيين» إذ كان يتألف عام ١٩٦٥ من ٩٦ بالمئة من المسيحيين، لكنه لم يكن حزباً مسيحياً من الناحية العقائدية؛ فلم يدعُ إلى إقامة وطن قومي مسيحي، بل إلى وطن لبناني يقوم على التعايش المسيحي ـــ الأسلامي. وهذه كانت حسنته الأساسية. والنتيجة الثانية ان حزب الكتائب كان يتألف بنسبة ٩٠ بالمئة من العمال وصغار الموظفين والفلاحين، لكنه لم يكن «حزباً عمّالياً» بالمعنى السياسي، بل كان حزباً محافظاً بقيادة برجوازية. والنتيجة الثالثة ان الكتائب «حزب شاب» اذ كان ثلث اعضائه دون الواحدة والعشرين من العمر، وستون بالمئة دون الخامسة والأربعين، لكنه لم يكن «حزب الشباب» اذ كان المكتب السياسي يتكوّن من مسنين لا يتحسسون بأكثريتهم مشاكل الجيل والعصر. وخلصت إلى المطالبة بـ «ثورنة» الحزب، عن طريق الغاء الطائفية والتركيز على المسألة الأجتماعية وتجديد القيادة الحزبية.

أصبح موضوع الديمقراطية في الحزب وفي الوطن هاجسي وخضت على أساسه معركتي السياسية الأولى. في ايلول (سبتمبر) ١٩٧٠ وضعت تقريراً سياسياً رفعته إلى المؤتمر السنوي العاشر للطلاب الكتائبيين تحت عنوان «الديمقراطية في السبعينات»، وأردته بمثابة وصيتي السياسية إلى الشباب اللبناني ومما جاء فيه:

«ان التغيير الدائم قاعدة الحياة... والتجميد وضع غير طبيعي وشاذ يؤدي إلى التناقضات والانتفاضات... ان كل مجتمع، انّى كان لا يتحرر من تقليد الماضي، محكوم عليه بالانهيار. وان الحكم ـــ اي حكم ـــ لا يحرر الحاضر، ينتهي إلى الزوال... اننا نرفض ديماغوجية الزعامات التي تسعى لابقائنا في انقسامات الماضي: الطائفية منها والاقليمية والعائلية. كما نرفض ديماغوجية الايديولوجيات التي تطرح شعارات عقّمت التفكير وتصنيفات مزقت المجتمع. ونرفض الانعزالية التي تفرقنا عن محيطنا العربي... ان الطلاق بين لبنان الحاكم وبين لبنان الشاب يزداد اتساعاً. فالحاكمون يعجزون عن الحكم والمحكومون يرفضون الانصياع. او ليست هذه مرحلة ما قبل الانفجار؟ »

ورفعت مستوى الطرح عندما قدمت إلى مؤتمر الكتائب السنوي المنعقد في شتوره

عام ١٩٧١ برنامجاً اصلاحياً يحمل عنوان «الميثاق الديمقراطي الاجتماعي من اجل تطوير لبنان». وقد ركزت على ثلاثة مطالب.

اولها اعتماد مبدأ الانتخاب بدل التعيين لاختيار القيادات الحزبية على كل المستويات. وقد لاقى هذا الاقتراح معارضة شديدة من قبل المحافظين في الحزب فاسقطوه. وبقينا مصرين عليه، فطرحته ثانية بعد اربعة عشر عاماً في مهرجان الانتفاضة في ٢٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٥. ولم يقرّه الحزب الا عام ١٩٨٧ ووضعه جورج سعاده رئيس الحزب موضع التنفيذ عام ١٩٨٨ بكثير من الشجاعة والتجرد.

وثاني المطالب التي طرحتها عام ١٩٧١ ترمي إلى اعطاء الاوّلية للمشاكل الاقتصادية والاجتماعية وعقد مؤتمر اقتصادي ـــ اجتماعي يضم العمال وارباب العمل. وقد اخذ الحزب بهذا الاقتراح وبدأ تطبيقه بعد عدة سنوات.

وآخر هذه المطالب يتعلق بالنظام اللبناني وحتمية اصلاحه وتطويره وعلمنته بصورة جذرية وضرورة الانفتاح الشامل على العالم العربي وقضاياه وتياراته. وانهيت مداخلتي بالقول: «ان الغاية هي تحرير الانسان اللبناني من العوائق الاجتماعية والطائفية، ومن التخلف الاقتصادي والثقافي. فلا معنى لاستقلال لبنان من دون استقلال اللبنانيين مادياً ومعنوياً. اننا لا نقبل ان نضحي بالحرية من اجل المساواة، كما تفعل الانظمة الشيوعية، ولا نقبل ان نضحي بالمساواة في سبيل الحرية، كما تمارس الانظمة الرأسمالية. ان غايتنا هي احقاق المساواة في الحرية: هذه هي الديمقراطية الاجتماعية. ان التغييرات حاصلة لا محالة، فإما ان تتم بواسطة حزب الكتائب، وإما ان تتم ضده». واخذ التيار الشاب يتنامى ويتبوأ مواقع متقدمة في الحزب. ومنذ ذلك الحين التقيت وسمير جعجع داخل هذا التيار.

وجاءت الحرب عام ١٩٧٥ لتقدّم للقيادة التقليدية في الحزب ولكل القوى التقليدية والطائفية في لبنان خدمة كبيرة. ولولا هذه الحرب اللبنانية لكانت انفجرت ثورة سياسية واجتماعية كامنة إذ بَرعتْ القيادات التقليدية في تحويل كل حركة تغيير إلى فتنة طائفية. واحبطت الحرب، الحركات الاصلاحية لوقت طويل، ووضعتنا الازمة الوطنية في مواجهة مسألة «الكيان اللبناني» وفضلنا الاهم على المهم، وعلّقنا معركة الديمقراطية والاصلاح لكننا لم نلغها. لقد بقيت احلام الشباب في العقل والضمير. ووعى بشير الجميل ضرورات التجديد والتغيير في بداية الثمانينات فالتقينا حوله.

ودارت الايام دورة كاملة بين عامي ١٩٨٢ و١٩٨٥، وراحت الاسباب المباشرة

للانتفاضة تتكدس. سقط الجبل وسقطت العاصمة وسقط اتفاق ١٧ أيار وغاب بيار الجميل في آب (اغسطس) ١٩٨٤. ومع هذه المحطات بدأت اللعبة تفلت منْ يد امين الجميل في الدولة والحزب معاً، انه سعى دوماً لان يسترد بعضاً من نفوذه ولو لبعض الوقت.

ثورة شرعية

في حزيران (يونيو) من عام ١٩٨٣ ترشحت لعضوية المكتب السياسي الذي كنت فيه دون انقطاع منذ عام ١٩٧٠ وترشح سمير جعجع للمرة الأولى. وقامت حملة شرسة ضد «الثنائي جعجع ــ بقرادوني»، قادها رئيس الكتائب بيار الجميل بشكل غير مباشر، ورئيس الجمهورية امين الجميل بشكل مباشر. ونصحني الكثير من الرفاق بعدم التحالف مع سمير خوفاً من احتمال سقوطي. لكني اصررت على الاستمرار في التحالف والمعركة وكنت اردد للناصحين: «مش عيب ان اسقط ضد مؤسس الحزب ورئيس الجمهورية». وسقطنا أنا وسمير بفارق صوت واحد.

وغداة وفاة بيار الجميل في آب (اغسطس) ١٩٨٤ تمكن امين الجميل من ايصال مرشحه الدكتور ايلي كرامه إلى رئاسة الحزب والدكتور فؤاد ابو ناضر إلى قيادة القوات. من خلال ابو ناضر نقل امين مركز القرار المسيحي من القوات إلى حزب الكتائب، ومن خلال كرامه نقل هذا القرار من الحزب إلى القصر الجمهوري. وتراءى له انه قادر على وراثة ابيه والتفرد بالقرار المسيحي من دون شريك او منازع. لكن ما كان مقبولا من والده على مضض لم يكن مقبولا منه على الاطلاق.

وفي بداية عام ١٩٨٥ ظهر امين ممسكاً بالشرقية بصورة كاملة بعد ان انتصر على المعارضة داخل الكتائب والقوات. كما استرد جزءاً غير يسير من سلطته الوطنية بتأليفه حكومة الاتحاد الوطني برئاسة رشيد كرامي.

وبدا كأنه يتمتع بزخم جديد في ادارة البلاد والامساك بالزعامة المسيحية. لكن بمقدار ما كانت سلطته تظهر كبيرة، كانت شعبيته تتقلص. وزاد في ضمور شعبيته تعثّر حكومة الاتحاد الوطني ومقاطعة الوزيرين وليد جنبلاط ونبيه بري له واستئثاره بالقرار المسيحي وعدم اشراكه الفاعليات في قرار المرحلة. تجلّى تعثّر الحكومة في عجزها عن ترجمة بيانها الوزاري إلى مشاريع واعمال. وعاودت سوريا تدخّلها العلني فعقدت خلوات بكفيا بين الرئيس والوزراء باشراف نائب الرئيس السوري السيد عبد الحليم خدام. وتلاحقت

الخطوات، وتزايدت المخاوف من تنازلات قد يقدم عليها الجميل لسوريا. وكان امين كعادته يدير اللعبة وحده ووحيداً.

اسفرت اجتماعات بكفيا عن مجموعة قرارات، اهمها: فتح الطريق الساحلية، وازالة حاجز البربارة التابع لسلطة سمير جعجع مسؤول القوات في الشمال. وكان هذا الحاجز قد انشىء عام ١٩٧٨ في اعقاب الخلاف الدموي بين حزب الكتائب والرئيس سليمان فرنجية. وجرت اتصالات مع سمير لازالة الحاجز، لكن سرعان ما تبين لنا ان الموضوع ليس ازالة حاجز عن طريق، بقدر ما هو قرار بازالة القوات من الطريق، وبالتحديد الغاء حضور سمير داخل القوات.

في ظل هذه المعطيات عقدتُ اجتماعاً مطولاً مع سمير في اوائل عام ١٩٨٥. وخلصنا إلى استنتاج مفاده ان امين الجميل عازم على الغاء القوات والامساك بحزب الكتائب بشكل مطلق. ورحنا ندرس موازين القوى، فتبين لنا ان العمل الديمقراطي داخل المؤسستين تقلص، وبدأت ممارسات للجم اي معارضة داخل الشرقية. وظهر جلياً ان عملية قلب الطاولة هي الوسيلة الوحيدة للتعاطي مع الوضع القائم. وكان لا بد من اجراء مجموعة تحالفات بين القوى المناهضة للرئيس الجميل، فبالاضافة إلى القوة العسكرية الشمالية التي يقودها سمير كانت هناك قوة امنية يديرها ايلي حبيقة في بيروت والمتن وكسروان. وكانت تجمعني بسمير صداقة وثيقة، وتربطني بحبيقة علاقة راحت تتأكد بعد اغتيال بشير الجميل. وكانت تباعد بين الرجلين حالة من الشك المتبادل: سمير كعسكري كان يرتاب بحبيقة كإستخباراتي، وايلي كبراغماتي غير مقتنع بجعجع كإيديولوجي. وكان عليّ ان اوجد ثقة مفقودة بين شخصين صعبين، وبدأت سلسلة من الاجتماعات للتقريب بين سمير وايلي.

شعر الرجلان مع الوقت بالتكامل بينهما وحاجة احدهما إلى الآخر خاصة وانني كنت احضهما على طرح مشروع وطني بمستوى الازمة اللبنانية يتخطى منطق الصراعات الحزبية الضيقة. وقد استهوت الرجلين فكرة دخولهما، وللمرة الأولى، في صناعة القرار السياسي. فحتى ذلك الوقت كان سمير وايلي من كبار منفذي القرارات السياسية، لكنهما ليسا من صانعيها. وللمرة الأولى قرّرا ان يدخلا مرحلة القيادة.

وتزامن قرار ازالة حاجز البربارة مع محاولة لتقليص موازنة الاستخبارات التابعة لحبيقة، وتعيين الامين العام في حزب الكتائب، جوزف سعادة، مشرفاً على هذا الجهاز، مما ادى عملياً إلى تقليص صلاحيته. وهكذا اخذ حبيقة يعيش ظروفاً مشابهة لتلك التي يعيشها جعجع ولاحت فرصة جدية للجمع بين القوتين حول عمل ما.

ورحنا أنا وسمير وايلي نوسّع دائرة اتصالاتنا داخل القوات والكتائب. فاكتشفنا ان الناقمين على ادارة امين الجميل اكثر من القابلين بها، مما شجعنا على انشاء مجموعات من الخلايا داخل الشرقية وبدأنا عملية الترتيب لقلب الطاولة. وتولّى سمير مهمة تحضير الخطة العسكرية وكسب قادة الثكنات والوحدات، وركّز حبيقة على رصد تحركات الافراد والعناصر، وكانت مهمتي الاتصالات السياسية. لكننا تعمدنا ان ندير كل الامور معا بحيث نعتاد نوعاً من القيادة الجماعية.

وقررنا توسيع اطار حركتنا. ونجحنا في كسب عدد كبير من القوى الفاعلة، وبصورة رئيسية انطوان بريدي، وكان المسؤول السياسي والعسكري للكتائب والقوات في الاشرفية، «وعباس» رئيس الاستخبارات العسكرية، وجورج عدوان رئيس حزب التنظيم وامين عام القوات، وفادي افرام القائد السابق للقوات، بالاضافة إلى المعاونين المباشرين لسمير وايلي، كنادر سكر واميل رحمه وجورج كساب واسعد شفتري المعروف بـ «اسو». وتحوّلت هذه المجموعة إلى ما يشبه مجلس اركان الانتفاضة. وكنا نعمل بكثير من السرية والكتمان خوفاً من افتضاح خطتنا.

واجهت هذه الخطة مشكلة التمويل وموضوع تحييد الجيش اللبناني. فاستعنا بالوزير المهندس ميشال المر الذي موّل جزءاً من حركتنا، وقام باتصالات تمهيدية مع صديقه قائد الجيش العماد ميشال عون. وكنا نرغب في تنفيذ حركتنا دون سفك دماء. وكانت الخطة العسكرية تقضي بأن يتحرك سمير على رأس قواته من الشمال باتجاه كسروان، وان يتحرك حبيقة في منطقتي الاشرفية وعين الرمانة، وان نتحاشى الدخول إلى منطقة المتن، معقل الرئيس الجميل تفادياً للصدام. وخلال رسم الخطة تمسكنا بخطين احمرين هما: عدم المس بالشرعية اللبنانية، وخاصة رئاسة الجمهورية، مع خلافنا العميق مع امين الجميل، والثاني عدم اشراك اي دولة او اي قوة خارجية، مع علمنا بحجم التدخلات الاجنبية واهميتها على الساحة اللبنانية. بالنسبة إلينا كان الخط الاحمر الاول يهدف إلى الحفاظ على المؤسسات الدستورية، والخط الاحمر الثاني يعني المحافظة على قرار لبناني مستقل. وقررنا اعتماد الطلاب والعمال كقاعدة تحرك شعبية موازية لتحركنا العسكري، بحيث لا يتم اي صدام مع الناس، وخصوصاً مع الاقسام الكتائبية المنتشرة في كل المناطق.

وراح سمير يهيء العملية العسكرية بدقة وصبر، مراهناً على عنصر المباغتة والكثافة العددية. فينشر عدداً كبيراً من العسكر لا يحتاج إلى استخدامه. وراح حبيقة يرصد بجدارة تحركات الاقسام الكتائبية ووحدات القوات، ويشيع اجواء مؤاتية للعملية بحيث نؤمّن تأييد

بعض الثكنات في القوات وتحييد بعضها الآخر. وبدأت من جانبي التحضير الاعلامي والنفسي، اضافة إلى الاتصالات السياسية. وقررنا ان لا نطلع احداً على تفاصيل العملية؛ لأن التقليد السياسي في الشرقية لم يكن معتاداً مثل هذا النوع من الانقلابات. وكنا نعتمد كلنا على تقلّص شعبيّة امين الجميل وضعف الحكم اللبناني. ورحنا ننتظر الفرصة السانحة.

في العاشر من آذار (مارس) اتخذ المكتب السياسي للكتائب قراراً بفصل سمير جعجع من الحزب وتجريده من مهامه الحزبية، بحجة انه تمرد على القرار القاضي بازالة حاجز البربارة. واصدر الحزب بياناً يدين فيه سمير الذي ردّ ببيان يدافع فيه عن وجهة نظره، لكن اجهزة الحزب والدولة منعت الصحف من نشره. وحده محمد الزين مدير وكالة الأنباء الصحافية تجرأ على ذلك بعدما اوصلنا له خلسة نسخة من البيان.

في الحادي عشر من آذار (مارس) عقدنا اجتماعاً لكل اركان الانتفاضة في منزلي في غدراس (كسروان)، تدارسنا خلاله سير التحضيرات العسكرية ووضعنا اللمسات الاخيرة على الخطة. وقررنا ان تكون «الساعة الصفر» فجر اليوم التالي. وافترقنا وسط شعور بأن ساعات الصباح ستقرر مصير اشخاص وسياسات ووطن.

في هذا الوقت استدعت القيادة الحزبية ايلي حبيقة، بصفته رئيساً لجهاز الامن القومي في حزب الكتائب، لسؤاله عن الخطوات الواجب اتخاذها لمواجهة جعجع. وكان حبيقة بارعاً حين سألوه عما يجب عمله بسمير اذ اجاب: «تمسكوا بقرار فصله». واوحى كلامه للقيادة الحزبية بأن موضوع سمير لا يهمه. وشعر امين الجميل بالقلق، فاستدعى حبيقة لمعرفة تأثير قرار ازالة حاجز البربارة وفصل سمير. وعرض امين على حبيقة التعاون ضد جعجع. لكن ايلي لم يتجاوب وغادر قصر بعبدا من دون اي اتفاق. وفي ليل ١١ ــ ١٢ آذار (مارس) وصلت بعض المعلومات من الاقسام الكتائبية تفيد ان تحركاً مشبوهاً يحصل في منطقة الشمال. فسأل امين الجميل جهاز الاستخبارات في الجيش، فردّ مديره العقيد سيمون قسيس: «لا شيء يحصل»، واضاف بالانكليزية: «كل الامور تحت السيطرة».

فجر ١٢ آذار (مارس) فوجىء المواطنون والمسؤولون، في الدولة والحزب والقوات، بانتشار مسلح من جبيل إلى نهر الكلب، ومن الكحالة إلى الاشرفية. وسرعان ما اعلنّا قيام هيئة طوارىء داخل القوات واقصاء فؤاد ابو ناضر عن قيادتها. وتحقق لنا ما اردنا، فقد التحقت بنا مجمل ثكن القوات ومجموعة من اقسام الكتائب من دون اطلاق رصاصة

واحدة. وكانت هذه اول انتفاضة تشهدها القوات اللبنانية والكتائب والشرقية. وقد لاقت حركتنا تأييداً شعبياً في المنطقة الشرقية عندما أعلنا شعارين: القرار اللبناني المستقل، وعدم استئثار امين بهذا القرار. ولحظة شيوع الخبر كان امين يستعد للسفر إلى الاتحاد السوفياتي للمشاركة في تشييع الزعيم قسطنطين تشيرنينكو. وحين علم بما جرى، الغى رحلته، وتوجّه إلى بيت الكتائب في الصيفي بغية تجميد الاوضاع ورفع معنويات محازبيه. وبمقدار ما لاقت الانتفاضة ارتياحاً في الاوساط الشعبية، لاقت معارضة من قبل امين الجميل وسوريا واسرائيل.

واتخذت هذه الحركة منحى التغيير الحقيقي في العمل السياسي. واكدتُ في اول مؤتمر صحافي باسم الانتفاضة أننا لا نريد اسقاط رئيس الجمهورية، بل نريد اشراك اوسع قاعدة شعبية في القرار السياسي. واقترحت انشاء مجلس مسيحي يضم كل الفاعليات، والدعوة إلى انتخابات نيابية عامة في البلاد. واكدت عدم وجود اي علاقة مع اسرائيل. ودعوت إلى الحوار مع سوريا. لكن هذه الدعوات كانت اشبه بصرخة ضائعة.

داخلياً، استنفر أمين الجميل القيادات التقليدية واستقطبها لمواجهة حركة تقودها مجموعة من الشباب غير التقليديين الذين لا ينتمون إلى عائلات سياسية معروفة، ولا ينادون بشعارات ألفها الناس. ففي مجتمع تقليدي طائفي ومحافظ، كالمجتمع المسيحي اللبناني، بدت الانتفاضة وكأنها هرطقة من صنع خوارج. وكانت ردّة فعل الساسة التقليديين بعكس ردة الفعل الشعبية. رأى الشعب فينا املاً ومرحلة جديدة، ورأى التقليديون فينا خطراً ومغامرة. وجاءت المعارضة الاشرس من «الحرس الكتائبي القديم»، الذين راحوا يطلقون الاتهامات والشائعات مركزين على الاشخاص اكثر منهم على الاهداف ومتهمين رموز الانتفاضة بأنهم مغامرون لا يعرفون ماذا يفعلون.

وشاركت قوى تقليدية كثيرة في هذا الموقف المتحفظ، غير ان الرئيس كميل شمعون كان من السياسيين القلائل الذين سعوا إلى تفهم اسباب انتفاضتنا، ولم يقاطعنا، ووافق على محاورتنا، في حين كان موقف نجله داني اقرب إلى موقف امين. ولم يكن موقف النواب افضل من موقف قيادات الاحزاب؛ فراحوا يتقربون من الحكم ويراهنون على فشل الانتفاضة. وسعى سمير وايلي إلى كسب عطف البطريركية المارونية دونما جدوى. لكن هذا الحصار من قبل القوى المحافظة لم يؤثر في زخم الانتفاضة، لأن المجموعات الطالبية والعمالية والشعبية كانت تؤيدها وتحثها على اتخاذ مواقف اكثر راديكالية.

خارجياً، تصرفت سوريا بشكل عدائي وفوري بسبب ما كان يسمى بـ «اسرائيلية»

سمير جعجع وايلي حبيقة. فالاول كان متهماً بـ «علاقات مشبوهة مع اسرائيل» والثاني كان متهماً بـ «عملية صبرا وشاتيلا». وارتابت اسرائيل بهذه الحركة لأنها شعرت ان القوات، وللمرة الأولى منذ نشأتها، تتحرك بقرار ذاتي، وبمعزل عنها، وباستقلالية كاملة لم تعهدها فيها. وزاد من ارتيابها تخوفها من «سوريتي وفلسطينيتي». وهكذا واجهت الانتفاضة عزلة خارجية كاملة. سوريا تتخوف من «اسرائيلية» الانتفاضة، واسرائيل تخاف من استقلاليتها وعروبتها المستجدة، واميركا وفرنسا والفاتيكان تناهض كل ما يمكن ان يعدّ مسّاً بالشرعية. وتحركت خطوط التماس فجأة في بيروت وفي اقليم الخروب وشرقي صيدا، في غياب اي رادع اقليمي او دولي.

استنفرت سوريا حلفاءها في حملة معادية. واجرت اتصالات مع امين الجميل، الذي عقد قمة سريعة مع الرئيس حافظ الاسد، عرض خلالها الرئيس السوري على نظيره اللبناني المساعدة العسكرية لمواجهة الانتفاضة فاستمهله الجميل شهراً لانهائها.

وبدأت اسرائيل التحضيرات لتنفيذ القسم الثاني من انسحاب جيشها من مناطق الاقليم وشرقي صيدا عملاً بقرار الحكومة الاسرائيلية الذي اتخذته منذ ما يقارب السنة. ولم تنفع كالمرّة السابقة اي اتصالات كي تنسّق الانسحاب مع الدولة اللبنانية، بحيث لا تقع مجازر مشابهة لما وقع في الجبل.

وابتدأ الذعر يدب في صفوف السكان المسيحيين، خوفاً من تكرار احداث الجبل ومآسيها. فقمنا بمجموعة اتصالات في كل الاتجاهات للحيلولة دون وقوع لعنة جديدة ولكن دون جدوى.

وسارعنا إلى عقد اجتماع لهيئة الطوارىء في القوات، التي تحوّلت إلى هيئة تنفيذية جماعية، عُيِّن جعجع فيها رئيساً للأركان، وحبيقة رئيساً للأمن والاستخبارات، وانا رئيساً للدائرة السياسية والاعلامية. واقترحنا انا وسمير ان نتخذ قراراً سريعاً بسحب كل عناصر القوات من الاقليم وشرق صيدا منعاً لحصول معارك عسكرية وبالتالي تجنباً لوقوع عمليات تهجير جديدة. ورأينا ان الظرف الاقليمي غير مؤات لبقاء القوات في هذه المنطقة الجنوبية الشديدة الحساسية. عارض حبيقة الفكرة، واقترح على العكس ان نعزز مواقع القوات، وان يذهب جعجع لدرس الوضع العسكري ميدانياً. وقام سمير بزيارة المنطقة، وعاد بانطباع واضح، وهو انه لا يمكن الاستمرار طويلاً في المواجهة، واصرّ على فكرة الانسحاب. وقمت بمحاولة لتأمين التغطية السياسية لانسحاب القوات، والحصول على ضمانات لمنع تهجير السكان.

تحركت في اتجاهات عدّة، وزرت على رأس وفد من القوات، البطريرك الماروني خريش، وقلت له اننا نحتاج إلى مساعدته لسحب القوات من الاقليم وشرق صيدا. واجابني على الفور: «لم تستأذنوني عندما قررتم الذهاب، فلماذا تستأذنونني عندما تقررون العودة». عندها اصررت على البطريرك كي يجري اتصالات بالفاتيكان لمنع عملية التهجير المتوقعة لكنه اجاب بأن هذا امر سياسي لا يحب التدخل فيه.

واجتمعت بالسفير الاميركي، ريجينالد برثولوميو، وشرحت له خلفيات الانتفاضة مشيراً إلى خطورة الوضع في الاقليم وشرق صيدا، وكان الجواب من ثلاث نقاط: «اولاً لا يمكن للادارة الاميركية التحرك رسمياً الا بطلب من رئيس الجمهورية، ثانياً، ان اسرائيل قررت الانسحاب ولا قدرة لاميركا على تأخيره، وثالثاً، انه لا تأثير للادارة الاميركية على النظام السوري».

عندها قررت ان اعقد اجتماعاً مع امين الجميل، هو الاول منذ الانتفاضة، لأعرض عليه امكانية التعاون، لمنع سقوط الاقليم وشرق صيدا من جهة، ولتطبيع العلاقات بين الكتائب والقوات من جهة اخرى. وردّ الجميل بالقول: «الانتفاضة في ورطة وانا غير مسؤول عنها». فأجبته انه «مسؤول بصفته رئيساً للجمهورية عن كل لبنان، وان الورطة ليست ورطة فئة بل ورطة منطقة بكاملها». وطالبته باجراء اتصالات مع سوريا لوقف تدهور الوضع في مختلف المناطق، خصوصاً وان سوريا كانت تحرّض حلفاءها الوطنيين على قصف مناطق الشرقية. فوافق مشترطاً ان يحصل على كتاب خطي من قيادة الانتفاضة يتضمن تكليفه القيام بالاتصالات مع دمشق.

والواقع اني حاولت غداة قيام الانتفاضة ان اتصل شخصياً بنائب الرئيس السوري عبد الحليم خدام، لاشرح له خلفيات حركتنا واؤكد له انها غير معادية لسوريا، وغير مرتهنة لأي جهة خارجية. وطلبت منه ان ازور دمشق فأجاب: «دمشق مفتوحة لك كالعادة بصفتك الشخصية. لكن استقبالك كمسؤول في الانتفاضة يتطلب قراراً من القيادة لا يمكنني اتخاذه». وفي اتصال ثان شنّ «ابو جمال» هجوماً على الانتفاضة، وما سماه «الرموز الاسرائيلية» فيها وخصوصاً حبيقة وجعجع. وساد لدي انطباع ان دمشق تفضل التعاون مع امين الجميل وليس مع معارضيه.

وبعد فترة ابلغني ايلي حبيقة انه ابتدأ يمدّ خطوطاً مع سوريا عن طريق اتصالات يقوم بها ميشال سماحة رئيس مجلس ادارة تلفزيون لبنان، مع الدكتور رفعت الاسد شقيق الرئيس

السوري. واطلعني على نص رسالة ينوي توجيهها إلى الرئيس الاسد، بغية فتح قنوات مع الحكم السوري.

شجعت حبيقة على هذه الخطوة، واخذت على عاتقي ابلاغ سمير بهذه العملية، وطالبت ميشال سماحة بتسريع الاتصالات لتفادي المآزق المقبلة. واسفرت الاتصالات عن زيارة سرّية قام بها حبيقة لسوريا في ربيع ١٩٨٥، وكانت المرة الأولى التي يزور فيها دمشق ويجتمع خلالها مع مسؤول سوري. وسرعان ما تطورت هذه العلاقة وانتقلت من نائب الرئيس رفعت الاسد إلى خدام. وبقدر ما كانت العلاقة تتطور، كان حبيقة يخفي عنا هذا التطور وكأنه يحضّر شيئا ما.

ووقع ما كنت اخشاه. ففي اواخر نيسان (ابريل) ١٩٨٥، انسحبت اسرائيل من الاقليم وشرق صيدا واجتاحت القوات الجنبلاطية والميليشيات الحليفة لسوريا المنطقة، مما ادّى إلى عملية تهجير جديدة. الانسحاب الاسرائيلي الاول اسقط الجبل، والانسحاب الاسرائيلي الثاني يسقط الاقليم وشرق صيدا. وفي الحالتين تقاطع مصالح وحركة جدلية بين التراجع الاسرائيلي والتقدم السوري. وكأن منطقة الاقليم وشرق صيدا خط تماس سوري — اسرائيلي يدفع المسيحيون للمرة الثانية ثمنه السياسي والعسكري ويتم من خلاله الفرز الطائفي الذي يخدم اسرائيل. وللمرة الأولى منذ نشأة القوات تقلّص امتدادها إلى داخل الشرقية. وانحصرت المقاومة المسيحية فيها وتكدس المهجرون تكديساً. وعلا صراخ المهجرين، وهم اكثر المحرومين حرماناً لانهم ليسوا محرومون من وطنهم، كما هي حال الفلسطينيين، بل محرومون في وطنهم، وهذا هو الانكى. وتحمّل سمير هذه المسؤولية مع انه، وكما في الجبل، تسلّم وضعاً ميؤوساً منه. لكن القدر في احيان كثيرة يبقى اقوى من الارادة؛ وعادت إلى الاذهان صورة سمير «بطل التهجير». ولم تقتصر العمليات العسكرية على الجنوب، بل انتقلت إلى خطوط التماس في بيروت. وهدد نبيه بري باجتياح الاشرفية، وبدأت تحركات عسكرية على كل الجبهات. وعاشت الشرقية فترة احباط وتعاسة.

في ظل هذه الاجواء، عرضت على سمير وايلي فكرة قيام امين الجميل بزيارة دمشق بتكليف منا. وافق سمير على الفكرة، وابدى استعداده لتوقيع كتاب بهذا المعنى في حين اعترض حبيقة. ولم افهم اسباب اعتراضه الا لاحقاً؛ اذ تبين لي انه يريد ان يكون هو المحاور مع دمشق لا امين الجميل.

حررت الكتاب واطلعت حبيقة عليه، فتملص من التوقيع في حين ان سمير وقّعه رفعاً لكل مسؤولية معنوية وحتى لا نفوّت اي فرصة لوقف التدهور. وحملت هذا الكتاب

في ٧ أيار (مايو) ١٩٨٥ إلى الجميل وهذا نصه:

«بناء على الاتصالات التي جرت فيما بيننا حول موقف الانتفاضة من الشؤون الوطنية والسياسية والامنية، ومنعاً لكل تأويل او سوء فهم، نتقدم من فخامتكم بالتأكيدات التالية:

اولاً: تعلن الانتفاضة ان لا علاقة لها باسرائيل وهي على اتم الاستعداد لاتخاذ التدابير المترتبة على هذا الاعلان.

ثانياً: توافق الانتفاضة على التوجهات الحالية للحكم في ما يتعلق بإقامة علاقات وثيقة مع الجمهورية العربية السورية، وهي راغبة تماماً في اتخاذ المواقف الملائمة لهذه التوجهات.

ثالثاً: ترى الانتفاضة انه لا بد من اصلاحات جذرية في البنية السياسية والادارية للدولة اللبنانية انطلاقاً من المسلّمات المتفق عليها في حكومة الوحدة الوطنية.

رابعاً: تعتبر الانتفاضة ان سيادة لبنان واستقلاله ووحدته تتم عن طريق موافقة كل الاطراف على بسط الشرعية اللبنانية على كامل اراضي لبنان وهي مستعدة في هذا الاطار إلى تسليم الشرعية جميع المرافق.

هذا ما رأينا تأكيده لكم مساهمة منا في وقف الاقتتال والوصول إلى حالة السلام والاستقرار التي يستحقها وطننا لبنان».

وفي ٩ أيار (مايو) ١٩٨٥، وفيما كنا مجتمعين في الهيئة التنفيذية، قام حبيقة بعملية استعراضية اذ سألني اذا كان امين الجميل تسلم كتاباً من سمير ومنّي فرددت بالايجاب، فلامنا وعدّ هذا العمل بمثابة تفرُّد وخروج عن القيادة الجماعية.

وكان الجو معبأ ضد امين، فظهر ارسال الكتاب بمثابة انحراف عن خط الانتفاضة. وايدت اكثرية الاعضاء موقف حبيقة، الذي اغتنم الفرصة واقترح امرين: الاول التخلي عن القيادة الجماعية والانتقال إلى القيادة الفردية، ورشّح نفسه رئيساً، والثاني اصدار بيان عن الهيئة التنفيذية يدعو فيه إلى الحوار مع دمشق. واخرج حبيقة من جيبه بياناً مكتوباً وعرضه على الحاضرين.

وفاجأني البيان، ليس فقط لجهة محتواه، بل خاصة لجهة صياغته، اذ اكتشفت فوراً ان هذه الصياغة هي صياغة سورية اكثر مما هي لبنانية؛ وكأن هذا البيان اعدّ في دمشق وليس في بيروت. وفاجأني المحتوى، اذ ان ايلي حبيقة يطالب وللمرة الأولى بعلاقات مميزة مع سوريا. عندها فهمت ان تصرف ايلي حبيقة هو اكثر من اعتراض على كتاب مرسل إلى امين الجميل، بل انه نتيجة لاتصالات مع سوريا، يريد حبيقة الاستئثار بها. في هذا الاجتماع اتخذت وسمير موقفاً دفاعياً. وعرض حبيقة ان يبقى سمير رئيساً للاركان، لكنه طلب ان اصبح رئيس الدائرة الاعلامية فقط على اساس ان الامور السياسية اصبحت من

صلاحية رئيس الهيئة. وتمّ انتخاب حبيقة رئيساً للهيئة التنفيذية باجماع الحاضرين. وتعمدنا انا وسمير التصويت لمصلحته حفاظاً على وحدة الانتفاضة.

خرجت من الاجتماع حزيناً وفي فمي طعم المرارة. واحسست ان درب رفاق الانتفاضة كان قصيراً وتجربة القيادة الجماعية الشابة لم تعمّر طويلاً. وانتابني شعور المطعون بالصميم والمخدوع بلا مبرر. واكتشفنا فجأة ان الانتفاضة انتهت وان الصراع على السلطة في اشده، وهو منطق اليأس من الحل. وخلوت بسمير في مكتبه لفترة قصيرة وكنت غاضباً لكنه فاجأني بهدوئه وقال لي: «بسيطه. لازم نتصرف بحكمة. ما يهمك خلي ايلي عليّ». في تلك اللحظة تأكدت اننا دخلنا عصر الانتفاضات مجدداً.

واحتدم الخلاف بين سمير وايلي وسرعان ما انتقلت تفاصيله إلى الرأي العام. وتعمد ايلي ابراز ما حدث على انه انقلاب ناجح قاده ضد سمير وضدي، واطلق عليه تسمية «حركة ٩ ايار». وسرّبت اوساطه المعلومات خصوصاً إلى صحيفة «السفير». واحتدم الصراع على السلطة.

راح سمير يركّز على تنظيم العسكر استعداداً لانتفاضة جديدة، ورحت أُنظِّم الاعلام فاطلقت تلفزيون المؤسسة اللبنانية «ال. بي. ثي»، وبدأ حبيقة طريقه الصعب والطويل في مفاوضات منفردة وسرّية مع دمشق ادّت إلى الاتفاق الثلاثي.

لم يدرك حبيقة ان ثمن المفاوضات المنفردة سيكون باهظاً. وقد اشترطت دمشق لفتح الحوار معه، ان يتعهد خطياً بمشروع يتضمن نظرته إلى الاصلاح السياسي والعلاقات المميزة مع سوريا. ووجَّه حبيقة في هذا الاطار رسالة اولى، عدَّها خدام غير كافية وطالب بتعديلات واضافات مما حمل حبيقة على توجيه رسالة ثانية. وكانت الرسالتان بمثابة النصوص الاساسية التي تكوَّن منها الاتفاق الثلاثي. طبعاً لم يعلمنا حبيقة باتصالاته ولا برسالتيه. وكنا انا وسمير، نتلقى معلومات جزئية عن اتصالات بين سوريا والقوات من اطراف ثالثة.

وفي تموز (يوليو) ١٩٨٥ وبلا سبب مقنع، قصفت المدفعية السورية وحلفاؤها كل الشرقية واستهدفت خصوصاً منطقة كسروان. طلب حبيقة عقد اجتماع مشترك ضمني وسمير ومجموعة صغيرة. وخلال الاجتماع لجأ حبيقة إلى عرض الاوضاع بشكل دراماتيكي واختصر كلامه قائلا: «اما المدفع السوري واما الحوار مع سوريا وعلينا ان نختار». وسألته على الفور «هل تقبل دمشق بحوار مع القوات؟» فأجاب: «عندي بعض المعطيات التي

تسمح لي بالاعتقاد ان سوريا قد تقبل، شرط ان نقدم مشروع حل لانهاء الحرب». لم نمانع في ان يبدأ حبيقة بهذه الاتصالات، وكنا نجهل تماماً انها قد خطت خطوات متقدمة من خلال الرسائل والموفدين.

وفجأة ساد الهدوء المناطق الشرقية وصمتت المدافع. وابتدأت تتوضح محاولة جديدة من نوعها، تقوم بها سوريا، وهي تنظيم اتفاق بين الصقور المتحاربين وكأنه خاب ظنها في الاتفاق مع السلطات الشرعية والزعامات التقليدية.

وفي صيف ١٩٨٥ تأكدت لي هذه الصورة عندما اطلعني حبيقة على ان الحوار سيبدأ بين القوات اللبنانية وحركة «امل» بزعامة نبيه بري، والحزب الاشتراكي بزعامة وليد جنبلاط، برعاية سورية.

إنقلاب على الدستور

في الواقع، فشل العديد من الاتفاقات بين الشرعيات. انهارت عام ١٩٧٦ الوثيقة الدستورية المنظمة بين الدولتين اللبنانية والسورية في عهد سليمان فرنجية. ولم تُنَفَّذْ أيّ من النقاط العشر التي اعلنها رئيس الجمهورية الياس سركيس بالاتفاق مع رئيس الحكومة سليم الحص. ولم تر النور المبادىء الوفاقية التي اقرّها البرلمان اللبناني بمبادرة من الرئيس كامل الاسعد. ولم تجد المشكلة اللبنانية حلاً من خلال مؤتمري المصالحة الوطنية في جنيف ولوزان اللذين شاركت فيهما سوريا والسعودية بالاضافة إلى الشخصيات والفعاليات الحاكمة والمعارضة في لبنان باستثناء القوات. واستخلصت دمشق درسين اساسيين من كل هذه المحاولات الفاشلة: اولهما، ان كل اتفاق سيتعثر ما لم تشارك فيه الميليشيات، وثانيهما، ان التعامل مع امين الجميل لن يوصل إلى نتيجة، وقد يكون حبيقة هو المحاور المسيحي البديل.

انتقلت دمشق من سلام الجمهورية إلى سلام «الجمهوريات» وكأنها يئست من اتفاقات الحمائم ففضّلت اتفاق الصقور. ورأيت ان هذا النوع الجديد من الحوار، يشكل تحولاً عميقاً في السياسة السورية تجاه لبنان. وخشيت ان يكون الثمن باهظاً لأن اتفاق المتطرفين لا يمكن الا ان يكون اتفاق الحد الاقصى، في حين ان اتفاق المعتدلين يمكن ان يكتفي بالحد الادنى. وشعرت ان هذا الحوار الثلاثي يخرج على تركيبة لبنان السياسية. فلبنان تسوية تاريخية وجغرافية لا تتحمل اتفاق المتطرفين ولا الصيغ القصوى. وكنت في حيرة لأني اعرف ان الرئيس الاسد يعي مفهوم التسوية هذا، في حين ان مفاوضات الميليشيات تسير في اتجاه مغاير.

في ١٩ أيلول (سبتمبر) ١٩٨٥ زار دمشق وفد من القوات اللبنانية برئاسة ايلي حبيقة، وقوامه ميشال سماحه واسعد شفتري وشارل غسطين وجان غانم وعساف كفوري، واجتمع طول النهار مع عبد الحليم خدام والعميد غازي كنعان وشرح حبيقة اهداف

حركته على الصعيدين الداخلي والخارجي ومحتوى الرسائل التي وجهها. وقال: «نحن جيل الحرب لسنا مسؤولين عن الحرب ولا عن نتائجها. عملنا ثورة في الداخل من دون سفك دماء. نحن مع التغيير كي يصير البلد ملك الكل. نريد ان ننتقل من مجتمع منعزل إلى مجتمع وطني، وان نبني علاقات جديدة مع كل الاطراف. ونعتقد ان الانتقال من نظام الطائفية الاعمى إلى الغاء الطائفية الكامل يتطلب مرحلة انتقالية». وشدد على العلاقة مع سوريا، وتابع: «كنا لا نعرف عن سوريا الا القذائف وسجن المزة، هذا ما تعلمناه داخل المؤسسات التي خرجنا عليها. اخذنا خياراً جديداً هو الخيار العربي، ولا نريد ان نعمل قراءات خاطئة كاسلافنا. نحن نرى ان لبنان موجود في منطقة عربية وعلى حدود سوريا. ونرغب في بناء علاقات مميزة بين البلدين».

حاضر خدام في الوفد طويلاً. واشار إلى ان القيادات التقليدية والرجعية العربية، وخصوصاً ياسر عرفات، يتعمدون القراءة الخاطئة عن سوريا فيتناسون انها نظام تقدمي واشتراكي وعلماني. وذكر انه حذّر القيادات المسيحية، وخصوصاً بشير الجميل وداني شمعون، من مغبة التعامل مع اسرائيل وقال لهم: «لا احد يستطيع ان يلعب باسرائيل واذا اردتم الاستقواء بها فانتم اغبياء. اسرائيل تستقوي بالكل وتستخدم حتى الولايات المتحدة الاميركية لتحقيق مصالحها... كل فريق تدعمه اسرائيل تكون سوريا ضده حتى الموت، وحيث تقف اسرائيل نقف في الطرف الآخر. نرحّب بخياركم العربي، ومما لا شك فيه ان هذا الخيار يتطلب تعبئة شعبية كبيرة تشرح مخاطر الخيار الاسرائيلي».

وكان خدام ينتقد دوماً الذهنيات التقليدية وممارساتها الطائفية. لكنه هذه المرة ركّز على ضرورة تغيير اساس النظام. ودعا إلى اعلان الثورة من قبل الميليشيات، ومما قاله: «ضمانة المواطن الحقيقية تنبع من نظام عادل ومجتمع متماسك ووطن قوي. في البدء علينا ان نتفق على ضرورة بناء مجتمع لبناني جديد وعلى مبادىء دستور وطني جديد واستبدال الانتماء الطائفي بالانتماء الوطني، ومن ثم نحدد المرحلة الانتقالية اللازمة. والواقع ان كل طائفة بنت لنفسها كياناً طائفياً، ومن خلال التوزيع الطائفي لا مكان لمفهوم الوطن ولا للجيل الجديد. علينا ان نعترف ان النظام اللبناني لم يعد قابلاً للترميم، وان التفتيش عن حل من خلال ترميم النظام القائم هو هدنة وليس حلاً. الترميم يوصل في احسن احواله إلى هدنة جديدة تحضّر لحرب جديدة. وللتاريخ أقول ان عرفات مسؤول عن حرب لبنان منذ مجيئه من الاردن. ولكن لو لم يفجّرها الفلسطينيون كانت ستنفجر ثورة اجتماعية، وكان الامام موسى الصدر ينوي محاصرة بيروت عام ١٩٧٣ بحركة المحرومين... انتم بحاجة

إلى هزة كبيرة كما فعل البولشفيك لاقتلاع جذور الاباطرة». تكلم ابو جمال للمرة الأولى عن «الثورة» بدل «الاصلاح».

وانهى خدام عرضه مشيراً إلى ان صورة القوات كانت سيئة جداً في سوريا وانها «الذراع التي نفّذت كل رذالات القيادات السيئة» واشاد بحركة ٩ ايار (مايو) التي بدّلت صورة القوات القذرة، وسهّلت الحوار الوطني. وقال للوفد مطمئناً: «عندما نتعامل مع احد، لا حدود لتعاملنا معه. اننا نغطي له كل سلبياته ونجيّر له كل ايجابياته». وعاد حبيقة من دمشق وهو مصمم على السير في الاتفاق الثلاثي وتعهد ببدء المفاوضات مع ممثلين من امل والحزب التقدمي الاشتراكي، وفي نيته ازاحة كل العقبات التي تعترضه.

وفي منتصف ايلول (سبتمبر) سلّمنا حبيقة أنا وسمير، النسخة الاولى عن مشروع الاتفاق الجاري اعداده. ومن القراءة الاولى وجدته انقلاباً على الدستور؛ لانه يتجاهل المؤسسات الشرعية، وتحولا عن الميثاق الوطني لانه يطرح تعديلات لا تتحملها المعادلة اللبنانية ولا المعادلة العربية. ومع موافقتي التامة على المفاوضات السياسية الجارية ابتدأت اتخوف من نتائجها.

وراحت الاتصالات تتكثف. على خط دمشق كان حبيقة قد كلّف ميشال سماحة واسعد شفتري متابعة المفاوضات. وشارك في المرحلة الاخيرة منها الوزير ميشال المر. في المقابل كان حبيقة يدير مباشرة عملية تسويق الاتفاق داخل الشرقية، ويركّز على اثنين هما سمير جعجع وكميل شمعون، متجاهلاً امين الجميل وحزب الكتائب.

كان موقف سمير دائماً متحفظاً حيال كل ما يجري من دون معارضة الاتصالات بحد ذاتها. وراوح موقف كميل شمعون بين الاطلاع وابداء الملاحظات والانتقادات. وساد جو من الوجوم التام. وسرعان ما تحوّل مشروع الاتفاق الثلاثي إلى خلاف حاد داخل الشرقية. ومع الانقسام زادت مخاوفي، ورحت اعمل كي لا يتحوّل الاتفاق الثلاثي إلى مواجهة عسكرية في شوارع الشرقية.

وكثيراً ما ذكرت في هذه المرحلة أن كل اتفاق، مهما كان جيداً، يصبح سيئاً حين نختلف عليه، وان كل اتفاق مهما كان سيئاً يصبح جيداً اذا اجتمعنا حوله. وتعمدت ان اتحاور طويلاً مع حبيقة، وبالاتفاق مع سمير، حول بنود هذا المشروع. وكنت اتقدم بالملاحظات والتعديلات ولم يكن حبيقة يملك اجوبة بقدر ما يتسلح بموقف يقول: «لا خيار لدينا: اما المدفع واما الاتفاق». وعندما اشتدت المعارضة ابتدأ حبيقة يقرأ كتاب

«الامير» لمكيافيل ويذكّرنا بقول ستالين عندما وقّع الاتفاق مع هتلر ويردد: «سأوقّع اتفاقاً ورغبتي الحقيقية هي في تمزيقه في اقرب وقت».

وشعرت ان حبيقة يعاني مأزقاً كبيراً وحاولت ان اساعده عن طريق ايجاد المخارج اللائقة. وكل مرة كنت اتقدم فيها بملاحظات كان حبيقة يصغي بكثير من الاهتمام ويطلب من مساعده الشفتري نقلها إلى دمشق، والسعي إلى تعديل النص. وفي كل مرة كان الشفتري يعود بجواب سلبي من دون أي تعديل، فيرضخ حبيقة ويطلب مني صرف النظر عن هذه التعديلات. لم اكن افهم موقف حبيقة، لأني كنت اجهل وجود رسائل مسبقة والتزامات سبقت بدء الحوار بينه وبين دمشق.

بدأ تسويق الاتفاق الثلاثي في الشرقية وكان حبيقة يركّز عليه كمشروع سلطة لا كمشروع حل. وكان يجتذب الشخصيات والاحزاب عن طريق فكرة تعيين عدد من النواب وتأليف حكومة اتحاد وطني موسعة من ستة وعشرين او ثمانية وعشرين وزيراً. ولم يكن يخفي ان الاتفاق سيسمح للقوات بأن تعيّن ما يقارب ثلاثين نائباً وعشرة وزراء. وتوغّل حبيقة في هذا المنطق، وابتدأ يعرض على جعجع اقتسام النواب والوزراء مناصفة. لكن بقدر ما راح الاتفاق الثلاثي يأخذ منحى مشروع سلطة، تحوّلت المعركة إلى حرب سلطة داخل الشرقية.

وتحرك ايلي حبيقة لتعديل ميزان القوى لمصلحته واسكات كل معارضة للاتفاق، فبدأ باحكام العزلة على امين الجميل واقصائه عن القرار. وطلب حبيقة مني بصفتي رئيساً للدائرة الاعلامية ان اصدر بياناً اعلن فيه «اشراف» القوات على جريدة «العمل» فرفضت وقلت له: «أنا غير موافق على المس بحرية الكلمة وأرى ان دوري في القوات هو حماية هذه الحرية لا قمعها.لقد اختلفنا مع امين الجميل لأنه اوقف عرض مسرحية تنتقده، فلا يجوز ان نوقف صحيفة تنتقدنا؛ الذي لا يتحمل الكلمة لا يمكن ان يحمل قضية». وامام رفضي اصدر حبيقة باسم جهاز الامن في القوات بياناً بوضع اليد على «العمل». وشرع في الوقت نفسه في محاصرة حزب الكتائب فاحتل جريدة «العمل» وراح يصدرها باشرافه بعدما وضع رئيس تحريرها جوزف ابو خليل في الاقامة الجبرية وعيّن محله سجعان قزي. وتزامنت هذه العملية مع حركة تصحيحية داخل حزب الوطنيين الاحرار قامت بها مجموعة بقيادة شارل غسطين وايلي اسود، اربكت الرئيس شمعون.

وسّع حبيقة علاقاته بالبطريركية المارونية وبمختلف المراجع الروحية، واعتمد قنوات عدة، منها المطارنة والرهبان وعدد من الشخصيات السياسية.

وساعدت سوريا حبيقة، عن طريق اظهاره بنقيض ما يفعل اي كموحد للمسيحيين؛ فأمّنت له لقاء مع سليمان فرنجية في اهدن. وكان هذا اول لقاء بين فرنجية ومسؤول عن القوات منذ عملية اهدن، عام ١٩٧٨، التي قتل فيها النائب طوني سليمان فرنجية نجل الرئيس السابق. كما رتّبت الاجهزة السورية له زيارة قام بها إلى زحلة، وكانت اول زيارة يقوم بها لهذه المدينة مسؤول كبير في القوات منذ حصار زحلة عام ١٩٨١. واطلقت دمشق عدداً من عناصر القوات الموقوفين لديها مما أدّى إلى تعزيز موقع حبيقة داخل الشرقية والقوات معاً.

حيال كل ما يحدث كنت اشعر ان الاتفاق الثلاثي هو مشروع حرب جديدة اكثر مما هو مشروع سلام موعود. ووقعت حوادث امنية مشبوهة في الشرقية: تهديدات واحتجاز حريات وتفجيرات، كعملية دير عوكر التي استهدفت اركان الجبهة اللبنانية، وبينهم كميل شمعون، وايلي كرامة رئيس حزب الكتائب. وتزامن ذلك مع عملية تسابق محموم داخل القوات بين جعجع وحبيقة.

في كل يوم كنت اشعر اننا نقترب خطوة اخرى من ساعة المواجهة. وكاد الانفجار ان يحصل في ٤ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٨٥، عندما اندلعت معركة عنيفة في محيط مقر قيادة القوات في الكرنتينا بين قوات جعجع وقوات حبيقة، فأمضيت النهار امهّد لعقد اجتماع بين سمير وايلي. كانت وجهة نظر جعجع ان ايلي يحاول ان يستأثر بالسلطة بالتقسيط. وكانت وجهة نظر حبيقة ان سمير سيىء النية ويتآمر عليه. الشكوك متعاظمة والتهم متبادلة ولكن القوى متوازنة.واعتمدتُ منطق توازن القوى ليلمس الطرفان ان الحسم غير ممكن والتفاهم هو الطريق الوحيد. وعقدنا اجتماعاً في منتصف الليل في مكتب حبيقة. وجّه حبيقة تهمة التآمر إلى سمير قائلاً: «عم تحضّر انتفاضة عليّ. وهذا غير مسموح. وانا مش كالوش». وردّ سمير بالعنف ذاته: «انت عم تحتكر السلطة. وهذا غير مقبول. وانا مش كالوش كمان». وانتهى الاجتماع بأن اقتنعنا ان ما يحدث «جرصة» وانه سيظهر كـ «لعب اولاد». وتوقفت الاشتباكات، غير ان آثارها لم تتوقف.

وبينما كنت اتابع المفاوضات حول الاتفاق الثلاثي، سعياً لايجاد حل متوازن لا يفوّت فرصة انهاء الحرب في لبنان وفي الوقت ذاته لا يفجّر حرباً جديدة في الشرقية، كان سمير يعكف على درس سبل الرد في حال وافق حبيقة على حل غير متوازن مع سوريا. وبدأ سمير اتصالات مكثفة مع امين الجميل. وتداخلت الخطوط: بموازاة الاتصالات السرّية التي كان حبيقة يقوم بها مع الحكم السوري كان سمير يقوم باتصالات سرّية مع الحكم اللبناني.

اتخذت الاتصالات بين حبيقة ودمشق طابع الدبلوماسية السرّية، لا بل طابع الدبلوماسية المخابراتية. والاتصالات بين امين الجميل وسمير جعجع كانت سرّية ولا تتم في قصر بعبدا ولا في الكرنتينا بل من خلال وسطاء. وقد كلف الطرفان مقربين مؤتمنين لديهما بالتحضير للمواجهة العسكرية المحتملة. واختار سمير لهذه المهمة نادر سكر وجورج كساب وغسان توما وبول عنداري، وفي المقابل عيّن امين الجميل من قبله كلاً من جورج قسيس وسمعان كرم وسامي خويري.

في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٥ انفجرت «حرب المخيمات» بين امل والفلسطينيين. وشعرت وكأن موضوع الاتفاق الثلاثي قد طوي وان احتمالات الانفجار العسكري في الشرقية تراجعت. ولكن قبيل عيد الميلاد فوجئنا بدعوة وجهها حبيقة لاجتماع طارىء للهيئة التنفيذية في القوات، وزّع خلاله نسخة عن الاتفاق الثلاثي وطلب منا ان نوافق عليه، مشيراً إلى انه سيتوجه إلى دمشق خلال يومين. جرى نقاش حاد اصرّ حبيقة في نهايته على التصويت، فجاءت الاصوات متعادلة: ستة في مقابل ستة، وامتنع الدكتور جورج فريحة عن التصويت، مما سمح لحبيقة بالقول: «في حال التعادل فان صوت الرئيس هو المرجّح». وهكذا عدّ ان الهيئة التنفيذية قد وافقت، ورأيت انا ان هذا الوضع هو بداية الانفجار. وطلبت ان تعقد اجتماعات على مستوى الجبهة اللبنانية برئاسة كميل شمعون وبحضور حزبي الكتائب والاحرار وباقي التنظيمات. لكن الاقتراح سقط، واستعاض عنه حبيقة بعقد اجتماع موسّع في مقر البطريركية المارونية وبحضور حشد من فاعليات الشرقية وشخصياتها.

كان الاجتماع دراماتيكياً في ٢٧ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٥؛ الصراع الحقيقي هو بين جعجع وحبيقة، والباقون مجرد شهود. تبادل الرجلان الحجج العلنية والتهديدات المبطنة. كان سمير يحاول تأخير المواجهة العسكرية عن طريق تأجيل التوقيع على الاتفاق، في حين ان حبيقة كان مستعجلاً على التوقيع لأنه التزم تجاه دمشق. جعجع يريد تحاشي المجابهة وحبيقة لا يقدر على تحاشي التوقيع. من هذه الخلفية شرح حبيقة الاتفاق الثلاثي مطولاً امام المجتمعين في بكركي ودافع عنه بنداً بنداً وانهى مرافعته بالقول: «انا ذاهب إلى دمشق لتوقيع هذا الاتفاق غداً، فاذا كان حسناً، فإنكم ستستفيدون منه جميعكم واذا كان سيئاً فـإني اتحمّل المسؤولية وحدي». وتكلم جعجع مطولاً مشيراً إلى مخاطر الاتفاق ومحاذيره وانهى كلامه مخاطباً حبيقة بطريقة مؤثرة «ارجوك ان لا توقّع هذا الاتفاق وخذ ما تريد». كان كميل شمعون متعباً، واكتفى بافتتاح الاجتماع وغادر بعد قليل. واعتصم

ايلي كرامه، رئيس حزب الكتائب، بالصمت وبالمعارضة. وتعمّد باقي السياسيين العموميات كعادتهم وتحاشوا المواقف الصريحة. اما انا فكنت حاضراً جسدياً وغائباً فكرياً وكنت اشعر ان ما كتب قد كتب واننا على ابواب «التجربة الكبرى».

ورغبة مني في تجنّب هذه التجربة، وانقاذ الوضع في اللحظة الاخيرة، ومع انني صوّت ضد الاتفاق، واعلنت موقفي عبر التلفزيون، فقد قررت المغامرة برصيدي الشخصي والتوجه إلى دمشق لاشرح وجهة نظري للقيادة السورية، وان اتابع الاقتراحات التي كنت تقدمت بها لعلها تكون مخرجاً لائقاً للجميع. وتوافقت وسمير على ان اذهب على مسؤوليتي الشخصية، وابلغت حبيقة باستعدادي للذهاب معه على الرغم من معارضتي للاتفاق.

والواقع انه اثناء الاجتماعات السابقة وبعدها تركّز الخلاف او النقاش على نقطتين: الاولى، تقليص صلاحيات رئاسة الجمهورية والاصلاحات الداخلية، والثانية مفهوم «التكامل الاستراتيجي» والعلاقات المميزة بين لبنان وسوريا.

ورأيت شخصياً ان موضوع صلاحيات رئيس الجمهورية والاصلاحات الداخلية موضوع لبناني يمكن اعادة البحث فيه عندما يُعرض الاتفاق الثلاثي على مجلس النواب، واقترحت اضافة بند وحيد يؤكد ان هذه الاصلاحات لا تصبح نافذة الّا بعد ان تتخذ الصفة الشرعية وفق الاصول الدستورية.

أما النقطة الثانية، وهي الاكثر حساسية. فكانت تتعلق بمفهوم التكامل الاستراتيجي وكنت اصرّ على الاستعاضة عن كلمة «تكامل» بكلمة «تنسيق»، او بتفسير معنى التكامل بحيث يصبح مفهوم علاقة تنسيقية بين دولتين كل منهما ذات سيادة، وليس مفهوم اندماج بين الدولة اللبنانية والدولة السورية. وبعد اتصالات قام بها حبيقة مع دمشق نقل إليّ عن لسان نائب الرئيس السوري عبد الحليم خدام موقفاً ومفاده ان لا مجال لاجراء أي تعديل في الساعات الاخيرة على اتفاق استوجب تنظيمه اشهراً طويلة وانه مستعد ان يعطي «ضمانات شفوية» حول موضوع التكامل على ان تُعدّ هذه الضمانات جزءاً لا يجتزأ من الاتفاق او ملحقاً له. عندها فهمت ان دمشق تركت باب الحوار حول تعديل الاتفاق مفتوحاً، مما شجعني على التوجه اليها علّنا نتفادى ما كنت اخشى وقوعه.

في الطريق إلى دمشق في الثامن والعشرين من كانون الأول (ديسمبر)، كان حبيقة يقود السيارة وانا إلى جانبه. كان يحلم وكنت افكر. وعندما وصلنا إلى البقاع وانبسط السهل امامنا قال: «بتعرف يا كريم، هلق عمبكتشف لبنان». وفهمت ان حبيقة خرج من قوقعته الاستخباراتية داخل القوات واخذ يفتش عن بعد سياسي على مستوى طموحاته. اما انا

فكنت افكر في لقائي المرتقب مع الرئيس الاسد الذي لم التقه منذ خمس سنوات، وكنت عرفته قبل اثني عشر عاماً في إطار قيامي بأول اتصال بين حزب الكتائب والقيادة السورية. وكنت اتصور، خلال الرحلة ان الاسد يعلم تمام العلم الموازين والتوازنات في لبنان ويدرك ان الاتفاق الثلاثي اكبر من أن يتحمله ايلي حبيقة وحده. وسألت ايلي: «هل التقيت الرئيس الاسد قبل هذه المرة؟» واجاب: «لا، انه اللقاء الاول». وفهمت اننا ذاهبون إلى مغامرة جديدة مفتوحة على كل الاحتمالات.

غريب قدر هذا الرجل الجالس إلى جانبي. قذفته هذه الحرب عام ١٩٧٥، وكان دون العشرين، من موظف هادىء في مصرف إلى رجل مخابرات فاعل في ميليشيا الكتائب. بدأ التزامه الحزبي في فرقة الـ «ب. ج.» الكتائبية، والتي اختيرت تسميتها من الحروف الاولى من اسمي بيار وبشير الجميل. وسرعان ما احتل الموقع الامني الاول في القوات اللبنانية في مرحلة بشير. انه الرجل الظل الذي خرج من المجهول خلال الحرب ليظهر على المسرح مع انتفاضة ١٢ آذار (مارس). لكنه بقي سراً من اسرار الحرب. قوته في غموضه، وغموضه جزء من شخصيته، وككل رجال المخابرات له عدّة وجوه بل عدّة اقنعة لكل وجه من وجوهه.

شدته تجربة الحرب قبل ان يكمل علومه الاكاديمية، وقبل ان تكتمل شخصيته الانسانية، وقبل ان تتبلور قناعاته الوطنية. دخل الحرب كالعديد من الشباب اللبناني، وهو لم يبلغ بعد سن النضج السياسي، فاعتمد ذكاءه ودهاءه ليغطي قلة معرفته وخبرته بالناس والسياسة والحياة. انه من اذكى شباب القوات اللبنانية الذين اعرفهم فرداً فرداً. جسمه الرياضي الكبير يؤهله ليكون عسكرياً ناجحاً. لكن عقله بدا اكبر من عضله، مما حمل رجال «الموساد» على ان ينصحوا بشير بأن ينقله من الميدان العسكري ويسلمه جهاز الامن والاستخبارات. وفي اول لقاء له مع عبد الحليم خدام، سأله هذا الاخير عن الدروس التي حصّلها فأجاب: «التجارة». وامام استغراب خدام، اضاف ايلي: «التجارة... والحرب».

بعد غياب بشير، بدأت القوات مرحلة الانحسار في كل اجهزتها ما عدا جهاز ايلي حبيقة، الذي راح ينمو ويتحوّل إلى حجر الزاوية داخل القوات اللبنانية وحزب الكتائب. فرض ايلي نفسه في صورة العين الساهرة على امن المجتمع المسيحي، والعصا الغليظة الممسكة به. كما فرض نفسه كشريك لا بد منه في انتفاضة ١٢ آذار (مارس). وعى ايلي بسرعة ان اسرائيل قادرة ان تصنع منه رجل مخابرات ناجحاً، ووحدها سوريا قادرة ان تحوّله

إلى رجل سياسي بارز. وراح من خلال علاقته مع سوريا يكتشف العالم العربي. وكان لا يعرف من محيطنا الا اسرائيل. كما راح يكتشف الاسلام والمسلمين في لبنان وكان لا يعرف قبلاً الّا المارونية الكتائبية والمسيحية. ورأى في الاتفاق الثلاثي فرصة لكي يتحول من رجل حرب إلى رجل سلام. وكان يردد في فترة المفاوضات التي سبقت هذا الاتفاق. «انا لا افهم بالدستور، انا افهم بالحرب واريد انهاء الحرب».

غلطته انه استعجل الوصول فقام بانقلاب متسرع في ٩ ايار (مايو) ١٩٨٥. كما استسهل الحلول وتجاهل الثوابت، فوقّع منفرداً الاتفاق الثلاثي وكأنه وقع فيه. لكن ايلي لم يستسلم وتحمل الصدمة التي اطاحت به في ١٥ كانون الثاني (يناير) ١٩٨٦ واخرجته من قيادة القوات اللبنانية ومن الشرقية. وحاول ان يسترجع ما فقده بسرعة، فأقدم في ٢٧ أيلول (سبتمبر) ١٩٨٦ على اختراق الاشرفية وفشل وتعلّم الدرس وفهم نعمة الصبر. وصبر خمس سنوات طويلة ومضنية، وقهر ذاته والمصاعب ليعود عام ١٩٩٠ وزير دولة، في حكومة الاتحاد الوطني برئاسة عمر كرامي، ورئيس حزب سياسي اطلق عليه اسم «الوعد». وهو ما زال يتصرف كأنه على موعد مع القدر.

وصلنا إلى دمشق براً، وكانت قد سبقتنا اليها عشرات الشخصيات اللبنانية، وكان في انتظارنا نبيه بري واركان حركة «امل»، ووليد جنبلاط ومسؤولون في الحزب الاشتراكي، بالاضافة إلى استنفار اعلامي كبير. وكانت القيادة السورية كاملة، في حالة جهوزية والجو في دمشق جو احتفال. وارجأ حافظ الاسد اجتماعه بالعاهل الاردني، الملك حسين، ليشرف على مناخات توقيع الاتفاق الثلاثي. وقد عبّر عن هذا الجو في اجتماع موسع مع ممثلي الفعاليات المسيحية عندما استهل كلامه بالقول: «هذا يوم فرح كبير في سوريا».

بدأ الأسد حديثاً طويلاً كرر فيه ثوابت سياسته اللبنانية، وكان يمازح بعضنا ويوجّه كلامه إلى بعضنا الآخر. وخصني بالكلام مرات عدة مستشهداً بي حيناً ومنتقداً كتابي «السلام المفقود» أحياناً. وتوقف طويلاً عند نقطة محورية تتعلق بمفهوم سوريا للتكامل الاستراتيجي مع لبنان ومما قاله: «نحن في سوريا بعثيون وجيشنا جيش عقائدي ونُعدُّ الوحدة العربية من أهدافنا المركزية. الشعب السوري وحدوي بالسليقة، ومستعد للانخراط في أي وحدة مع أي دولة عربية ترغب في الوحدة مع سوريا. نحن معنيون بكل ما يحدث في اي قطر عربي، ومنفتحون على كل دولة عربية، ومستعدون أن نبني علاقات الحد الأدنى أي التعاون، وعلاقات الحد الاقصى أي الوحدة. درجة العلاقة مرتبطة بقدرة أي دولة عربية ورغبتها في التعاون أو الوحدة أو ما بينهما. إن الوحدة العربية رسالة عندي؛

وسوريا مستعدة لاعلان الوحدة ولو مع موريتانيا فكم بالأحرى مع لبنان».

وتوقف برهة ونظر إلى الحاضرين وأضاف: «الجيش السوري لم يدخل لبنان لاقامة الوحدة معه. الجيش السوري دخل لبنان لاعادة وحدته. ومن منطقي الوحدوي بالذات رأيت ان إعادة توحيد لبنان لها أسبقية على إقامة الوحدة معه. فما نفع الوحدة اذا كان لبنان مقسماً؟ لقد دخل الجيش السوري لبنان من منطق اعادة وحدته وليس من منطق الوحدة معه. وفي مفهومي ان وحدة لبنان تتم بالوفاق بين اللبنانيين. وكنت قد قررت اما سحب الجيش السوري من لبنان عام ١٩٧٨ بعد حوادث الفياضية حين تعرضت وحدات منه لاعتداء مفضوح، واما ان يوافق الرئيس الياس سركيس على ان يدخل الجيش السوري الشرقية، وقلت له: ما اعرضه عليك حل سيىء وأتمنى ان تجد حلاً أقل سوءاً. ووافقت على حل لا يقبل به أي رجل سواي شرط انهاء الاقتتال وتنشيط الوفاق».

وراح الرئيس السوري يستذكر مراحل حرب لبنان، والمبادرات السورية للوفاق، من الوثيقة الدستورية عام ١٩٧٦ إلى الاتفاق الثلاثي. وأشار إلى العرض الذي قدّمه كميل شمعون عام ١٩٧٧ وقال لي: «أنت تتذكر، يا أخ كريم، ان الرئيس شمعون عرض علينا مرة إقامة كونفدرالية تضم سوريا ولبنان والاردن ولم تشر إلى ذلك في كتابك». وأضاف يقول: «في سوريا نحن اول من اعترف بلبنان. ونحن نعلم ان الاستعمار قد قسّم المنطقة إلى كيانات فأعلن لبنان الحالي، وحاول ان يقيم سوريا المقسَّمة. نحن في محافظة اللاذقية رفضنا تقسيم سوريا ورفضنا إقامة دويلة اللاذقية وناضلنا من أجل وحدة سوريا».

وأنهى حديثه الذي استغرق ما يقارب الساعة قائلاً: «نحن نتفهم الأوضاع اللبنانية، ولا نتوقف عند كلمة بالزائد وكلمة بالناقص. انا أعلم بحاجة الزعماء اللبنانيين إلى ارضاء شعبيتهم، وأعي الحسابات والحساسيات، وأتعاطى معها بواقعية وصبر. كان بيار الجميل يعتقد أن كل واحد معه هو مع لبنان، وكل واحد ضده يكون ضد لبنان. وقد تكلمت مطولاً معه ومع الرئيس شمعون حول الموارنة ودورهم في المنطقة. وكنت أؤكد لهما دوماً أننا شعب واحد. فإما ان نكون كلنا فينيقيين، كما يزعم البعض، وأما نكون كلنا عرباً، كما هو الواقع، ولكننا شعب واحد في مطلق الاحوال. الموارنة في نظري ليسوا طارئين على المنطقة فهم من جذورها التاريخية. لقد حلّ الموارنة في سوريا قبل ان ينزلوا لبنان. انهم أصيلون من هذه المنطقة وفيها».

وابتسم بعض الشيء وروى ان قادة مسيحيين جاؤوا يطالبون عبد الحليم خدام بوجوب عودة كل المهجرين إلى مناطقهم، فأجابهم ابو جمال: «اذا اردتم عودة كل المهجرين فعلينا

ان نسترد الموارنة إلى سوريا». وتابع الأسد الرواية مشيراً إلى ان بعض الظرفاء علقوا على هذه النكتة قائلين: «هل تريد، يا أبو جمال، أن تخرب سوريا؟».

كان الجو السوري مرتاحاً لكني كنت متضايقاً. ولم أخف شعوري عندما أخذت الكلام وقلت: «صحيح أننا نعيش فرحة كبيرة في دمشق ولكن في لبنان نعيش قلقاً كبيراً. ليس الاتفاق مهماً بحد ذاته، بقدر ما هو مهم ان تشارك فيه كل الأطراف، ولا يشعر احد انه مهزوم أو مقهور».

هزّ الأسد رأسه وكأنه فهم باطن كلامي، وقال: «نحن نعرف معنى القهر ونتائجه. القهر يولد دولة المقهورين. وكنت اول من اعلن هذا الموقف عام ١٩٧٦، وتصرفت على هذا الأساس، وتحملت معارضة العالم كله. نرفض القهر في لبنان من أي فئة كانت. ونرفض القهر على لبنان ولو جاء من سوريا، وبالطبع لو جاء من أي طرف خارجي آخر. نحن واعون في دمشق حجم التعقيدات غير انه يجب علينا ان نبدأ من نقطة معينة، ونحل كل العقد تباعاً».

وكان قد سبق هذا اللقاء الموسّع مع الرئيس الأسد، لقاء ليلي منفرد عقدته مع نائب الرئيس السوري عبد الحليم خدام. عاتبني خلاله ابو جمال على معارضتي للاتفاق الثلاثي. فأجبته ان هذا الاتفاق غير قابل للتنفيذ، لأنه يلاقي معارضة لبنانية واسعة. فأيلي حبيقه لا يمثل كل المسيحيين، ونبيه بري لا يمثل كل الشيعة، والسنّة خارج هذا الاتفاق. وردّ خدام: «هذا منطق طائفي مردود. ان الاتفاق مشروع وطني يتسع لكل الفرقاء. لقد بدأ قطار السلام يتحرك. من يصعد اليه يحجز مقعده في الحل ومن يبقى خارجه يضع نفسه خارج الحل ويمر القطار عليه.»

وانتقلنا بالحديث إلى الوضع في الشرقية. وشرحت له ان الاتفاق الثلاثي يلاقي استياءً كبيراً على الصعيدين الشعبي والسياسي، وان ايلي يواجه معارضة داخل القوات من قبل سمير ومن قبلي ومعارضة داخل الشرقية من قبل الرئيسين امين الجميل وكميل شمعون. فأجابني متضايقاً: «اعلم يا كريم ان ايلي حبيقة هو لدينا بمنزلة نبيه بري ووليد جنبلاط واكثر، وان كل من يعارض الوفاق الوطني المجسد بالاتفاق الثلاثي يعارض سوريا. سندعو الرئيس الجميل لزيارة دمشق قريباً وسنسعى إلى إقناعه. خلّي امين علينا يا بيمشي يا بيمشي» ويعني: إما ان يوافق على الاتفاق وإما أن يكون مضطراً إلى ترك رئاسة الجمهورية.

لم اعلق على هذا الكلام. وسألت خدام عن كيفية معالجة معارضة سمير جعجع

فأجابني: «هيدي خليها على ايلي؛ أو ليس ميزان القوى في القوات اللبنانية بنسبة واحد إلى ستة لصالح حبيقة؟» عندها شعرت انه لا جدوى من اكمال الحديث، ولكني تعمدت ان اصارح نائب الرئيس السوري بأن الامور ليست بالسهولة التي يتصور. عند خروجي من الاجتماع فهمت تماماً ان خدام يرى الاتفاق الثلاثي وكأنه «اتفاق خدام» ولا يقبل الجدل حوله، كما كان وزير الخارجية الاميركي جورج شولتز يُعدّ اتفاق ١٧ أيار «اتفاق شولتز» ولا يرى مجالاً لتعديله. وبدا السيد خدام وكأنه حقق اكبر انتصار دبلوماسي له في تاريخه السياسي الطويل، وهو يُعدّ بحقّ العراب الحقيقي للاتفاق الثلاثي ويتصرف على هذا الاساس. ونصحني ابو جمال بتأييد الاتفاق وقال: «اعرف يا كريم ان سوريا مع كل واحد يوافق على الاتفاق وضد كل واحد يعارضه».

عند سماعي هذا الكلام شعرت بمرارة الصداقة، وكم هي مصالح الدول اقوى من تاريخ الافراد. لمست عن كثب ان صداقتي مع سوريا وعمرها اثني عشر عاماً لا تساوي علاقة حبيقة معها وعمرها ستة اشهر. عدت إلى الفندق في الثالثة فجراً وقصدت غرفتي من دون الاتصال بأحد. فقد كنت حزيناً لأنني تأكدت ان الانفجار حاصل حتماً.

إختبار القوة

ساد الشرقية تياران متصادمان: تيار يقوده ايلي حبيقة لتسويق الاتفاق الثلاثي بكل وسائل الترغيب والترهيب، وتيار يقوده سمير جعجع بالتنسيق مع امين الجميل، لافشال الاتفاق الثلاثي بكل الوسائل السياسية والعسكرية. على خط تسويق الاتفاق راح حبيقة يغدق الوعود على مختلف الشخصيات، إما باسناد حقائب وزارية اليها في حكومة الاتحاد الوطني، وإما بتعيينها في المجلس النيابي، حتى انه عرض عليّ ان اكون نائباً في المجلس ووزيراً للثقافة في الحكومة العتيدة. وراح ايلي ينشر مراكز امنية في كل المناطق الشرقية بهدف تمرير الاتفاق الثلاثي شعبياً. كما سعى إلى كسب قادة الوحدات المركزية في القوات كي لا يأتمروا مباشرة بسمير، وحاول ربطهم به فدبّ الانشقاق داخل القوات. حبيقة يحاول الامساك بموارد القوات المالية، وانشاء اركان عسكرية بالاضافة إلى جهازه الاستخباراتي، وجعجع يحاول تعزيز قدراته العسكرية وترتيب مداخيل مالية اضافية وتعبئة القواعد الشعبية من طالبية وعمالية.

وانتقل ايلي حبيقة من دائرة الاتصالات المحلية إلى دوائر الاتصالات الخارجية. وعقد اجتماعاً مع السفير الاميركي ريجينالد برثولوميو، بحضور ميشال المر ليشرح مضمون الاتفاق، ويأخذ ضمانات حول مستقبل العلاقات الاميركية ــ اللبنانية في ظلّه. وكانت الادارة الاميركية في موقف الحائر: فاجأهم الاتفاق وفي الوقت ذاته لم يتخذوا موقفاً منه. وبدوا متأرجحين بين دعم الشرعية المتمثلة بأمين الجميل ومعارضة هذا الاتفاق، وبين مراعاة سوريا في مشروع حل تتبناه. وكانت اتصالات السفير الاميركي ترمي بمعظمها إلى الاستطلاع وجمع المعلومات. واستخلصت، من اجتماع مع برثولوميو في هذه المرحلة، ان واشنطن ترى ضرورة ادخال اصلاحات سياسية على النظام اللبناني، ليصبح اكثر توازناً، ولتأمين المشاركة في الحكم لكنها تترك التفاصيل لاتفاق بين اللبنانيين انفسهم. وفهمت ان واشنطن لا تعترض على مبدأ وجود الجيش السوري في لبنان، لكنها تتحفظ على تمركزه في «بعض النقاط» من البقاع الغربي، التي يمكن ان تشكل تهديداً لسلامة اسرائيل.

في مواجهة التحرك السياسي والامني لحبيقة، توحد فريق العمل العسكري بين جعجع والجميل واسندت القيادة إلى سمير فتولى إمرة مجموعات القوات التابعة له، اضافة إلى المجموعات المسلحة الموالية للجميل. واخذ الرئيس الجميل على عاتقه مهمة تحييد الجيش اللبناني بحيث لا يتدخل لمصلحة حبيقة، علماً ان عدّة اتصالات كانت تجري بين حبيقة وقائد الجيش العماد ميشال عون محورها ميشال المر. وظهر ان عون لا يريد زج الجيش في معركة داخلية، واكتفى بابداء تحفظه، لا حيال مجمل الاتفاق الثلاثي الذي عدّ نفسه غير معني به كعسكري، بل حيال البند المتعلق بإعادة تأهيل الجيش اللبناني على يد الجيش السوري. ورفض هذا البند بصفته قائداً للجيش وأكد: « ان عناصر الجيش اللبناني لا تحتاج إلى تأهيل بل إلى قرار». وراحت الغيوم تتلبد في كل اتجاه. وتصاعد القلق في مختلف الاوساط وشعر اللبنانيون انهم يواجهون مرة اخرى مصيراً مجهولاً. وفي مناخ التشنج المتزايد، سعيت إلى طرح صيغة تعايش بين جعجع وحبيقة، بدل واقع التصادم الذي يندفعان في اتجاهه. وكانت الصيغة تقضي بأن يستمر حبيقة في متابعة تنفيذ الاتفاق بصفته مُوقّعاً عليه، على ان يقبل بالمعارضة داخل القوات والمتمثلة بسمير وبي. ويقوم ايلي بتسويق الاتفاق سياسياً وبالطرق الديمقراطية، ونحتفظ بحقنا في تكوين جبهة سياسية معارضة. وكانت النقطة المحورية، بالنسبة إليّ، هي وضع ميثاق شرف بين جعجع وحبيقة يقضي بالامتناع عن استخدام القوة والعنف لفرض الاتفاق او لاسقاطه. وبناء على هذا الاقتراح، عقدت اجتماعات عدّة ضمتنا بالاضافة إلى الاباتي بولس نعمان، الذي كان يعمل في الاتجاه ذاته.

حدثان احبطا نهائياً فرص التعايش بين جعجع وحبيقة: الاول على طريق نهر الموت اذ تعرّض موكب كان يفترض ان يضم ايلي لكمين عسكري نجا منه نائبه الشفتري بأعجوبة، فاتهم حبيقة امين الجميل بمحاولة اغتياله. ولم يعجب ايلي موقف سمير وموقفي بسبب مسارعتنا إلى اجراء الاتصالات لمنع الاشتباك بين القوات الموالية لحبيقة وميليشيا الكتائب الموالية لامين الجميل وعدّ وقوفنا على الحياد بمثابة موقف عدائي مع اننا صعدنا إلى منزله للاطمئنان. والحادث الثاني كان قيام حبيقة في اول كانون الثاني (يناير) ١٩٨٦ بمصادرة عدد من مجلة «المسيرة» الناطقة باسم القوات، بسبب تضمنه انتقادات للاتفاق الثلاثي. ورأى سمير ان هذا العمل هو قطع لشعرة معاوية بينهما. ومنذ ذلك التاريخ انقطع الرجلان عن الاجتماع المباشر وكأن كل واحد منهما اتخذ قراره الضمني بإسقاط الآخر.

كانت الاجواء داخل قيادة القوات قلقة ومقززة. تعمقت الشكوك وكل يحدس بما

يضمره له الآخر. انفرط عقد الرفاق وبدأت حسابات الضربة الاولى وشاع هاجس المؤامرة والانقلاب. سمير يقيم في الجزء المخصص لرئاسة هيئة الاركان لا يبارحه وايلي يتحرك بكل اتجاه في البناء المخصص للامن والاستخبارات. مبنيان متلاصقان في حرب صامتة.

وبدأ العد العكسي للحرب. في ٢ كانون الثاني (يناير) ١٩٨٦ توجّه امين الجميل إلى دمشق بناء على دعوة من حافظ الاسد الذي ارسل له نسخة موقعة من الاتفاق الثلاثي قبل ثلاثة ايام. وفوجىء الرئيس اللبناني، بالوزير السوري عصام النايب، يطرح بلغة دستورية ما قاله عبد الحليم خدام لايلي حبيقة بلغة سياسية قبل اشهر حول ضرورة «الثورة على النظام». واستفاض الوزير السوري في شرحٍ خلاصته ان المؤسسات الشرعية، من رئاسة الجمهورية والحكومة ومجلس النواب والجيش وقوى الامن الداخلي والادارات العامة، فقدت كل قدرة واقعية او صفة تمثيلية، في حين ان الميليشيات اصبحت هي السلطة الواقعية، التي تتمتع بالصفة التمثيلية والقدرة العسكرية والامنية والادارية. ولا بد من الاقرار ان «الشرعية الثورية» تفوقت على «الشرعية الدستورية». وردّ الرئيس الجميل بأنه مؤتمن على الدستور الذي اقسم اليمين للحفاظ عليه ولا يمكنه القبول بهذا المنطق ولا التفرد بالقرار. واستمهل لاجراء الاتصالات اللازمة. وعدّت دمشق موقف أمين مناورة لكسب الوقت بغية تعطيل الاتفاق الثلاثي. فردّت عليه بإرسال شاحنات سلاح إلى حبيقة. ودخل الاتفاق الثلاثي اختبار القوة. سوريا تضغط على امين الجميل عن طريق ايلي حبيقة. وامين الجميل يصمد بالتحالف مع سمير جعجع. وهذا الاخير يستعد لانتفاضة جديدة. لم يعد الاتفاق الثلاثي مشروع سلام في لبنان بل اصبح مشروع حرب في الشرقية.

وفي الثالث عشر من كانون الثاني (يناير) توجه الرئيس اللبناني من جديد إلى دمشق للقاء الاسد، وسارع حبيقة إلى شن هجوم على معقل الجميل في المتن حيث اصطدم بمقاومة غير متوقعة. وراحت الصورة السياسية تتضح. حبيقة يحاول اقتحام المتن لوضع الرئيس اللبناني امام الخيار الصعب: إما ان يوافق على الاتفاق الثلاثي وإما ان يضطر إلى الرحيل عن قصر الرئاسة. والجميل في دمشق يحاول تعليق الاتفاق الثلاثي مقترحاً عرضه على المجلس النيابي وفقاً للاصول الدستورية. وابتدأت الكماشة تشد على عنق الرئيس الجميل. معقله في المتن الشمالي عرضة لهجوم عسكري من قبل حبيقة وموقفه في دمشق من الاتفاق الثلاثي عرضة لضغط سياسي من الرئيس السوري. جماعة الجميل تصمد عسكرياً بوجه حبيقة، وامين الجميل يدافع عن موقفه في دمشق التي شهدت اكثر المفاوضات اللبنانية ــ السورية ضراوة.

واصرّ الرئيس اللبناني على ضرورة احالة الاتفاق الثلاثي على مجلس النواب ليدرسه ويقرّه، وهو على استعداد للموافقة على قرار السلطة التشريعية. وردّ عليه المسؤولون السوريون بمنطق «الشرعية الثورية» التي يمثلها اطراف الاتفاق الثلاثي. وكبرت الهوة بين المنطقين والحكمين. وعاد الجميل بلا نتائج واغلق باب الحوار ولم يبق غير المواجهة.

في ١٤ كانون الثاني (يناير) قرر الجميل وجعجع القيام بعملية عسكرية ضد حبيقة. وحددت الساعة الصفر فجر اليوم التالي. واختار سمير جبهتين للانقضاض على حبيقة: الاولى في الكرنتينا نفسها واوكل قيادتها إلى نادر سكر، والثانية من جهة المتن بقيادة جورج قسيس. وكان الغرض الاطباق على مقر الامن والاستخبارات حيث يقيم حبيقة. وتولّى جعجع شخصياً قيادة قوات الشمال باتجاه بيروت، وفتح الطريق بين كسروان والمتن لتلتحم قواته بالعناصر الكتائبية الموالية للجميل وتكتمل السيطرة على الشرقية. وعند منتصف الليل انهى سمير في الكرنتينا الترتيبات الاخيرة، وودّع رفاقه وغادر سراً في زورق إلى منطقة الشمال وكأن قدره ان يغيب من حين إلى آخر في الظلمة ليعود بالدبابات حفاظاً على الخطوط الحمر.

وفي الساعة الصفر التهب فجر المنطقة الشرقية. تساقطت القذائف في كل الاتجاهات على مركز حبيقة، وفي الوقت نفسه تقدمت قوات جعجع على الطريق الساحلية. كنت نائماً في منزلي في الاشرفية عندما ايقظني رنين الهاتف، وكان على الخط بول عريس، احد كبار المسؤولين لدى حبيقة. وبلهجة حازمة ابلغني عريس انذاراً باسم حبيقة مفاده ان لا اتحرك من منزلي وان اعدّ نفسي في الاقامة الجبرية. وانتشرت في محيط منزلي قوات تابعة لحبيقة. طلبت من حرسي الشخصي ضبط الاعصاب وعدم اطلاق النار الّا في حالة الهجوم المباشر. وفوجئت بعد ساعات بالقائد السابق للقوات، فؤاد ابو ناضر، وجماعته يتحركون وكأنهم قوة ثالثة مطالبين بوقف اطلاق النار. وسارعت البطريركية المارونية إلى اصدار بيان عن المدبّر الرسولي المطران ابراهيم الحلو يطالب فيه بوقف «الاقتتال بين قايين وهابيل». ولم تغيّر هذه النداءات مجرى الاحداث، اخذت جماعة حبيقة تتراجع في كل مكان وقوات جعجع ــ الجميل تحكم قبضتها على مختلف المحاور وتحاصر ايلي مع مجموعة صغيرة مؤيدة له داخل الكرنتينا.

بعد الظهر تلقيت اتصالاً من سمير طلب مني فيه التوجه إلى مقر قيادة الجيش في اليرزة للاشراف على عملية اجلاء حبيقة من الكرنتينا بعدما ابلغ مختلف الفرقاء باستعداده للاستسلام ومغادرة البلاد. واشترط سمير للسماح لحبيقة بالمغادرة امرين: الاول، ان يوقع

كتاب استقالته من رئاسة الهيئة التنفيذية في القوات، والثاني، ان يسلّم اموال الصندوق الوطني التابع للقوات. وقد اخذ ميشال المر على عاتقه نقل الشرطين، خصوصاً وان المر كان يعيش حرقة الاب، اذ ان ابنه الوحيد الياس كان محاصراً مع حبيقة في الكرنتينا.

توجهت إلى اليرزة حيث استقبلني العماد ميشال عون بحضور مجموعة من الضباط بالاضافة إلى ميشال المر. وكانت مختلف القيادات السياسية والدينية، تمارس الضغوط لوقف القتال بعدما وافق حبيقة على مغادرة البلاد. وفهمت من الجنرال عون ان حكمت الشهابي، رئيس اركان الجيش السوري، اتصل بميشال عون ليطلب منه التدخل لانقاذ حبيقة. في السادسة مساء اعدّ الجيش اللبناني خطة لخروج حبيقة ومجموعته من الكرنتينا اطلعت سمير عليها، فوافق واعطى اوامر بوقف اطلاق النار. وكان هاجس اليرزة ان يتم خروج حبيقة حياً.

في اول الليل وصل حبيقة إلى وزارة الدفاع. وكان الرجل يعيش حالة ضياع، وترتسم على ملامح وجهه امارات الارهاق وتعابير الالم. واول ما طلبه مني، اخراج زوجته وابنه من كسروان. وبسبب دقة الاوضاع الميدانية، توجهت شخصياً إلى منزله واصطحبتهما إلى اليرزة حيث سهرت وايلي طول الليل، بانتظار ان تقلّه هليكوبتر صباحاً إلى خارج الوطن.

كانت الليلة الاخيرة طويلة ومريرة. رفاق ايلي، مقاتلون اشداء عرفتهم وخبرتهم، يفترشون الارض من شدة التعب والخيبة. مشهد لا ينسى. القضية صنعت منهم ابطالاً والصراع على السلطة حوّلهم رهائن وضحايا. ايلي يجلس وحيداً في زاوية معتمة ينظر إلى البحر، ولا يولي اي اهتمام لما يجري حوله، وهو يفتش عن حلمه الضائع. صمت حبيقة طويلاً، ثم التفت اليّ، وكأنه فوجىء بوجودي وسألني: «ماذا ستفعل دمشق الآن؟» واجبته: «لا اعرف فلدمشق حسابات دقيقة، وحده الرئيس الاسد يعرفها». وغرق حبيقة مجدداً في صمته الحزين، ينتظر الفجر والطوافة.

بعد الخامس عشر من كانون الثاني، بقي سؤال حبيقة مدار بحث واهتمام، وانقسم الرأي حول الجواب. رأى البعض ان دمشق ستشن حرباً طاحنة على الشرقية، لاعادة فرض الاتفاق الثلاثي، وقد ظهرت بعض معالم هذا الاحتمال من خلال الاستنفار العسكري السوري على كل الجبهات. ورأى آخرون، وانا منهم، ان دمشق لن تتورط في عملية عسكرية داخل الشرقية بل سترد بتصعيد سياسي متشدد. وهذا ما حصل اذ اعلن رئيس الحكومة، رشيد كرامي، مقاطعته لرئيس الجمهورية، وهي مقاطعة سينتهي عهد امين

الجميل ولا تنتهي. ولم تضع دمشق حداً لسياسة المقاطعة الاّ بعدما أقرّ البرلمانيون اللبنانيون في الطائف، ميثاقاً وطنياً جديداً، يتضمن في ما يتضمن الكثير من الاسس التي قام عليها الاتفاق الثلاثي ومنها الاصلاحات السياسية والعلاقات المميزة بين لبنان وسوريا.

سوريا الكبرى أم لبنان الصغير؟

لن يستريح حافظ الاسد حتى يستقيم «الحل السوري» في لبنان، ويكون الحل سورياً في نظره او لا يكون حل على الاطلاق. قال لي عام ١٩٧٨ بهدوء وتصميم: «سوريا هي العقدة وهي الحل في لبنان والشرق الاوسط». وما فتىء يصرّح ان «امن سوريا من امن لبنان» وانهما «شعب واحد في دولتين».

لا يستسيغ الشراكة في لبنان مع احد، عربياً كان ام غير عربي. ولا يرضى بـ «تعريب» الازمة اللبنانية ولا «تدويلها». لبنان بالنسبة إليه محمية سورية بامتياز. ويرى الرئيس السوري ان لبنان خاصرته الاولى والاردن خاصرته الثانية والفلسطينيين خاصرته السياسية الثالثة. وبعد ابتعاده عن مصر اثر حرب تشرين، وابتعاد مصر عن العرب اثر كمب ديفيد، ركّز كل استراتيجيته السياسية والعسكرية على توحيد القيادة بين لبنان والاردن والفلسطينيين تحت المظلّة السورية. وبالفعل وقّع في آذار (مارس) ١٩٧٥ اتفاقاً لانشاء «قيادة موحدة» مع منظمة التحرير الفلسطينية، وفي حزيران (يونيو) من العام ذاته اتفاقاً مماثلاً مع الاردن. وخلال عام ١٩٧٦ ادخل الجيش السوري ليبسط نفوذه على ثمانين في المئة من الاراضي اللبنانية.

قبل شهر من دخول الجيش السوري إلى لبنان، وخلال اجتماع طويل ابتدأ عند الساعة الحادية عشرة ليلاً ودام حتى الساعة الخامسة صباحاً، قال لي الاسد: «الاميركيون سيئون. وجهوا انذاراً بعدم ارسال جيشنا إلى لبنان، فهمت منه انهم لا يعارضون دخول الجيش السوري إلى لبنان بل همهم الوحيد ان لا ندخل إلى لبنان من دون موافقتهم وعلى الرغم منهم. نحن نعي حجم المخاطر. ونعرف اننا نتحرك في حقل الغام دون ضمانات امان. لكننا سنتحرك لأننا مصممون وارادتنا اقوى من العقبات».

الواضح انه لم تغب مخاطر دخول لبنان عن ذهنه لجهة الهائه واستنزافه وتوريطه. لكنه استشف ان الحرب اللبنانية ستؤدي في النتيجة إلى اسقاط الدولة اللبنانية فتقوم محلها إما «دولة مسيحية» وإما «دولة فلسطينية» واما الدولتان معاً. ولا يقدر ان يتحمل واحداً من

هذه المشاريع. فـ «الدولة المسيحية» ستكون بالنسبة إليه اسرائيل ثانية على حدوده وهذا غير مقبول ويضطره إلى محاربتها والاصطدام باسرائيل. و«الدولة الفلسطينية» هي الذريعة التي تنتظرها اسرائيل لاجتياح الدولة الفلسطينية الناشئة، وهذا غير محمول. عندها يكون الاسد امام واحد من امرين: اذا لم يتدخل يخسر سياسياً، واذا تدخل يخسر عسكرياً. وفي حال قامت الدولتان المسيحية والفلسطينية معاً او غيرهما على ارض لبنان، تستحق كل المساوىء دفعة واحدة.

بناء على هذه القراءة قرر ان يغامر في الدخول إلى لبنان وفق خطة مرسومة من قبله بدل ان ينتظر ان يدخل وفق خطة رسمها الآخرون وكان همه ان يمنع انتصار فريق على فريق وان يحول دون التقسيم وبالنتيجة دون قيام اي دولة على انقاض الدولة اللبنانية. وقد اكد امامي خلال اجتماع ضم وفداً موسعاً من الاحزاب المسيحية في تموز (يوليو) ١٩٧٦: «ان وحدة لبنان امر ثابت لا يقبل الجدل وسنتمسك بها مهما كلفنا من ثمن. نحن نعي حجم المؤامرة في لبنان واذا لم نوقفها فانها ستمتد بالتأكيد إلى سوريا».

لا يقدر ان يفهم او يتفهم ان يكون لبنان «دولة محايدة» كسويسرا، او ان يعطى وضعاً خاصاً كإمارة موناكو، او منطقة هونغ كونغ. ومن باب اوّلي لا يمكن ان يتصوره للحظة محمية اسرائيلية. انه جزء من الامن السوري.

تحالف في لبنان مع الكل وتخاصم مع الكل. دخل الجيش السوري، عام ١٩٧٦، بطلب من المرجعيات المسيحية، واستمر بطلب من المرجعيات الاسلامية: الذين ادخلوه يسعون إلى اخراجه والذين عارضوه يريدون بقاءه. دخل بقرار اميركي ومعارضة سوفياتية وصمد عام ١٩٨٢ بدعم سوفياتي ومطالبة اميركية بانسحابه. ويتخذ حافظ الاسد من هذه الوقائع براهين ليثبت انه على صواب وان الآخرين مخطئون.

قلما يلفظ الاسد كلمة «مسيحي» و«مسلم» واذا استعملهما عفواً او عمداً يعتذر بخجل. ولا يتلفظ مرة بكلمة «علوي» و«سنّي» ويمقت لا بل يغضب على كل من يتفوّه بهما ويلاحقه داخل سوريا وخارجها. لكنه لا يجهل الوضع الطائفي المتجذر في لبنان.

حاول ان يصالح المسيحيين مع العروبة ولم ينجح. ولا يخفي مرارته وخيبة امله من تصرّف الزعامات المارونية وخصوصاً بيار الجميل وكميل شمعون اللذين ساعدهما يوماً في وجه كل المسلمين والفلسطينيين واليساريين والشرق والغرب للحيلولة دون تعاونهما مع اسرائيل لدرجة انه قامت عليه قيامة المشايخ في سوريا؛ وراحوا ينادون في المساجد: «قبلناك علوياً في سوريا ولكن لا نقبل بك مارونياً في لبنان». ولا يفهم على الاطلاق

الاسباب التي حدت بهذه القيادات المارونية إلى الابقاء على علاقتها باسرائيل بعد ان مدّت دمشق يد العون لها. ويرى انه حان الوقت ليعي المسيحيون انه لا اسرائيل ولا الغرب مهتمون بهم، وان سوريا وحدها هي القادرة على حمايتهم بصفتهم عرباً.

وتجلّت طروحاته في ابهى حللها في الاجتماع الموسّع الذي عقده مع الفعاليات المسيحية بمناسبة التوقيع على الاتفاق الثلاثي في كانون الاول (ديسمبر) ١٩٨٥. المح انه «كأبن اللاذقية» ولم يقل «كعلوي» رفض «دولة اللاذقية» ولم يقل «الدولة العلوية». هذه الدولة التي اعلنتها فرنسا وقاومها بغية اعادة وحدة سوريا. وكأنه كان يريد ان يفهم المسيحيون، وبصورة خاصة الموارنة منهم، ان مصلحتهم تقضي برفض تقسيم لبنان وعدم القبول بـ «الدولة المسيحية» او بـ «لبنان الصغير» وان عرض عليهم او اهدي اليهم، وان يحثهم على التمسك بوحدة الاراضي اللبنانية مهما تكن الصعوبات والتضحيات. وهذا طرح صادق في كل الاحوال وصحيح في المطلق.

كما صرّح في الاجتماع ذاته انه كـ «بعثي»» و«سوري» يعمل من اجل الوحدة العربية الشاملة او من اجل كل «وحدة اخرى» ولم يقل من اجل «سوريا الكبرى». وطمأن الوفد المسيحي إلى ان الجيش السوري لم يدخل إلى لبنان لتحقيق الوحدة معه بل لاعادة الوحدة إليه. لأن الوحدة مع لبنان في نظره خطوة سابقة لاوانها لأن معظم اللبنانيين غير مهيئين لها ولا يجوز ان يشعر بعضهم انه مغبون او مقهور. كما ذكّر في مناسبة اخرى انه اول رئيس جمهورية سوري تجرأ واعترف باستقلال لبنان وسيادته وحدوده الدولية وحسم خلافاً تاريخياً عالقاً منذ ١٩٢٠ حين وقّع الوثيقة الدستورية مع سليمان فرنجية في شباط (فبراير) ١٩٧٦.

ويبقى هذا الخلاف قائماً في البواطن. كل سوري يحلم بـ «سوريا الكبرى» وبعض اللبنانيين ما يزالون يحلمون بـ «لبنان الصغير» والرئيس السوري مقتنع بان الاستعمار الغربي قد جزأ بلاد الشام إلى ثلاث دول عربية هي سوريا ولبنان والاردن بالاضافة إلى اسرائيل، ويعتقد ان الدول العربية المسلوخة، بالاضافة إلى منظمة التحرير الفلسطينية، تشكل مناطق نفوذه ومداه الحيوي، ويمكنه ان يتصرف حيالها كما كانت تتصرف موسكو تجاه دول اوروبا الشرقية، خلال الحرب الباردة. انه يريد ان يحوّل هذه الدول إلى «كتلة سياسية» تدور في الفلك السوري و«جبهة عسكرية» بزعامة دمشق في مواجهة اسرائيل. وفي ظنه ان هذا التصور يؤلف نواة «النظام الامني العربي» لأن ما يصلح لأمن سوريا يصلح لأمن الامة العربية قاطبة.

من هذا المنطلق يعتقد ان ما ينادي به ياسر عرفات في ما يتعلق بـ «القرار الفلسطيني المستقل» هو «هرطقة قومية». ويرى ان الفلسطينيين ليسوا احراراً في معالجة قضيتهم التي تعني العرب كلهم وفي طليعتهم دمشق، ويعتقد ان الكفاح المسلح الفلسطيني غير قادر على استعادة فلسطين، وان هذه المهمة تقع مسؤولياتها على عاتق الجيوش العربية النظامية، ولا يقبل ان يقدم الملك حسين على الانضمام إلى أي اتفاق بمعزل عن سوريا.

في الشكل لا يقفل الباب امام اي مبادرة عربية، وكثيراً ما يتركها تصطدم بتعقيدات الوضع اللبناني وخلافات اللبنانيين فترتد خائبة. واذا تراءى له ان الحركة العربية تحمل في طياتها احتمال النجاح فانه سرعان ما يلتف عليها لعرقلتها كما حصل مع اللجنة السداسية العربية عام ١٩٨٩، او استيعابها كما جرى في العام ذاته مع اللجنة الثلاثية العربية التي رعت اتفاق الطائف.

يعلم تمام العلم ان دول المغرب العربي بعيدة عن لبنان جغرافياً وغير مشدودة اليه سياسياً، وعندما تتحرك ليبيا او الجزائر بين الفينة والفينة فعن طريق دمشق تتحركان. ويراقب باهتمام الموقف السعودي الذي كثيراً ما ينطوي على مؤشرات اميركية وفي بعض الاحيان على مساعدات مالية. يرحّب على الدوام بالدعم المالي ولا يأخذ ابداً بالنصائح السياسية. لا يخشى عودة مصر إلى العمل العربي بعد غياب دام اكثر من عشر سنوات ونيف، لأن حسني مبارك يفتش عن تفاهم مع سوريا اكثر مما يطمح إلى دور في لبنان. ويعز على الرئيس السوري كثيراً ان يرى خصميه اللدودين صدام حسين وياسر عرفات يتدخلان في الشأن اللبناني، فينبري لهما فوراً ويواجههما بشراسة وبكل الوسائل. ولم يخف قلقه من التقارب المسيحي ــ الفلسطيني عام ١٩٨٦ وتسليح العراق للجيش اللبناني والقوات اللبنانية عام ١٩٨٨.

وبقدر ما يتعامل على درجات متفاوتة من التحفظ مع العرب بشأن لبنان، فانه يتعاطى بسلبية وتشدد مع غير العرب من الدول، وفي طليعتها اسرائيل التي يعدّها العدو الاستراتيجي، ويتخذ حيالها المواقف الراديكالية المتصلبة. لا يقبل ان يتفاوض معها مباشرة ولا يسمح بأن يفاوضها اي فريق لبناني ولا يعترف بنتائج هذه المفاوضات، وقد اصرّ على الغاء اتفاق ١٧ أيار جملة وتفصيلاً ولم يوافق على البحث في تعديله او تصحيحه.

عارض كل الاتفاقات المنفردة مع اسرائيل بدءاً باتفاقية كمب ديفيد. وتمكن من افشال التقارب الاردني ــ الفلسطيني من خلال افتعال الانشقاقات داخل منظمة التحرير في لبنان ليمنع احتمالات التفاوض مع اسرائيل بمعزل عنه.

يرى في فرنسا منافساً تاريخياً لسوريا. باريس هي التي سلخت لبنان عن سوريا فاعلنت عام ١٩٢٠ قيام «لبنان الكبير» وقسّمت سوريا إلى دويلات وحاولت ان تقيم «سوريا الصغرى». انه يراقب عن قرب كل حركة فرنسية فيرحب بكل عمل فرنسي على صعيد ازمة الشرق الاوسط وينكر عليها التدخل في الازمة اللبنانية.

يعامل الاتحاد السوفياتي من منطق الصديق والحليف. ويصرّ على اشراكه في حل النزاع العربي ــ الاسرائيلي عن طريق المؤتمر الدولي للسلام. لكنه يطالب موسكو في المقابل بان تتبنى السياسة السورية في لبنان. وقلّما يقدم سيد الكرملين على التدخل في النزاع اللبناني مراعاة لسوريا، خاصة وان الاسد دخل لبنان عام ١٩٧٦ خلافاً لرأي موسكو، وانزل هزيمة عسكرية وسياسية بحليفها اللبناني كمال جنبلاط، وطرد عام ١٩٨٣ حليفها الفلسطيني ياسر عرفات من الشمال والبقاع، من دون ان يستمع إلى المراجعات السوفياتية المتكررة.

وتصل براعة الاسد إلى اوجها في تعاطيه مع الاميركيين في الشأن اللبناني. قصته معهم مشوقة ومثيرة ومليئة بالمناورات والخداع وخيبات الأمل. وعده الرئيس الاميركي ريتشارد نيكسون عام ١٩٧٤ بتنفيذ مقررات مجلس الامن التي تتضمن انسحاب اسرائيل من الاراضي العربية المحتلة، بما فيها الجولان، مقابل السلام. وكانت النتيجة ان قام كيسنجر بفصل مصر عن سوريا، وقامت اسرائيل بعد سنوات باعلان ضم الجولان إلى اراضيها. ووعده الرئيس جيمي كارتر عام ١٩٧٧ بان واشنطن تحرص على ان لا تقدم على حل من دون دمشق. وفي العام التالي رعى اتفاقية كمب ديفيد بين مصر واسرائيل مع معارضة دمشق الشديدة. والتقى عام ١٩٩٠ جورج بوش في جنيف الذي عرض عليه تعاوناً وثيقاً في ضوء حرب الخليج ووعده بأن يتم حل ازمة الشرق الأوسط عن طريق دمشق، والرئيس السوري ما زال ينتظر تنفيذ الوعود.

لا يماشي واشنطن ولا يقطع معها. يتصدى لها من غير ان يصطدم بها. لا يعطيها الذريعة كي توجه اليه ضربة عسكرية كما فعلت مع معمر القذافي وصدام حسين. ولا يسلمها رقبته فينجر سياسياً وراءها كما صنع السادات. مأخذه الرئيسي تجاه الولايات المتحدة الاميركية انها منحازة بشكل كامل ودائم إلى الجانب الاسرائيلي، وكثيراً ما وصف محادثاته معها بـ «حوار الطرشان» وقال لي مرة: «قد اتفهم ولو على مضض ان تقدم اميركا الدعم لاسرائيل ولكن لا افهم على الاطلاق ان تقدم لها الدعم الاعمى».

اتقن الرئيس السوري فن التعاطي مع كل الادارات الاميركية من الثنائي نيكسون ــ

كيسنجر إلى بوش ــ بيكر. يقاربها لفترة ويبتعد لفترة، ويترك لنفسه حيزاً من المسافة في كل الفترات. يتعمد ان تبقى واشنطن في حيرة من امره: يتشدد بشروط ويتساهل بشروط، ويبدّل موقفه بتبدل الشروط والمعطيات تاركاً في زاوية كل موقف منطقة رمادية يصعب فهمها. وكثيراً ما برر المسؤولون الاميركيون عدم «حشرهم» سوريا بالقول: «ما دامت سوريا لم تحزم امرها بعد في خيارها بين الشرق والغرب، فاننا مضطرون إلى مداراتها».

حافظ الاسد لا يداري اميركا كثيراً ويحاول ان يدوخها فيحرك لها في كل حقبة «مجنوناً» ويعرض عليها ان يقوم بترويضه. كان «المجنون» في مطلع السبعينات ياسر عرفات، مما دفع الولايات المتحدة ومعها اسرائيل إلى تفضيل سوريا على منظمة التحرير الفلسطينية. وضبطت دمشق ابو عمار عام ١٩٧٦ واخرجته من لبنان عام ١٩٨٣. وكان «المجنون» عام ١٩٨٢ «حزب الله»، واضطرت واشنطن إلى التقرّب من سوريا علّها تساعد على ضبط الارهاب الاصولي وتتوسط لدى ايران لاطلاق سراح الرهائن الغربيين. وكان «المجنون» عام ١٩٨٩ ميشال عون وصدام حسين اللذان تمردا على توجهات اميركا. تسهر سوريا على «المجانين» وتقبض من اميركا ثمن بناء «العصفورية».

واشنطن تتبع مع الاسد «سياسة الهبات الباردة والهبات الساخنة». قاربه كيسنجر عام ١٩٧٣، وزاره نيكسون عام ١٩٧٤، ثم عاد كيسنجر واختلف معه عام ١٩٧٥. التقاه كارتر في جنيف عام ١٩٧٧ ثم تفاهم مع عدوه مناحيم بيغين وخصمه انور السادات عام ١٩٧٨. ابتعد عنه رونالد ريغان وفضّل معالجة موضوع الشرق الأوسط مع موسكو مباشرة، وحاول اخراج الجيش السوري من لبنان في بداية عهده، ثم اضطر جورج شولتز وريتشارد مورفي إلى التعاطي معه في أواخر حكم ريغان عام ١٩٨٧. بدأ جورج بوش حكمه متجاهلاً حافظ الاسد عام ١٩٨٩ واضطر عام ١٩٩٠ إلى الاجتماع به واسباغ الوعود عليه.

تحاول أميركا ان توحي إلى سوريا بأن لبنان بلد مهم لديها وانه غير متروك وهو جزء من اي حل في المنطقة. وغرض واشنطن من هذه الايحاءات ان تكبّر الثمن اللبناني كي تشتريه دمشق غالياً. لكن الاسد يدرك اللعبة وينتظر ليحصل على الضوء الاخضر الاميركي بأبخس الاثمان. لا شيء بين الولايات المتحدة وسوريا مجاني. كل شيء له ثمن ولكن ليس كل شيء بأي ثمن. يعرف الاسد كيف يقتنص الفرص ويوظّف الوقت ليكشف أوراقه

الرابحة في اللحظة المناسبة معتمداً على اخطاء اللاعب الاميركي او منتظراً وقوعه في مطبات المنطقة ولبنان ـــ وما أكثرها ـــ فيحشره حتى الابتزاز. أُعطيت له موهبة الانتظار. يحسب المعادلات الاقليمية والدولية بدقة ويعتقد ان لا شيء ثابت ونهائي وينتظر ساعته.

يتبع أزاء واشنطن سياسة «البوابة نصف المفتوحة»: لا يشرع سوريا للسياسة الاميركية ولا يغلق الباب تماماً في وجهها. بعد حرب تشرين (اكتوبر) ١٩٧٣، وقّع على اتفاقية فصل الاشتباك الاولى مع اسرائيل، بناء على جهود كيسنجر، لكنه لم يوقّع على اتفاقية ثانية على غرار مصر. وافق على مبدأ المؤتمر الدولي للسلام في جنيف عام ١٩٧٣، بل طالب به وشارك في الترتيبات بشأنه، ولم تحضره دمشق في اللحظة الاخيرة. نظّم مع الاتحاد السوفياتي معاهدة صداقة وتعاون عام ١٩٨٠، واستدعى بضعة آلاف من الخبراء السوفيات يعملون في سوريا، غير انه لم يقاطع أصدقاء واشنطن من العرب كالسعودية، ولم يمس المصالح الاستراتيجية الاميركية في المنطقة. ناهض بشدة معاهدة كمب ديفيد الموقعة عام ١٩٧٨ بين مصر واسرائيل وأميركا، وقاد جبهة التصدي والصمود العربية ما يقارب العشر سنوات لعزل مصر عن العالم العربي وجابه السياسة الاميركية، لكنه لم يتأخر ازاء تبدل المعطيات الدولية وصعود القوة العراقية عن اعادة العلاقات الدبلوماسية مع مصر والتحالف معها والموافقة على اعادة مركز جامعة الدول العربية إلى القاهرة.

صب غضبه عام ١٩٨٢ على السياسة الاميركية، اثر غزو الجيش الاسرائيلي للبنان ووصوله إلى نقطة في البقاع لا تبعد أكثر من عشرين كيلومتراً من الحدود السورية، واستشرس في مواجهة المارينز إلى حين اخرجهم من بيروت عام ١٩٨٤، غير انه لم يعارض عام ١٩٨٧ التفاوض مع ابريل غلاسبي، مساعدة ريتشارد مورفي، حول الاصلاحات الدستورية ولا مع شولتز ومورفي حول انتخاب رئيس جمهورية لبنان عام ١٩٨٨. وصبر طويلاً عام ١٩٨٩ عندما امتنع عن اسقاط ميشال عون ما يقارب العشرين شهراً على الرغم من المطالبات اللبنانية الملحة، إلى حين اندلعت ازمة الخليج، فوافق على ارسال وحدات عسكرية سورية إلى جانب الجيش الاميركي في السعودية مقابل موافقة واشنطن على اطلاق يده في لبنان. وفي حرب الخليج ذاتها لا يتخلى الرئيس السوري عن سياسة «البوابة نصف المفتوحة» في الوقت الذي تخلت واشنطن عن «سياسة الهبات الباردة والهبات الساخنة». واشنطن ترى في الاسد بعد حرب الخليج «الرجل الذي لا غنى عنه لحل ازمة الشرق الاوسط» في حين انه لا يتردد في انتقاد المواقف الاميركية المؤيدة لاسرائيل.

امام براعة الاسد وثباته وصراعات اللبنانيين وتناقضاتهم تميل واشنطن في نهاية المطاف

إلى اعتماد سوريا في لبنان. وتفضل الادارات الاميركية على اختلافها، التعاطي الصعب مع دمشق القادرة، على التعامل السهل مع اللبنانيين العاجزين. ولا يتردد عبد الحليم خدام في القول انه لا مجال لأن يتفاهم اللبنانيون في ما بينهم وان افضل الطرق ان يتم التوافق بين سوريا واميركا وان يفرض على اللبنانيين فرضاً.

وقد حصل مثل هذا الاتفاق بين الاسد ومورفي حول انتخابات رئاسة الجمهورية عام ١٩٨٨، وقد يتم في المستقبل اتفاق اوسع واشمل لاحت معالمه من خلال زيارة جيمس بيكر إلى دمشق في صيف ١٩٩٠، وقمة الاسد وبوش في جنيف في تشرين الثاني (نوفمبر) من العام ذاته.

جرَّب لبنان كل الحلول السياسية والعسكرية واستعان بكل القوى العربية والاقليمية والدولية من اسرائيل إلى اوروبا مروراً بالدول العربية منفردة ومجتمعة، وخصوصاً بفرنسا والفاتيكان والولايات المتحدة الاميركية والامم المتحدة. لكن جميع هذه القوى تراجعت، مرة بداعي العجز، ومرة لتزايد الخسائر، ومرة لانتفاء المصلحة، ومرات لكل هذه الاسباب مجتمعة كلياً أو جزئياً. وانكفأت القوات المصرية والسودانية والليبية والسعودية واليمنية التي شاركت عام ١٩٧٥ في «قوات حفظ السلام» وعام ١٩٧٦ في «قوات الردع العربية». كما انسحبت القوات الاميركية والفرنسية والايطالية والانكليزية التي الفت عام ١٩٨٢ «القوات المتعددة الجنسيات» بالاضافة إلى انسحاب القوات الاسرائيلية إلى الشريط الحدودي في الجنوب ما بين عام ١٩٨٣ وعام ١٩٨٥ . وحدها القوات السورية دخلت لبنان وبقيت ثابتة فيه منذ ست عشرة سنة؛ اذا خسرت موقعاً لا تتنازل عنه وتظل تعمل لاستعادته مهما طال الزمن، كما حصل عندما استعادت كل مواقعها في المناطق الاسلامية عام ١٩٨٧، بعد خروجها الاضطراري منها عام ١٩٨٢، وحين دخلت ثانية عام ١٩٩٠ إلى معظم مراكزها في المنطقة المسيحية. واذا امسكت بموقع لا تعود تتزحزح كما جرى في البقاع والشمال. عرف الرئيس السوري ان يوظّف الجميع ويفشل الجميع.

باختصار شديد، يمكن القول ان حافظ الاسد يسعى إلى إقامة وصاية سورية على لبنان وعلى الفلسطينيين بموافقة عربية ودولية. وقد جعل من لبنان حجر الزاوية في علاقاته الخارجية: يخاصم من يعارضه ويتفاهم مع الذي يؤيده. ويبدو انه ربط مصيره ومصير سوريا بنتائج سياسته في لبنان. ويتصرف على اساس ان من يربح بيروت تعود له الزعامة العربية ومن يحل الازمة اللبنانية يكون مؤهلاً لحل المشكلة الفلسطينية وازمة الشرق الاوسط.

يخيل إليّ احياناً ان الرئيس السوري يهتم بلبنان اكثر مما يهتم بسوريا، وكأن الازمة اللبنانية فصّلت على قياسه. فلا لبنان صغير حتى لا يهتم به احد ولا كبير لدرجة لا يقدر على ضبطه. وظف الاسد تعادل القوى بين اللبنانيين ولم يترك فريقاً ينتصر على فريق، فاصبح هو الوسيط والحكم. صبره لا ينفذ. ضجر اللبنانيون من ازمتهم وهو لم يضجر، وتعب العالم وهو لم يتعب. يتابع الملف اللبناني مباشرة وبكل تفاصيله. لا تغيب عنه شاردة ولا تفوته واردة. كأنه متزوج مع سوريا ومغرم بلبنان.

وعلى ثباته الطويل وبراعته المعروفة فإنه لم يقدر أن يحقق كل اغراضه واحلامه. احكم نفوذه على منظمة التحرير الفلسطينية، وكاد ان يمسك بالورقة الفلسطينية عندما طرد ابو عمار من البقاع والشمال عام ١٩٨٣، واسقط المخيمات الفلسطينية في بيروت عام ١٩٨٧. وسرعان ما خرجت القضية الفلسطينية من لبنان ومن يده، واندلعت الانتفاضة في الاراضي المحتلة حيث لا يملك تأثيراً يذكر. سيطر على الفلسطينيين والمواقع الفلسطينية جغرافياً لكن الورقة الفلسطينية افلتت منه سياسياً. ولم يقدر ان يضبط ايقاع تحركات العاهل الاردني الذي اظهر خلال حرب الخليج قدرة على التحرك المنفرد باتجاه صدام حسين. واخيراً لم تتوصل دمشق بعد ست عشرة سنة إلى الحل النهائي للازمة اللبنانية، كل مرة تقترب من الحل لكنها لا تدركه. فما زال الشريط الحدودي في الجنوب محمية اسرائيلية وما تزال مناطق اخرى خارجة عن القبضة السورية المباشرة. وتبقى المسألة اللبنانية معلقة من دون حل نهائي وحبلى بكل المفاجآت، ويبقى الشرق الاوسط في مهب العواصف، وفي مطلق الاحوال لن تستطيع سوريا بعد الاسد ان تحقق ما لم تحققه في عصره. سوريا مع الاسد هي اكبر من سوريا من دونه. انه الزعيم العربي الذي فهم اللعبة الكبرى ولم يسقط في فخ الآعيب الكبار.

الفصل الرابع

المثلّث الصَعب والحُدود الثالثة

في نهاية عام ١٩٦٨، استفزت اسرائيل عنفواني اللبناني عندما هاجم «كوماندوس» اسرائيلي مطار بيروت الدولي، ودمّر ثلاث عشرة طائرة مدنية لبنانية تابعة لشركة طيران الشرق الاوسط، بحجة ان فدائيي الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين هاجموا طائرة اسرائيلية جاثمة في مطار اثينا. كان الرد الاسرائيلي غير مبرر ورأيت فيه دعوة مفضوحة للاقتتال بين اللبنانيين والفلسطينيين ومن ثم بين المسلمين والمسيحيين. انه ليس اعتداء، بل فتنة. ووقف الجنرال شارل ديغول في شموخه التاريخي فأدان اسرائيل واوقف امداداها بقطع الغيار لطائراتها الفرنسية الحربية. شاركت يومها في مظاهرة طالبية ضخمة احتجاجاً على هذا الاعتداء، وادليت بتصريح شجبت فيه، بصفتي رئيساً لمصلحة الطلاب في حزب الكتائب، العمل الاسرائيلي. ووزع حزب الكتائب خبراً تبرأ فيه من موقفي، ومنذ ذلك التاريخ بدأت مشاكلي داخل الحزب وبدأت قصتي مع منظمة التحرير الفلسطينية، والتي لم تنته فصولاً.

في نيسان (ابريل) من عام ١٩٦٩ توجهت على رأس وفد من طلاب الكتائب إلى منطقة الاغوار في الاردن، وكان اللقاء الاول مع ياسر عرفات. قلت له: «نحن نأتي اليك، لأن الثورة الفلسطينية تعنينا كجيل جديد من الشباب اللبناني. الثورة تحمل قضية، وجيلنا يفتش عن قضية. ونظامنا السياسي ترهل ونحن نتوق إلى ثورة لبنانية». فتطلع إليّ ابو عمار بشيء من التعجب، ولم يجبني، واكتفى بالقول: «بالنسبة إليّ القدس هي العاصمة ولبنان النموذج». وكنا معجبين في تلك المرحلة بالمقاومة الفيتنامية ونجاح الثورة الجزائرية وتنامي حركة فتح.

في تلك السنة تزامن حدثان: بداية تمركز المنظمات الفلسطينية في جنوب لبنان في ما سمي لاحقاً بـ «فتح لند»، وبداية الاشتباكات بين هذه المنظمات والجيش الاردني.

واختلف اللبنانيون بين مؤيد لحرية العمل الفدائي، واكثريتهم من القيادات الاسلامية واليسارية وبين معارض للوجود الفلسطيني المسلح واكثريتهم من القيادات المسيحية. واخذ بركان الجنوب يهدر. وتحول هذا الخلاف ازمةً وزارية بين رئيس الجمهورية شارل حلو ورئيس الحكومة رشيد كرامي، وتوسَّع الخلاف منتقلاً إلى الشارع، فكانت مظاهرات طالبية وشعبية. وانقسم الاتحاد الوطني للطلاب الجامعيين في لبنان إلى اتحادين: احدهما مؤيد للعمل الفدائي والثاني معارض له. وكان انقسام هذه المؤسسة اللبنانية الطالبية الواحدة بمثابة الانذار المبكر لما سيحدث في الوطن لاحقاً.

بطلب من رئيس الجمهورية اللبنانية شارل حلو تدخّل الرئيس المصري جمال عبد الناصر لوضع حد للنزاع الناشب بين الجيش اللبناني ومنظمة التحرير الفلسطينية منذ نيسان (ابريل) ١٩٦٩. وكان عبد الناصر يؤيد الثورة الفلسطينية ويمدها بالسلاح والدعم. وكانت له عوناً في حرب الاستنزاف التي كان يخوضها في وجه اسرائيل على طول قناة السويس. كما كان يحرص على سيادة لبنان واستقلاله ويدرك خصوصيته ومدى الحساسيات فيه.

في ٢٧ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٦٩ وصل إلى القاهرة الوفد اللبناني المؤلف من قائد الجيش العماد اميل البستاني، والامين العام لوزارة الخارجية نجيب صدقه، الذي سرعان ما عاد إلى بيروت، وسفير لبنان في القاهرة حليم ابو عز الدين والرائد سامي الخطيب. اجرى الوفد اللبناني مفاوضات مع رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات ومعاونيه العميد عبد الرزاق اليحيى وخالد يشرطي وياسر عمرو وبلال الحسن وابو صبري، بحضور وزيري الخارجية والحربية المصريين محمود رياض ومحمد فوزي.

انطلقت المفاوضات من مسودة اتفاق جرى وضعها اثناء سلسلة اجتماعات بين قيادتي الجيش والمقاومة. وقد تميز العماد اميل البستاني بموقف فيه رغبة ثابتة لايجاد صيغة تعاون سليمة بين الفريقين. واسفرت المساعي في ٣ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٩ إلى توقيع ما سيعرف لاحقاً باتفاقية القاهرة.

كانت هذه الاتفاقية اول اعتراف رسمي وخطي من قبل دولة عربية ببسط سلطة منظمة التحرير على المخيمات الفلسطينية وتسليحها. كما سمحت للفلسطينيين المقيمين في لبنان بالمشاركة في الثورة الفلسطينية من خلال «الكفاح المسلح» و«بتسهيل مرور الفدائيين» ليشنوا هجمات على اسرائيل انطلاقاً من الحدود اللبنانية، ضمن مبادىء «سيادة لبنان وسلامته» و«عدم التدخل في شؤونه الداخلية» وبالتنسيق مع السلطات اللبنانية والعسكرية «التي تستمر في ممارسة صلاحياتها ومسؤولياتها كاملة في جميع المناطق وفي كل الظروف».

جوهر اتفاقية القاهرة يقوم على مبدأ التعايش بين منطق الدولة ومنطق الثورة على غرار فلسفة الميثاق الوطني غير المكتوب الذي يدعو إلى التعايش بين المسلمين والمسيحيين. في الحالتين تتطلب الممارسة الكثير من العدل والاعتدال والثقة المتبادلة. وهذه الصفات قلما تتوفر في العالم العربي بشكل عام ولدى اللبنانيين الخائفين والفلسطينيين المنكوبين.

واهتز المسرح السياسي بشدة واختلطت المواقف المبدئية بالمصالح والطموحات. كانت المقاومة الفلسطينية رمزاً للعرب الذين كانوا يتطلعون اليها بعد نكسة ١٩٦٧ بأنها شرارة الامل المتبقية. وكان لبنان منقسماً على نفسه: الحكومة مستقيلة، والمقاطعة قائمة بين رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء، واللبنانيون موزعون بين مؤيد لاتفاقية القاهرة ومعارض لها. كان مجمل المسلمين يدعمون حرية العمل الفدائي ويرون فيه مساهمة منهم في محاربة اسرائيل، وتأكيداً على عروبة لبنان، وسنداً لهم في اصلاح النظام اللبناني وتحقيق المكاسب السياسية. وعارضها المسيحيون بمجملهم لرفضهم الدوافع ذاتها التي حملت المسلمين على الموافقة. وتوزع الصف المسيحي بين معارض بالمطلق، ومهما تكن النتائج، وموافق مع كثير من التحفظ خوفاً من الاعظم.

انتقد ريمون اده عميد حزب الكتلة الوطنية الاتفاقية بشدة، في حين وافق عليها بيار الجميل مرغماً، وقال لنا في المكتب السياسي: «انا لا اريد هذه الاتفاقية ولكنني اريد تأجيل الحرب». ولم يكن شارل حلو ليقول غير ذلك. كان يكرر في معرض الدفاع عن الاتفاقية: «انا اريد ان اكسب الوقت علَّ الأوضاعَ تتبدل، عندي ضمانة اسمها عبد الناصر».

وسرعان ما غابت الضمانة بوفاة الزعيم المصري، وازدادت الاوضاع الاقليمية تعقيداً باندلاع المعارك بين المنظمات الفلسطينية والجيش الاردني، واضطر ابو عمار إلى مغادرة الاردن، والتوجه إلى لبنان. وتمكن الجيش الاردني من تصفية الكفاح المسلح الفلسطيني على اراضي الاردن. وانتقل هذا الكفاح بكل ثقله وخيباته إلى لبنان. وسعت المقاومة الفلسطينية لكسب ما خسرته في الاردن، فاصبح لبنان الساحة البديلة للساحة الاردنية لدى بعض الفلسطينيين والوطن البديل لدى البعض الآخر. وتحوّلت اتفاقية القاهرة إلى الذريعة الشرعية لكثير من التصرفات غير المشروعة. والحقيقة ان الاحداث التي ستقع كانت ناجمة عن عدم التقيد باتفاقية القاهرة اكثر مما نجمت عن تنفيذ بنودها.

بعد العام ١٩٧٠، كبرت مخاوفي لسببين: اولهما لا مبالاة الدولة اللبنانية، وبصورة خاصة القيادات المسيحية، حيال ما تشهده الساحة الفلسطينية من غليان ومتغيرات، وثانيهما الشعور المتزايد بأن «المشكلة الفلسطينية» حلّت في الاردن لكنها بدأت في لبنان. ولم اشاطر كثيرين ابتهاجهم بانتصار الجيش الاردني وهزيمة المنظمات الفلسطينية، لأني كنت اتمنى، من منطلق قومي، ان لا يحصل الصدام الاردني ـــ الفلسطيني، ومن منطلق لبناني ان لا يتجمع الفلسطينيون شعباً وثورة في لبنان الذي لا تتأمن لدى ابنائه المناعة السياسية ولا تتوفر لجيشه القدرة العسكرية على ضبط الداخل ومواجهة اسرائيل على الحدود.

وتزامن التمدد الفلسطيني المسلح في لبنان مع انتخاب سليمان فرنجية رئيساً للجمهورية اللبنانية عام ١٩٧٠. ودخل الرئيس الجديد حاملاً صفة «الرئيس القوي»، ورافعاً شعار «وطني دائماً على حق». ومال الوضع الامني إلى الهدوء، وحده الجنوب بقي يعيش حالة من التوتر بسبب اعتداءات اسرائيل، التي لا تميّز بين اللبنانيين والفلسطينيين، وتتسبب بالاشتباكات بين الفدائيين والجيش اللبناني. وخُيّل إلى كثيرين ان اتفاقية القاهرة شكلت الحل المقبول لدى كل الاطراف. لكن الوضع السياسي كان على درجة من الاحتقان، واخذ المنحى الطائفي يطغى على المنطق الوطني. امسكت الاحزاب اليسارية والزعامات الاسلامية بمجملها بالورقة الفلسطينية لتحقق المكاسب السياسية، عبر المطالبة حيناً باصلاح النظام والتهديد بقلبه احياناً. ورأت الاحزاب المحافظة والزعامات المسيحية ان الكفاح المسلح الفلسطيني وما يستتبعه من تجاوزات، يمس بسيادة لبنان وسلامة اراضيه، ويخل بتوازنه الداخلي لمصلحة المسلمين واليسار. ودخلت القضية الكبيرة في الحسابات الصغيرة.

لم يكن قيام كوماندوس اسرائيلي في ١٠ نيسان (ابريل) ١٩٧٣ باغتيال ثلاثة من كبار القادة الفلسطينيين، كمال ناصر وكمال عدوان وابو يوسف النجار، في شارع فردان الواقع في قلب العاصمة حدثاً عادياً حتى لا يترك آثاراً بارزة. وقدّم رئيس الحكومة صائب

سلام استقالته، في اليوم نفسه لأنه طالب بإقالة قائد الجيش العماد اسكندر غانم فوراً، وحمّله المسؤولية في عدم الرد على العملية، وفي عدم اتخاذ التدابير اللازمة لحماية المخيمات والعاصمة، ولم يجاره رئيس الجمهورية في طلبه.

وخيّم جو من الغضب بسبب اغتيال القادة الفلسطينيين ومن الخوف بسبب ظهور مناخات بداية حرب اهلية اذ انقسمت البلاد بين من يدافع عن المؤسسة العسكرية وقائدها، ومن يعارض الجيش ويطعن بهيكليته وتوجهاته ويحمّله مسؤولية التقصير.

يومها اصررت على ان يقوم بيار الجميل بخطوة رمزية ذات دلالة تخفف من حدة التوتر. واقترحت عليه ان يشارك في تشييع القادة الفلسطينيين الثلاثة في ساحة النجمة من بيروت. وكنت اعي حجم المخاطرة الامنية التي تنطوي عليها هذه الخطوة. لكن شجاعة بيار الجميل، ورغبته في ضبط الانفلات، جعلتاه يوافقني على هذه البادرة، رغم اعتراضات كل المسؤولين الامنيين والعسكريين داخل الحزب. واعلمت ابو عمار برغبة بيار الجميل، فابدى تشجيعاً كبيراً، واكد لي انه سيتخذ اقصى التدابير لحماية رئيس الكتائب.

كان يوم التشييع في ١٢ نيسان (ابريل) يوماً استثنائياً في حياة بيروت. ربع مليون نسمة، رفع الالم حزنها إلى حالة هستيريا، وبات من الصعب ضبط حدود غضبها. ومع اقتراب الموعد، تدخّل وليم حاوي، قائد الميليشيا الكتائبية، ومعه اكثرية اعضاء المكتب السياسي، لمنع بيار الجميل من الذهاب إلى بحر التشييع، لكن الجميل حسم الامر في اللحظة الاخيرة، وتوجهنا إلى ساحة النجمة مع مواكبة مسلحة. وشاءت الصدف ان يترافق وصولنا مع وصول موكب كمال جنبلاط. وبعفوية كاملة راحت الجماهير تهتف بحياة الزعيمين، وساد جو من الرهبة والوحدة. ودخل كمال جنبلاط وبيار الجميل، جنباً إلى جنب، إلى المسجد، وكأن لبنان يعاند قدره ويحاول دفع الحرب المقتربة.

وفيما كان بيار الجميل يقدم التعازي، جاءني ابو حسن سلامة، وقال لي بلهجة من يتخوف من حدوث مفاجأة، انه من الافضل ان لا نرافق جثمان الشهداء إلى المقبرة، وان يخرج بيار الجميل، حفاظاً على امنه، من الباب الخلفي للمسجد. وفهمت ان ابو حسن سلامة يشعر بالخوف على بيار الجميل، وبالقلق من ان يقدم احد ما على ما يحوّل التشييع إلى بداية حرب. ولم يكن امامنا سوى ترك سيارات المواكبة عند المدخل الرئيسي والخروج من الباب الخلفي الذي يطل على مقهى الاوتوماتيك. كانت الطرقات خالية تماماً وصادف مرور سيارة اجرة توقف سائقها فصعدنا معه. لم ينتبه سائق السيارة لدى توقفه لهوية الركاب، وعقد الذهول لسانه حين ادرك انه يُقِلُّ بيار الجميل في هذه الاجواء وبلا حراس،

وبدا كمن يحس بخطورة هذا النوع غير العادي من الركاب فسابق الوقت لايصالنا إلى بيت الكتائب.

وساهمت مشاركة بيار الجميل في تشييع الشهداء الفلسطينيين في تهدئة الخواطر بعض الشيء. وانقشعت الغيوم اكثر، إثر اللقاء الذي تمّ في ١٧ نيسان (ابريل) بين رئيس الجمهورية سليمان فرنجية وياسر عرفات الذي ابدى رغبته في القيام بزيارة شكر لرئيس الكتائب.

عُقد الاجتماع في منزل الشيخ بيار الجميل في الاشرفية في ٢١ نيسان (ابريل) ١٩٧٣. رافق عرفات كل من ابو اياد وهاني الحسن واحمد الازهري. وكان يحيط ببيار الجميل جوزف شادر نائب رئيس الحزب، جوزف سعادة الامين العام، ولويس ابو شرف نائب كسروان، وبشير الجميل وانا.

استهل بيار الجميل الاجتماع بالاسف لاغتيال الشهداء الثلاثة وقال لابو عمار: «انا عائد لتوي من اميركا، حيث الرأي العام والتلفزيون يتحكمان بهذه الديمقراطية الكبيرة، وقد لاحظت ان مئتي مليون اميركي لا يعرفون القضية الفلسطينية الا من خلال الدعاية الصهيونية. قضيتكم لم تعد في ايديكم. لقد اصبحت معركة بين اليسار العالمي الممثل بالاتحاد السوفياتي، واليمين العالمي الممثل بالولايات المتحدة». واضاف متأسفاً: «يجب عدم اقحام القضية الفلسطينية في معركة اليمين واليسار لأن فلسطين هي ايديولوجية بحد ذاتها ولا تحتاج إلى اي ايديولوجيات اخرى».

وردّ ابو عمّار قائلاً: «بامكانكم ان تساعدونا. ان تاريخ الشرق الاوسط هو تاريخ غزوات. فهذه المنطقة لا تكون الا غازية او مغزوة. والقضية الفلسطينية معقدة اكثر من قضية يمين ويسار، لسببين رئيسيين على الاقل: اولهما الموقع الاستراتيجي للشرق الاوسط في صراع الجبارين، والثاني هو النفط العربي وتأثيره في الاقتصاد العالمي، وبالنتيجة لا يمكن فصل معركة فلسطين عن المعركة العالمية والقوى المتصارعة في المنطقة».

ووجه جوزف شادر سؤالاً دقيقاً إلى قيادة المقاومة قائلاً: «متى سيصبح عندكم الف كاميكاز اي الف فدائي انتحاري لمواجهة اسرائيل؟» رد ابو اياد بكثير من الوجدانية «معركة الكرامة هي اكبر عملية كاميكاز. لقد بقينا ثماني عشرة سنة معذبين ومسالمين، نتكل على الآخرين حتى جاءت نكسة ١٩٦٧، ففهمنا ان خلاصنا بيدنا، وقررنا ان نكون احراراً، لأن العبيد لا يقاومون، فحملنا السلاح لنستعيد كرامتنا وارضنا، وقررنا ان نموت، ومن

قرر ان يموت يكون كاميكازاً». بدوره اوضح ابو عمار: «اننا نواجهه اضطهاداً كبيراً وتعتيماً اعلامياً كبيراً. في السجون سبعة عشر الف فلسطيني، ومع ذلك اعترف الجيش الاسرائيلي بأننا قمنا بما يقارب مئتي عملية عسكرية خلال عام ١٩٧٢، اي بمعدل عملية واحدة كل يومين تقريباً. ونخطط لرفع وتيرة العمليات خلال عام ١٩٧٣، لتصل إلى معدل عملية كل يوم، غير اني اعير العمل السياسي اهتماماً اكبر من العمل العسكري. كان الثوار الفيتناميون يقولون إن كل مظاهرة داخل الولايات المتحدة لها تأثير اكبر من اي معركة عسكرية. وما حدث داخل فلسطين، بعد عملية فردان، يبشّر بالخير فقد توجّه ثمانية آلاف شخص لتعزية والدة كمال ناصر مشياً على الاقدام، مسافة ثمانية كيلومترات لأن السلطات الاسرائيلية منعت وصولهم بالسيارات. ان انتفاضة كهذه تثبت ان الثورة الفلسطينية تمثّل الشعب الفلسطيني.

وبدا ابو عمار وكأنه يحلم بانتفاضة الداخل التي ستتحقق بعد خمس عشرة سنة. فقد استعمل عفوياً كلمة «انتفاضة» من الناحية اللغوية، كأنه ادرك بحدسه انها الوسيلة الفضلى لاستعادة فلسطين. كما اتضح من حديثه انه يستوعب كل العوامل الاقليمية والعالمية المحيطة بقضيته والمؤثرة فيها. اما الواقع اللبناني فكان مختلفاً: لا الخطوات الرمزية كالمشاركة في مأتم، ولا اللقاءات السياسية الوجدانية كانت كافية لرأب الصدع ووقف التدهور. كان رئيس الجمهورية يفكر في تعديل لاتفاقية القاهرة، يجعل الفدائيين في لبنان في وضع مشابه لما هم عليه في باقي الدول العربية، ويعيد للدولة سلطتها على كل اراضيها، بما فيها المخيمات حيث يتكدس السلاح الثقيل في العاصمة وضاحيتها وفي الجنوب حيث يتوسع الانتشار الفلسطيني إلى المدن والقرى. وكانت المقاومة تتمسك رسمياً باتفاقية القاهرة التي شرّعت وجودها العسكري. لكنها لم تكن تحترم او تطبق بنودها وتخرقها بشكل مستمر وسافر. فقد بنت «دولة» داخل الدولة، واصبح وزنها مؤثراً في الشؤون اللبنانية إلى حد تصاعدت فيه اصوات مسيحية تطالب بتجريد الفلسطينيين من السلاح وتوزيعهم على الدول العربية بنسبة حجم كل دولة. وكانت اسرائيل تصعّد اعتداءاتها مما زاد في الاستنفار العسكري الفلسطيني الذي ما لبث ان تحول إلى صدام مع الجيش اللبناني في بيروت والجنوب، ومع حزب الكتائب في الدكوانة وتل الزعتر.

في ٢ أيار (مايو) ١٩٧٣ انفجرت الاشتباكات العنيفة بين الجيش والمنظمات واستخدمت فيها كل الاسلحة وشملت كل المناطق. واستمرت الاشتباكات اسبوعاً كاملاً، فأعلنت الحكومة اللبنانية في ٧ أيار (مايو) حالة الطوارىء الكاملة، وردّت سوريا

باغلاق حدودها مع لبنان. وقامت وساطة عربية قادتها مصر ادت إلى تشكيل لجنة مشتركة من مندوبين عن السلطة اللبنانية والمقاومة الفلسطينية وأوقفت الاشتباكات ورُفعت حالة الطوارىء في ٢٣ ايار (مايو) وتراجع سليمان فرنجية للمرة الأولى في عهده امام الضغط الفلسطيني.

في ذلك اليوم توجهت إلى حي الفاكهاني حيث يقيم ابو عمار الذي فاجأني بطلبه ان نذهب بسيارتي وحدنا بلا مرافقة، ومعنا فقط احمد الازهري، سكرتيره الخاص، للقاء بيار الجميل. لبس ابو عمار قبعته العسكرية وصعد إلى جانبي وتوجهنا من صبرا إلى الاشرفية، كانت المرة الاولى التي يدخل فيها عرفات الشق الشرقي من بيروت بلا حراس ولا ترتيبات امنية مسبقة. وخلافاً لاحساسي بالتهيب، كان ابو عمار على درجة عالية من الارتياح.

عندما دخلنا الاشرفية اصر ابو عمار على ان نقوم بجولة ليرى بأم العين احياءها الداخلية، في حين كنت راغباً في اعتماد اقصر الطرق للوصول إلى مكان الموعد. ونزلت عند رغبته وجلنا في الاشرفية. ولاحظ ابو عمار شعارات على الحيطان بينها واحد يقول: «لا لسوريا» فقال لي: «يا كريم هذه الشعارات لا تفيد. التعبئة النفسية اخطر من التعبئة العسكرية فانتبهوا». ووصلنا إلى بيت بيار الجميل وكان مرافقوه يعرفون سيارتي لكنهم اصيبوا بما يشبه الذهول حين رأوا قائد الثورة الفلسطينية يترجل بزيه الزيتوني والمسدس، ليدخل بيت رئيس الكتائب. ما اقصر المسافات بين المناطق والمواقف عندما تتوافر ارادات الرجال.

كان في استقبال ابو عمار بيار الجميل، يحيط به نجلاه امين وبشير، ودار بين الرجلين حديث شخصي اتخذ منحى وجدانياً. قال ابو عمار لبيار الجميل: «نحن رجال قضية. ما يجمعنا هو انك كرست نفسك للقضية اللبنانية وانا كرست نفسي للقضية الفلسطينية. لو اردتُ الحياة الهادئة والعادية، لكنتُ بقيت مهندساً اعمل في الخليج، وجمعت ثروة طائلة، واقتنيت منازل فخمة، وسيارات اميركية كبيرة، في حين اني اعيش اليوم في افقر منطقة من بيروت، وفي حال استنفار دائم؛ لا انام الليل وينتهي النهار ولا ينتهي نضالي».

أثّر كلام قائد الثورة في رئيس الكتائب الذي قاطعه قائلاً: «حسناً فعلت، فكل ثروات العالم لا تضاهي جزءاً ضئيلاً من دورك وزعامتك». واضاف: «لو كنت فلسطينياً لكنت اول فدائي». في هذا الجو العاطفي، بدأ الحديث حول المشاكل السياسية والمآخذ المتبادلة.

واخذت الحماسة ببيار الجميل فقال لابو عمار: «خلينا نتفاهم وانا اجعل الفاتيكان يبارك هذا التفاهم».

اقترح ابو عمار البدء في علاقات جديدة بين منظمة التحرير وحزب الكتائب، وتعيين لجنة مشتركة لتنظيم هذه العلاقات. وخرجنا من هذا الاجتماع في جو ارتياح وكلنا ثقة بأن المشاكل الكبيرة تصغر امام الرجال الكبار. وعدنا في سيارتي إلى صبرا، ولكن هذه المرة بمواكبة الحرس الشخصي لبيار الجميل.

وبالفعل بدأت اعمال اللجنة الكتائبية ــ الفلسطينية الاجتماعات التي اسفرت عن طرح اتفاق على اساس ورقة عمل قدمتُها، وتم بحثها كلمة كلمة وفاصلة فاصلة نظراً لحساسية الموضوع وخطورته، قبل وضعها بصيغتها النهائية.

وانجز النص النهائي في اوائل حزيران (يونيو) ١٩٧٣. لكن مداخلات من اطراف عدّة بما فيها الطرف الاميركي جعلت بيار الجميل يمتنع عن التوقيع، مع انه كان يشدد على ضرورة استمرار الحوار والعمل بوحي نصوص الاتفاق. فمن جهة كان الشيخ بيار يواجه صعوبات مع حليفه كميل شمعون، وانتقادات من جانب الرئيس سليمان فرنجية، الذي كان يصر على ان مثل هذا الاتفاق هو من صلاحية الدولة وليس من صلاحية اي حزب. وفي المقابل واجه ابو عمار بعض الغمز والعتب من قبل كمال جنبلاط، بالاضافة إلى سعي اليسارين الفلسطيني واللبناني إلى احباط هذا التقارب.

وبظني ان الوثيقة التي لم يتم توقيعها، حملت في طياتها الكثير من دلالات المرحلة ومفاهيمها ومن الاجوبة الملائمة لمجمل المشاكل المطروحة. ولو نفذ هذا الاتفاق لانتفى الكثير من اسباب الحرب، وربما ما كانت لتحصل. لذا رأيت ان انشر، وللمرة الاولى هذا النص بحرفيته وقد جاء فيه:

«اثر الاجتماعات التي جرت منذ بداية سنة ١٩٧٣ بين الشيخ بيار الجميل رئيس الكتائب اللبنانية، الحزب الديمقراطي الاجتماعي، والسيد ياسر عرفات، رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، والقائد العام لقوات الثورة الفلسطينية، وفي ضوء الاحداث المؤسفة التي جرت في شهر ايار الحالي، اجتمع في الفترة الواقعة ما بين الخميس ١٩٧٣/٥/٣١ والخميس ١٩٧٣/٦/٧ وفد الكتائب اللبنانية المؤلف من السادة جوزف شادر، جورج سعادة، امين الجميل وكريم بقرادوني، ووفد المقاومة الفلسطينية المكون من السادة ابو اياد، ياسر عبد ربه، صلاح صلاح، علي ابراهيم، توفيق الصفدي، واحمد الازهري. وقد توصل المجتمعون بعد محادثات طويلة اتسمت بالصراحة والموضوعية إلى تحديد الاسس الكفيلة بتحقيق الصالح اللبناني ــ الفلسطيني المشترك وفق برنامج العمل التالي:

اولاً: يرى المجتمعون ان اسرائيل خطر داهم ليس على الفلسطينيين وحدهم بل على المجموعة العربية كلها، وخاصة على لبنان ارضاً وشعباً، كياناً واقتصاداً. فالدولة الاسرائيلية المرتكزة على العنصرية والتوسعية تعتبر رفضاً للشرائع الدولية والحقوق الانسانية ونقضاً للصيغة اللبنانية القائمة على التعايش الحر بين مختلف فئات الشعب والاديان والعقائد.

لذلك يعلن المجتمعون ما يلي:

أ ــ حق الشعب الفلسطيني المقدس في النضال لاسترداد ارضه وتأسيس الدولة الفلسطينية الديمقراطية حيث يتعايش الجميع بغض النظر عن انتمائهم الديني او العقائدي كبديل للكيان الصهيوني.

ب ــ واجب الدفاع عن لبنان وسلامة اراضيه ووحدة شعبه واتخاذ جميع الاجراءات للجم الاعتداءات الاسرائيلية وتجنب الوقوع في الفخ الاسرائيلي الذي يهدف إلى افتعال الاقتتال بين الاخوة على الارض اللبنانية بغية تفتيت الوجود اللبناني كتوطئة لاعادة تركيب خريطة المنطقة.

ثانياً: يرى المجتمعون ان السيادة اللبنانية مسألة غير قابلة للجدل وهي مصونة لا تمس ويجب ان تحظى باحترام كل الذين يعيشون فوق ارضه ويستظلون سماءه. فالسيادة اللبنانية كل لا يتجزأ ولا يتحمل الانتقاصات والتجاوزات. لذلك يعلن المجتمعون ما يلي:

أ ــ احترام الفلسطينيين للقوانين اللبنانية وسلطان القضاء اللبناني.

ب ــ التزام المقاومة بعدم التدخل في شؤون لبنان الداخلية.

ثالثاً: يرى المجتمعون ان التعايش اللبناني ــ الفلسطيني ضرورة تحتمها القناعة الموضوعية واختيار حر قائم على الارادة المشتركة، ومبني على الثقة والمحبة المتبادلتين.

لذلك يعلن المجتمعون ما يلي:

أ ــ تطبيق ما تم الاتفاق عليه بين الدولة اللبنانية والمقاومة الفلسطينية.

ب ــ اعتماد الحوار سبيلاً وحيداً لحل المنازعات، والامتناع عن ممارسة اساليب العنف والقوة مهما كانت الاسباب.

ولما كان التقاء وجهات النظر كاملاً حول هذه القضايا المبدئية، وعلى ضوء عملية نقد ذاتي جريئة، ومن اجل تعميق الثقة المتبادلة، اتفق المجتمعون على الخطة التنفيذية التالية:

١ ــ القيام بحملة توعية مشتركة على الصعيد الشعبي، وخاصة في المجال العمالي والنسائي والطلابي، وذلك من خلال وسائل الاعلام المتوافرة لدى الفريقين.

٢ ــ تبادل المشاركة في المؤتمرات العامة والمناسبات الوطنية.

٣ ــ السعي من قبل الكتائب اللبنانية لطرح برنامج العمل المتفق عليه على مختلف القوى السياسية والاجتماعية اللبنانية.

٤ ــ التعاون في المجالات الدولية وتعبئة الامكانات لكسب الصداقات من اجل القضية الفلسطينية.

٥ ــ تشكيل لجنة متابعة دائمة للعمل على تحقيق الخطة التنفيذية وملاحقة القضايا الآنية».

واذا كانت هذه الاجتماعات لم تمنع نشوب الحرب، فإنها ساهمت في تأجيلها ما يقارب السنتين. ووفرت الفرصة لقيام علاقات بين بعض القيادات المسيحية والفلسطينية كتلك التي نشأت بين امين الجميل وابو اياد، او بين أبو حسن سلامة وكل من بشير الجميل وداني ودوري شمعون. وكان ابو عمار يرتاح إلى استمرار هذه الاتصالات وقال لي خلال احد لقاءاتنا: «انا فرّغت ابو حسن، وهو اعز شخص لديَّ، لي به ملء الثقة، كي يقيم افضل العلاقات معكم».

خف التوتر وألّف تقي الدين الصلح في ٢٥ تموز (يوليو) ١٩٧٣، وزارة اطلق عليها اسم «حكومة كل لبنان» لكن النار بقيت تحت الرماد. وبدأ سباق التسلح، وازدهرت تجارة السلاح، وبرزت عدّة تنظيمات اطلقت على نفسها التسميات المختلفة تدور اكثريتها في فلك «انصار الثورة الفلسطينية» وبعضها في مدار «انصار الجيش اللبناني». وقد برع ابو عمار وابو جهاد في تعبئة الجماهير الاسلامية واليسارية والكثير من المثقفين المسيحيين. كما نشطت الرهبانية المارونية في تجييش الطاقات المسيحية، وارتفعت وتيرة التدريب والتسليح داخل حزبيّ الكتائب والاحرار على غرار ما كان يحدث داخل التنظيمات التابعة للحركة الوطنية. وكان رئيس الجمهورية سليمان فرنجية قد صارح كميل شمعون وبيار الجميل، اثر صدامات ايار (مايو) ١٩٧٣، بين الجيش اللبناني والمنظمات الفلسطينية وقال: «لا تتكلوا بعد اليوم على الجيش، اتكلوا على انفسكم». واعطى الرئيس اللبناني تعليماته لجهاز مخابراته العسكرية لمنح التسهيلات للميليشيات المسيحية. وبدت النيات المبيتة اكبر من مساعي التسوية.

ايقظت هذه التطورات والاجواء التي رافقتها عقدتين: عقدة التصفية لدى الفلسطينيين وعقدة الخوف لدى المسيحيين. والحقيقة ان المقاومة الفلسطينية عانت في انطلاقتها هاجس الاضطهاد الذي تحوّل إلى عقدة التصفية، بسبب الهزيمة التي لحقت بها في الاردن. وكانت منظمة التحرير مصممة على ان توفّر لنفسها مظلة سياسية وبنية عسكرية تقيانها اي خطر مشابه في لبنان. وقد عبّر السيد صلاح خلف، احد مؤسسي حركة «فتح»، والرجل الثاني

فيها، عن هذا القلق بقوله: «نحن لم نخسر في الاردن عسكرياً بل خسرنا سياسياً، لأننا لم نجد شخصية سياسية اردنية تدعمنا بوجه نظام الملك». وحفظ الزعماء الفلسطينيون درس عمان جيداً. وما ان وصلوا لبنان حتى سارعوا إلى عقد التحالفات السياسية بالاضافة إلى توسيع مساحة انتشارهم العسكري على كل الاراضي اللبنانية.

وغاب عن ذهن القادة الفلسطينيين ان التركيبة اللبنانية مفرطة الحساسية بطبيعتها، لا تحتمل الحمل العسكري للمقاومة الفلسطينية، ولا الزخم السياسي لتحالفاتها. هاجس التصفية دفع المقاومة الفلسطينية إلى توسيع انتشارها المسلح لاحباط اي محاولة الغاء قد يقوم بها الجيش اللبناني، المتهم بميوله الغربية المعادية للمنظمات الفلسطينية، والمشكوك بتركيبته البشرية التي يرى الفلسطينيون ان المسيحيين يسيطرون عليها، وانها منحازة وعدائية تجاههم. وحملت عقدة التصفية المنظمات الفلسطينية على تعميق علاقاتها في مناطق انتشارها مع الفئات الاسلامية واليسارية؛ فعقدت تحالفات سياسية وعسكرية جعلتها تبدو، في الصورة اللبنانية الداخلية، وكأنها «جيش المسلمين» في مواجهة الجيش اللبناني الذي بدا وكأنه «جيش المسيحيين».

وفي المقابل لمس المسيحيون، وخصوصاً حزبا الكتائب والاحرار في انتشار الكفاح المسلح الفلسطيني وتحالفاته انقلاباً على ميزان القوى داخل التركيبة اللبنانية. فشعروا من منطلق الدفاع الشرعي عن النفس، ان الوجود الفلسطيني المسلح خطر على الكيان اللبناني، وطرحوا القضية اللبنانية على قاعدة العداء للقضية الفلسطينية.

وساد التناقض على الصعيد الوطني بين حقّين ومنطقين. واعنف الحروب هي التي تحدث بين حقّين: كل فريق مقتنع بحقه وبصورة مطلقة، ولا يتفهم حق الآخر ولو بصورة نسبية. اللبنانيون، وبصورة خاصة معظم المسيحيين، مع قلة قليلة من المسلمين، يريدون، وبكل الوسائل المتاحة، ان يحافظوا على سيادة الوطن وسلامة الحدود. والفلسطينيون، ومعهم مجمل المسلمين وبعض المسيحيين، يطالبون بحرية العمل الفدائي عبر الحدود اللبنانية ـــ الاسرائيلية، مهما يكن الثمن والنتيجة.

واصعب الحلول هي التي تحاول الجمع بين منطقين متناقضين، وهذا ما حاوله جمال عبد الناصر وشارل حلو في اتفاقية القاهرة: منطق الدولة اللبنانية القائم على تطبيق القوانين وحماية النظام والتوازنات، ومنطق الثورة الفلسطينية الذي يطمح إلى تبديل المعادلات، وتعديل موازين القوى. وبرزت حالة من الاندفاع نحو الصدام، وكأن الحرب قدر لا يردّ. خائفان يعجز الواحد منهما عن فهم الآخر وتفهّم مبرراته، فيهرب الخائف حتماً

إلى الامام، ويدخل لبنان حرب القضيتين وهي من الحروب التي لا تنتهي.

وقررتُ، دون كبير حسابات، الاقدام على مغامرة سياسية محفوفة بالمخاطر والمزالق، خصوصاً ان تجربتي الشخصية ما زالت في بداياتها. فرحت اوظّف موقعي السياسي في حزب الكتائب، ورصيدي الشخصي لدى قيادة منظمة التحرير، عَلّني اجد صيغة تعايش تحول دون وقوع الصدام. وكثّفت اتصالاتي بالقيادات الفلسطينية، وفي طليعتها ابو عمار، وفجّرت هذه الاتصالات نقاشاً حاداً في صفوف الفلسطينيين والكتائبيين في آن. وقام جدل مثير: «فتح»، وبتأثير شخصي من عرفات، كانت تميل إلى بناء علاقات مع مختلف التيارات اللبنانية، بغض النظر عن انتماءاتها العقائدية والايديولوجية، بما فيها الكتائب، في حين كانت «جبهة الرفض» الفلسطينية تميل إلى التحالف مع اليسار بزعامة كمال جنبلاط والتربص بالنظام اللبناني الذي كان حزب الكتائب يرمز اليه. والحقيقة ان ابو عمار حاول ان يكسب الجميع: ان يعتمد على كمال جنبلاط كحليف وان لا يصطدم ببيار الجميل كعدو. لكن الخصومة بين جنبلاط والجميل كانت اكبر من ان يتخطاها ابو عمار على براعته وحنكته.

واشتد الخلاف داخل حزب الكتائب بين اكثرية ساحقة ترفض مبدأ الوجود العسكري الفلسطيني ولا تقبل الحوار معه، وفي طليعة رموزها الشابة بشير الجميل، واقلية صغيرة، كنت امثلها، تنادي بضرورة الحوار والتعاون مع المقاومة الفلسطينية، التي تمثل قضية لا يمكن للبنان تجاهلها.

تعمدت ان ادافع عن الفلسطينيين وقضيتهم في الاوساط المسيحية، وعن المسيحيين ومواقفهم في الاوساط الفلسطينية، مما جلب لي الكثير من المتاعب. صنّفني المسيحيون والكتائبيون بأنّي «فلسطيني»، ورأى الفلسطينيون بي «كتائبياً مميزاً» لكنني ابقى في المحصلة «كتائبياً». وفي عقلهم الباطن الكتائبي هو صنو الصهيوني.

من خلال الحوارات المشوقة مع مختلف الفئات اللبنانية والفلسطينية المتعددة التوجهات والمشارب، حاولت ان اردّ على مقولة الذين يؤكدون استحالة التعايش بين «منطق الدولة» و«منطق الثورة». وكنت ارى ان التعايش صعب، لكنه ممكن، بين «منطق» الدولة و«منطق» الثورة، غير انه مستحيل بين «اللامنطق»، في الدولة و«اللامنطق» في الثورة. وكنت اشدّد على ضرورة اسقاط «اللامنطق» او بالاحرى منطق المتطرفين لدى كل الفئات، اقتناعاً مني ان التطرف لا يوصل بأي حال إلى التعايش. وتعمدت ان اظهر وجود مصالح واهداف مشتركة بين اللبنانيين والفلسطينيين دولة وثورة، احزاباً وتنظيمات.

اعتمدت خطاباً سياسياً يخرج عن المنحى التقليدي. ودعوت إلى ضبط الردات الغرائزية والانفعالية وتحكيم العقل الضمير. ورأيت ان القضية الفلسطينية، لكونها مسألة حق وعدل، تتخطى ــ ويجب ان تتخطى ــ كل العقائد والايديولوجيات، وان منظمة التحرير الفلسطينية، بصفتها مقاومة وطنية، تتعدى ــ ويجب ان تتعدى ــ الصراع الداخلي اللبناني، فلا تتحول إلى «طائفة» لبنانية تضاف إلى مجموعة الطوائف، او إلى «حزب» يضاف إلى مجموعة الاحزاب. ومن الافضل للمقاومة الفلسطينية ــ اذا احسنت الاداء ــ ان تكتفي بتحقيق الحد الادنى من المطالب التي يوافق عليها كل اللبنانيين، بدل ان تنال الحد الاقصى من المكاسب من بعض اللبنانيين وعداوة البعض الآخر. ان الحد الادنى، الذي يأتي باجماع اللبنانيين، اثبت وانفع من الحد الاقصى الذي يبقى موضع خلاف ونزاع.

ورأيت ان من مصلحة منظمة التحرير ان تثبت قدرتها على التعايش وارادتها له، ليس فقط مع المسلمين بل ايضاً وخصوصاً مع المسيحيين، فتقنع العالم، وخصوصاً الغربي منه، انها جادة في اقامة نموذج للتعايش بين الفلسطينيين واليهود على ارض فلسطين. لا مفر اذن من ان تنمّي المنظمة علاقات من الثقة بينها وبين المجموعات المسيحية التي تحتاج إلى الاطمئنان والعناية الفائقة. فالمجموعات الاسلامية مؤيدة لها بالفطرة، في حين ان المجموعات المسيحية لا تؤيدها الا بالاقناع.

وكان خطابي السياسي يصطدم بالصورة الشائعة عن حزب الكتائب، المعروف في الاوساط الفلسطينية بأنه تنظيم مسلح معاد للفلسطينيين والمسلمين والعرب، وموال للغرب واميركا واسرائيل. وكنت استفيض في شرح واقع حزب الكتائب، موضحاً انه تنظيم مسلح للدفاع عن الذات والكيان، وانه غير مرتبط بأي مشاريع خارجية، ويحرص على ان يحافظ على استقلالية القرار اللبناني.

وشعرت بان هذا الامر هو قلب المشكلة. فحاولت ان يبادر حزب الكتائب إلى تبديل صورته السياسية، فيدعم القضية الفلسطينية ويربح مرتين: مرة قلب المسلم اللبناني، ومرة عقل المسلم العربي، ويصبح حزباً لبنانياً ذا بعد عربي، بدل ان يبقى حزباً مارونياً ذا بعد مسيحي، محدود الانتشار في الداخل وضيق العلاقات في الخارج. كنت مقتنعاً بأن القضية الفلسطينية هي فرصة الكتائب التاريخية للخروج من لعبة القوقعة إلى خيار كبير.

وظننت للحظة ان بمقدور حزب الكتائب ان يمنع الدولة اللبنانية ــ وهو جزء فاعل فيها ــ من الانزلاق إلى مواجهة المقاومة الفلسطينية، وان يجنّب التركيبة اللبنانية المرهفة زلزالاً يجرفها. وفي المقابل تصورت لفترة ان منظمة التحرير الفلسطينية ستمتنع عن التدخل في

شؤون لبنان الداخلية، فلا تعرّض بخفة، سلامة لبنان للخطر، ولا يقترف عناصرها التجاوزات ولا يستهترون بالكرامات.

واقتنعت، وما زلت، بأن الوطن الذي لا يحميه جيشه معرض للاحتلال او للانحلال في كل وقت. وطالبت مع كثيرين ببناء جيش لبناني قادر ومقاتل، وتطبيق التجنيد الاجباري على اللبنانيين. وحسبت ان منح لبنان صفة «الدولة المساندة» بدل «الدولة المواجهة»، كما حصل في اولى مؤتمرات القمة العربية، لا يعفي الدولة اللبنانية من امتلاك جيش قوي في منطقة يسود فيها منطق القوة، وجيش محارب في ظل استمرار الحرب العربية ــ الاسرائيلية، وفي ضوء الاطماع التاريخية لجيران لبنان فيه.

واقتنعت ــ وما زلت ــ ان الجيش الذي لا يطلق النار لحماية حدوده، لا يقدر ان يطلق النار لضبط الامن في الداخل. والجيش اللبناني الذي تحاشى اطلاق النار على اسرائيل، مع اعتداءتها وتحدياتها، لن يسمح له باطلاق النار على الفلسطينيين. وحدها الدول العربية التي واجهت اسرائيل تقدر ان تواجه الكفاح المسلّح الفلسطيني. هذا ما اثبته الملك حسين في ايلول (سبتمبر) عام ١٩٧٠ بعد خوضه حرب ١٩٦٧، وما ستثبته دمشق مرتين: مرة، اثر خوضها حرب ١٩٧٣ فدخلت لبنان وحجّمت منظمة التحرير عام ١٩٧٦، ومرة ثانية، إثر المواجهة مع اسرائيل عام ١٩٨٢ فأخرجت الفلسطينيين من لبنان عام ١٩٨٣. في هذا السياق كنت انادي بأن يردّ الجيش اللبناني على الجيش الاسرائيلي. واذا كان لا بد من الحرب، فأنّني افضل ان تنشب حرب لبنانية ــ اسرائيلية ولو خسرناها، على ان تندلع حرب لبنانية ــ فلسطينية ولو ربحناها. الخسارة امام اسرائيل تعوض، اما المعركة مع الفلسطينيين فلا تنتهي وتحوّل الشعبين اللبناني والفلسطيني إلى ضحايا لحروب بديلة.

وتزامنت العلاقات بمنظمة التحرير مع اتصال بدأته شخصياً بالامين القطري لمنظمة حزب البعث في لبنان، المهندس عاصم قانصوه، الذي ابدى روحاً عالية من التفهم واقتنع بضرورة الحوار مع الكتائب، ورتّب لي زيارة لدمشق للاجتماع بالمسؤولين فيها. وكان حافظ الاسد قد تسلّم الحكم منذ سنتين منادياً بسياسة الانفتاح، مما سهّل التلاقي. وأسفرت الاتصالات عن تأليف لجنة حوار بين حزبيّ الكتائب والبعث في صيف ١٩٧٣. وتشكل الجانب الكتائبي من انطوان ايوب وصلاح مطر وانطوان نجم وجوزف ابو خليل وكريم بقرادوني وقد رعى بيار الجميل الاجتماع الأول في منزله. وتألّف الجانب البعثي من عاصم قانصوه وعبد الامير عباس وابراهيم عيسى ونمر حيدر، وعفيف حنا وشارك

في اللقاء الاول سهيل سكريه عضو القيادة القطرية السورية وزهير محسن أمين سرّ القيادة العامة لقوات «الصاعقة» التابعة لسوريا. واسفر الحوار الكتائبي — البعثي عن اول زيارة قام بها وفد كتائبي رفيع المستوى إلى سوريا حيث اجتمع في ٢٦ أيلول (سبتمبر) ١٩٧٣ بالرئيس السوري قبل ايام من اندلاع حرب تشرين (اكتوبر) ودخلنا المثلث الصعب: لبنان وسوريا ومنظمة التحرير.

اثر حرب تشرين (اكتوبر) تقدمت حظوظ التسوية في الشرق الاوسط، وخفّت حدة الاحتقان نسبياً في لبنان من دون ان تتوقف التحضيرات العسكرية لدى كل الاطراف. في ٢١ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٣ عقد مؤتمر السلام في الشرق الاوسط في جنيف، حضره ممثلون عن كل من مصر والاردن واسرائيل والولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي تحت اشراف الامم المتحدة، وغابت عنه سوريا. واخبرني عبد الحليم خدام لاحقاً ان القيادة السورية ناقشت طويلاً فكرة المشاركة في هذا المؤتمر، ورأت فيه نواحي ايجابية واخرى سلبية، وكانت بعض الاخبار تشير إلى امكان سفره إلى جنيف بصفته وزيراً للخارجية. وفي خضم هذا النقاش، عاد عبد الحليم خدام مساء إلى بيته، فالتقى ابنه الذي سأله على الفور: «صحيح يا بابا انك ستذهب غداً لمصافحة اليهود؟» أثّر هذا الكلام في نفس خدام، ونقل إلى القيادة السورية ردّة الفعل العفوية هذه. وكان هذا السؤال يعبّر عن حقيقة مشاعر الشعب السوري، لا بل مشاعر الشعوب العربية الاسلامية.

سباق مع الانفجار

دق نبض الشرق الاوسط عام ١٩٧٤ على ايقاع خطوات هنري كيسنجر: خطوة للتقارب بين العرب واسرائيل، وخطوة لاشعال الفتنة بين العرب. وسار لبنان على الايقاع نفسه: اتصالات سياسية تتخللها اشتباكات عسكرية.

تحركتُ في جميع الاتجاهات وكأني في سباق مع الانفجار. كثّفت اتصالات الكتائب مع المقاومة الفلسطينية، لوقف الاشتباكات حيناً، ولترميم الثقة احياناً، ومع حزبيّ البعث السوري والعراقي، وحركات الناصريين والقوميين العرب، ليساعدوا في اطفاء بعض الحرائق والتقليل من بعض التشنجات، ومع الامام موسى الصدر الذي لم ينقطع حواري معه حتى غيابه، ومع الحزب الشيوعي اللبناني، وخصوصاً مع كمال جنبلاط، علّني افتح ولو باباً ضيقاً بينه وبين بيار الجميل. وكان جنبلاط يردد عندما يتحدث عني: «ضيعانو، هالشاب يكون كتائبي».

وضاعت بالفعل جهودي في خضم الصراعات والمخططات. اسرائيل تصعّد ضرباتها في الجنوب الذي ابتدأ يحترق. التوتر مستمر بين الجيش اللبناني وميليشيات الكتائب والاحرار من جهة، والمنظمات الفلسطينية وميليشيات الحركة الوطنية من جهة ثانية. بيار الجميل يقود حملة سياسية واعلامية ضد العمل الفلسطيني المسلح. سليمان فرنجية لا يثق بابو عمار ويصفه بالمخادع. انور السادات وحافظ الاسد اتفقا على الحرب واختلفا على السلام. وكيسنجر حاضر يوظف الكل وكل شيء في خدمة نجوميته واسرائيل.

ولاحت في نهاية عام ١٩٧٤ بارقة امل. فقد دعت الامم المتحدة، وللمرة الأولى، ياسر عرفات، ليلقي خطاباً امام الجمعية العمومية في نيويورك في ١٣ تشرين الثاني (نوفمبر). وقرر الحكام العرب في قمة الرباط ان يمثلهم في هذه الدورة الرئيس اللبناني سليمان فرنجية، ويلقي كلمة باسمهم حول القضية الفلسطينية. وحمل عرفات، من منبر المنظمة العالمية، البندقية بيد وغصن الزيتون بالاخرى، وطرح صيغة التعايش حلاً للنزاع الاسرائيلي —

الفلسطيني. يومها تذكرت ما قاله لي ابو عمار في الاغوار عن «لبنان النموذج». وبدا لوهلة ان القضية اللبنانية تصالحت والقضية الفلسطينية.

وخطفت احداث عام ١٩٧٥ المتلاحقة كل امل. في كانون الثاني (يناير) التهب الجنوب من جرّاء القصف الاسرائيلي من الجو والبحر والبر وارتفعت حرارة الغليان في باقي لبنان. في شباط (فبراير) أُطلقت رصاصة على زعيم صيدا معروف سعد فأردته وبلغت التعبئة الطائفية والحرب النفسية حدها الاعلى. وفي ١٣ نيسان (ابريل) أُطلقت النيران على اوتوبيس يقلّ فلسطينيين في عين الرمانة. واذاعت الحركة الوطنية إثر الحادثة بياناً دعت فيه إلى اقتحام المناطق التي تحتلها ميليشيا الكتائب، وحل الحزب وطرد وزارئه من الحكومة ومقاطعته وطنياً وسياسياً وقطع كل حوار معه. وابرق ياسر عرفات إلى الملوك والرؤساء العرب يتهم عصابات الكتائب بالمجزرة ويناشدهم التدخل لوقف الفتنة. وبدأت الحرب ومعها لعنة الوطن. وساد اللامنطق: قصف الاحياء المدنية، خطف وقتل على الهوية، قنص الرجال والنساء والاطفال، خطوط تماس على الارض وفي القلوب.

تعطلت الحكومة اللبنانية وتعطل معها القرار اللبناني، ادارياً وعسكرياً وسياسياً. وظهرت الدولة اللبنانية مغلوبة على امرها، والثورة الفلسطينية غالبة. وحاول رئيس الجمهورية سليمان فرنجية استعادة القرار؛ فشكل في ٢٣ أيار (مايو) حكومة عسكرية برئاسة العميد نور الدين الرفاعي. في اليوم التالي عُقِدَ مؤتمر موسّع في دار الفتوى، ضم كل الاحزاب والشخصيات الاسلامية والتقدمية التي طالبت الحكومة بالاستقالة، ودعت إلى تأليف حكومة برئاسة رشيد كرامي. ورضخ رئيس الحكومة العسكرية. وتراجع سليمان فرنجية سياسياً بعد ثلاثة ايام، وقبل استقالة الحكومة العسكرية، وكلّف رشيد كرامي بتأليف حكومة جديدة. تراجع «الرئيس القوي» سياسياً عام ١٩٧٥، كما كان قد تراجع عسكرياً عام ١٩٧٣ بالغاء حالة الطوارىء وسحب الجيش اللبناني إلى ثكنه.

واوفد حافظ الاسد إلى بيروت عبد الحليم خدام، واللواء ناجي جميل نائب وزير الدفاع وقائد القوات الجوية، واللواء حكمت الشهابي رئيس هيئة الاركان، الذين سيؤلفون، بالاضافة إلى العقداء علي دوبا ومحمد الخولي وعلي المدني، الطاقم السوري المختص الذي سيتابع الازمة اللبنانية. وبدأت دمشق وساطة سياسية بانتظار تدخّلها العسكري.

تعثّر تأليف الحكومة بسبب اصرار كمال جنبلاط على ان يتبنى الحكم المطالب الاسلامية في الاصلاح وفي عزل الكتائب. وتضامن سليمان فرنجية وكميل شمعون وبيار الجميل

ورفضوا هذه الشروط. وفي ٢٩ حزيران (يونيو) ١٩٧٥، تمت تسوية تقضي بأن لا يشترك اي ممثل عن الكتائب في الحكومة مقابل ان تصدر دار الفتوى بياناً تنفي فيه وجود اي قرار بالعزل، فألّف رشيد كرامي آخر حكومة في عهد سليمان فرنجية.

هدأ الوضع الامني بعض الوقت لكن كمال جنبلاط استمرّ في حملته على الكتائب مباشرة، وعلى الحكومة مداورة. وفي آب (اغسطس) انفجرت الاشتباكات في زحلة وفي ايلول (سبتمبر) التهب الشمال وعكار حيث وقعت معارك ضارية بين زغرتا وطرابلس، وقامت المنظمات الفلسطينية والاحزاب الاسلامية بقتل ثلاثة رهبان في دير عشاش، وتهجير المسيحيين من بيت ملات، واحتلال سرايا طرابلس، وخطف العسكريين. وعمّت الفوضى العاصمة: تخريب الاسواق التجارية ونهبها، حرق الفنادق الفخمة، وتساقط الضحايا بالعشرات من جراء القصف والقتل والخطف والتعذيب. وانقسم الحكم من جديد: سليمان فرنجية والوزراء المسيحيون يطالبون باعلان حالة الطوارىء وانزال الجيش اللبناني، ورشيد كرامي والوزراء المسلمون يعارضون.

عاد عبد الحليم خدام وحكمت الشهابي إلى بيروت في منتصف أيلول (سبتمبر) ومكثا فيها ما يقارب الاسبوع، وضغطا على كمال جنبلاط وياسر عرفات لوقف الاشتباكات. واجتمع خدام مع بيار الجميل في قصر بعبدا اشارة منه إلى انتهاء سياسة العزل. وبرزت معالم تحوّل في الموقف السوري باتجاه تدخّل اوسع في لبنان. وتزامن هذا التحوّل مع تصاعد الخلاف المصري ـــ السوري اثر توقيع السادات منفرداً على اتفاقية فصل الاشتباك الثانية مع اسرائيل في اول ايلول (سبتمبر) ١٩٧٥. في هذه الفترة قرّر الرئيس السوري ان يحسم المشكلة اللبنانية ولو اضطره الامر إلى التدخل العسكري المباشر.

احس ابو عمار بالاجواء السورية الجديدة، فسارع إلى احتواء خلافه مع حزب الكتائب كي لا تستغل دمشق هذه الثغرة فتمسك دفعة واحدة بالحكم اللبناني والقرار الفلسطيني. اوفد ابو حسن سلامة ليجتمع سرّاً في اواخر تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٧٥، مع العقيد انطوان دحداح مدير عام الامن العام ممثلاً سليمان فرنجية، ومعي وانطوان شادر ممثليّ حزب الكتائب. ونقل الموفد الفلسطيني خلال ثلاثة اجتماعات ليلية متتالية رغبة ابو عمار في وقف المعارك وقال: «ان استمرار المعارك يلهي المقاومة الفلسطينية عن متابعة قضيتها ويستنزف قدراتها ويضر بصورتها الدولية، خصوصاً وان مئة وخمس دول في العالم اعترفت بمنظمة التحرير ممثلاً شرعياً ووحيداً للشعب الفلسطيني. وقد تصل هذه المعارك إلى حد تقسيم لبنان فتصبح منظمة التحرير مجرد جيش للمسلمين بدل ان تكون مشروع الدولة

الفلسطينية». واقترح ابو حسن ان يتم اجتماع مع جوزف شادر وابو اياد يتبعه اجتماع بين بيار الجميل وكمال جنبلاط وينتهي بلقاء بين بيار الجميل وياسر عرفات. والمح ابو حسن ان ابو عمار لن يتخلى عن كمال جنبلاط وانه يفضل ان يتم اجتماع بيار الجميل مع كمال جنبلاط قبل اجتماعه برئيس الكتائب وان المشكلة ليست لبنانية ـــ فلسطينية بل هي في بعض جوانبها الاساسية لبنانية ـــ لبنانية.

ولم تتم هذه الاجتماعات وتداخلت الامور بشكل ادى إلى عكس ما كان يتوخاه ابو عمار اذ قام بيار الجميل في ٦ كانون الاول (ديسمبر) بزيارة دمشق. وقبل توجهنا إلى سوريا براً، اكتُشفت صباحاً، اربع جثث لكتائبيين في سيارة على طريق بيت مري. وما كاد ينتشر الخبر، حتى نزلت مجموعات كتائبية تابعة لبشير الجميل في الاحياء وراحت تطلق النار وتخطف المسلمين على الهوية. واتصل بنا مدير المخابرات العسكرية العقيد جول بستاني وعرض علينا ان ننتقل إلى دمشق بواسطة طوافة لبنانية، لانه قد حرقت قبل ثمان واربعين ساعة شاحنة تقل نسخاً من القرآن الكريم على طريق الشام، والتوتر ما زال مستمراً على اشدّه. ولم تكن هذه الاحداث وليدة الصدفة بل كانت تهدف إلى عرقلة الزيارة. وفيما كان الوفد الكتائبي برئاسة بيار الجميل يرافقه امين عام الحزب جوزف سعادة والنواب لويس ابو شرف وادمون رزق وجورج سعادة وراشد الخوري وامين الجميل، وكل من جوزف ابو خليل وجوزف الهاشم وكريم بقرادوني متوجهاً إلى دمشق جواً اجتاحت بيروت هستيريا القتل، وعرف هذا اليوم بـ «السبت الاسود» بعدما سقط اكثر من مئتي شخص ضحية الخطف والتصفيات الفورية.

وصلنا إلى مطار المزة العسكري فاستقبلنا علي ظاظه وزير الداخلية وبادرنا بالسؤال: «ماذا يجري على الطريق ومن افتعل الحوادث؟» اجابه بيار الجميل: «لا نعرف من هم، انها معركة اشباح».

وعقدنا اجتماعنا الاول مع عبد الحليم خدام الذي شرح ان لبنان يعاني مشكلتين: مشكلة بين اللبنانيين انفسهم ومشكلة بين اللبنانيين والفلسطينيين. وأكد ان الازمة معقدة ومتشابكة الخيوط وبات حلها من نوع «فك الالغاز»: هل نحلّ الازمة اللبنانية ـــ اللبنانية قبل الازمة اللبنانية ـــ الفلسطينية ام العكس؟ الحكم اللبناني ومؤيدوه، والكتائب منهم، يركّزون على المشكلة الفلسطينية ويتجاهلون المشكلة اللبنانية. والحركة الوطنية والمنظمات الفلسطينية تشدد على المشكلة اللبنانية ولا تطرح المشكلة الفلسطينية. اما دمشق فترى وفق اقوال خدام أنّه لا جدوى من هذا الجدل العقيم والّا وقعنا في اشكالية البيضة

والدجاجة. سوريا ترى ضرورة الاعتراف بالمشكلتين وايجاد حل لهما والشروع في اي حل، ولكن يجب الوصول إلى حل.

اضاف خدام ان الاطراف المتنازعة واقعة فريسة حرب نفسية شرسة ولديها قابلية لتصديق الاشاعات واتخاذ القرار على اساسها ولا تملك اي مناعة ذاتية تسمح لها بتحاشي المطبات، مما يفسح في المجال امام اللعبة الدولية في تمرير مخططاتها. لا مثيل للنظام اللبناني في العالم، انه يتحمل تسعين صحيفة مرتبطة بتسعين سفارة اجنبية.

وانهى كلامه: «نقلت إلى الرئيس الاسد رغبة الكتائب في وقف القتال، كما حملت الرغبة نفسها من قبل المقاومة الفلسطينية، ولاحظت أنّه وحدهم تجار الاسلحة وتجار الدم يريدون استمرار القتال، نحن جاهزون لمساعدتكم في حل الازمة ومعنيون بها لأنها تستنزف سوريا ايضا. اننا نتبع خطاً قومياً ووطنياً ولا تؤثر فينا الاستفزازات ولا المزايدات، ونرى ان الحل يبدأ بالحوار وينتهي بالوفاق».

اشاد بيار الجميل بدور سوريا القادرة على الضغط والتأثير نظراً إلى وزنها السياسي وعلاقاتها بمختلف الاطراف. والتفت إلى خدام وقال: «انت كسرت الطوق. ولم يقدروا ان يمنعوك من مقابلتي كما فعلوا مع امين عام جامعة الدول العربية محمود رياض. خطة كمال جنبلاط خربتنا وخربت الفلسطينيين ويمكن ان تخربكم. اذا اردت ان تكمل، لي عندك مطلب واحد: ان تسترد الدولة اللبنانية سلطتها وسيادتها».

ولم يخل حديث خدام من انتقاد لطريقة سليمان فرنجية في الحكم ولا للطبقة السياسية الحاكمة ومما قاله: «لا يملك الحكم اللبناني خطة سياسية... لا افهم كيف يكتفي المسؤول اللبناني بالعمل ست ساعات في النهار: ساعتين لادارة الشأن العام واربع ساعات للاستقبالات. نحن نعمل في سوريا خمس عشرة ساعة في اليوم ونشعر اننا مقصّرون... العلة هي أنّه لا دولة في لبنان... ان الامور تتبدل وتتغير والطاقم السياسي لا يتبدل ولا يتغير... لا بد وان يحصل تمرد ويحل جيل الشباب محل الجيل التركي الحاكم منذ خمسين سنة». طبعاً هذا الكلام لم يعجب بيار الجميل على الاطلاق.

وتشعب البحث وراحت وجهات النظر تتلاقى حول ثلاثة امور: ضبط تجاوزات المقاومة الفلسطينية ووقف تدخّلها في الشؤون الداخلية، تحقيق الاصلاحات الدستورية التي يتوافق عليها اللبنانيون، استمرار سوريا في مبادرتها للمساعدة على حل الازمة.

بعدها التقينا الرئيس السوري الذي استقبلنا استقبالاً حاراً وانتقل بعد المقدمات العاطفية

إلى صلب الموضوع، وقال: «المطلوب وقف الموت. الشعب السوري يتألم لاستمرار الموت في لبنان. الاهم في الوقت الحاضر وقف الدمار والنار والباقي نبحثه بهدوء لأن مجرد التفكير في الحل الملائم للازمة اللبنانية يحتاج إلى بعض الوقت، والتنفيذ يحتاج إلى الكثير من الدراية. نحن نسعى إلى تهدئة الامور قبل كل شيء. اشعر انكم والرئيس فرنجية «نقزانين» بعض الشيء. نحن نفهم ان تكونوا مستعجلين، ولكن ثقوا اننا لن نوفر اي سبيل كي نتوصل إلى الحل».

وتحدث الاسد عن مهمة المبعوث الفرنسي موريس كوف دو مورفيل، واكد ان سوريا كانت على علم بها، وتلتقي وفرنسا حول تشخيص اسباب الازمة اللبنانية. واشار إلى المداخلات الخارجية وقال: «قد يفكر بعضهم ان تفجير الازمة في لبنان يسهّل تمرير اتفاقات منفردة مع اسرائيل، لن نترك هذا المخطط ينجح». كان يشير إلى الخلاف المصري ـ السوري ويحمّل كيسنجر ومصر مسؤولية الازمة اللبنانية.

بعد ان خلا الاسد بالجميل، وفيما كنا نتناول الطعام ابديت ملاحظة عابرة وقلت: «اخشى ان تصبح حرب لبنان بلا قضية». فنظر إليّ الرئيس السوري وقال: «والاخطر ان تنتهي بلا نتيجة». وصمت.

وكان هذا الاجتماع بمثابة بداية التقارب غير المتوقع بين سوريا وحزب الكتائب، ومعه تبدّل الكثير من الحسابات والموازين، وانقسم لبنان إلى جبهتين افرزتهما التحولات اللبنانية والاقليمية: الحركة الوطنية بزعامة كمال جنبلاط ومعها منظمة التحرير الفلسطينية يدعمهما انور السادات، والجبهة اللبنانية بأركانها سليمان فرنجية وكميل شمعون وبيار الجميل يؤازرها حافظ الاسد. وبدا الصراع بين السادات والاسد وكأنه صراع على الزعامة العربية والسباق بين جنبلاط والجميل وكأنه سباق على الزعامة اللبنانية. حرب تشرين (اكتوبر) ابرزت زعيمين عربيين هما السادات والاسد، وحرب لبنان هي التي ستفصل بينهما وتعقد الزعامة لاحدهما وتحدِّد احجاماً جديدة للزعماء اللبنانيين. وانفجر المثلث الصعب: مصر ومنظمة التحرير مع مجمل المسلمين، في مواجهة سوريا ومجمل المسيحيين.

وحقق التحالف السوري ـ المسيحي نجاحاً اكيداً عندما اوصل الياس سركيس إلى رئاسة الجمهورية في ٨ ايار (مايو) ١٩٧٦. وبعد ثلاثة ايام اتصل بي ابو حسن سلامه وطلب مني ابلاغ بيار الجميل برقية عاجلة من ياسر عرفات، يقترح فيها اجراء مصالحة بين الجميل وجنبلاط، يليها انسحاب المسلحين الفلسطينيين إلى داخل المخيمات، وتسليم القوى اللبنانية الشرعية مسؤولية الامن في كل لبنان. وحذّر «ان اي علاج آخر خارج

هذا الاطار هو مسكنات لا اكثر ولا اقل وقد يوصل لبنان إلى الهاوية ويوقع الثورة الفلسطينية في اتون مستمر».

وردّ بيار الجميل على البرقية بكثير من العتب الشخصي ووافق على فكرة المصالحة واشترط ان تتم بـ «اشراف حافظ الاسد». وكان هذا الشرط يعني ان رئيس الكتائب يتمسك بالورقة السورية الضاغطة على الفلسطينيين لتحجيمهم، في حين أن ابو عمار كان يسعى إلى اتمام مصالحة الجميل ـ جنبلاط، لافشال سياسة الاسد ومنع الدخول العسكري السوري إلى لبنان. وفهم الزعيم الفلسطيني ان التحالف السوري ـ الكتائبي صلب. فصعّد ضغطه الميداني وبدأت المواجهة المكشوفة بين سوريا ومنظمة التحرير الفلسطينية.

في الاول من حزيران (يونيو) ١٩٧٦، دخل الجيش السوري إلى البقاع والشمال. الجبهة اللبنانية رحّبت. الحركة الوطنية استنكرت. اما المقاومة الفلسطينية فقد حاولت خلط الاوراق عن طريق عقد لقاء في اليوم التالي بين كمال جنبلاط وبشير الجميل، بحضور ابو حسن ومحسن دلول نائب رئيس الحزب التقدمي الاشتراكي والكسندر الجميل. وخيِّل لأبو عمار انه يقدر ان يلعب ورقة بشير بينما فشل في لعب ورقة والده. وحاول عرفات مرة ثانية وفي اقل من شهر اتمام مصالحة لبنانية بين المتحاربين توقف تقدم الجيش السوري باتجاه المواقع الفلسطينية في الجبل وبيروت وصيدا. لكن هذه المحاولة جاءت متأخرة فالمحدلة السورية كانت قد انطلقت ولن تتوقف.

في ٤ تموز (يوليو) قام محمود رياض، امين عام جامعة الدول العربية، بمحاولة يائسة لوقف المعارك فعقد اجتماعاً في صوفر حضره عبد الحليم خدام عن سوريا وياسر عرفات وياسر عبد ربه عن المقاومة الفلسطينية وانا وميشال سماحه عن الكتائب. في هذا الاجتماع وصلت المواجهة الكلامية بين خدام وعرفات إلى حدها الاقصى، وهبطت حرارة علاقتي بابو عمار إلى حدها الادنى.

طالب القائد الفلسطيني العرب بشدة ان يعملوا على سحب الجيش السوري ووقف اعتداءاته واحلال قوات عربية محله. وردّ خدام بحدة: «اذا كنت تعتقد يا ابو عمار ان وجود القوات السورية في لبنان احتلال فوجودك ايضاً احتلال، مع فارق اساسي ان الجيش السوري دخل لبنان بناء على طلب الشرعية اللبنانية ولوقف الاقتتال، في حين ان وجودك غير شرعي وهو سبب الاقتتال».

وطرح ابو عمار بشكل دراماتيكي موضوع الحصار الذي ضربته الميليشيات المسيحية على مخيم تل الزعتر وطالب برفعه وأكّد ان وجود القوات الفلسطينية في لبنان شرعي عملاً

باتفاقية القاهرة. ثم وجّه كلامه إليّ وقال: «بلّغ بشير الجميل ان تل الزعتر لن يسقط. واذا سقط فلن تنتهي الحرب اللبنانية بعد اليوم». واحتدم الجو بيني وبين ابو عمار الذي اخذ ينظر إليّ في تلك الفترة بشيء من الريبة. وكما كنت محور العلاقات المسيحية ــ الفلسطينية خلال السنوات الست الماضية لدرجة اني اتهمت بأنّي «فلسطيني»، فإنّي سأكون محور العلاقات المسيحية ــ السورية خلال السنوات الست المقبلة طيلة عهد الياس سركيس (*) فأُتهم بانّي «سوري». ودخلنا مجدداً في المثلث الصعب: المسيحيون وسوريا ومنظمة التحرير. كل من يقترب من سوريا تبتعد عنه منظمة التحرير وكل من يقترب من منظمة التحرير تبتعد عنه سوريا.

وهدأت المعارك في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٦ إثر انعقاد مؤتمري الرياض والقاهرة اللذين قررا انشاء قوات الردع العربية التي شكلت بالفعل الغطاء العربي لوجود القوات السورية في لبنان. ندرت اتصالاتي بالقيادات الفلسطينية. والتقيت في بداية عام ١٩٧٧ ابو حسن سلامه الذي قال لي: «ان ابو عمار يعتقد ان الهدوء الحالي مؤقت ولسنا في نهاية الازمة بل في أوّلها. ما جرى هو لا شيء بالنسبة إلى ما سيأتي.» واضاف ابو حسن: «انتم مسرورون حالياً لأن الجيش السوري يضغط علينا ويحجّم المقاومة الفلسطينية. ولكن ستندمون في المستقبل. ولن يكون في مقدور المسيحي ان يتحمل الجيش السوري في الاشرفية».

وكان هذا آخر لقاء لي مع ابو حسن الذي اغتالته المخابرات الاسرائيلية بعد فترة. وكنت قد فهمت تلميحاً من بشير الجميل ان ابو حسن مطلوب من المخابرات الاسرائيلية، فأوصلت إليه تحذيري حول احتمال تعرضه للاغتيال، ودعوته عبر صديقنا المشترك انطوان شادر الذي ابلغ زوجته جورجينا رزق بالامر قبل ثلاثة ايام فقط من عملية الاغتيال، إلى اتخاذ اجراءات اكبر لحماية نفسه. ولا اعرف حتى اليوم ما إذا كان بشير قد اطلعني على هذا الامر سهواً ام انه تعمّد ابلاغي، كي اوصل الخبر إلى صديقه ابو حسن!

وحصل في لبنان ما توقعه ابو حسن سلامة. وبدأت المناوشات بين الجيش السوري ومسلحي الميليشيات المسيحية التي توحدت في كانون الثاني (يناير) ١٩٧٧ بقيادة بشير الجميل، لتؤلف ما أطلق عليه لاحقاً تسمية القوات اللبنانية. وفي ايار (مايو) ١٩٧٧ وقع

(*) حول الفترة، انظر كتابي: «السلام المفقود» (عهد الياس سركيس ١٩٧٦ ــ ١٩٨٢) عبر الشرق للمنشورات عام ١٩٨٤.

الصدام الاول في قرية بلاّ في الشمال وتصاعدت بعده الصدامات تدريجياً، فوصلت إلى اوجها في صيف ١٩٧٨ حين دامت المعارك مئة يوم في الاشرفية اضطر الجيش السوري بعدها إلى الانسحاب جزئياً من المناطق المسيحية.

قمت بسلسلة اتصالات لرأب الصدع بين القوات اللبنانية وسوريا ادت إلى هدوء نسبي خلال عام ١٩٧٩ ــ ١٩٨٠ إلى حين انفجر الوضع في زحلة في نيسان (ابريل) ١٩٨١ وكادت المواجهة المسيحية ــ السورية ان تتحوّل إلى مواجهة سورية ــ اسرائيلية.

في اوائل كانون الثاني (يناير) ١٩٨١ جاءني فادي الصفدي موفداً من ابو عمار وابو جهاد ليدرس معي امكانية صياغة علاقات جديدة بين الكتائب والقوات اللبنانية ومنظمة التحرير الفلسطينية التي ابتدأت تعيش هاجسين متساويين: هاجس اجتياح اسرائيل للجنوب وهاجس صدام عسكري مع دمشق. واقترحت عليه ان يتم اجتماع سري بين بشير وعرفات. وكلّف بشير ايلي حبيقة، رئيس جهاز الامن لديه آنذاك، ان يحضّر الترتيبات مع فادي الصفدي. تمت الترتيبات و لم يتم اللقاء بسبب الخلافات داخل المنظمة بهذا الشأن. واجتاح الزلزال الاسرائيلي لبنان في حزيران (يونيو) ١٩٨٢ وخرجت المنظمات الفلسطينية والجيش السوري من بيروت في ايلول (سبتمبر) وأخرجت دمشق ابو عمار من طرابلس في العام التالي، ليتوقف في مصر ويلتقي الرئيس حسني مبارك في محاولة لصياغة موازين قوى جديدة على الساحة العربية.

خرجت المقاومة الفلسطينية ولم تخرج القضية الفلسطينية من لبنان، ولم يغب العامل الفلسطيني كعنصر اساسي في الازمة والحل. وكما في بداية السبعينات عدت في منتصف الثمانينات ابني علاقة مسيحية — فلسطينية جديدة. في السبعينات تحوّلت علاقة الكتائب بالمقاومة الفلسطينية إلى علاقة مثلثة الاضلاع بين حزب الكتائب ومنظمة التحرير وسوريا. وفي الثمانينات تحوّلت علاقة القوات مع منظمة التحرير إلى علاقة اخرى مثلثة الاضلاع حلّ فيها العراق محل سوريا.

في ضوء كل هذه التعرجات السياسية المعقدة انطلقت دوماً من ثابتة سياسية لدي، وهي ان كل خلاف مسيحي مع طرف عربي يجب الا يقود إلى التعاون ولو الاضطراري مع اسرائيل، بل إلى تحالف اختياري مع طرف عربي آخر. وكما توجهت عام ١٩٧٥ إلى دمشق بعدما شعرت ان الطرف العربي الفلسطيني اغلق باب التفاهم مع الكتائب، توجهت عام ١٩٨٦ إلى منظمة التحرير وبغداد والقاهرة بعدما شعرت ان دمشق تغلق باب الحوار معنا. وكما كنت في دمشق اعتز بصداقتي مع ياسر عرفات على رغم الخلاف الحاد بين الحكم السوري ورئيس منظمة التحرير، كنت في بغداد اعتز بصداقاتي السورية على رغم الخلاف الحاد بين الحكمين السوري والعراقي.

ينبع هذا الموقف الثابت لديّ من تصوّر لدور المسيحيين اللبنانيين في محيطهم العربي، ودور لبنان في هذا المحيط. ان التعايش بين المسيحي اللبناني والمسلم اللبناني هو حجر الزاوية في بناء وطن مستقل في ظل نظام سياسي ديمقراطي. وتكمن ضمانة هذا التعايش في التفتيش الدؤوب عن حليف عربي لتأمين التوازن الداخلي وتفادي الانزلاق إلى الخيار الاسرائيلي. وكمسيحي عربي رأيت دائماً ان الخيار المطروح ليس بين العرب واسرائيل بل بين عربي وعربي آخر. وادركت ان الجغرافيا ظالمة: لبنان الضعيف يقع بين دولتين قويتين لهما مطامع اقليمية. وكلما اختلف لبنان مع سوريا عليه ان يفتش عن «الحدود الثالثة». قد يبدو للبعض من الطبيعي وبداعي الخوف او اليأس ان يلجأ إلى اسرائيل. لكني حسبت دائماً ان علينا كلبنانيين اختراع «الحدود الثالثة» اي التفتيش عن دولة عربية غير موجودة جغرافياً على

حدود لبنان، لكنها قادرة سياسياً على التأثير فيه. ففي عهد فؤاد شهاب كانت الحدود السياسية الثالثة هي مصر، اما عام ١٩٨٦ فظهر لي ان الحدود الثالثة هي العراق. وهكذا لم تقع القوات اللبنانية عام ١٩٨٦ في مأزق الخيار المستحيل بين العرب واسرائيل، بل فضلت الخيار الصعب بين سوريا والعراق.

مسألة علاقة لبنان بمحيطه العربي علامة استفهام محورية ومعضلة مطروحة قبل الاستقلال اللبناني وبعده، وقبل الحرب في لبنان وبعدها. وعلمتنا السنوات الخمسون المنصرمة، ان الاتفاق بين اللبنانيين حول حد ادنى من الجواب، كان حافزاً رئيسياً من حوافز الاستقلال عام ١٩٤٣، كما ان الاختلاف حول هذا الحد الادنى كان دافعاً اساسياً من دوافع الحرب عام ١٩٧٥.

ويمكن طرح مسألة علاقة لبنان بمحيطه العربي من خلال اربعة اسئلة عقائدية: ألبنان عربي؟ ام نصف عربي؟ ام غير عربي؟ ام هو اسلامي؟ وتتباين الاجوبة وتتبدل بتبدل الظروف والمصالح والعقائد.

ان «العروبيين» والقوميين العرب، على مختلف نزعاتهم، وعلى اختلاف نزاعاتهم ينادون بـ «لبنان العربي» او بـ «لبنان جزءاً لا يجتزأ من الوطن العربي». ويشهد هذا التيار تقلصاً عندما يصاب المد العربي بنكسة، كما كانت الحال بعد هزيمة ١٩٦٧، او بعد زيارة انور السادات إلى القدس عام ١٩٧٧. ويشهد امتداداً عندما تعطى الحركة العربية زخماً، كما كانت الحال ايام جمال عبد الناصر.

ان «الاستقلاليين» واهل الميثاق الوطني على تعدد فئاتهم وعلى تعددية تفكيرهم: يؤكدون ان «لبنان نصف — عربي» او «لبنان ذو وجه عربي». ويتميز هذا التيار بالواقعية والاتزان، وهو يقوى في حالات الاستقرار والازدهار كما في عهد فؤاد شهاب، ويضعف في الازمات والصدمات كما في عام ١٩٥٨ او خلال حرب ١٩٧٥.

اما الاعلان أن «لبنان غير عربي» او «لبنان جزء من الغرب»، فهذا موقف «الانفصاليين» الذين يعتمدون النموذج الاسرائيلي كمرشد ومؤشر. ويتميز هذا التيار بالمغامرة والتطرف. يبرز بشدة ببروز التوتر والتعصب، كما يعود فيركد بعودة الاسترخاء والاعتدال. انه تيار جارف في الحالات غير العادية، وهامشي في الحالات العادية.

يبقى موقف «الاصوليين» المسلمين من سنّة كالاخوان المسلمين او شيعة كحزب الله فانهم يلتقون حول نفي العروبة لا في لبنان وحسب بل في العالم العربي كله ويطالبون،

مهما اختلفوا حول الطرق والوسائل، بإقامة الجمهوريات الاسلامية ومنها «الجمهورية الاسلامية» في لبنان. انه تيار متشدد يرى ان العالم قسمان: دار السلام والاسلام، ودار الحرب والجهاد. هذا الموقف يخرج على المعادلة في لبنان وفي الشرق الاوسط.

قد يكون السؤال الاهم هو: لماذا هذه المسألة التاريخية والعقائدية مطروحة بشكل مستمر في لبنان وحول لبنان، وغير مطروحة في شكلها الحاد في اي من دول المنطقة الباقية؟ وقد يكون الجواب يحتاج إلى جرأة ادبية لنقول: السبب هو الحضور المسيحي في لبنان، لا بل الحكم المسيحي في لبنان. هذه هي المسألة. فلو لم يكن الحكم اللبناني ذا وجه مسيحي خلافاً لما هو قائم في باقي الدول العربية، لما كانت هذه المشكلة مطروحة. اذن مشكلة لبنان ناتجة عن وجود المسيحيين في السلطة وخصوصاً في المراكز الرئيسية، ومنها رئاسة الجمهورية، علماً ان المسلمين يحكمون لبنان بشكل مواز للحكم المسيحي ونفوذهم في ازدياد. قد يبدو ان السلطة الظاهرية مسيحية لكن السلطة الفعلية مسيحية ـــ اسلامية. وقد تكرس الامر دستورياً بعد اقرار اتفاق الطائف.

والسؤال الاخطر هو: أيكون حل مشكلة لبنان في اعتماد «الاسلمة»، اي بانكسار المسيحيين ليصبح لبنان بلداً عربياً اسلامياً كباقي البلدان العربية، ام في «الصهينة» اي انفصال المسيحيين، فيصبح جزء من لبنان اسرائيل ثانية والجزء الآخر جمهورية اسلامية؟

من البديهي ان المنطق الديني ليس المنطق الاوحد. فهو لا يفسر كل شيء ولا يمكن ان يجيب عن كل شيء. ومن الثابت ان حرب لبنان لها اسباب متعددة. فإلى جانب الصراع الطائفي لا يمكن تجاهل الصراع الاجتماعي ـــ الاقتصادي، والصراع بين الاجيال، والصراع بين التجديد والتقليد، والصراع العربي ـــ الاسرائيلي وصراع الدول الكبرى. انها حرب مركّبة في مجتمع مركّب تحتاج إلى حلول مركّبة.

ان «العروبيين» المطالبين بـ «لبنان العربي»، و«الاستقلاليين» المنادين بـ «لبنان ذي الوجه العربي» التقوا منذ مؤتمري جنيف ولوزان في عامي ١٩٨٣ و١٩٨٤ حول «عروبة لبنان» وكرّسوا هذا اللقاء في وثيقة الطائف عام ١٩٨٩، التي اقرّها مجلس النواب عام ١٩٩٠ واضحت جزءًا من الدستور اللبناني. وافق «العروبيون» على ان «لبنان وطن سيد حر مستقل، وطن نهائي لجميع ابنائه». واقرّ «الاستقلاليون» ان «لبنان عربي الهوية والانتماء». لكن الاشكالية الاكثر حدة ما زالت مطروحة بين «الانفصاليين» الذين يسعون إلى «صهينة» لبنان و «الاصوليين» الذين يدعون إلى «اسلمته». وهل هناك طريق ثالثة بينهما؟

زلزلت حرب لبنان صيغة التعايش وطرحت مشاريع الاصوليين والانفصاليين من

«الدولة الاسلامية» إلى «الدولة المسيحية». ومن اخطر نتائج هذه الحرب انها جعلت كل الاحتمالات واردة، وكل الامكانات مفتوحة. لقد كبرت الاحلام المستحيلة، وسقطت المحاذير القديمة، وكثرت الاحتمالات و«السيناريوات» في كل الاوساط داخلياً وخارجياً، وراح المجتمع اللبناني، المسيحي منه والاسلامي، يغلي فيقارب الجنون حيناً، ويهدأ فيمارس اقصى درجات الوعي احياناً. وبمقدورنا ان نرسم للبنان المستقبل واحداً من خمسة تصورات رئيسية.

التصور الاول هو الصهينة، وهذا يفترض اعادة النظر في خريطة الشرق الاوسط السياسية والجغرافية. وبصورة اكثر دقة يمكن القول ان هذا يعني اعادة النظر في خمسة كيانات قابلة للتعديل، وفق هذا التصوّر، تكبيراً او تصغيراً: اسرائيل ولبنان والاردن وسوريا والعراق. ويرى هذا التصوّر أن الانفجار سيتم في احدى هذه الدول وسيؤدي إلى تقسيم المنطقة. انه مشروع صهينة المنطقة. وما يحدث في العراق من تمرد وفتنة في حال نجاحهما يصبان في هذا الاتجاه.

التصور الثاني هو الاسلمة. وهذا يفترض انتصار منطق العدد وتصاعد التعصب الديني. فالاسلام يتمتع بدينامية ذاتية غير محدودة وغير محسوبة. يكفي الاشارة إلى كيفية اجتياح امبراطورية الشاه والتوقف عند نجاح الحركات الاسلامية في الانتخابات الشعبية في الاردن او في الجزائر، والغليان الشعبي السريع الانفجار في بلدان عربية عدّة لنستدل إلى فاعلية الاسلام وقدرته الذاتية والموضوعية. فالاسلام كدين، قوة روحية تؤلب الشعوب والامم، والدول الاسلامية كنفط، قوة استراتيجية تؤثر على الاقتصاد العالمي والمصالح الدولية. ويعتقد اصحاب هذا التصوّر ان الشرق الاوسط سيتحول بضغط من الدين والعدد والنفط إلى منطقة اسلامية، وان لبنان مصيره هو الاسلمة، ان عاجلاً ام آجلاً. من هذا المنطلق يبدو لبنان وكأنه مشروع دولة اسلامية او جزء من الامة الاسلامية.

التصور الثالث هو دمج للتصورين السابقين ويرى الصهينة على المدى القريب، والاسلمة على المدى البعيد. انه تصوّر ينطلق من الواقع القائم وَيَعُدّ معاهدة كمب ديفيد عام ١٩٧٨، وكسب اميركا الحرب الباردة، والتدخل الاميركي العسكري المباشر لتدمير العراق عام ١٩٩١، كلها عوامل خلقت موازين جديدة لمصلحة اسرائيل التي ستقتنص فرصة تاريخية فريدة لفرض سلامها. وتتميز سياسة اسرائيل الحالية بالخط الهادف التالي: الاحتفاظ بالحد الاقصى من الارض، واخذ الحد الاقصى من السلام، وضمان التفوق التكنولوجي لنفسها، وتدمير كل عملية تحديث عند العرب. لذا تتشدد اسرائيل في كل شيء: في السلام مع

مصر، وفي الحرب مع سوريا والعراق ومنظمة التحرير الفلسطينية. وتحاول ان تكون الدولة الاقليمية العظمى في الشرق الاوسط على غرار ما هي الولايات المتحدة الاميركية الدولة الاعظم في العالم. وفي ظل الرجحان الاقليمي لصالح اسرائيل، قد يبدو للبعض ان التقسيم ممكن، ويحلو لهم مشروع اقامة الدولة المسيحية المتحالفة مع اسرائيل. من المؤكد في هذه الحالة ان الغضب الاسلامي سينصبّ على مسيحيي لبنان بدلاً من يهود اسرائيل، وتصبح الدولة المسيحية العدوة البديلة. فتتم صفقة اسرائيلية يتخلّى فيها الاسرائيليون لاحقاً عن مسيحيي لبنان مقابل تخلي العرب عن بعض الارض وعن بعض حقوق الفلسطينيين، وتنهار الدولة المسيحية وتحل مكانها الدولة الاسلامية. انه تصوّر لا يخلو من الغرابة وفي الوقت نفسه من التماسك المنطقي للاحداث في ظل الموازين القائمة.

التصور الرابع هو الانحلال. انه رؤيا اليائسين الذين يرون في لبنان ارمينيا ثانية. ويتخيلون ان هذا الوطن مهيأ لأن يكون هو الحل اي الضحية، او يتوقعون استمرار الحرب في لبنان واتساع رقعة التمزق بين الطوائف وداخل كل طائفة بحيث تنتفي مبررات لبنان كوظيفة ونموذج، وتتعطل المرتكزات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي يقوم عليها. ويبقى لبنان عجينة طيّعة بانتظار الوصول إلى الحل النهائي في المنطقة. ويجيء لبنان على شاكلة الحل ولا يكون الحل على شاكلة لبنان. وبانتظار اكتمال الانحلال يشهد لبنان مرحلة هدوء حيناً فيقترب من الحل من دون الوصول اليه، ويعاني مرحلة توتر حيناً آخر فيحاذي الانفجار من دون الوقوع فيه. انه تصوّر ينطلق من فكرة اضمحلال لبنان اما بتقاسمه واما بتذويبه، وذلك عن طريق الاستنزاف الطويل والمستمر. انه تصوّر مأساوي يكتسب مصداقية بقدر ما تطول الحرب، وقد استحوذ على العديد من القناعات خصوصاً بعد نشوب المعارك بين الجيش اللبناني والقوات اللبنانية عام ١٩٩٠.

التصور الخامس وهو نابع من قناعاتي في امكانية صياغة ميثاق وطني جديد بين اللبنانيين، يقوم على الجمع بين عروبة لبنان وخصوصيته ككيان وبين الحرية والمساواة في جوهره كنظام. فنقدم على تنظيم ميثاق لا يسلخنا عن الماضي في حين يقينا مشدودين إلى المستقبل. لقد شكّل لبنان في منتصف هذا القرن انموذجاً حضارياً للتعايُش بين الطوائف والاديان وظهرت صيغته كحلّ لمسألة الاقليات في العالم من قبرص إلى ايرلندا، انه سيناريو المؤمنين بوطن. انهم «الوطنيون» الذين يحسبون ان قدر لبنان ان يواجه بين الحين والحين هزات وانفجارات لكنه سيبقى وطناً يعود إلى اصله واصوله. فكما اليابان يعيش على بركان طبيعي فان لبنان يقوم على بركان سياسي. وكما ان الياباني لم يترك وطنه بسبب

البركان، بل ابتكر هندسة معمارية ونمطاً حياتياً لتفادي شر الكوارث الطبيعية، فلا يجوز للّبناني ان يكفر بوطنه، بل عليه ان يهندس صيغة سياسية تقوم على التعايش مع البركان السياسي باتخاذ اقصى الاحتياطات لتخفيف وطأة الانفجارات والمفاجآت. لبنان يابان سياسي، هذا هو الواقع. لذا يقتضي اعتياد الخضات، والتعايش مع الزلازل. وكما انهارت هذه الصيغة بالتقسيط منذ عام ١٩٧٥، نأمل بأنها ستعود بالتقسيط في ظل منطقة قابلة على متغيرات ضخمة. ان تحالف «العروبيين» و«الاستقلاليين» في «جبهة وطنية» يشكل الفرصة السانحة لافشال مشاريع «الانفصاليين» و«الاصوليين». انها الطريق الثالثة وهي على صعوبتها تبقى وحدها التي تستحق الحياة.

لا يجوز ان يبقى موضوع عروبة لبنان معلقاً في الهواء او مطروحاً في كل وقت، يجب ان يدخل في اطار المسلمات المحسومة بشكل نهائي. ولا يجوز النظر إلى علاقة لبنان بمحيطه العربي بمنظار الظرف المتغير، بل بمنظار الخيار النهائي. ويمكن ان اذهب إلى ابعد، فأرى ان نسبة القدر في هذا الموضوع اكبر من نسبة الخيار. قدر لبنان ان يكون مرتبطاً بمحيطه العربي ولو لم يختر هذا الامر كل اللبنانيين او جزء منهم. انه قدر لبنان، بمعزل عن قبول اللبنانيين أو رفضهم.

ليس لبنان جسماً غريباً عن الجسم العربي، كما هو حال اسرائيل، لكنه ليس عضواً عادياً في الجسم العربي، كباقي الدول العربية. لبنان هو «في» محيطه العربي و«من» هذا المحيط، لكنه عضو مميز في الجسم العربي وله وظيفته الخاصة به. لبنان الوظيفة العربية المميزة هذا هو قدره. وهذه هي الطريق الثالثة. نحن من المنادين بعروبة لبنان ولكن من الداعين إلى عروبة خاصة بلبنان.

والواقع ان لبنان ضرورة عربية. بل ضرورة للعروبة بالذات. من دون لبنان،ومن دون مسيحيي لبنان بالذات، تصبح العروبة مرادفة للاسلام، وتهبط من منزلة العقيدة إلى رتبة العصبية. والحفاظ على ميزات لبنان هو مسؤولية عربية. ولبنان المميز يعني لبنان المستقل بنظامه الديمقراطي وصيغته التعايشية الفذة. وقد اثبتت الازمة اللبنانية الطويلة انه لم يقدر اي بلد عربي ان يحل محل لبنان ولا عاصمة عربية محل بيروت. كما لا يحق لأي لبناني ان يتنكر لعروبة لبنان او ان يعطل عليه وظيفته العربية، او ان يفوت عليه فرصة الترسخ في محيطه، لا يحق لأي عربي ايضاً ان يسلخ عن لبنان ميزاته وينكر خصوصيته. فبقدر ما هو ملحّ ان تُصاغ سياسة عربية ثابتة للبنان، لا بُدّ من صياغة سياسة لبنانية ثابتة للعرب. وتنطلق هذه الصياغة المزدوجة من اعتراف متبادل بين لبنان ومحيطه، وخاصة بين مسيحيي

لبنان واسلام العالم العربي. المسيحيون اللبنانيون يعترفون بشكل نهائي وكامل بانتمائهم العربي. والعرب يعترفون بشكل نهائي وكامل باستقلال لبنان وتمايز المسيحيين فيه. اذا كان انتماء لبنان إلى محيطه العربي قدراً لا مناص منه، فان اعتراف العرب بتمايز المسيحيين اللبنانيين خيار لا مفر منه. على المسيحيين اللبنانيين ان يختاروا قدرهم وهو الالتزام بمحيطهم العربي، وعلى العرب والمسلمين اللبنانيين ان يقرروا الحفاظ على خصوصية لبنان؛ على المسيحي اللبناني ان يعي ان مصلحته تقتضي ان يحافظ على عروبة لبنان، وان يعي المسلم اللبناني ان مصلحته تفرض عليه ان يحافظ على خصوصيته، عندها تصبح العروبة مسؤولية مسيحية، والخصوصية مسؤولية اسلامية. ويتحوّل المسلم إلى مقاتل من اجل السيادة وينقلب المسيحي إلى مناضل في سبيل العروبة. اسلمة لبنان مشروع قهر، واهم دور يقوم به المسلم اللبناني هو الحفاظ على الحضور المسيحي في لبنان. والصهينة انتحار، واهم دور يقوم به المسيحي اللبناني هو البقاء شاهداً للعروبة، ومدافعاً عن انتماء لبنان العربي. هذا هو القدر، وهذا هو الخيار، وهذا هو الحل. اما الباقي فحرب ضد الطبيعة، ورهان على المجهول، لا بل على المستحيل.

اللاعب الثالث

تزامن قيام انتفاضة ١٢ آذار (مارس) ١٩٨٥ ثم حركة ١٥ كانون الثاني (يناير) ١٩٨٦ مع اندلاع «حرب المخيمات» بين حركة أمل التي تدعمها سوريا والفصائل الفلسطينية التابعة لياسر عرفات. وشرع الجيش السوري يحاصر في وقت واحد المخيمات الفلسطينية والمنطقة المسيحية التي اطلق عليها تسمية «الشرقية». وراحت سوريا تجهد في الامساك بالورقة اللبنانية من خلال اسقاط أمين الجميل وسمير جعجع، وبالورقة الفلسطينية من خلال اسقاط عرفات.

في هذا المناخ السياسي المقزز قررت وسمير ان اباشر اتصالات سياسية مع ياسر عرفات والحكم العراقي وبدا هذا القرار في حينها ضرباً من المغامرة. كنا نعرف سلفاً ان اي اتصال مع منظمة التحرير والعراق سيثير حفيظة اسرائيل وسوريا بشكل كامل. اسرائيل ترى في منظمة التحرير الفلسطينية «العدو التاريخي» الواجب الغاؤه، وسوريا تخوض مواجهة مكشوفة وشرسة مع ياسر عرفات وتسعى إلى تنحيته. اما بالنسبة إلى العراق فان موقف اسرائيل في غاية التصلب لأن الدولة العبرية ترى في صدّام حسين «العدو الاستراتيجي»، بسبب مواقفه المتشددة من ازمة المنطقة وتعاظم قدراته العسكرية والصناعية، في حين ان سوريا ترى فيه «الخصم الدائم» وترغب في التخلص منه.

عام ١٩٨٦ كان العراق يواجه اعنف هجوم ايراني عليه وكانت المصادر العسكرية الاميركية تتوقع هزيمة الجيش العراقي في فترة تُرَاوِحُ بين ثلاثة اشهر وستة كحدّ اقصى. كما ان وضع منظمة التحرير لم يكن احسن حالاً لأن ابو عمار كان يعاني من انشقاق سياسي داخل الصف الفلسطيني ومن حصار عسكري للمخيمات في بيروت. لم تكن كل هذه المعطيات غائبة عن ذهني ولكن كنت مقتنعاً ان العراق ومنظمة التحرير من الثوابت وان مغامرتنا معهما تستحق المجازفة.

التقيت ابو عمار في تونس في ٢٣ أيار (مايو) ١٩٨٦ برفقة بيار رزق المعروف بـ «أكرم»، رئيس المخابرات الخارجية في القوات اللبنانية، وقد حضر الاجتماع إلى جانب الزعيم

الفلسطيني كل من حكم بلعاوي، ممثل منظمة التحرير الفلسطينية في جامعة الدول العربية، كاتم اسرار ابو عمار، وسمير أبوغزالة ممثلها في قبرص الذي تولى معنا الاتصالات التمهيدية المعقدة، والحاج اسماعيل رئيس ادارة العمليات المركزية، وابو الطيب رئيس جهاز امن ١٧. وكنت احمل هم حماية الشرقية، وكان ابو عمار يحمل هم حماية المخيمات. واردتها فرصة تاريخية لكي ابرىء المسيحيين الذين شارك بعضهم في مجازر صبرا وشاتيلا، وارادها عرفات سانحة ليعود إلى بيروت من خلال الشرقية. وتفاهمنا على سياسة مشتركة للحفاظ على القرار اللبناني المستقل عن طريق توفير قوة ذاتية في الشرقية تحمي هذا القرار، في موازاة الحفاظ على القرار الفلسطيني المستقل من خلال صمود المخيمات الفلسطينية.

ساد الاجتماع، الذي بدأ عند الساعة العاشرة والنصف وانتهى في الثالثة صباحاً، جو من الصداقة القديمة انهاه ابو عمار بالسحور لاننا كنا في ايام رمضان الكريم.وخاض ابو عمار على طريقته غمار المثلث الصعب اللبناني ــ الفلسطيني ــ السوري من كل جوانبه عربياً ودولياً. واطلعنا ان بداية معالم تقارب غربي ــ سوري بدأت ترتسم اثناء الاجتماع الذي تمّ في يوغوسلافيا في الشهر المنصرم بين حافظ الاسد وهانس ديتريش غينشر، وزير خارجية المانيا الغربية، الذي نقل إلى الرئيس السوري رسالة من المجموعة الاوروبية بشأن الارهاب. وتجاوب الاسد مع هذه الرسالة وابدى استعداده للمساهمة في اطلاق الرهائن لدى.حزب الله وايران مقابل اطلاق يد سوريا في لبنان. ويشكل هذا التقارب في حال حصوله من وجهة نظر ابو عمار تهديداً مباشراً للشرقية وللمخيمات الفلسطينية. واقترح اقامة تنسيق ميداني في هذا المجال واضاف: «لا يمكن لحافظ الاسد اختراق الجبهتين معاً وسيحاول استفراد كل جبهة على حدة. ولن اسمح بسقوط الشرقية في يد الاسد».

وافهَمَنا أبو عمار ان الخلاف مع دمشق وصل إلى نقطة اللارجوع. وذكر ان اسباب الخلاف متعددة وفي طليعتها ما حدث اثناء الغزو الاسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢، اذ تراجع الجيش السوري وترك الفلسطينيين منفردين في مواجهة الجيش الاسرائيلي. وروى لنا بعض ما جرى في قمة الملوك والرؤساء العرب التي انعقدت في مدينة فاس في المغرب، إثر الاجتياح الاسرائيلي. وقد شن صدام حسين اثناءها هجوماً عنيفاً على الحكم السوري. وسعى الاسد إلى تبرير تراجعه بحجة ان السلاح السوفياتي غير فعال في مواجهة السلاح الاميركي. ردّ عليه صدام ان هذا الامر غير صحيح بدليل ان العراق يخوض حرباً متكافئة بالسلاح السوفياتي في وجه السلاح الاميركي الذي تمتلكه ايران.

واكد لي عرفات انه يملك ادلة حاسمة، تُثبت ان دمشق كانت على علم مسبق بالاجتياح

الاسرائيلي وكانت تتصور انه لن يتعدى حدود الليطاني، فيدمّر الجيش الاسرائيلي الآلة العسكرية الفلسطينية من دون ان يصطدم بالجيش السوري المتمركز ما بعد الليطاني على مسافة خمسة واربعين كيلومتراً، واضاف: «ان التناغم عميق جداً بين سوريا واسرائيل وأميركا».

اشار ابو عمار في هذا السياق إلى ان مساعي المصالحة العربية والدولية بينه وبين دمشق لا تحرز تقدماً، لأن الرئيس الأسد يشترط عليه ان يوجه إليه كتاباً يبرِّىءُ فيه الجيش السوري من كل التهم، وكان رد عرفات على الوسطاء: «بئس هذا الجيش الذي يحتاج إلى كتاب لاثبات جدارته. ان الجيوش تثبت جدارتها بالدم ولا تحتاج إلى شهادة احد».

شرحت لأبو عمار مطولاً ابعاد انتفاضة ١٢ آذار (مارس) وحركة ١٥ كانون الثاني (يناير) التي اطاحت بالاتفاق الثلاثي. واطلعته على انني اتصلت بعبد الحليم خدام في المرتين وان دمشق اقفلت الباب بوجهنا. وطرحت عليه خطتي التي ترتكز على قاعدتين: توحيد الموقف بين امين الجميل وسمير جعجع لتحصين الشرعية والشرقية، وانفتاح القوات اللبنانية على العالم العربي بغية ايجاد حل عربي للأزمة اللبنانية.

ورحب ابو عمار بهذه الخطة وشدد على وحدة الصف الداخلي وقال: «ان الشرعية هي ورقتكم الرئيسية». وعدد مجمل مؤشرات تدل على ان الدول العربية مهيَّأة للقيام بعمل في صدد المشكلة اللبنانية وقال بثقة العارف: «صدقوني وانا العليم بالعرب، الفرصة متاحة اليوم امامكم لتطرحوا قضيتكم؛ لأن العرب مستعدون، وللمرة الأولى، كي يتجاوبوا معكم ولو عارضت سوريا».

بعدها انتقل الحديث إلى مشروع اقترحه الرئيس امين الجميل، بأن ينتشر الجيش اللبناني بقيادة ضابط مسلم كبير في الشق الغربي من بيروت لوقف الفلتان الامني في العاصمة وانهاء «حرب المخيمات» وتأليف حكومة اتحاد وطني برئاسة تقي الدين الصلح. وابدى ابو عمار مجموعة تحفظات على هذا المشروع، مشيراً إلى ان المسلمين غير مهيئين لتقبُّل الجيش اللبناني في مناطقهم وقد يتخيلون ان المسيحيين هاجمون عليهم ثانية. ولن يقدر الجيش اللبناني على الدخول من دون قرار عربي واذا دخل فانه يحتاج إلى مساندة من قوات عربية كي لا يضيع في ادغال بيروت الغربية. واقترح عرفات ان يغتنم رئيس الجمهورية فرصة اجتماع وزراء الخارجية العرب الذين يحضِّرون لعقد قمة عربية جديدة فيطلب استقدام قوات عربية لتساند الجيش اللبناني كي ينتشر في العاصمة اللبنانية تمهيداً لانتشاره في كل لبنان. ونصح الزعيم الفلسطيني بأن يشير الرئيس اللبناني إلى ضرورة

تشكيل قوات عربية «محايدة» تتألف من الجيوش التي لم تتورط في حرب لبنان ولا تضم قوات فلسطينية ولا قوات سورية. وانهى عرفات كلامه محدقاً بي: «مرّ اعصار التيفون عليّ في العام ١٩٨٥ الماضي وسيهب هذا العام على غيري وارتاح. قل لاخوانك انه بمقدورهم الافادة من وضع ياسر عرفات المريح لمصلحتهم. وقل لهم ان يحذروا حافظ الاسد إلى اقصى الحدود: اذا تورط معي فقد يدفع الثمن عربياً، اما اذا تواجه معكم فقد يقبض ثمناً من بعض الاطراف. وهو يجتاز اخطر حالاته؛ انه الذئب الجريح». اجبته: «أنتم الرقم الصعب في الشرق الاوسط، ونحن الرقم الصعب في لبنان، وعلى الله الاتكال».

في ظل اشتداد حرب المخيمات بين سوريا ومنظمة التحرير الفلسطينية، واستمرار التوتر العسكري السياسي بين الشرقية وسوريا وتصاعد المعارك العنيفة بين العراق وايران، انكب سمير جعجع معي ومع مجموعة من الرفاق على بناء القوات اللبنانية جهازاً جهازاً في ظروف شديدة الصعوبة والتعقيد. وكان عام ١٩٨٦ عام الخضات. في ١٠ آب (اغسطس) وقع تمرد داخل القوات دام يوماً واحداً، وادى إلى ازمة ثقة بين امين الجميل وسمير جعجع، تمكنت من تطويق ذيولها واستيعابها تدريجياً. وفي ٢٧ أيلول (سبتمبر) قام ايلي حبيقة بمحاولة فاشلة لاقتحام الاشرفية فتصدت له القوات اللبنانية بمساعدة الجيش اللبناني وسيطرا على كل الجبهات. في اليوم التالي وقع خلاف بين عناصر من القوات والجيش، نتج عنه مقتل ضابطين في القوات، تبعه اغتيال قائد اللواء الخامس في الجيش، العقيد خليل كنعان، على يد مسلحين في منزله. وادت هذه الحوادث إلى قيام حالة من الشك المتبادل بين ميشال عون وسمير جعجع دامت حتى ايلول (سبتمبر) ١٩٨٨.

مع اقتراب نهاية العام ١٩٨٦ الصعب، استقرت الاوضاع داخل القوات وداخل الشرقية. وشعرت بضرورة اخراج علاقاتنا العربية من دائرة السر إلى العلن. ورأيت انه لا بد من «صدمة ما» تهز الرأي العام. فوافقت بصفتي رئيس الدائرة الاعلامية في القوات اللبنانية على ان تستضيف المؤسسة اللبنانية للارسال، وهو التلفزيون التابع للقوات اللبنانية، ياسر عرفات في حديث خاص، وكانت هذه المقابلة اول اطلالة تلفزيونية لأبو عمار في لبنان منذ عام ١٩٨٣، رأى فيها الكثيرون انها بمثابة عودة ابو عمار السياسية إلى لبنان بعد خروجه القسري منه على يد اسرائيل وسوريا. وما ان اذيع الحديث في ١١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٦ حتى اثار الضجة التي كنت اتوخاها. التقاني كميل شمعون في اجتماع الجبهة اللبنانية في اليوم التالي وقال لي: «كترتها». بعد يومين، عبَّر اوري لوبراني منسق النشاطات الاسرائيلية في لبنان عن استياء اسرائيل، ووصف استضافة عرفات بأنها

«انزلاق خطير وعيب كبير» موضحاً انها لا تندرج بتاتاً في نطاق العمل الصحافي، بل تتعداه إلى مدلولات في غاية الخطورة، وستؤدي إلى عواقب وخيمة بالنسبة إلى المجتمع المسيحي. واغتنمتُ المناسبة كي يطرح المسيحيون على انفسهم موضوع علاقة لبنان بالعرب وقضاياهم، ولأثبت ان القوات اللبنانية تملك قرارها المستقل عن الجميع، وانها تقدر ان تتبع سياسة الانفتاح.

في بداية عام ١٩٨٧ قدّم الرئيس الجميل إلى دمشق ورقتي عمل: الاولى تتناول العلاقات المميزة بين البلدين، والثانية الاصلاح الدستوري في لبنان. إثر هاتين الورقتين بدأت مفاوضات مباشرة بين الحكمين. ادارها عن الجانب اللبناني مستشار الرئيس ايلي سالم ومدير المخابرات سيمون قسيس، وعن الجانب السوري وزير الخارجية فاروق الشرع ورئيس جهاز الامن والاستطلاع في لبنان غازي كنعان. استمرت هذه المفاوضات من كانون الثاني (يناير) إلى آذار (مارس) ١٩٨٧. وبعد عشر جولات لم يتوصل الفريقان إلى اي نتيجة. وفي اثنائها دخل الجيش السوري في شباط (فبراير) ١٩٨٧ إلى بيروت، وحاصر المخيمات الفلسطينية تمهيداً لاسقاطها لاحقاً وامسك بالشق الغربي من العاصمة. بعدها اوقفت المفاوضات مع أمين الجميل واستمرت في مقاطعته عن طريق مقاطعة رئيس الحكومة رشيد كرامي له. وراحت الاوضاع الاقتصادية تتدهور بشكل خانق والامور السياسية تراوح مكانها من دون اي افق.

ازاء التصلب السوري قمت بصفتي نائب قائد القوات اللبنانية، وبالتنسيق مع رئيس الجمهورية، بجولة خارجية زرت خلالها بغداد ومنظمة التحرير، والقاهرة وباريس. وبدأت هندسة علنية للمثلث الصعب بين لبنان والعراق ومنظمة التحرير، بعد ان اصبح الرأي العام المسيحي يتقبل مثل هذا العمل، ولو بتحفظ.

وصلت بغداد في ٢٢ آذار (مارس) ١٩٨٧ وعقدت وبرفقتي بيار رزق اجتماعين مع ياسر عرفات بحضور سمير ابو غزالة وقد شارك فيهما جزئياً ابو جهاد والحاج اسماعيل وهواري. وكانت المواضيع المطروحة عديدة مما حمل ابو عمار على عقد اجتماع ثالث مع بيار رزق على انفراد لوضع آلية تبادل المعلومات والخدمات ومتابعة الامور الميدانية.

بدا ابو عمار في الاجتماع الاول محبطاً ومصدوماً بسبب دخول الجيش السوري إلى بيروت وحصاره المخيمات الفلسطينية فيها. وكان عاتباً بعض الشيء على وليد جنبلاط وحاملاً بعنف على دمشق. طيبت خاطره وقلت له: «صحيح انك قد تخسر عسكرياً مخيماً فلسطينياً لكنك ابتدأت تربح سياسياً المنطقة المسيحية». ابتسم بكآبة وقال لي: «اسمع يا

كريم لو عرفنا ان نتفاهم منذ البداية كما هو الحال اليوم، لما كانت كل هذه الحرب القذرة». اجبته: «اسرائيل مغتاظة جداً من العلاقة الجديدة وترى ان اهم ورقة بيد ابو عمار هي القوات اللبنانية».

بعد ملاحظتي صمت عرفات يفكر وتبدلت ملامحه فجأة وطرح فكرة استغربتها للوهلة الاولى: «ما نفعله اليوم معاً هو الاقتراب من الحل الحقيقي. ان الحل المستقبلي للصراع العربي ـــ الاسرائيلي يقوم على انشاء اربعة كيانات متعاونة على شاكلة «البنلوكس» هي لبنان والاردن ودولة فلسطين واسرائيل».

وتشعب الحديث وعرج ابو عمار على موضوع حصار المخيمات الفلسطينية واخبرنا انه يوظف الحصار العسكري اعلامياً بحيث يرتدّ خسارة سياسية لسوريا. وقد طرح الصوت على جامعة الدول العربية واستحصل على قرار من مجلس الامن الدولي بفك الحصار التمويني عن المخيمات. وشرح انه لا يتوقع ان تأتي قوات عربية ولا قوات دولية لحماية المخيمات. لكنه تعمد اثارة الموضوع على شاكلة «قصة كبيرة»، وحوّلها كما يقول إلى «ملحمة الموت والألم»، بغية توحيد الفصائل الفلسطينية وتعرية النظام السوري عربياً وعالمياً. واضاف: «لا احد في العالم العربي غير العراق يجرؤ على مواجهة دمشق كما افعل».

وحول العلاقات مع العراق شدد ابو عمار على اهميتها واعترف بصراحة ان بغداد تعطيه «ورقة بيضاء» للتصرف كما يشاء على ارضها ولا تتدخل في الشؤون الفلسطينية الداخلية وتترك له حرية التحرك السياسي كاملة، حتى ان صدام حسين قال له مرة: «اذا كانت مصلحتكم تقضي باقامة العلاقات مع ايران فاعملوا مصلحتكم». وعلّق ابو عمار بالقول: «صدام هو الفارس العربي الكبير».

وتدخّل ابو جهاد العائد لتوه من القاهرة ليقول: «كانت تتوقع دمشق ان يتم، خلال العام الماضي، الحسم الايراني في العراق حتى تقوم بالحسم السوري في لبنان. الحسمان لم يحصلا ولن يحصلا. علينا الصمود لبعض الوقت فمجريات المنطقة تتحول لمصلحتنا».

وعقدنا في اليوم التالي اجتماعين مع طارق عزيز وزير الخارجية العراقي، وفاضل البراك رئيس ادارة الاستخبارات العامة، ومساعديه فاروق حجازي وجبار مظلوم. في مستهل الاجتماع الاول عرضت تصوراً عن الوضع اللبناني مشيراً إلى المخاطر التي تحدق بلبنان والخطوات المتخذة او المنوي اتخاذها والاستحقاقات القادمة.

عددت ثلاثة اخطار متفاوتة على لبنان: الخطر الاسرائيلي الذي يؤدي إلى تقسيم لبنان

او تقاسمه مع سوريا. والخطر الايراني الذي يجهد لاقامة الجمهورية الاسلامية في لبنان بدل الجمهورية اللبنانية. والخطر السوري الذي يهدد بهيمنة قد تتحول إلى ما يشبه ضم لبنان إلى سوريا. واشرت إلى التناقض بين هذه الاخطار من الناحية المبدئية وتقاطعها في بعض الاحيان من الناحية العملية. ولفت إلى ان هذه الاخطار ليست متساوية. فالخطران الاسرائيلي والايراني هما الادهى في المدى البعيد في حين ان الخطر السوري قابل للمعالجة وان كان الاكثر الحاحاً وضغطاً في المدى القريب.

وبينت انه في مواجهة هذه الاخطار قمنا بتوحيد الصف المسيحي، فأزلنا الانشقاقات داخل الاحزاب المسيحية وبصورة خاصة داخل حزبيّ الكتائب والاحرار. ودمجنا كل الميليشيات في القوات اللبنانية وجمعنا الاحزاب داخل الجبهة اللبنانية وانشأنا نواة دفاعية بين الجيش اللبناني والقوات اللبنانية ونسّقنا سياسياً مع رئيس الجمهورية.

شرحت ان توحيد الصف المسيحي هو الشرط الضروري للصمود لكنه ليس شرطاً كافياً. فما زلنا نحتاج إلى نوعين من المساعدة: مساعدة عسكرية لتجهيز الجيش والقوات بالاعتدة اللازمة للدفاع عن المنطقة الحرة، ومساعدة سياسية للتفاهم مع المسلمين اللبنانيين حفاظاً على استقلال لبنان ووحدته.

وانهيت عرضي المفصّل بتقديم مجموعة من المطالب والاقتراحات المتعلقة بالمساعدات العسكرية والسياسية وختمت قائلاً: «الخطر الاسرائيلي تاريخي ومرتبط بحل ازمة الشرق الاوسط. والخطر الايراني ديني وقابل لتفجير لبنان والمنطقة. والخطر السوري سياسي ويبدو الاكثر حدة على المدى القصير. ان الاخطار التي تهدد لبنان تهدد العراق مع فارق جوهري ان العراق قادر وحده على التصدي لها في حين ان لبنان قد ينهار اذا لم يلق دعماً عربياً لتحرير ارضه من كل الاحتلالات ولتحصين شعبه ضد كل المداخلات».

واستمع الجانب العراقي إلى هذا العرض بكثير من الاهتمام وعلّق طارق عزيز مشيراً إلى انه يحمل توجيهات واضحة من الرئيس صدام حسين في ما يتعلق بالموضوع اللبناني. اولها ان العراق يتعامل مع لبنان كدولة عربية مستقلة وهو غير مستعد للتدخل في الشؤون اللبنانية الداخلية ولا في الصراعات الحزبية والطائفية، وفي الوقت ذاته لا يرضى ان تستمر في لبنان المداخلات والاحتلالات الخارجية، اسرائيلية كانت ام ايرانية ام سورية. ثانيها ان وحدة لبنان مسؤولية قومية بقدر ما هي مسؤولية لبنانية. والعراق يدعم بكل الوسائل الشرعية اللبنانية المتمثلة بأمين الجميل، وكل جبهة لبنانية تقوم على قاعدة التفاهم الاسلامي ـــ المسيحي. واختصر طارق عزيز الموقف ناقلاً الينا كلام الرئيس العراقي: «انتم المرجعية؛

قرروا ما ترتأون وأرسلوا الينا بما تريدون».

وكان من الطبيعي ان تتناول المباحثات الحرب العراقية ـــ الايرانية المشتعلة. ومما قاله الوزير العراقي ان الحرب بين العراق وايران ليست مسألة حتمية. وقد اضطر العراق إلى خوضها ضد ثورة كادت ان تهدد كيانه الوطني والامة العربية. ويلاحظ ان هذه الحرب تخرج عن المعادلة الدولية وضوابطها. اذ كان من المفروض ان يساعد الاتحاد السوفياتي العراق بموجب معاهدة الصداقة والتعاون الموقعة بينهما فلم يفعل. وكان من المفروض ان تحارب الولايات المتحدة الاميركية نظام الخميني في ايران فلم تفعل ايضاً. ان العراق وايران دولتان كبيرتان تملكان القوة والغنى وتديرهما قيادة سياسية هادفة ولا يؤثر في قرارهما احد: لا الاتحاد السوفياتي ولا الولايات المتحدة. واضاف بثقة مطلقة: «لا يمكن لهذه الحرب بعد اليوم ان تنتهي بتسوية، ان الحل هو الحسم وسيكون غالب ومغلوب. لم تقدر القيادة الايرانية على تنفيذ الحسم العسكري الذي خططت له العام الماضي. اننا نهيِّىء للحسم العراقي في العام المقبل». وهذا ما سيتم بالفعل عام ١٩٨٨. وهذه النظرية حول محدودية تأثير الجبارين في العراق يفسر جانباً من التصرف العراقي في حرب الخليج عام ١٩٩٠.

أثرتُ موضوع انعكاس الحرب العراقية ـــ الايرانية على الازمة اللبنانية وكيفية تخفيف المخاطر عن لبنان عن طريق سياسة الانفتاح التي نتبعها. ورحّب الجانب العراقي بعلاقة القوات اللبنانية بمنظمة التحرير الفلسطينية وشجع على تكثيف الاتصال بكل الدول العربية بما فيها سوريا اذا رأينا ذلك مناسباً. واشار إلى ان دمشق تجتاز فترة ترهل. لكنه شدد على ضرورة التحلي بالصبر والحذر لأن العراق مشغول في حربه مع ايران ولا يستطيع ان يتفرغ لحل الازمة اللبنانية، وانهى طارق عزيز الاجتماع متفائلاً: «ان الشرق هو وطن الاديان. والعروبة تتسع لكل المسيحيين في المنطقة. ولبنان من ضمن الثوابت الاقليمية. والظروف تتحسن تدريجياً لمصلحتكم. اصمدوا ولا تستعجلوا. انتظروا السنة القادمة».

وصلتُ وبيار رزق إلى القاهرة من بغداد في ٢٥ آذار (مارس) ١٩٨٧. وانضم الينا الصديق جوزف ابو شرف الذي كان قد سبقنا إلى العاصمة المصرية التي يربطه فيها العديد من العلاقات ببعض المسؤولين المصريين. وعقدنا خلال يومين سلسلة متواصلة من اللقاءات. اثنان منها ذو طابع امني مع اللواء امين نمر رئيس المخابرات العامة ومعاونه اللواء محمد عبد السلام، واثنان ذو طابع سياسي مع وزير الدولة للشؤون الخارجية الدكتور بطرس غالي ومدير مكتب رئيس الجمهورية للشؤون السياسية الدكتور اسامة الباز.

بعد ان عرضت تصوري حول المخاطر التي تهدد لبنان وطرق جبهها، علّق بطرس غالي

باقتضاب مشيراً إلى ان الخطر الايراني هو في نظره اكبر من الخطر السوري استراتيجياً وقال: «انا لست خائفاً عليكم من سوريا بل من ايران». واضاف بالفرنسية: «نحن معكم؛ تشجعوا».

وكان الاجتماع مع اسامة الباز هو اللقاء ـــ الفصل. تبين لي خلاله ان المسؤول المصري متضلّع من الوضع اللبناني. قدّم لنا عرضاً متكاملاً يتسم بالموضوعية والدقة ولا يخلو من النقد على طريقته الممتعة واللاذعة. انه من العقول العربية القليلة التي يحلو لك ان تحاورها ان وافقتها الرأي او اختلفت معها.

لاحظ اسامة الباز في بداية حديثه ان كل مرة اعتقد فيها ان الازمة في لبنان لا يمكن ان تستمر وان حلها اصبح وشيكاً اخطأ إلى درجة انه بات يخاف ان تكون عناصر استمرار المشكلة اصبحت اكبر من الدوافع إلى الحل. وكأنه كان يشير دون ان يصرّح إلى ان «لعنة الفراعنة» حلّت بلبنان. وتابع يقول: «ان سوريا هي القابضة على الموضوع اللبناني. كلما اقترب احد منه صدته. نحن نقر ان لسوريا علاقات خاصة بلبنان ولكن لم نعد نفهم ماذا تريد دمشق وما هي مبررات تصرفاتها ووجودها؟».

واستعرض تاريخ العلاقات اللبنانية ـــ المصرية مشيراً إلى ان مصر لم تهدف ولن تهدف إلى الهيمنة او إلى اقتطاع جزء من الاراضي اللبنانية، حتى ايام عبد الناصر، كانت سوريا هي التي تتدخل في الشأن اللبناني. والواقع ان طبيعة الاهتمام المصري بلبنان تبدلت لكن الاهتمام مستمر. ولا مفر من التفتيش عن الحلول والمخارج. نظرياً، ترى مصر ان الحل يتم من خلال الشرعية اللبنانية والجيش اللبناني. ويستدرك الباز قائلاً: «اما عملياً، فانني ادركت خلال زيارتي منذ ثلاث سنوات للرئيس الجميل انه معزول في قصره، وان الجيش اللبناني تشرذم ألوية طائفية. المطلوب، والحالة هذه، توحيد اللبنانيين والجيش والحكم ونحن نجهد في هذا الاتجاه».

واستعرض اهم اللاعبين في الازمة اللبنانية. واشار إلى «ان العراق مشغول بالحرب وبعيد عن المشكلة اللبنانية، وان الفلسطينيين ارتكبوا في الماضي اخطاء كبيرة لا تسمح لهم التعاطي اليوم في الشؤون اللبنانية، وان سوريا غير قادرة على الحسم العسكري وغير قابلة بالحل العربي وهي تعيش مرارة العزلة الدولية وتسعى إلى تلميع صورتها في المعسكر الغربي». ونصحنا بإقامة علاقات تعاون مع الاردن والسعودية والخليج وابدى استعداداً لتسهيل الاتصالات مع هذه الدول. وانهى كلامه قائلاً: «مصر صديق حقيقي لكل لبنان.

ومقاومتكم حافظت على حظوظ لبنان في الاستقلال والسيادة. وسنقوم بمساعدتكم قدر الامكان».

عدت من هذه الجولة مقتنعاً بأن صورة المسيحيين بشكل عام، والقوات بشكل خاص، شرعت تتبدل ايجابياً في ذهن الكثير من القادة العرب، وان القضية اللبنانية ابتدأت تدخل في الاهتمام العربي.

وقد شهد عام ١٩٨٧ حتى ايلول (سبتمبر) خمسة احداث بارزة على الصعيد اللبناني: سقوط المخيمات الفلسطينية في بيروت واخراج انصار عرفات منها في آذار (مارس)، الغاء اتفاقية القاهرة من قبل مجلس النواب اللبناني في أيار (مايو)، اغتيال رشيد كرامي في حزيران (يونيو)، وفاة كميل شمعون في آب (اغسطس)، وتدهور مخيف في سعر الليرة اللبنانية واختناق لا سابق له على الصعيد المعيشي. وتميزت الفترة ذاتها على صعيد المنطقة بمجموعة تطورات محدودة: في أيار (مايو) تمت اجتماعات عراقية ــ سورية بوساطة اردنية لم تثمر في تحقيق اي تقارب على الاطلاق. زار وفد فلسطيني كبير سوريا لرأب الصدع بين منظمة التحرير ودمشق فلم يخرج بنتيجة. قامت عدة محاولات دولية وعربية حثيثة لوقف الحرب العراقية ــ الايرانية من دون جدوى. اغارت الطائرات الاميركية في نيسان (ابريل) على مكان اقامة الزعيم الليبي معمر القذافي لقتله فأوجعته لكنها لم تتمكن من اغتياله. نشبت فضيحة «ايرانغيت» التي كادت ان تطيح برونالد ريغان بسبب بيع سلاح اميركي إلى ايران بصورة غير قانونية وتحويل اموال هذه الصفقة إلى ثوار الكونترا في نيكاراغوا، لكن الرئيس الاميركي تغلب على هذه العاصفة السياسية. نشطت المساعي لعقد مؤتمر دولي للسلام في الشرق الاوسط وايَّد هذه الخطوة مجمل الدول عدا اسرائيل، وما لبثت ان وافقت معها واشنطن فهمدت كل المبادرات تباعاً. اخيراً ظهرت بوادر ايجابية في العلاقات السورية ــ الاميركية إثر زيارة قام بها في حزيران (يونيو) الجنرال فرنون ولتر مندوب الولايات المتحدة في الامم المتحدة، اسفرت عن عودة السفير الاميركي في دمشق وليم ايغلتون إلى مركز عمله بعد ان كان استدعي قبل نحو سنة.

في هذا المناخ من المراوحة وتأجيل الاستحقاقات قمت برفقة انطوان بصبوص، ممثل القوات اللبنانية في اوروبا، بزيارة باريس حيث التقينا العديد من زعماء اليمين واليسار الذين ابدوا اهتماماً حقيقياً بالازمة اللبنانية بمعزل عن انتماءاتهم الحزبية والمنافسة الداخلية في ما بينهم. ولمست ان الشعب الفرنسي يؤيد بحماس كل حركة مقاومة ضد كل احتلال، ويدافع بايمان عن الحريات وحقوق الانسان، ويتعاطف تلقائياً مع لبنان وقضيته. وهذا

ما يفسر التأييد الواسع الذي سيلقاه ميشال عون لاحقاً في مختلف الاوساط الفرنسية.

اجتمعنا على المستوى الرسمي مع رئيس مجلس الشيوخ آلان بوهير، ورئيس مجلس النواب جاك شبان دلماس، ووزير الخارجية جان برنار ريمون، والعديد من الوزراء. اما على المستوى القيادي فالتقينا رئيس الجمهورية السابق فاليري جيسكار ديستان، والقياديَّين في الحزب الاشتراكي الفرنسي ميشال روكار، الذي سيعيَّن لاحقاً رئيساً للوزراء، ورولان دوما الذي سيصبح وزيراً للخارجية. كما اجتمعنا بمسؤولين من احزاب اليمين، ورئيس اساقفة فرنسا، واسقف مدينة ليون المونسنيور البير دوكورتراي، واسقف مدينة باريس المونسنيور جان ماري لوستيجيه.

سلَّمنا وزير الخارجية الفرنسي مذكرة صادرة بأسم القوات اللبنانية تحت عنوان «من اجل حل شامل للازمة اللبنانية». ومما جاء فيها انه بعد مضي اثنتي عشرة سنة على الحرب، صار لبنان خاضعاً لاحتلال دولتين: اسرائيل وسوريا، وثورتين: الثورة الايرانية والثورة الفلسطينية. وبنتيجة هذه الاحتلالات عمَّت حالة التقسيم، وانهارت صيغة التعايش، وتفككت المؤسسات الشرعية، وتدهور الاقتصاد الوطني، وذابت الهوية الثقافية. وفشلت كافة محاولات سوريا واسرائيل للحسم العسكري ولايجاد الحلول المنفردة. واسقطت الاحتلالات كل مشاريع المصالحة اللبنانية وبالنتيجة لم يعد من حل خارج اطار الامم المتحدة او في اطار مؤتمر دولي للسلام في حال انعقاده.

وتضمنت المذكرة بعد هذه المقدمة مشروعاً من اربع نقاط هذه ترجمته الحرفية:

«١ ــ انسحاب جميع الجيوش الاجنبية، الاسرائيلية والسورية، وجميع المنظمات العسكرية، الايرانية والفلسطينية من كافة الاراضي اللبنانية.

٢ ــ تأليف قوة دولية تساند وتؤازر الجيش اللبناني في انتشاره على طول الحدود اللبنانية، المعترف بها دولياً، وعلى كافة الاراضي اللبنانية، وتناط بها المهمات التالية:

* مساعدة الحكومة اللبنانية في استرجاع سيادتها، واعادة تثبيت سلطتها على كافة الاراضي اللبنانية.
* السهر على اعادة السلام والامن على طول الحدود، والتأكد من عدم حدوث اي عمل معاد من داخل الحدود ضد الخارج ومن خارج الحدود ضد الداخل.
* المشاركة إلى جانب الجيش اللبناني في نزع السلاح من المخيمات الفلسطينية وحماية الفلسطينيين المقيمين في لبنان، إلى حين يصار إلى ايجاد حل عادل ودائم لقضيتهم، علماً بأن اللبنانيين يرفضون قطعياً اي مشروع يهدف إلى توطين الفلسطينيين في لبنان.

٣ ــ تعديل الدستور اللبناني بإدخال الاصلاحات السياسية والادارية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية الملائمة، بغية تطوير نظام سياسي يؤمّن العدالة والمساواة ويحمي الحريات.

٤ ــ الاعتراف بحياد لبنان كعامل سلام داخلي وتوازن اقليمي».

ورفعنا في الخاتمة بعض الاقتراحات، إلى الحكومة الفرنسية بغية التحضير لطرح المشكلة اللبنانية في اطار دولي بمساعدة الفاتيكان والمجموعة الاوروبية وبعض الدول العربية والولايات المتحدة. كما دعونا إلى عقد مؤتمر وطني يضم كل الاطراف المتقاتلة برعاية فرنسا وطلبنا ارسال مساعدات إلى الدولة اللبنانية لتتغلب على مشاكلها المالية والتربوية والغذائية والطبية.

بعد تسلم وزير الخارجية الفرنسيّ للمذكرة واستماعه إلى الشروح حولها، اكد لنا بكثير من الوضوح مجمل الموقف الفرنسي من الازمة اللبنانية. ورأى ان الحكومة الفرنسية تعي اهمية العلاقة التاريخية بين البلدين ومدى ارتباط دور فرنسا في الشرق الاوسط بدورها داخل لبنان. وهذا يعني بنظره ان السياسة الفرنسية معنية بما يحدث في لبنان بشكل دائم، بمعزل عن كل المؤثرات الخارجية والموانع، وأنّى كان الاتجاه السياسي الحاكم في فرنسا.

واكد ان حكومته ترى ان حل الازمة اللبنانية يتم على قاعدة التمسك باستقلال لبنان وسيادته ووحدة اراضيه والحفاظ على نظامه السياسي والاقتصادي والتربوي الحر. وشدد على ضرورة الاسراع في ايجاد هذا الحل لأنه ينظر بكثير من القلق إلى التدهور الحاصل على المستويات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

وسألني بكثير من اللياقة واللباقة عن رأيي في حرب الخليج ومستقبل العلاقة بين سوريا وايران، فاجبته انه خلافاً لتوقعات الخبراء الاميركيين فقد تخطى العراق خطر الهزيمة، وانّي اتوقع له النصر. ووصفت العلاقة السورية ــ الايرانية بالثابتة خلافاً لرأي الكثيرين ورأيت انها علاقة مرشحة للاستمرار. وشعرت بمدى الاهتمام الفرنسي بعلاقاتنا العربية المستجدة وخصوصاً مع العراق.

اخيراً اثنى وزير الخارجية الفرنسي على موقف القوات المتمثل باصرارها على اجراء انتخابات رئاسة الجمهورية في موعدها ووفق الاصول. والمح إلى ان بعض المراجع ابلغته ان القوات قد تحاول تعطيل الانتخابات، وانه ارتاح للطمأنات التي اعطيته اياها. ولم يتمالك من ان يطرح عليّ سؤالا بديهياً: «من هو مرشحكم لرئاسة الجمهورية؟» وكان

جوابي: «لن يكون لنا مرشح من القوات وسندعم المرشح التوافقي». هزّ رأسه بهدوء وابتسم.

وشهد عام ١٩٨٨ ثلاثة احداث في المنطقة: قيام الانتفاضة الفلسطينية داخل اسرائيل، وانتصار العراق على ايران واستحقاق رئاسة الجمهورية في لبنان.

في تموز (يوليو) ١٩٨٨ زرت بغداد من جديد. وكان الجو مختلفاً. ففي حين تزامنت زيارتي الاولى مع سقوط الفاو بيد الجيش الايراني، تزامنت زيارتي الثانية مع استرداد العراق لكل اراضيه وسيطرته الكاملة على كل جبهات القتال.

التقيت طارق عزيز الذي كان غاية في الاطمئنان. شرح ان ايران في حالة انزلاق. ووصفها بأنها تهبط من الجبل إلى الهاوية. ولا يمكن تقدير دقيقة السقوط في القعر لأنها قادرة ان تتشبث بأي شيء فتؤخر الانحدار. ان سقوطها مرتبط بوزنها وسرعة الهواء والعديد من العوامل. واضاف: «يمكن ان تسقط ايران خلال ثلاث ساعات او ثلاثة ايام او ثلاثة اشهر لكن سقوطها اصبح محتماً».

وحول نتائج خسارة ايران للحرب، توقع الوزير العراقي امرين: تبدل المعادلات الاقليمية وانحسار الدور السوري. واكد ان مشاريع اقامة الدويلات الدينية في المنطقة قد ولّت. سعت اسرائيل طبعاً إلى تأسيس هذا المشروع منذ اوائل هذا القرن، فواجهت موقفاً عربياً جماعياً رافضاً. جاءت ايران باسم الاسلام تطرحه من جديد في نهاية القرن، لكن خسارتها امام العراق اسقطت هذا المشروع. في المحصلة، ستنشأ معادلات اقليمية جديدة تضعف ايران واسرائيل ومن ثمّ سوريا، وقال: «شئنا ام ابينا كل ما يضعف ايران يضعف سوريا، وما يضعف الاثنين يضعف اسرائيل».

وتركّز البحث حول انتخابات رئاسة الجمهورية في لبنان وطرحنا كل الاحتمالات والامكانات. وفي نهاية المطاف تعمّد طارق عزيز وفاضل البراك ان ينقلا الينا موقفاً أعلنه الرئيس العراقي في اجتماع معه إذ قال: «لا احد في العالم سيفهم جوهر العلاقة مع القوات، لأن لا احد في العالم يتحرّك من دون مصالح ومكاسب مباشرة. ان العراق يساند القوات لانهاء ازمة لبنان وآلام شعبه، ولاخراج اسرائيل وسوريا وايران، ولا نريد شيئاً آخر، وخصوصاً لا نريد التدخل في شؤون اللبنانيين الداخلية. نحن نعطيهم النصائح والافكار والمساعدات وهم يقررون في النهاية ما يرونه مناسباً، ونحن ندعم قرارهم».

وانتقلت بعد ظهر ١٤ تموز (يوليو) إلى مقر ابو عمار في بغداد. كان شديد التأثر

لخسارة رفيق دربه الطويل خليل الوزير المعروف بأبو جهاد، الذي اغتاله كوماندوس اسرائيلي في ١٦ نيسان (ابريل) ١٩٨٨ في تونس. وكان يردد: «حذّرت أبو جهاد وعرضت عليه ان يترك تونس فلم يفعل. ولكن قَسَماً بالله والثورة، لن يذهب دمه رخيصاً». وكانت تلمع في عينيه شرارة الثأر. واطلعني ان الاميركيين كانوا على علم بعملية الاغتيال، لكن ليس لديه اي اثبات انهم شاركوا فيها، وقال: «يعرف الاميركيون ان أبو جهاد خط احمر لدي. انا لم اقرر بعد ان اعود إلى الارهاب. ولكن اذا تبين لي انهم مشاركون، فسيدفعون الثمن غالياً، ولن اترك احداً منهم ينام في بيته مطمئناً».

وهدد ابو عمار بأنه قادر على العودة إلى الارهاب ضد المصالح الأميركية ومستعد على تفجير سلسلة من الفضائح في وجه الادارة الاميركية. واخبرني أن لديه مجموعة من المماسك لو اعلنها لتهاوى الكثير من المسؤولين الاميركيين. وقال: «انا الذي اخرجت الرهائن الاميركيين من طهران عام ١٩٨١. وعندي الاثبات ان رونالد ريغان طلب مني بصورة غير مباشرة ان اؤخر اطلاق سراحهم إلى ما بعد انتهاء حملته الانتخابية كي يسهل عليه التغلب على جيمي كارتر». وبالفعل أُطلق سراح الرهائن الاميركيين غداة اعلان نتائج الانتخابات الاميركية وفوز ريغان بها.

وكان ابو عمار شديد الخيبة والغضب من جراء سقوط المخيمات الفلسطينية في بيروت، والمعاملة التي لقيها انصاره على يد الجيش السوري. وكانت خيبته الكبرى متأتية من الاتحاد السوفياتي الذي ابلغه ان المخيمات هي «خط احمر سوفياتي». ولاحظ متأسفاً ان موسكو ابتدأت تنحسر على صعيد تأثيرها العالمي، وبصورة خاصة في الشرق الأوسط. وكان غضبه ينصبّ على القيادة السورية، مع انه اجتمع بحافظ الاسد في دمشق عام ١٩٨٨، بعد قطيعة دامت خمس سنوات. وبدا لي ان اللقاء لم يحسِّن في شيء العلاقة بين دمشق ومنظمة التحرير. وكرر ابو عمار مرات عدة خلال الاجتماع: «سيحاسب التاريخ سوريا على اعمالها تجاه اللبنانيين والفلسطينيين يجب ان ينسحب الجيش السوري من لبنان وتحل محله قوات عربية. سأُطالب بانتشار قوات دولية لحماية المخيمات في بيروت وبامكانكم الافادة منها كي تنتشر في كل العاصمة. سأعود إلى برج البراجنة في بيروت. وسأُقاتل في صيدا. وستستمر الانتفاضة في قلب اسرائيل».

تحدّث طويلاً عن الانتفاضة بفخر وحماس. ولاحظ ان حكام اسرائيل يتصورون خطأً انه بمقدورهم ان يوقفوا التظاهرات الشعبية بالترهيب او الاعتقال. لكن ما لا يدركونه ان لديه في نابلس وحدها، على سبيل المثال، واحدة وخمسين لجنة شعبية، ما ان يعتقلوا

واحدة حتى تتسلم الاخرى زمام الحركة. واشار إلى ان الانتفاضة اخذت تؤثر لا في امن اسرائيل وحسب بل في الانتخابات الاسرائيلية، بدليل ان حسني مبارك طلب منه ان يخفف بعض الشيء من زخمها اثناء الحملة الانتخابية في ايار (مايو) الماضي كي يساعد شمعون بيريز على النجاح في مواجهة اسحق شامير.

كان عاتباً على العرب وبصورة خاصة على الخليجيين منهم لأنهم لم يساهموا في تمويل الانتفاضة، وقال خائباً: «انا اتحمل الانتفاضة وحدي ومن دون العرب. وهذا افضل. انا اتكل على شعبي وشعبي يثق بي. قمة السيطرة ليس ان توزع سلاحاً ليطلق الشعب النار، بل ان تمنع شعباً من اطلاق النار. لقد برهنت ان الانتفاضة ليست مظاهرات شغب بل مظاهرات شعب».

وفيما كنا نتعشى على مائدة ابو عمار دخل علينا بسام ابو شريف الناطق الرسمي باسم منظمة التحرير مسروراً وقال: «اعلنت اذاعة لندن منذ برهة ان ايران تطلب وقف اطلاق النار. لقد انتصر العراق». وساد جو من الفرح. وتذكرت على الفور كلام طارق عزيز ان ايران قد تسقط «خلال ثلاث ساعات». ورأيت أبو عمار في ذروة النشوة والتأثر. وقال: «لقد تقدمنا اليوم خطوة على طريق فلسطين». وفي ١٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٨ اعلن ابو عمار «قيام دولة فلسطين فوق ارضنا الفلسطينية وعاصمتها القدس الشريف».

ليس أكبر من وطن ولد في ضمير رجل. وليس اعظم من رجل اعلن ولادة دولة. هذا هو ابو عمار بعد ربع قرن من النضال المستمر يحوّل الثورة المسلحة إلى دولة يعترف بها ثلثا دول العالم. دولة ارضها محتلة لكن شعبها حي ينتفض.

امسى العالم كله يعرفه بقامته القصيرة وعينيه الجاحظتين ذكاء وحركة، وشفتيه السميكتين ولحيته المبعثرة على وجه ضحوك، وزيّه العسكري وكوفيته الفلسطينية ومسدسه المدلى على وسطه. الكل تعوّد شخصه لكن شخصيته تبقى لغزاً لم يخترقه الا القليلون.

ما زال الغرب يتساءل أهو ارهابي ام مقاوم؟ والشرق حائر فيه، أهو وطني أم مقامر؟ بعضهم يجلّونه فيرون فيه معجزة لا بل اسطورة، وكثيرون يمقتونه فيصفونه بالمهرّج والانتهازي. اما هو فيعدُّ نفسه «الرقم الصعب» ويشبّه ذاته بـ «طائر الفينيق» الخارج ابداً من تحت الركام والرماد. وبنظري انه قائد ثورة ورجل دولة، هذه هي خصوصيته وهذا هو امتيازه.

لقد عرف العالم قادة ثورات كثيرين تحوّلوا إلى رجال دولة، وبعض رجال دولة قادوا

ثورات. لكن لم يشهد العالم سابقة قائد يدير ثورة من خارج ارضها ويترأس دولة لا ارض لها. انه يقود اطول ثورة في العصر الحديث، ويعمل في اخطر منطقة من العالم وفي الزمن الاصعب.

ولد محمد عبد الرؤوف عرفات القدوة الحسيني، ذلك اسمه الحقيقي، من عائلة سنّية عام ١٩٢٩ في القدس، مدينة الحرب والسلام، ارض اليهودية والمسيحية والاسلام. وانتقل من القدس إلى القاهرة اثناء الحرب العالمية الثانية. وعاد عام ١٩٤٧ إلى غزّة ليقاتل ضمن «جيش الجهاد المقدس»، وهو في الثامنة عشرة من العمر. بعدها قصد القاهرة حيث درس الهندسة، وعاش مأساة النكبة والغربة والضياع. فكّر ككثيرين في الهجرة إلى أميركا، لكنه قرر بعد تردد ان يبقى وان يناضل من اجل استرجاع فلسطين. وانضم إلى المصريين الذين كانوا يقاومون الانكليز على طول قناة السويس. وتعرف على الكثير من «الضباط الاحرار» الذين سيطيحون بالنظام الملكي.

أسس اتحاد الطلبة الفلسطينيين في مصر وترأسه عام ١٩٥٢، في السنة نفسها التي اقدم فيها جمال عبد الناصر والضباط الاحرار على انقلابهم، وكأن الثورة الفلسطينية بقيادة عرفات كانت على موعد مع الثورة المصرية بقيادة عبد الناصر. والتحق عام ١٩٥٦ بالجيش المصري ليقاتل الغزو البريطاني ـــ الفرنسي ـــ الاسرائيلي على الجبهة المصرية.

ضم اتحاد الطلبة كل الفلسطينيين على اختلاف نزعاتهم وعقائدهم، من ماركسيين وبعثيين وقوميين عرب إلى الاخوان المسلمين مروراً بالمستقلين. ودرج الاتحاد على الحوار الديمقراطي بين اعضائه، وعلى استقلالية العمل تجاه الاحزاب والانظمة العربية، وعلى اعتناق فكرة تحرير فلسطين قبل الوحدة العربية والاشتراكية. وسيحرص عرفات على هذه التوجهات في كل مراحل نضاله وسيفخر بأنه يدير اول حركة تحرير تطبق الاصول الديمقراطية، وانه لا ينتمي إلى اليمين ولا إلى اليسار، وان هدفه هو توحيد شعبه وتحويله من لاجىء يحمل بطاقة اعاشة إلى ثائر يحمل بندقية.

عكف أبو عمار ما يقارب الخمس عشرة سنة على تنظيم خلايا «فتح» السرّية في العالم العربي، وتنقّل باسماء مستعارة بين العواصم العربية، وقد دخل القدس بجواز سفر جزائري. اوقف في سوريا ولبنان ولم يتم التعرف عليه واطلق سراحه بسبب لهجته المصرية ظناً من المراجع الامنية انه احد رجال المخابرات المصرية.

نفّذ ابو عمار اول عملية عسكرية لحركة فتح في اول كانون الثاني (يناير) ١٩٦٥. ويُعدّ هذا اليوم تاريخ انطلاقة المقاومة الفلسطينية ومعها انطلق ابو عمار في الدرب الطويل

المليء بالخيبات والنجاحات. نظرت الاوساط العربية التقدمية واليسارية إلى حركة «فتح» على انها حركة «يمينية»، ورأت الاوساط المحافظة والتقليدية فيها حركة «ثورية». واستفاد ابو عمار من النظرتين. وظّف «يمينية» فتح ليشكل هيكليتها المالية من الدول العربية الخليجية والمحافظة وفي طليعتها السعودية والكويت، واستفاد من «ثوريتها» ليدعم برنامجها التحرري لدى الدول التقدمية والاشتراكية، وفي طليعتها مصر عبد الناصر وسوريا الاسد وعراق صدام حسين وجزائر بومدين وليبيا معمر القذافي.

سرُّ نجاح ابو عمار الحقيقي انه يمتلك موهبة القيادة، ويتميز بشخصية متعددة الوجوه والطاقات اتاحت له ان يصبح عن جدارة رمز شعب ومقاومة. بعقله الثوري يشرف على الاعمال العسكرية والانتفاضة. وبعقله المخابراتي يحلل المعلومات ويدير العمليات الامنية والسّرية. وبعقله الاقتصادي ينمّي قدرات الفلسطينيين ويحضّر لمقومات الاقتصاد الفلسطيني في المستقبل. وبعقله الاعلامي يحرّك الرأي العام الفلسطيني والعربي والعالمي. وبعقله السياسي ـــ وهو الاهم والاشمل ـــ يعمل من اجل اقامة دولة فلسطينية على ارض فلسطين، يكون هو رئيسها وتكون القدس عاصمتها. وقد قال لي قبيل توجهه إلى الامم المتحدة عام ١٩٧٤: «إما هذه الدولة وإما لا شيء يستحق الاستشهاد».

عُقدت له ناصية القيادة لأنه قاتَلَ، ومن يقاتل يَقُدْ. منذ البداية كان مقتنعاً بانه لن يسترجع فلسطين الا الفلسطينيون، وان تحرير الوطن لن يتم إلّا بالقوة. ورفعت حركة فتح شعارين: «هويتي هي بندقيتي»، و«ثورة حتى النصر». وعى باكراً ان طريق فلسطين لا تمر من خلال الجيوش والانظمة العربية. وجاءت نكسة ١٩٦٧ لتؤكد ان المقاومة الفلسطينية هي الرد الملائم خلافاً لرأي الكثيرين من العرب والفلسطينيين. واثبت انه قائد عسكري حقيقي: يوجّه الضربات ويتلقى الضربات ويخوض المعارك من قريب ومن بعيد.

قام ابو عمار بغارات فدائية داخل اسرائيل وعَبَر مرات كثيرة مع رجاله إلى الارض المحتلة. خاض في آذار (مارس) ١٩٦٨ مواجهةً عسكريةً أولى مع الجيش الاسرائيلي على طول نهر الاردن عُرفت بـ «معركة الكرامة». واصطدم عام ١٩٧٠ بالجيش الاردني في عمان، فاضطر إلى مغادرة الدولة الهاشمية متخفياً. وباغته الجيش الاسرائيلي عام ١٩٧٢ في العرقوب في الجنوب اللبناني وبقي يقاوم اربعة ايام بلا هوادة. وانغمس عام ١٩٧٥ في الحرب اللبنانية المدمّرة ضد الجيش اللبناني والميليشيات المسيحية فاستنزفت المعارك الشرسة الكثير من قواه ومصداقيته. وفي العام ١٩٧٦ اصطدم بالجيش السوري الذي دخل لبنان، فتراجع وانكفأ. وواجه عام ١٩٨٧ اجتياح اسرائيل لجنوب لبنان فخاض معركة قاسية

في منطقة شقيف أرنون. واجتاح الجيش الاسرائيلي لبنان عام ١٩٨٢ ووصل إلى اطراف العاصمة بيروت حيث كان ابو عمار الذي عانى عندئذٍ اقسى ايام حياته. وضرب عليه ارييل شارون حصاراً محكماً في البر والبحر والجو. وقطع عنه خطوط الاتصال والمواصلات والتموين، وحصره في دائرة لا تتجاوز بضعة كيلومترات مربعة، وأخذ الانهيار يدب في الصفوف، فجمع ابو عمار القيادات اللبنانية والفلسطينية وقال لهم: «يا اخواني، قراري هو القتال حتى الاستشهاد، فنحن في الاصل أُمّة الشهادة. من يلتزم فقد اختار، ومن لا يلتزم فهو حر». وصمد وحده تسعين يوماً إلى حين رأى انه حمّل رجاله اقصى ما يحتملون وانه حقق اكبر قدر من الكسب المعنوي فوافق نزولاً عند طلب حلفائه اللبنانيين على خطة مندوب الرئيس الأميركي فيليب حبيب لاجلائه عن بيروت مع مقاتليه.

ولم ينته مسلسل المعارك؛ فخاض عام ١٩٨٣ امرَّ معركة له ضد الجيش السوري في مدينة طرابلس واضطر بعدها إلى الخروج النهائي من لبنان. ورغم مغادرته لبنان، لم يتوقف صراعه مع دمشق، التي راحت تحاصر انصاره في مخيمات بيروت. وشعر عرفات بالقلق لأنها المرة الاولى التي يخوض فيها مقاتلوه معركة شرسة وهو بعيد عنهم. وتسمَّر على الهاتف يتابع حرب المخيمات. وصمد رجاله ثلاث سنوات قبل ان يستسلموا. علمته حرب المخيمات ان يدير المعارك من بعيد. وبرع في تسيير انتفاضة الارض المحتلة على التلكس والراديو. وهي في المطلق انجح معاركه بعد سلسلة متواصلة من الهزائم. لقد اظهر الكثير من الجرأة عندما كان يخوض القتال مع رجاله. لكنه اثبت قدراً كبيراً من الزعامة عندما راح يأمر مقاتليه من بعيد ويطيعونه. انه من دون شك قائد عسكري وزعيم سياسي. وهو يفخر بأنه مارس الكفاح المسلح خلافاً لباقي الزعماء العرب. وفي احد الاجتماعات مع الرئيس سليمان فرنجية عام ١٩٧٥، احتدم النقاش فانبرى ابو عمار يقول بحدّة: «انا القائد العربي الوحيد الذي يحمل على جزمته تراباً من اسرائيل، اني استمد زعامتي من الدم والشهادة وليس من الكراسي والكواليس».

يكفي ان نسجل انه ما زال حياً بعد ربع قرن من المؤامرات المستمرة عليه لنعترف ان عقله المخابراتي والامني متفوق. مُدرج على لائحة التصفية في اجهزة المخابرات الاسرائيلية منذ عشرات السنين، والعديد من الاجهزة العربية والغربية تنسّق في ما بينها لمراقبة حركته وضبط نشاطاته وكشف شبكاته. تعرض للكثير من محاولات الاغتيال براً وجواً، بالنار او بالسم. تحميه بركة الايمان وينقذه حدس مرهف. نُصبت له كمائن عدة على طرق بيروت وجنوب لبنان ودمشق. قُصفت طائرتان واحدة مصرية والثانية ليبية وخطفت طائرات

عدّة كان من المفروض ان يكون على متنها. اثناء الحصار الاسرائيلي لبيروت أصدرت تل ابيب اوامرها لكل المراجع الامنية والعسكرية لاعتقاله او اغتياله. ووجّه مناحيم بيغن رئيس الحكومة الاسرائيلية في آب (اغسطس) ١٩٨٢ رسالة إلى الرئيس الاميركي رونالد ريغان يقول له فيها ان الحرب تهدف إلى القضاء على «زعيم المخرّبين» في بيروت، كما قضى الحلفاء على هتلر في برلين. وحشدت الاجهزة الاسرائيلية عدداً ضخماً من المخبرين ليتعقبوه. وقصف الطيران الحربي كل الاماكن التي كان يتردد إليها لدرجة ان بعض المحللين تكلموا على «القنص بالطيران». ودمّرت غارة جوية بناية في بيروت بعد دقائق معدودة من مغادرته لها، واصيبت سيارته الشخصية ولم يكن من عداد ركابها.

لا مسكن ثابتاً له، ولا يبيت ليلتين في مكان واحد. يقطن عند الاصدقاء ولدى عائلات الفلسطينيين او في السفارات العربية. وفي الازمات الحادة ينام في سيارته في احد المرائب او تحت الجسور على قارعة الطريق. كثيراً ما كنت التقيه ليلاً، وقد شاهدته مرّة يفاجىء حرسه فجراً فيقرر ان يغادر لينام في مكان آخر. طلب مني مرة اخرى ان اوصله في ساعة متأخرة إلى مبنى السفارة الكويتية في بيروت التي دخلها امام اندهاش الحراس والساكنين فيها. يستعمل مكاتب عديدة ويخلّ بمواعيده قصداً، فيصل اما متأخراً او قبل الاوان، وكثيراً ما يبدّل مكان اللقاء في اللحظة الاخيرة. ان الانتظام مميت في حالته، قال لي مرة: «احسن حماية هي الارتجال».

حوّل منظمة التحرير الفلسطينية من هيئة تابعة لجامعة الدول العربية، لا سلطة لها ولا وزن، إلى مؤسسة ضخمة تشغل مقعداً في الامم المتحدة وتشكل قوة ضغط على دول العالم، ومركز قرار في ازمة الشرق الاوسط، وموقع ثقل في الارهاب الدولي. احسن احاطة نفسه بأفضل المفكرين، الذين اسسوا له مراكز التوثيق والدراسات والمعلومات، وبأعنف رجال العصابات والمرتزقة، الذين ينفذون له افظع العمليات واخطرها. يملك قدرة خارقة على اجتذاب المثقفين وترويض الارهابيين. يجمع بين موهبة التحليل والطاقة على التنفيذ ليؤلف مزيجاً استثنائياً من حلم المنظّر وواقعية الممارس.

وعى ياسر عرفات منذ البداية اهمية العامل الاقتصادي. واهتم لا بتمويل الكفاح المسلح وحسب بل بدعم الشعب الفلسطيني في المخيمات وفي الاراضي المحتلة وتلبية متطلبات قيام الدولة الفلسطينية في المستقبل. هذا الترابط بين المقاومة والشعب والدولة ساعد ابو عمار في استيعاب الويلات واستثمار الطاقات. شجّع على اقامة معامل ومصانع ومشاغل في المخيمات لتشغيل الشعب وتغطية حاجات المقاومة. وحثّ المسؤولين الاقتصاديين على

ضرورة التوصل إلى تحقيق الاكتفاء الذاتي، ليتم التلاحم العضوي بين المقاومة والشعب. وانشأ مؤسسة «صامد» التي تشكل قطاعاً انتاجياً كبيراً في الحاضر، ونواة القطاع العام في دولة المستقبل. وفكر في شراء الذهب ليكوّن الاحتياطي لتغطية العملة الفلسطينية. وجَمَعَ التبرعات من الجاليات الفلسطينية وحث كل امرأة ان تقدم قطعة من حليها.

ينصبّ اهتمامه على تطوير التعاون الاقتصادي بين منظمة التحرير ودول العالم. انها حركة التحرير الاولى التي تنظّم اتفاقات اقتصادية مع الدول. قام بتوقيع ما يقارب ثلاثين اتفاق تعاون اكثرها مع دول العالم الثالث، خصوصاً افريقيا واوروبا الشرقية. ولا يتوقف عند المردود المالي، بل يهمه المردود السياسي وتعزيز العلاقة مع حكومات العالم وشعوبه، واظهار مهارة الانسان الفلسطيني وتفوّقه في المجالات كافة. قال لي مرة: «اهم من النفط هو مال النفط. ان فعل المال غير محدود في العلاقة بين الامم لدرجة ان فرنسا مستعدة لبيع التكنولوجيا النووية مقابل كسب المال».

يفخر ان موازنة المنظمة الضخمة تعتمد في الجزء الاكبر منها على اشتراكات ومساعدات الفلسطينيين. وكما يطمح إلى نوع من الاكتفاء الذاتي فانه يرغب في التوصل إلى نوع من التمويل الذاتي عن طريق الاستثمارات والتوظيفات الناجحة. اكد لي مرة انه يعرف ثلاثة عقول اقتصادية قادرة على الخلق والانتاج في العالم العربي: العقل المصري واللبناني والفلسطيني، وأضاف: «المصري غارق في مشاكله، يبقى اللبنانيون والفلسطينيون وهم الاقدر على استثمار المال العربي واذا اتفقوا يتحولون قوة لا تقهر».

قال لي يوماً: «بتصرفي ثروة كبيرة وانا افقر انسان». وهذا صحيح. فهو يعيش عيشة تقشّف وحرمان قلّ نظيرها على رغم ما في حوزته من الملايين. ينام في غرفة ويعمل في غرفة واذا اقتضى الامر تكفيه غرفة واحدة، هذا هو مسكنه الخاص المتنقل على الدوام. لا بهرجة ولا ديكور ولا سجاد ولا الحد الادنى من الاضاءة والرفاهية. يستخدم طاولة حديدية او خشبية من ارخص الاثمان ويضع حولها كراسيَّ ومقاعد غير متجانسة، تزيد الالوان الدكناء من تعاستها. كل شيء غير مريح للنظر وغير ثابت عدا أمْرَيْنِ: العلم الفلسطيني وسكرتيره.

ملبسه غاية في البساطة. اصبح الكاكي جزءًا من جلده، والكوفية جزءًا من صورته الفلسطينية والعربية، والقبعة العسكرية جزءًا من كفاحه المسلح، والقبعة الروسية جزءًا من علاقاته مع الدول الاشتراكية. لا يجدد ثيابه ويستعملها حتى تبلى غير انه يحرص على نظافتها الدائمة. وقد شاهدته مرة يخيط زر قميصه بيده. وعن السؤال المكرر، لماذا لا

يتزوج، لديه جواب سياسي فيقول: «انا تزوجت القضية». اما جوابه الوجداني فهو: «اني اتعذب وحدي بما فيه الكفاية لا اريد ان اعذب احداً معي». والواقع ان قلبه خفق مرات لكنه يتعمَّد في كل مرة لجم عواطفه.

يطوّع نفسه ويقهرها ويعوّدها الابتعاد عن الملذات. لم يفطر في رمضان يوماً واحداً ولو كان في الخندق او على سفر او في حالة مرض. لا يدخن ولا يشرب الكحول ويأكل قليلاً. واشهى الاطباق لديه الجبن والعسل، وطالما ردد: «لا تدخلوا السكر إلى الجسم انه سم». لم يحدث ان تناول الطعام بمفرده وكثيراً ما يشاطر حرسه ومرافقوه المأكل والمشرب. يعنى بضيوفه بشكل خاص، ويغالي في تكريمهم، ويهتم بكل واحد بمفرده فيوجّه إليه كلمة ملاطفة او على الاقل التفاتة او ابتسامة. يقدّم بيده الاطباق وفق العادات العربية الاصيلة، وكثيراً ما تحوّلت مائدة الطعام إلى طاولة اجتماعات. وقد شاهدته يوقّع قراراً او يطلع على تقرير او يصدر امراً اثناء الاكل. كما صادف ان تناولت معه في بيروت الطعام الذي كان الجيران يعدّونه له. وكان يفخر بأنه طعام الشعب ويخبرني بأن جماعته كثيراً ما حذرته من مغبة تناوله لاسباب امنية، وكان جوابه: «هؤلاء الفقراء الطيبون لن يغدروا بي ابداً».

احب الناس اليه اولاد الشهداء والفقراء الذين يوليهم عناية الاب. اطلق عليه البعض في البدء تسمية «الختيار» لأنه الاكبر سناً بين اخوانه، وصاروا يلقبونه اليوم بـ «الوالد» لأنه الاكثر حنواً على الجميع. اخبرني انه اثناء زيارته عمان عام ١٩٨٩، وفيما كان يغادر محل اقامته القت امرأة نفسها امام سيارته وارتطمت بها فتوقف متعجباً: «ما بالك يا امرأة؟» اجابته: «انا جوعانة». وقال له مرافقوه انها واحدة من مجموعة قصدته إلى مقرّه طلباً للمساعدة وتنتظره منذ يومين. فعاد ابو عمار فوراً على اعقابه ليوقّع مساعدات بما يقارب مئة ألف دينار.

الحقيقة ان هذا الرجل الصلب المعدن الذي صقلته المصاعب والمصائب يخفي شخصية مرهفة تؤثر وتتأثر. بكى في العلن عدة مرات: عند اغتيال ابنه المدلل ابو حسن سلامه عام ١٩٧٩، ومقتل السفير الفرنسي في لبنان لوي دو لامار عام ١٩٨١، وامام المشاهد المصوَّرة عن مجزرة صبرا وشاتيلا عام ١٩٨٢، وعند استشهاد ابو جهاد عام ١٩٨٨. وهو قادر بالحرارة نفسها على ان تدمع عيناه لرؤية يتيم او شهيد، وفي الوقت ذاته ان يصدر امراً بتصفية عدو او اعدام خائن.

يؤنب بشدة المسؤولين الفلسطينيين الذين يغرقون في البذخ والترف، وهم في مطلق

الاحوال قلّة نسبياً. ويلتمس صورة الفلسطيني الفقير المشرد لا امعاناً في التمسك بفضيلة الفقر، بل رغبة في الحفاظ على اخلاقية الثوار وكسب العطف والتأييد. انه يعنى بمصداقية منظمة التحرير ويعلّق اهمية بالغة على الرأي العام والعلاقات العامة ووسائل الاعلام.

بمقدورك ان تشكك في كل مزايا ياسر عرفات الا واحدة، فهو ابرع اعلامي في العالم. الكلمة لديه بأهمية البندقية. والحركة الاعلامية توازي الحركة العسكرية. في نظره كل سياسي لا يتقن الاعلام يبقى محدود التأثير وفاشلاً. ويؤكد اهمية الكنيسة في الاعلام الغربي والمساجد والائمة في الاعلام العربي والاسلامي.

اول الاعلام هو الاتصال بالناس. الكل يحادثه مباشرة وهو يوافق على استقبال الجميع. انه الرجل المباح، لا حياة خاصة له. يدخلون عليه وهو يأكل او يعمل او يستريح. لا اعرف زعيماً سواه يلتقي هذا العدد من الاشخاص في اليوم الواحد، وكل يوم، على مدار السنة. ولا اتذكر قائداً يسافر هذا القدر من الرحلات وكأن العالم مداه الحيوي. لا عيد، لا اجازة، لا استراحة. حركة دائمة لا تهدأ ولا تجمد، وهذا سر من اسرار نجاحه وتفوّقه. يعمل بمعدل ثماني عشرة ساعة في اليوم. يتعب الجميع ولا يتعب هو. في كل لحظة اتصال، وفي كل دقيقة اجتماع، وفي كل يوم مشروع او مبادرة. خرجت ذات يوم من عام ١٩٨٦ من لقاء معه في بغداد دام حتى الساعة الثالثة فجراً، وكانت قاعة الاستقبال تعج بالناس. طلب من مساعده ان يدعو القيادة الفلسطينية إلى اجتماع عند الساعة الثانية فلفته احدهم ان الوقت قد تجاوز الثالثة. وظهرت عليه علامات الاستغراب ونظر إلى الحضور وهزّ كتفيه: «مرّ الوقت بسرعة. طيب اليوم فرصة، اذهبوا وارتاحوا».

ما خاض معركة الا وواكبها بحملة اعلامية متناهية الابعاد والاتجاهات، والاعلام سلاح الضعيف اذا احسن استعماله. وابو عمار يتقن فن العرض والاستعراض. يقلل من شأن الحدث او يضخمه تبعاً لاهدافه والمصالح. اذا فشل يُربك قاهره بالاعلام واذا نجح يستثمر النصر إلى اقصى الحدود. يخصص موازنة مهمة لمؤسساته الاعلامية ويتبع تحولات الصحافة العربية والغربية ويوثّق علاقاته الشخصية بالصحافيين من كل حدب وصوب. لا يبخل في هذا المجال، وهو يعلم انه لا يهدر؛ لأنه بالاعلام يقدر ان يحقق احياناً ما يعجز عنه بالقوة او بالسياسة. حوّل القضية الفلسطينية إلى مشكلة عالمية، والمقاومة الفلسطينية إلى فيلم طويل مليء بالمغامرات والمفاجآت والاثارة، وصار هو المخرج والنجم والبطل. انه ابرع ممثّل لاكبر مأساة.

ويتميز ابو عمار اخيراً وخصوصاً بعقل سياسي براغماتي، وقدرة نادرة على فهم

التطورات المعقدة والتلاؤم مع المتغيرات. يوم أُعلن وقف اطلاق النار بين مصر واسرائيل، إثر حرب تشرين (اكتوبر) ١٩٧٣، قال لي: «يجب ان اكون دائم اليقظة: عيناً على اسرائيل، واخرى على العرب». وفهمت انه يتوقع تبدلاً في الموقف العربي. وسرعان ما شرع انور السادات يخطط للسلام المنفرد مع اسرائيل. وادرك ابو عمار ان استمراره في رفض التسوية السياسية، والتنكّر لحق اسرائيل في الوجود، يهدد منظمة التحرير بالعزلة، والخروج من المعادلة الاقليمية والدولية؛ فتصبح بلا شأن ولا تأثير. أجرى تعديلاً دراماتيكياً في مسار القضية على الرغم من معارضة المتخوفين والمتشددين والرافضين. فدعا إلى قيام الدولة الفلسطينية في جوار اسرائيل وليس على انقاضها، وهذا تبديل نوعي لم يكن ليجرؤ عليه الا رجل حمل البندقية وقدّم الشهادة. وفي ١٤ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٧٤ اعترفت الامم المتحدة بمنظمة التحرير الفلسطينية «ممثلاً للشعب الفلسطيني». وفي نهاية الشهر نفسه اعلنت القمة العربية، المنعقدة في الرباط، ان المنظمة هي «الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني». وولج ابو عمار لاول مرة عتبة الامم المتحدة في ١٣ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٤ ليلقي خطاباً حمل خلاله بيد بندقية التحرير وبيد غصن زيتون السلام.

في صيف تلك السنة قال لي متفائلاً: «قبل عام كانت غولدا مايير تتساءل، اين الفلسطينيون؟ واليوم ذهبت مايير وجاء اسحق رابين الذي يعترف في برنامجه السياسي بالحكم الذاتي للفلسطينيين. وغداً يذهب رابين ويأتي من لا ادري فيعترف بحق الفلسطينيين في غزة والضفة وتصبح الدولة الفلسطينية واقعاً وحقيقة».

حاول بكل الوسائل ان يدرأ مخاطر اتفاق كمب ديفيد عام ١٩٧٨، وأن يتفادى الانعكاسات السلبية لانفصال مصر عن الجبهة العربية، واختلال التوازن لمصلحة الولايات المتحدة واسرائيل. وخُيِّل له للحظة ان الثورة الايرانية بزخمها وحجمها قادرة على ان تملأ الفراغ الذي تركته القاهرة، وكان يردد بعد زيارته ايران: «لقد انقلبت الموازين: ياسر عرفات في طهران وشاه ايران لاجىء في القاهرة، شيء لا يصدق!».

ولم تدم الفرحة طويلاً اذ انفجرت الحرب العراقية ــ الايرانية عام ١٩٨٠، وانقلبت التحالفات والحسابات. وبدا ابو عمار دائم التجهم عام ١٩٨٢ لشعور باطني لديه بدنو العاصفة والكارثة. واجتاحت اسرائيل لبنان بهدف تدمير البنية العسكرية الفلسطينية وغادر مع رجاله إلى تونس وشرع يفكر في كيفية الافادة من مصر ولو في ظل كمب ديفيد. وطوّر علاقته الشخصية بحسني مبارك الذي وضع كل امكاناته للتقريب بين الولايات المتحدة ومنظمة التحرير مما سيساهم لاحقاً في قيام الحوار الفلسطيني ــ الاميركي.

في السياق ذاته وقّع عام ١٩٨٥ مع الملك حسين ما يسمى بـ «اتفاق عمان» الذي تضمن تحوّلين رئيسيين: القبول بقيام الكونفدرالية مع الاردن بديلاً للدولة الفلسطينية المستقلة، وتشكيل وفد اردني ــ فلسطيني بدل الوفد الفلسطيني المستقل للمشاركة في المؤتمر الدولي للسلام في الشرق الاوسط. واتهم ابو عمار بشتى التهم، وحدث انشقاق عنيف داخل المنظمة وحتى داخل حركة فتح بالذات. وما لبث ان تمكن عرفات من استيعاب الخائفين وتطويق المنشقين.

تتطلب مواجهة الواقع احياناً جرأة اكبر مما يتطلب الهروب إلى الامام. وابو عمار ذهب بعيداً في براغماتيته. في البدء كان يطالب بتحرير كل فلسطين وتدمير اسرائيل، ثم دعا إلى اقامة الدولة الديمقراطية العلمانية حيث يتعايش الفلسطينيون واليهود، بعدها انتقل إلى المناداة بالدولة الفلسطينية على جزء من فلسطين، واخيراً بالكونفدرالية الفلسطينية ــ الاردنية. رأى الكثيرون في هذا المسار خيانة وتراجعاً ووصولية، ورأى فيه ابو عمار تلاؤماً ومرونة. وقد تعوّد ان يتخذ المواقف الغامضة والمتداخلة او حتى المتناقضة وفق ما تفرضه الظروف وموازين القوى والمستجدات.

في منتصف السبعينات كاشفني ابو عمار برؤياه للمستقبل. قال لي ان جوهر الصراع بدأ في الاصل بين الفلسطينيين والاسرائيليين، ودخلت عليه عوامل حوّرته إلى نزاع عربي ــ اسرائيلي ومن ثم اميركي ــ سوفياتي. وابدى اعتقاده ان هذا الصراع سيعود إلى أصله عاجلاً ام آجلاً واضاف: «لقد ادّت المواجهة بين العرب واسرائيل إلى اربع حروب دون التوصل إلى حل، وقد تؤدي عودة المواجهة المباشرة بين الفلسطينيين والاسرائيليين إلى الحوار والسلام». وفي جو يتأرجح بين الحلم والرؤيا قال لي عام ١٩٧٤: «مع ازدياد عدد العرب الاسرائيليين، وتصعيد العمليات الفدائية، قد يأتي يوم اخوض فيه الانتخابات داخل اسرائيل ضد دايان ورابين مع حظوظ في الربح. غباء الصهاينة انهم لا يعرفون قيمة القدس. قوّتي هي المقاومة والقدس».

في ايار (مايو) ١٩٧٤ التقى في براغ وللمرة الأولى، وفد يمثّل منظمة التحرير وفداً يمثّل الحزب الشيوعي الاسرائيلي، راكاح، وتوالت اللقاءات. اجتمع ابو عمار في البدء مع الزعامات الاسرائيلية المناهضة للصهيونية، ثم مع القوى والاحزاب الاسرائيلية على اختلافها، ولم يحجم في نهاية المطاف عن ابداء استعداده للحوار مع الحكومة الاسرائيلية بالذات، ودوّن شروط مسبقة باشراف الدول الخمس الدائمة العضوية في مجلس الامن الدولي. تجرأ على الاعتراف بالقرار الدولي رقم ٢٤٢ الذي ينصّ صراحة على حق اسرائيل

في الوجود والحدود الآمنة. واعلن في باريس ان ميثاق منظمة التحرير الذي يدعو إلى تدمير اسرائيل اصبح «كادوك». وهي لفظة اوحى له بها وزير الخارجية الفرنسي رولان دوما وتعني ما «عفى عليه الزمن». ان خط عرفات ثابت رغم التقلبات والمناورات. انه يعرف ما يريد، ويتقن فن الخداع والتضليل الذي طالما يحتاجه لتغطية عجزه وضعفه وحرجه. فهو رجل حرب ورجل سلام، وحاضر دائماً للمجابهة وللمفاوضة ولتمثيل كل الادوار المتباينة.

يملك قدرة على التحكم بالكلمة والحركة. حلاوة حديثه تطرب، وعنف حركته يرعب. فحيناً يظهر بقناع الاعتدال واحياناً بوجه التطرف. يستطيع المجابهة حتى شفير الهاوية والمداورة حتى الهروب، يعرف كيف ومتى يعاند ويكابر او ينساب ويختفي. انه الزئبق الفلسطيني الذي لم يقدر ان يمسك به احد ولا ان تحدَّ جهة من دوره وحجمه.

اثناء المفاوضات يأخذ دوماً المبادرة: يتكلم، يعرض، يحلل، يستنتج، يقارع الحجة بالحجة، وينفذ إلى عمق الاشياء وخلفياتها والتبعات. تسعفه ذاكرة تحفظ له سجلاً واسعاً من الارقام والاقوال والاحداث. هو تارة هادىء ومتفهم، وطوراً منصاع ومتساهل واحياناً متشدد ومخيف. يستطيع التضرع إلى حدود البكاء عند الطلب، او الانطلاق فجأة في غضب مفتعل، فيثور وينفعل، ويوعد وينذر. ثم سرعان ما يهدأ ويسترخي ويبتسم، وتعوده النكتة والضحكة. له طاقة الاستماع وفهم ما يقال صراحة او تلميحاً، او التظاهر بالاستماع مجاملة، ولاظهار الاهتمام يأخذ رؤوس اقلام ويدوّنها في دفتر صغير احمر يحمله دائماً في جيبه ولا يعرف احد ماذا يفعل به. يحاول دائماً ان يتمالك نفسه ويسيطر على اعصابه. واذا ما توتّر يدق باصبعه او بقلمه على الطاولة دقات عصبية او يهز قدمه هزات متلاحقة. رأيته عام ١٩٧٦ وخلال حصار الميليشيات المسيحية لمخيم تل الزعتر يتحرق من الالم ويعض على الجرح ويقول لي بهدوء ولباقة: «ذكّر القوات اللبنانية ان تل الزعتر ليس تل ابيب». وعندما اسقط الجيش السوري عام ١٩٨٨ مخيم شاتيلا المحاصر منذ ثلاث سنوات، اصيب ابو عمار بصدمة عنيفة غير انه حافظ على معنوياته، وخلال اتصال هاتفي قال لي: «اليوم اصبحتُ اقوى لقد تخلصت من نقطة ضعف». لكنه يجتاز بين الفينة والفينة ساعات وهن، عندما يتذكر انه قد جاوز الستين من العمر، وانه قد يرحل عن هذه الدنيا قبل ان يرى حلمه الفلسطيني قد تحقق.

قد تكون سنة ١٩٨٨ احلى سنوات النضال على قلبه رغم استشهاد ابو جهاد، رفيق «اول الرصاص واول الحجارة» كما قال فيه. في هذا العام اندلعت انتفاضة الارض المحتلة واعلن قيام دولة فلسطين. لقد اعادت الانتفاضة الصراع إلى اصله: نزاع فلسطيني ــ

اسرائيلي. واعلن دولة فلسطين وحسم الموضوع في اتجاه التعايش بين الدولة الفلسطينية ودولة اسرائيل. يبقى الاهم وهو ان الانتفاضة لا تدين لأي نفوذ عربي، وان دولة فلسطين لا تخضع لأي تبعية خارجية. خاض معركة القرار المستقل منذ البداية حتى نجح في ان يستقل في القرار بعد ربع قرن.

كم مرة اعلن المسؤولون الاميركيون والغربيون وظنّ او تمنى بعض المسؤولين العرب نهاية ابو عمار وانهيار منظمة التحرير. لكنه كسيزيف الاسطورة يحمل كل مرة صخرة القضية الفلسطينية على ظهره ويصعد الجبل، وما يكاد يصل إلى القمة حتى تتدحرج إلى القاع فيلتقطها مجدداً ويصعد. لولا الصبر لكان انتهى عام ١٩٧٠ بعد هزيمته امام الجيش الاردني، وفي عام ١٩٨٢ بعد اخراجه من بيروت بشروط الجيش الاسرائيلي، وفي عام ١٩٨٣ بعد طرده من البقاع وطرابلس من قبل الجيش السوري. تحمّل ضربات الاعداء ومكائد الاشقاء وانقسامات الرفاق. بصبره حافظ على وحدة المنظمة وروح المقاومة وصمد في معركة الوجود اليومية: ان يكون او لا يكون. انه الفنيق الفلسطيني.

يرضى بالممكن ويسعى دوماً إلى المستحيل. يتقبّل القليل مهما كان مجحفاً. ويستمر في التفتيش عن الكثير الذي تستحقه قضيته. مؤمن ان مجموعة خطوات صغيرة تشكل في محصلتها نقلة نوعية كبيرة. عندما يستحوذ على مساحة صغيرة من الارض يحوّلها تدريجياً إلى موقع كبير كما فعل في لبنان من خلال اتفاقية القاهرة. وكل مرة يحصل على مساعدة مالية محدودة، يستثمرها بعناية فتصير ثروة محترمة من موجودات وتوظيفات في انحاء العالم كافة. وحين يكسب حيزاً معيناً من الشرعية ينميها بتوءدة لتصبح سلطة مؤثرة، كما هي الحال داخل جامعة الدول العربية ومؤتمر عدم الانحياز والدول الاسلامية. واذا اقتنص فرصة سانحة، يبلورها مشروعاً هادفاً على غرار المراحل الصعبة والمعقدة التي سبقت اعلان دولة فلسطين. لا يكل ولا يمل، انه ايوب العرب.

يتابع الشؤون الدولية بتمعن ليكتشف اتجاه الرياح الدولية. يحرص على علاقة صداقة وتحالف مع الاتحاد السوفياتي. وقد رحّب بالتقارب الاميركي ــ السوفياتي في بداية عهد غورباتشوف، ورأى في الانفتاح بين موسكو واسرائيل سانحة لحل ازمة الشرق الاوسط. لكن الاعتدال السوفياتي ذهب إلى أبعد ممّا كان يتمناه ابو عمار. وانحسر دور الكرملين مع نهاية الحرب الباردة لصالح اميركا فاختل التوازن وتقلصت حظوظ الحل.

يولي الولايات المتحدة عناية خاصة، ويعترف ان حل قضيته لا يمكن ان يتم إلّا من خلال واشنطن. ويعرف في الوقت ذاته ان البيت الابيض خاضع للنفوذ الصهيوني. ولا

يوفر جهداً او طرفاً او فرصة كي يمد الخيوط والخطوط مع الادارة الاميركية. وقد علّق الكثير من الآمال على بدء الحوار الفلسطيني ــ الاميركي، الذي اطلقه رونالد ريغان قبل تركه البيت الابيض. وتمت سلسلة لقاءات في تونس، لم يسجل خلالها اي تقدم. وما لبث جورج بوش ان اوقف هذه الاتصالات، فأصيب ابو عمار بخيبة كبيرة. والواقع ان الادارات الاميركية المتعاقبة، من جونسون إلى بوش، لم تقدر على فهمه، ولو مرة واحدة. وهو يشعر ان واشنطن تسعى إلى تحميله جزءًا من خسارة صدام حسين، وتحاول ان تشطب منظمة التحرير من حل ازمة الشرق الاوسط.

يسعى إلى التقارب مع اوروبا والاقتراب منها، ويراها اقل التزاماً باسرائيل من الولايات المتحدة. وينكب على استنباط ما يؤثر فيها وكيفية الافادة منها. وينظر إلى فرنسا نظرة خاصة ويتعامل معها على اساس انها تشكل موقفاً متمايزاً عن اميركا؛ وكأنها المفتاح الاوروبي في الشرق الاوسط، والطريق القويم إلى واشنطن. ولا ينسى ولا يهمل دول عدم الانحياز ولا الدول الاسلامية، التي تشكل عوامل مساعدة لتأكيد حضوره الدولي.

لا يغيب الهم العربي عن باله ابداً. وترافقه هموم العرب في كل مكان وزمان. وهو دائم الجهوزية للتدخل لحل اية مشكلة تنشأ بين الاشقاء، لأن كل انشقاق عربي في نظره يضعف قضيته وموقعه. ويرى ان التضامن بين العرب مظلة ضرورية تقيه شر السلبيات وتوفر له الكثير من الايجابيات. وبظنه ان الانتماء العربي يجب ان يوحّد كل العرب ويشكل اطاراً لحل كل النزاعات الناشئة بين الدول العربية وان يجمع بين المسلمين والمسيحيين. ويهتم عرفات كثيراً برجال الدين المسيحيين ويحيطهم بعناية خاصة. ويصر على ان يكون المسجد الاقصى وكنيسة القيامة هما الرمز المطبوع على بطاقة الهوية الفلسطينية، التي اصدرها بعد اعلان دولة فلسطين بالرغم من اعتراض بعض الانظمة العربية على بروز الصليب على البطاقة. واثناء زيارته الفاتيكان عام ١٩٨٢، فاجأ البابا يوحنا بولس الثاني بقوله: «انا الفلسطيني الثاني». وعندما سأله البابا معنى هذه الاشارة، اجاب ابو عمار: «الفلسطيني الاول هو القديس بطرس، مؤسس الكنيسة الكاثوليكية، وقد بنيتم الفاتيكان فوق قبره».

يعرف كل اسرار العرب وكل قادتهم، ويحذرهم ويحذرونه، وله خبرة في كيفية التعامل معهم والضغط عليهم، خصوصاً على ملوك النفط وامرائه الذين يدفعون له الاموال لتجنب المشاكل معه اكثر من حرصهم على نجاح نضاله. ويبقى لبنان خطأه الذي لا يغتفر ومادة ندم تؤرقه، وموطىء قدم يتحسّر عليه ولم يجد عنه بديلاً. لقد وعى متأخراً انه حمّل

لبنان اكثر مما يحتمل، فانهار الوطن الصغير و لم تربح القضية الفلسطينية شيئاً بل على العكس فقدت الكثير من وهجها وزخمها. يكرر ابو عمار على مسمع محدثيه: «لن ينسى الفلسطينيون فضل لبنان. كما لم ينس الجزائريون فضل تونس، مع فارق ان لبنان عانى من الثورة الفلسطينية اكثر مما عانت تونس من الثورة الجزائرية». وكثيراً ما شدّه وخز الضمير، فعمل بكل قواه لايجاد حل لأزمة لبنان. ففي أحَدِ لقاءاته مع الملك السعودي فهد عام ١٩٨٨ قال له عرفات: «انا الفلسطيني الجريح، اتوجه إلى جلالتكم لتحولوا دون ان يصير لبنان فلسطين ثانية. يكفي الامة العربية فلسطين واحدة».

يتخوف غرائزياً من سوريا، ويميل طبيعياً إلى مصر، ويعتمد رئيسياً على العراق. فسوريا بالنسبة إليه وصاية يضيق ذرعاً بها. وعندما أجبرته دمشق على المقايضة بين المصالح والقرار المستقل فضّل التضحية بالمصالح لأن من لا يملك قراره لا يقيم له احد وزناً. ومصر هي ضمانة، وكثيراً ما يختلف معها ويبتعد، لكنه يبقيها دائماً كبوليصة تأمين لأوقات الحرج والضيق. والعراق هو الحماية. انه القوة العربية القادرة على التأثير والفعل وتبديل الموازين. وقد راهن عليه طويلاً اثناء حربه مع ايران وطوال المواجهة في حرب الخليج. و لم يتردد في الوقوف جهاراً إلى جانب العراق في معركته ضد الولايات المتحدة والغرب وبعض العرب، ثقة منه بالرئيس صدام حسين وتوجهاته الفلسطينية. وقد لامته اكثر من جهة على تورطه مع صدام حسين في مغامرة سياسية غير محسوبة. وهو لا يستهين بالتحديات التي سيواجهها من جراء دعمه للرئيس العراقي، ويدرك انه يسير في الوقت الراهن عكس مجرى السياسة، لكنه مؤمن انه يمشي في مجرى التاريخ. التقيته في تونس في ١٢ اذار ١٩٩١ وسمعته يحلل انعكاسات هزيمة حرب الخليج فيقول: «يمكن خسرت بعض المصداقية الدولية والعربية لكني بالتأكيد ربحت الشعب، وهذا يكفيني. شعبي هو روحي». صحيح، الشعب الفلسطيني روحه، وهو روح الشعب. لا يفوته الجوهر، ويدرك انه في مواجهة مفتوحة وحتمية مع اسرائيل واميركا: الاولى هي الخطيئة والثانية هي الخاطئة. الولايات المتحدة في نظره هي روما العصر الحديث. وكل حاكم اميركي قد استهدف منظمة التحرير وحاول القضاء عليها، من هنري كيسنجر إلى جورج بوش. خيار ياسر عرفات ان يقاوم مع المحرومين والمقهورين الامبراطورية الاميركية الزاحفة وحليفتها المستقوية اسرائيل. قدر غير عادي بحجم قضية غير عادية. انه داود الفلسطيني في مواجهة غوليات الاسرائيلي. انه سبارتاكوس القرن العشرين.

الفصل الخامس

الشرقية على خط الزلازل

يكشف تاريخ الموارنة حقيقة مرة تفيد بأنهم اشدّاء في الحرب وضعفاء في السلم وانهم كثيراً ما يربحون وقليلاً ما يعرفون استثمار ربحهم. وعقدة الموارنة هي ان مفهومهم للاستقلال اللبناني حاد إلى درجة انهم ينظرون إلى لبنان وكأنه كيان قائم بحدّ ذاته لا تأثير للجغرافية فيه ولا للمتغيرات. ويصح في هذا المعنى القول فيهم انهم «انعزاليون» فهم يكرهون التبعية ولا يخضعون لأي غريب.

يتعبون الخصم بشراستهم ويتعبون الحليف بمزاجيتهم، فيتحوّلون مشكلة دائمة لا يرضيهم شيء ولا يرضون عن احد. حريصون على الدفاع عن بعضهم بعضاً تجاه غير الماروني لكنهم عندما يصبحون مع بعضهم بعضاً يتقاتلون. من الصعب على غير الماروني ان يفهم الموارنة او ان يتعاطى معهم. واذا قبلوا به يدّعون انهم «مورنوه». ولكوني غير ماروني، وقد انتميت إلى القوات اللبنانية وحزب الكتائب وجمهورهما الاساسي ماروني، وإلى الجبهة اللبنانية وعمودها الفقري شخصيات مارونية، فإني عاينتهم عن كثب وعانيت منهم الكثير.

يعشق الماروني الارض ولو حجراً ويباساً. ويحب الجبل ولو صخراً لا يطعم صاحبه. وبين القيادات المارونية قصة خلاف لا تنتهي. وهذا الخلاف كثيراً ما قسّم اللبنانيين موارنة وغير موارنة إلى درجة ان «المارونية السياسية» بصراعاتها وتوجهاتها اصبحت مفهوماً يتخطى حدود الطائفة ويرتبط بموازين قوى داخل الوطن وفي علاقاته بالمحيط.

والتقاتل الماروني ليس ظاهرة جديدة. فمن قراءة تاريخ هذه الطائفة يتبيّن انه كلما تصادم زعيمان قويان قسما المنطقة المارونية إلى منطقتي نفوذ. وكلما صار التعايش بين منطقتي النفوذ مستحيلاً يحاول احدهما الغاء الآخر. وعندما يستحيل الانتصار يفضّل

الزعماء الموارنة الاقوياء ان يحكمهم رجل ثالث، ولو كان غير ماروني، بدل ان يتفاهموا او ان يتساهل الواحد مع الآخر، وهذا ما يشير إليه الاب ميشال عويط في كتابه «الموارنة» فيذكر ان الخصومات اشتدت في ما بينهم إلى درجة انهم اسندوا منطقة بشري المارونية عام ١٦٥٥ إلى مقدّم شيعي، الشيخ احمد عيادة، على ان يتنازل احدهم للآخر. وخلافاً للاعتقاد السائد، يبدو البطاركة الموارنة عاجزين في أكثر الاحيان عن توحيد الطائفة ووقف الاقتتال، فيكتفون بالنصائح والوعظ والتحسّر. وتتسم الانقسامات المارونية بالطابع السياسي حيناً والعسكري حيناً آخر، وتظهر مراحل الوحدة والتضامن قصيرة.

منذ الاستقلال عام ١٩٤٣ وحتّى بداية الحرب عام ١٩٧٥، كانت سمة الخلافات المارونية ــ المارونية سياسية. وكانت التحالفات تُعقد او تنفرط على ابواب انتخابات رئاسة الجمهورية او فور انتهائها، وكانت اللعبة محض سياسية. غير ان الحرب ابتدأت تعسكر الموارنة. واخذت «المارونية التقليدية» التي كانت تتزعمها شخصيات او كتل كبشارة الخوري وفؤاد شهاب وريمون اده تنتقل إلى «المارونية الحزبية» التي يديرها رؤساء الاحزاب ككميل شمعون وبيار الجميل، وما لبثت ان تحوّلت إلى «المارونية العسكرية» التي تزعّمها الجيل المقاتل كبشير الجميل وميشال عون وسمير جعجع. هكذا انتقلت زعامة الموارنة من البطاركة المدنيين إلى القادة الذين جاؤوا إلى السياسة من العسكر وباسم التغيير والتجديد.

اسفر التبدّل النوعي في القيادة المارونية عن تبدّل نوعي في التعامل. وانتقل العنف الذي عمّ لبنان إلى داخل الطائفة المارونية، وتغيّر الطابع الماروني في رئاسة الجمهورية. فمن بشارة الخوري عام ١٩٤٣ إلى شارل حلو عام ١٩٧٠، كانت رئاسة الجمهورية تعود لاكثر المعتدلين سياسياً ولاقل الملتزمين حزبياً. ومع الرئيس فرنجية عام ١٩٧٠ وصل الرئيس «المتشدد» قياساً على منافسه «المعتدل» الياس سركيس. وعندما عاد الياس سركيس فتبوأ سدّة الرئاسة عام ١٩٧٦ بدا وكأن مسار المارونية السياسية قد عاد إلى نهج الاعتدال على حساب نزعة التشدد. لكن وصول بشير الجميل عام ١٩٨٢ ومن بعده امين الجميل كان بمثابة انقلاب في المعادلة المارونية، اذ وصل رئيسان شابان خارجان من جبهات القتال وينتميان إلى حزب متشدد.

وما ينطبق على الحروب بين المسيحيين ينطبق على الحروب بين الطوائف الاسلامية وداخلها. وما حدث لكبرى الطوائف المسيحية اي الموارنة حصل لكبرى الطوائف الاسلامية أي الشيعة. فقد اندلع القتال بين حركة أمل الشيعية و«المرابطون» التنظيم السنّي، ثم بين أمل والحزب التقدمي الاشتراكي ذي الطابع الدرزي، واخيراً بين «أمل» الشيعية

و«حزب الله» الشيعي أيضاً. وهكذا يتضح ان مفهوم التعايش كل لا يتجزأ. فعندما لا يقدر ان يتعايش المسلم والمسيحي فانه لا يعود بالامكان ان يتعايش المسيحي والمسيحي الآخر ولا المسلم والمسلم الآخر. كما تبين ان الطائفة مهما عظمت لا تحلّ محل الوطن وان الميليشيات مهما تنظمت لا تحلّ محل الدولة. فالكل دفع ثمن انهيار الشرعية وتبعثر الجمهورية. غريبة العلاقة الجدلية التي تربط الطوائف اللبنانية الرئيسية بعضها ببعض. فكلما فقدت واحدة منها الوزن والاتزان يفقد لبنان استقراره ويهتز استقلاله. ان سقوط نموذج التعايش اللبناني هو بداية لعنة الوطن والتجارب القاسية.

هزت الطائفة المارونية منذ عام ١٩٧٥ خمس خضات. الاولى عملية اهدن في ١٣ حزيران (يونيو) ١٩٧٨ التي اودت بحياة النائب طوني سليمان فرنجية وسببت اول انقسام دموي بين موارنة الشرقية وموارنة الشمال. والتجربة الثانية هي عملية الصفرا في ٧ تموز (يوليو) ١٩٨٠ والتي ادت إلى تصفية التنظيم العسكري لحزب الوطنيين الاحرار على يد حزب الكتائب، وتحوّل الانقسام من انقسام بين منطقتين إلى انقسام بين حزبين داخل المنطقة الواحدة. والعملية الثالثة هي انتفاضة ١٢ آذار (مارس) ١٩٨٥ حين خرجت مجموعة من القوات اللبنانية على قيادتها وعلى القيادة الكتائبية فانتقل النزاع من صراع بين حزبين في منطقة واحدة إلى صراع داخل الحزب الواحد وداخل المنطقة الواحدة. والعملية الرابعة هي حركة ١٥ كانون الثاني (يناير) ١٩٨٦ حين انتقل الانقسام إلى داخل قيادة القوات اللبنانية وتحديداً بين سمير جعجع وايلي حبيقة. وانفجرت العملية الخامسة الاكبر والاعنف والاخطر، بين القوات اللبنانية بقيادة سمير جعجع والجيش اللبناني بقيادة ميشال عون في ٣١ كانون الثاني (يناير) ١٩٩٠، فانقسمت الشرقية شرقيتين وعرفت بـ «حرب الشرقية».

واذا كان ما يجمع بين هذه الخضات الخمس احتكام الموارنة إلى السلاح فمن قراءة اهدافها يسهل ادراجها في فئتين: الأولى صراع على السلطة والقرار داخل الطائفة المارونية كما حصل في اهدن والصفرا، والثانية صراع بين الموارنة حول موقع الطائفة في مشاريع ذات بعد اقليمي كما حصل في انتفاضة ١٢ آذار (مارس) وحركة ١٥ كانون الثاني (يناير). اما «حرب الشرقية» فهي مزيج من الاثنين معاً وتختزل مجمل الحروب السابقة.

شكّ مزمن وتحالف مرحلي

العلاقة بين ميشال عون وسمير جعجع غريبة. عندما كان ميشال عون قائداً لأحد الوية الدفاع في الجيش اللبناني وكان سمير جعجع قائداً لمنطقة الشمال في القوات، في نهاية السبعينات، كانا في تواصل. وعندما عُيّن ميشال عون قائداً للجيش وصار بعدها سمير جعجع رئيساً لهيئة الاركان في القوات بقيا على اتصال.

واول سوء تفاهم بين الرجلين حصل يوم ١٥ كانون الثاني (يناير) ١٩٨٦ عندما اصرّ ميشال عون على اخراج ايلي حبيقة من الكرنتينا بناءً على طلب العماد حكمت الشهابي رئيس اركان الجيش السوري، ففهم سمير هذا الموقف كمحاولة لانقاذ حبيقة بحجة سورية. وبرّر ميشال عون موقفه بأنه فضّل اخراج حبيقة من الشرقية على دخول الجيش السوري إليها. وسوء التفاهم هذا برّد العلاقة بين الرجلين لكنه لم يمس جوهرها.

وحصل سوء التفاهم الثاني عندما قام ايلي حبيقة باختراق الاشرفية في ٢٧ أيلول (سبتمبر) ١٩٨٦، وتصدّى له سمير جعجع فوراً وسرعان ما تدخّل الجيش بقيادة عون لدفع المهاجمين إلى خارج الشرقية. وكان من المفروض بهذه العملية المشتركة ان تعزز العلاقة بين الرجلين. لكن للاقدار احكاماً تتعدى توقعات البشر. ففي اليوم الثاني وقع اشتباك فردي بين عناصر من الجيش واخرى من القوات في محلة المونتيفردي ادّى إلى مقتل ضابطين من القوات، وتبعه في اليوم التالي مقتل العميد خليل كنعان قائد اللواء الخامس في الجيش اللبناني. واتهم عون القوات باغتيال هذا الضابط الكبير الذي كان مع رتبته العسكرية العالية صديقاً حميماً للجنرال.

هكذا بدأت القطيعة بين عون وجعجع. وعلى مدى عامين لم تحدث مصالحة ولا مصافحة على رغم المحاولات المتعددة للجمع بين الرجلين. وكبر حجم القطيعة عندما بدأت سلسلة تحالفات وتحالفات مضادة داخل الشرقية، بين امين الجميل كرئيس للجمهورية وميشال عون كقائد للجيش، وسمير جعجع كقائد للقوات. وكان امين في تنافس مع قائد الجيش وقائد الجيش في تنافس مع قائد القوات الذي كان في تنافس مع الاثنين.

كانت الحركة صعبة داخل هذا المثلث الصعب. كلما تقارب اثنان شعر الثالث ان

تقاربهما موجّه ضدّه. ومع اقتراب انتخابات رئاسة الجمهورية اشتدّ الغليان داخل هذا المثلث. وكاد الصدام ان يقع في بداية أيار (مايو) ١٩٨٨، عندما قام عون بنشر بعض مجموعاته العسكرية بحجة مراقبة السيارات المفخخة والمخالفة للقوانين، فعدّت القوات الانتشار محاولة للامساك بقرار الشرقية. فما كان من سمير الا ان اعطى اوامره بنشر وحدات الدفاع الشعبي التابعة للقوات. وانصبت اتصالات التهدئة من كل جانب وكان ابرزها ما قام به الرئيس الجميل والسفير الاميركي جون كيلي الذي التقاه جوزف ابو شرف بطلب من سمير جعجع، كما التقى الجنرال عون للغاية نفسها. واسفرت هذه المساعي عن اجراء اتفاق جرى بموجبه سحب كل مجموعات الجيش والقوات إلى ثكنها.

هذه العلاقة المتوترة حملت امين الجميل وسمير جعجع على وضع فيتو على اسم عون كمرشح محتمل لانتخابات رئاسة الجمهورية في صيف ١٩٨٨، مما زاد في التوتر. غير ان الكل كان يحرص على ألّا يتحوّل الصراع السياسي إلى مواجهة عسكرية. فكلما شعر احدهما انه اقترب من الخط الاحمر كان يتراجع حفاظاً على القوة المسيحية المتنامية في الشرقية. وكبر التقارب بين عون وجعجع عندما التقت مواقفهما على تعطيل جلسة انتخاب رئيس الجمهورية في ١٨ آب (اغسطس) ١٩٨٨ لمنع سليمان فرنجية، المرشح الوحيد، من الوصول. وتحسنت العلاقات اكثر عندما اتخذ عون وجعجع موقفاً علنياً واحداً لجهة رفض اتفاق مورفي — الاسد والذي قضى بفرض النائب مخايل الضاهر مرشحاً وحيداً لرئاسة الجمهورية.

والتقى الرجلان وجهاً لوجه في اليوم الذي زار فيه الرئيس امين الجميل دمشق، في ٢١ ايلول (سبتمبر) ١٩٨٨، وقد اتفقا على معارضة نتائج هذه الزيارة التي لم يوافقا عليها. وبدا الرجلان في تحالف متين عندما وافق جعجع على تولّي عون رئاسة الحكومة الانتقالية في الدقائق الاخيرة من عهد الجميل ووصفها بأنها «حكومة استقلال واكثر».

وقامت في البلاد حكومتان متصارعتان: حكومة دستورية يرئسها ميشال عون تمارس سلطتها الفعلية على المناطق المسيحية، وحكومة امر واقع يرئسها سليم الحص تشرف على المناطق الخاضعة للنفوذ السوري.

وتفاوتت ردات الفعل بين معارض ومؤيّد ومحايد. مجمل دول العالم بقيت تتعامل مع الحكومتين. سوريا قاطعت حكومة عون وأيدت حكومة الحص. والعراق قاطع حكومة الحص وأيّد حكومة عون. واتخذ الزعيم الليبي معمر القذافي موقفاً ملفتاً ومميزاً وقال: «ميشال عون ليس اسرائيلياً ولا اميركياً ولا فرنسياً، انه عربي لبناني حلّ محل رئيس

الجمهورية بمرسوم. ولو افترضنا ان لديه القوة وقام بانقلاب فمن الذي احتج على قائد عربي قام بانقلاب عسكري؟».

لم يعمّر شهر العسل بين الجنرال وقائد القوات طويلاً، اذ عطلته المداخلات والشكوك. وافق ميشال عون على مبدأ توسيع الحكومة لتضم سمير جعجع، واتفقا على الاعلان عنه يوم ٢٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٨ الذي يصادف ذكرى الاستقلال بحيث تتم المشاركة في القرار بين الجيش والقوات وتتحصن الشرقية سياسياً وعسكرياً.

فجأة تحركت الديبلوماسية الاميركية في محاولة لاجراء انتخابات رئاسة الجمهورية. واقنع رفيق الحريري البطريرك الماروني نصر الله صفير ان يرسل لائحة بأربعة مرشحين او خمسة إلى واشنطن علّها تستطيع الحصول على موافقة دمشق على احدهم. وأيّد جعجع المبادرة وعارضها عون الذي اعلن بمناسبة عيد الاستقلال انه لا يوافق على انتخاب «الرئيس ـ الرهينة»، وانه يعطي الاولوية لـ «التحرير قبل الانتخاب». وافهم كل الذين راجعوه لاحقاً انه غير مرشح ولا يوافق على ادراج اسمه في اللائحة المنوي ارسالها إلى دمشق. وافترقت الحسابات بين عون وجعجع. وعلّق الجنرال فكرة توسيع الحكومة. وجمع البطريرك النواب المسيحيين وطلب منهم ان يقترحوا عليه، كل بمفرده وبشكل سرّي، لائحة المرشحين. وتصلّبت دمشق، وتمسكت باتفاق مورفي ـ الاسد، ولم تتم فصول عملية الانتخاب كما كان متوقعاً. وساد جو من الشك بين الجيش والقوات. عون يرى ان سمير جعجع يريد التخلص منه سياسياً عن طريق انتخاب رئيس جديد يحلّ محله، وجعجع يرى ان ميشال عون يريد الاستئثار بالسلطة من دون شريك او مراقب.

في ٢٨ تشرين الثاني (نوفمبر) توفي تقي الدين الصلح وهو أحد آخر رموز الاستقلال والميثاق الوطني. وتملكني احساس بأن موت الصلح ينبىء بموت «جمهورية ١٩٤٣». كما انتابني شعور بخطورة استمرار الفراغ في سدّة رئاسة الجمهورية واقلقتني ملامح طلاق ترتسم بين الجيش والقوات، ورأيت نفسي عاجزاً عن الاستمرار في الدور التوفيقي الذي انتهجته منذ بدء حياتي السياسية، بسبب برودة طارئة مع سمير، وخلاف مستحكم مع الجنرال، فقررت التخلي التدريجي والصامت عن مسؤولياتي، ورحت اراقب الاحداث المندفعة في اتجاه ينذر بتدمير ما استلزم بناؤه سنوات طويلة.

في ١٢ كانون الثاني (يناير)١٩٨٩ اتخذ وزراء الخارجية العرب، المجتمعون في دورة غير عادية لدرس الازمة اللبنانية، قراراً بتأليف «لجنة سداسية» بغية المساعدة في جمع اللبنانيين حول حل مرضٍ. وترأست الكويت هذه اللجنة التي ضمتها بالاضافة إلى ممثلين

عن الجزائر وتونس والاردن والامارات العربية المتحدة وجامعة الدول العربية. وعقدت هذه اللجنة في نهاية كانون الثاني (يناير) لقاءات مع ميشال عون وسليم الحص وحسين الحسيني في تونس. رأى عون ان اولوية الحل تتمثل ببرمجة انسحاب الجيوش الاسرائيلية والسورية والمنظمات غير اللبنانية، وطالب الحص والحسيني بضرورة اقرار الاصلاح الدستوري. تصرف عون بكثير من الحرية لأنه كان يملك قراره وتصرف الحص والحسيني بكثير من التردد بسبب ارتباطهما الوثيق بسوريا. وقد ظهر هذا الامر جلياً عندما اقام الشيخ صباح الاحمد الصباح، وزير الخارجية الكويتية ورئيس اللجنة السداسية، مأدبة للمشاركين في لقاءات تونس. وتملّك الحص والحسيني حالة من الارباك حول تلبية هذه الدعوة وبالتالي الاجتماع المباشر مع عون في حين كانت دمشق ما تزال مصرّة على مقاطعته. واتصل الحص والحسيني يجسان نبض عبد الحليم خدام، الذي تضايق كثيراً لأنه كان لا يريد ان يظهر بمظهر الذي يملي مشيئته على المسؤولين اللبنانيين، وأقفل الخط قبل ان يعطي جواباً. وعاودا الاتصال به خلال فترة فأبقى المسؤول السوري الخط مشغولاً بصورة دائمة. وعندما استحال الاتصال قررا عدم تلبية الدعوة وكان تعليق السفير الفرنسي بول بلان على ما جرى: «انها سابقة جديدة في تاريخ الديبلوماسية، انها سياسة الخطوط المشغولة، لا الخطوط المقفلة ولا الخطوط المفتوحة».

يوم الاحد في ٥ شباط (فبراير) ١٩٨٩ دعاني السفير بلان إلى عشاء على شرف جان فرنسوا دونيو، موفد الحكومة الفرنسية إلى لبنان. وقد ضمّ هذا العشاء مجموعة من الشخصيات اللبنانية، وفي طليعتها رئيس الحكومة العماد ميشال عون. وطلب السفير الفرنسي من ميشال عون ان يطلعنا على ما جرى معه في تونس. وردّ الجنرال بكثير من الدقة والايجاز. ولاحظ بادىء ذي بدء ان الاجتماعات العربية تراءت له جدية في الشكل، بدليل ان كل وزير عربي اصطحب معه مستشاراً مختصاً بالشؤون اللبنانية. كما شرح لنا انه حمل معه ملفاً يحوي كل مراحل الازمة اللبنانية وقدّم «مرافعة تاريخية» حسب تعبيره عن حرب لبنان، اسبابها، والنتائج والحلول. واستعان بخريطة ملونة تحدد ساحة انتشار الجيشين الاسرائيلي والسوري والمنظمات الفلسطينية والايرانية ومختلف الميليشيات اللبنانية. وأظهرت الخريطة للّجنة السداسية بشكل حاسم «ان الكل متواجدون في لبنان الاّ الجيش اللبناني والشعب اللبناني».

وتطرق عون إلى ثلاثة مواضيع بحثها مع اللجنة العربية في الكويت: الغاء الطائفية السياسية وصلاحيات رئيس الجمهورية ونشر الجيش اللبناني في بيروت الادارية. حول

الموضوع الاول طالب عون بالعلمنة الكاملة وقال: «اما أن نلغي كل الطائفية واما أن ننظم كل الطائفية. ولكن لا مجال للقبول بالغائها في مضمار وابقائها في مضامير اخرى». حول ضرورة تقليص صلاحيات رئيس الجمهورية سأله رئيس اللجنة: «كيف يمكن ان يكون رئيس الجمهورية حاكماً وغير مسؤول دستورياً؟» اجابه عون: «ابقوا على صلاحيات رئيس الجمهورية واجعلوه مسؤولاً عن كل اعماله ويمكن محاسبته امام هيئة قضائية عليا لمحاكمة الرؤساء». ورفض عون حصر انتشار الجيش اللبناني في بيروت الادارية، وطالب بإقامة بيروت الكبرى التي تضم مطار خلده الواقع تحت السيطرة السورية بغية بسط السلطة اللبنانية عليه.

وعرّج عون على موضوع لقائه المفاجيء مع عرفات في تونس. فأخبرنا ان حسين الحسيني وسليم الحص رفضا الاجتماع بالقائد الفلسطيني تضامناً مع الموقف السوري المقاطع. اما هو فقد التقاه في منزل السفير اللبناني في تونس. وقال له أبو عمار: «اعتبر ان البندقية الفلسطينية هي في تصرفك في لبنان». واجابه العماد على الفور: «انا موافق. لكن لا تنس يا أبو عمار اني رجل عسكري وافهم الكلام بحرفيته». وطرح الحاضرون مدى جدية كلام عرفات، فتحاشى عون الجواب ونظر إليّ وقال لهم: «اسألوا كريم؛ انهما صديقان».

وسأله السفير الفرنسي هل طرحت عليه اللجنة العربية مواضيع احرجته، اجاب عون: «لا شيء يحرجني لأني حر وعادل. اقتنع بكل ما هو معقول وارفض كل ما هو غير مقبول. لاول مرة استمع العرب إلى كل الحقائق عن لبنان من مسؤول رسمي بلا عقد ومن دون مسايرة. كنت في تونس اقبل بلا تردد ما اراه حقاً وارفض بلا تخوف ما أعده خطأً». واخبرنا انه عندما تطرق في عرضه إلى الوجود العسكري السوري حاول بعض اعضاء اللجنة السداسية ان يطلبوا منه اختصار الحديث مراعاة للجانب السوري فقال لهم: «من واجبي ان اردّ على كل اسئلتكم ومن واجبكم الاستماع إلى كل اجوبتي».

وتوقف ميشال عون للحظات وبدّل في لهجته وكأنه يريد ان يفهمنا ان كلامه الآتي هو الاهم والاساس فقال وهو يعني كل كلمة: «لقد بدأت مسيرة التحرير. سنربح الجولة. التحرير بالنسبة لي شيء محقق». ثم حدّق بالحاضرين متسائلاً: «هل تعرفون حالة تاريخية واحدة برزت فيها مقاومة تطالب بالاستقلال وخسرت قضيتها؟ لقد بدأنا المقاومة واننا لمنتصرون حتماً».

نظرت إلى وجوه الجالسين حول الطاولة فرأيت الاندهاش بادياً عليهم. كان شارل

حلو يومىء بيديه، وفؤاد بطرس يحك رأسه والكل يتبادل النظرات والهمسات. كلام الجنرال الذي سمعوه بهذا الوضوح فاجأهم واربكهم. في هذه الليلة وفي السفارة الفرنسية كشف عون عن نيته في اعلان «حرب التحرير». وسينفذ هذا القرار بعد خمسة اسابيع فقط.

كان اكثر المتحمسين لفكرة التحرير هو جان — فرنسوا دونيو وتذكّر سابقة الافغانستان التي يعرفها تمام المعرفة. واكد ان المقاومة الافغانية لم يكن لديها في البداية اي دعم خارجي في مواجهة جيش الاتحاد السوفياتي، كانت لديها الارادة فقط. وروى انه لم يكن الافغان في معاركهم الاولى يملكون لمواجهة القوة العظمى سوى اسلحة عتيقة يعود عمرها إلى الحرب العالمية الثانية. ويلاحظ الموفد الفرنسي ان الصين كانت اول من ساعد المقاومة الافغانية ارباكاً للسوفيات، وكأنه كان يلمح إلى ان العراق ممكن ان يفعل الشيء نفسه. واطلعنا ان جماعة ليونيد بريجنيف كانت تردد في البداية: «بعد فترة قصيرة لن يسمع احد بالمقاومة الافغانية». وخلافاً للتوقعات، وبعد عشر سنوات كانت جماعة ميخائيل غورباتشوف تعترف: «انها اكبر غلطة ارتكبها بريجنيف». وانهى دونيو كلامه قائلاً: «لقد اجبرت المقاومة الافغانية الجيش الاحمر، للمرة الأولى، على الانسحاب وبالقوة من بلد مجاور للاتحاد السوفياتي».

كان دونيو يتكلم بحرارة الديغوليين المقاومين، وكان لوقع كلامه كبير التأثير، وبدا اقرب إلى المتصوفين منه إلى السياسيين. كان مريضاً ويهمه امر واحد: ان يساعد لبنان في محنته. وخرجت من السفارة الفرنسية مقتنعاً بأن الجنرال سمع الكثير من الكلام في تونس لكنه لا يتوقع إلا القليل من الافعال وهو يحضّر لقلب الطاولة وخلط الأوراق.

لم يكن خطاب سمير جعجع السياسي في تلك المرحلة مختلفاً. كان يكرر في اجتماعات مجلس قيادة القوات ان انتخاب رئيس جديد للجمهورية لا يجنب الانهيار الاقتصادي ولا يحلّ الخلاف الناشيء مع سوريا. ويضيف: «لن يتساهل حافظ الاسد في موضوع لبنان خصوصاً بعد ان فقد الورقة الفلسطينية وورقة الخليج. ونحن لن نتساهل بحقوقنا ولن نقدّم التنازلات. المواجهة إذاً واقعة. مجتمعنا معبأ سياسياً. السلاح متوفر، وقد اغدق العراق على الجيش والقوات من الاعتدة ما يسمح لنا بخوض معركة متكافئة. افضّل ان تقع المواجهة اليوم مع سوء حالتنا على ان تقع غداً لأن حالتنا قد تكون اسوأ».

لكن الشكوك كانت تنتاب سمير بين الفينة والفينة فينتقد ميشال عون كما فعل في اجتماع

مجلس قيادة القوات اللبنانية في ٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٨: «نحن نفخر بالجنرال ونتحمل الانهيارات الاقتصادية والاجتماعية بسبب مواقفه من سوريا. اما ان يتصرف هو وكأننا «طاعون» او «مكسر عصا» فهذا لن نقبل به. لولانا لما عُيِّن رئيساً للحكومة. ومن دوننا لا يستطيع ان يستمر. لا استبعد بعد اليوم أن يأخذ كل واحد منا المنحى الذي يراه مناسباً لأننا قد نقترب من مفترق طرق».

ولم يطل الوقت حتى وصلت الشرقية إلى مفترق الطرق. يوم ١٤ شباط (فبراير) ١٩٨٩ تحوّل اشتباك محدود بين الجيش والقوات إلى معركة شاملة. وكان سمير غائباً عن لبنان. وعند وصوله كانت المعارك قد توسعت واشتدت ووصل الاستنفار إلى حدّه الاقصى في كل الوحدات والثكن. سارع سمير إلى وقف القتال والانصياع، ولو ظاهرياً، لارادة الجنرال عون الذي اشترط وقف القوات للجبايات المالية وتسليم الحوض الخامس من مرفأ بيروت إلى الشرعية، والامتناع عن ممارسة اي مهام من مهمات السلطة. واطلق شعاره المعروف: «لا للدويلة ونعم للدولة».

وافق سمير على مضض، رغبة منه في تحاشي الصدام الكبير. وتدخلت القيادة العراقية لدى ميشال عون تطلب منه بالحاح وضع حدّ للمجابهة. كما تدخلت بكركي والنواب لوقف المعارك. وبذل جورج عدوان، رئيس حزب التنظيم وامين عام القوات اللبنانية، جهداً كبيراً لرأب الصدع، مستفيداً من موقعه في القوات ومن صداقته مع العماد عون والعديد من ضباط الجيش واسفرت مساعيه عن تأليف «لجنة تنسيق وعمل مشترك» ضمت من جانب الجيش مدير عام العمليات جان فرح، ومدير المخابرات عامر شهاب، ورئيس الامن العسكري فؤاد الاشقر. كما ضمت من القوات: جورج عدوان وروجيه ديب، امين عام الشؤون الداخلية، وتوفيق الهندي مستشار قائد القوات.

وبالفعل توقفت المعارك لكن لم تتوقف التحضيرات. ودخلت الشرقية في الحسابات الصعبة والمعقدة. وبدا لي ان التعايش بين الرجلين قد اهتز وشارف على السقوط. وهالني الوضع خصوصاً وانّي اعرف مدى حساسية هذا الموضوع، فقد امضيت اكثر من خمسين في المئة من وقتي خلال السنوات الثلاث الماضية ما بين عام ١٩٨٥ وعام ١٩٨٨ اعالج الخلافات الكثيرة بين امين الجميل وسمير جعجع وميشال عون. وخفت ان يسقط الخط الاحمر القائم بين الجيش والقوات وان يقدم احد الاطراف على تخطيه.

كانت حسرتي كبيرة. بئس الوضع وضعٌ يضطر فيه الانسان إلى ان يلجأ إلى اصدقاء بعيدين لمنع صراع الاخوة القريبين. ووجهت سلسلة رسائل خاصة وسرية، في ٢٠ شباط

(فبراير) ١٩٨٩، إلى عدد من القادة والمسؤولين العرب الاصدقاء، ومنهم الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات، والاستاذ طارق عزيز وزير الخارجية العراقي، الفت نظرهم فيها إلى خطورة ما يجري في الشرقية. وقصدت ان يكون عرضي غاية في الموضوعية. ولم اخف توقعاتي حول الكارثة التي ستقع في حال اندلعت معارك الشرقية مجدداً، فكتبت ما حرفيته: «تعمدت الصمت والانكفاء لاسباب تعرفونها وجاءت الاحداث لتثبت صحة مخاوفي. ومهما يكن فإني ما تعودت الاحجام في المنعطفات المصيرية. وبالنظر إلى الروابط الخاصة التي تجمعنا رأيت ان اعرض لكم تحليلاً مفصلاً وصريحاً عن الوضع المستجد في الشرقية بعد صدامات ١٤ شباط (فبراير) ١٩٨٩ بين الجيش اللبناني والقوات اللبنانية.

لقد اسقطت هذه الصدامات استراتيجية بنيناها بصبر وصعوبة، خلال السنوات الثلاث الماضية، وقائمة على قاعدتين: الوحدة السياسية بين الشرعية والقوات من جهة، والتنسيق العسكري بين الجيش والقوات من جهة ثانية. لقد افسحت هذه الاستراتيجية المجال لتوفير الفرص والقدرات لحلّ مشكلة لبنان على اساس القرار الوطني المستقل. هذه الاستراتيجية مهددة اليوم في الصميم بسبب هذه الصدامات والنتائج المتوقعة لها...»

وصفت الوضع القائم بأنه «نصف انتصار» للجيش و«نصف خسارة» للقوات. وتصورت مسلسل الاحداث الآتية وحذّرت من الانفجار القادم وأضفت في رسائلي: «اصبحت الشرقية شرقيتين... وقامت خطوط تماس داخلية وحصل الانشطار الاكراهي. فالمواطن قلق إلى درجة اليأس والتعاسة، ويحمّل القوات والجيش معاً مسؤولية الدمار والدماء ولا يبرىء احداً. ان الشرقية تعيش وكأنها بركان قابل للانفجار في أي وقت... الجرح عميق والنوايا المبيتة اعمق. وسيكون من الصعوبة بمكان تصحيح العلاقة الشخصية بين ميشال عون وسمير جعجع وكأن تحالفهما قد سقط نهائياً وعلاقتهما وصلت إلى نقطة اللارجوع. كل واحد يشكك بالآخر ويتهمه بالباطنية... اتخوف من انهما سيندفعان في معركة عسكرية عاجلاً ام آجلاً مع ما تعنيه من نتائج مدمرة وطابع انتحاري...»

وانهيت هذه الرسائل: «ارى في الخلاصة ان الهوة بين الشخصين والمؤسستين قد اضحت كبيرة وعميقة. والوحدة التي استطعنا الحفاظ عليها طول عهد امين الجميل لم تدم اكثر من اربعة اشهر. العماد عون مصرّ وبشكل قاطع. والدكتور جعجع مصرّ وبشكل قاطع. والصدام بينهما هو الارجح دون رادع او مصلح، والوطن على شفير التجربة الكبرى. لا اخاف على الجيش او على القوات، فكلاهما ادوات في نظري، بل اخاف على الوطن وهو في النتيجة الغاية الاخيرة. ارى ضرورة التحرك السريع لمنع الصدام

وايجاد الضوابط والمعالجات، وهي كثيرة وممكنة، فنحدد التكامل في الادوار والمهمات بدل التصادم... اما الحلول والمعالجات الشاملة فتقوم على ثلاثة توجهات: انتخاب رئيس للجمهورية، وتأليف حكومة اتحاد وطني، واقرار برمجة الاصلاحات والانسحابات. وما تبقى هو صراع عبثي دون افق».

حرب التحرير

في أواخر شباط (فبراير) ١٩٨٩ سلّمت القوات اللبنانية الحوض الخامس في مرفأ بيروت إلى الجيش اللبناني. وفي ٦ آذار (مارس) أصدر ميشال عون قراراً بمنع كل السفن من التوجه إلى المرافىء غير الشرعية وطلب من سلاح البحرية في الجيش اللبناني تنفيذ هذا القرار.

لم توافق حكومة سليم الحص على تدابير حكومة ميشال عون وأتهمتها بحصار المناطق الاسلامية وأغلقت طريق مرفأ بيروت. فردّ عون بإغلاق المطار. وتدهورت الأوضاع العسكرية على جبهات بيروت وسوق الغرب. وبدأ عون حملة على سوريا وأتهمها بعرقلة أعمال اللجنة العربية كي تستأثر بالموضوع اللبناني. واشار إلى ان دمشق تريد الابقاء على المرافىء غير الشرعية التي تشكل «الخط السوري السري لتصدير الارهاب وتهريب المخدرات والسلاح إلى العالم». في ١٤ آذار (مارس) ١٩٨٩ أعلن ميشال عون بدء «حرب التحرير». وانصبت حمم القصف المدفعي والصاروخي على كل الشوارع والمناطق. ووجّه الجنرال في ٢٠ آذار (مارس) رسالة خطية إلى الرئيس السوري يطلب منه فيها سحب جيشه فوراً من لبنان. وصرّح انه سيتخذ كل الاجراءات اللازمة بهذا الشأن. وحرّض المناطق الاسلامية على الانتفاض في وجه دمشق على غرار «انتفاضة الحجارة» في فلسطين. وردّت سوريا بحصار بحري وبري على المناطق اللبنانية واشتعل لبنان.

انتقد سمير امامي خطة عون السياسية والعسكرية. ورأى ان الجنرال يخوض معركة كبيرة دون تحضير مسبق ودون تنسيق مع احد. وأطلعني انه قرر المشاركة في حرب التحرير وتسليم الأمرة العسكرية إلى الجنرال على الرغم من كل التحفظات وأضاف: «قد تكون حرب التحرير كلها سلبيات لكنها تنطوي على ايجابية واحدة وهي انها جمّدت الخلاف بين الجيش والقوات وأبعدت في الوقت الحاضر شبح الصدام». وبالفعل انتقلت المعركة من داخل الشرقية إلى مواجهة عنيفة بين الشرقية ودمشق.

وما كان الجنرال ليقدم على اعلان حرب التحرير، لو نفّذت واشنطن وعودها ولو لم يلق بعض التشجيع من باريس. والواقع انه بعد فشل مبادرة بكركي في انتخاب رئيس

جديد، حرصت واشنطن على ان تحافظ على «ستاتيكو» الحكومتين، وان تتعامل معهما، وان تنمي بينهما حالة من التعاون الخفي. ووعد السفير الاميركي جون مكارثي العماد عون بأن لا تمس حكومة الحص بالمؤسسة العسكرية، وان لا تضغط عن طريق المصرف المركزي الواقع في نطاق نفوذها. وجرت الامور عكس الوعود الاميركية: عيّنت حكومة الحص سامي الخطيب قائداً للجيش بالوكالة وشرعت تجمّد صرف الاعتمادات العائدة إلى الشرقية.

في المقابل ألمحت الادارة الفرنسية عن استعدادها لطرح الموضوع اللبناني في مجلس الامن الدولي في حال قامت سوريا بعمليات عسكرية ضد مناطق عون. مما حدا بالجنرال على اعلان حرب التحرير من جهة للخروج من الـ «ستاتيكو» الخانق اذ خاب امله بالولايات المتحدة، ومن جهة ثانية ظناً منه انه يقدر ان يعتمد على فرنسا لتدويل الازمة اللبنانية. وهذا ما يفسر الفوارق اللاحقة في الموقفين الاميركي والفرنسي.

تخوفت واشنطن من اندلاع المعارك ووقفت على مسافة متساوية من عون ودمشق. حذّرت باريس سوريا ووجّه فرنسوا ميتران في ٤ نيسان (ابريل) ١٩٨٩ دعوة إلى الضمير العالمي لانقاذ لبنان. وقامت في فرنسا مظاهرات تؤيد عون وتندد بسوريا. واقدمت مجموعة من الشخصيات السياسية والفكرية على خطوة رمزية فطلبت الحصول على الهوية اللبنانية. وأوفدت الخارجية الفرنسية مجدداً جان فرنسوا دونيو إلى لبنان. ووصل الوزير الفرنسي، برنار كوشنير، تمهيداً لارسال الباخرة المستشفى «لارانس»، لمساعدة الجرحى، وناقلة المحروقات «بنهورس» لفك الحصار السوري. وجاء فرنسوا ليوتار رئيس الحزب الجمهوري الفرنسي، المعارض ليدعم الجنرال في معركته. وتلاحقت الوفود الفرنسية. ونشطت ديبلوماسية باريس في كل الاتجاهات، وطرحت القضية اللبنانية عربياً ودولياً في حين بقيت الولايات المتحدة تراقب. وبدأت معالم خلاف أميركي — فرنسي، كشف عنه وزير الخارجية الفرنسية رولان دوما حين صرّح ان الولايات المتحدة لا تماشي فرنسا في موقفها حيال لبنان، وخرجت الأزمة اللبنانية من الثلاجة الاميركية واكتسبت حرارة دولية وعربية وكان ميشال عون يردد: «حرب التحرير تبدأ بمعركة تحريك العالم».

في أوائل نيسان (ابريل) ١٩٨٩ طلب العماد عون من السفير الاميركي في بيروت جون مكارثي ان تتولى واشنطن نقل رسالة إلى دمشق تتضمن رغبة لبنان في إقامة علاقات جيدة مع سوريا بعد انسحاب جيشها منه. وطالب عون ان تتعهد دمشق بجدول زمني للانسحاب يتم التفاهم عليه في إطار لجنة لبنانية — سورية وبإشراف عربي اذا لزم الأمر.

وأطلع العماد الديبلوماسي الاميركي عن عزمه في حال عدم تجاوب دمشق مع هذا الطرح على ان يطلب عقد اجتماع لمجلس الأمن الدولي بغية تنفيذ القرارات الصادرة عن الأمم المتحدة والداعية إلى انسحاب كل الجيوش والمنظمات غير اللبنانية من لبنان وخصوصاً القوات الاسرائيلية والسورية، وأضاف: «انا لا اطلب إرسال قوات أجنبية إلى لبنان بل أطلب فقط تنفيذ قرارات مجلس الأمن الدولي بانسحاب القوات الأجنبية من لبنان».

وأبدى عون أستعداداً لاجراء استفتاء شعبي بإشراف دولي وعربي لمعرفة موقف اللبنانيين من وجود الجيش السوري وهل يؤيدون استمراره على أرضهم وماهية العلاقة التي يريد الشعب اللبناني إقامتها مع سوريا. ولاحظ في هذا السياق: «لا أحد يريد شطب سوريا من خريطة لبنان لكن لا أحد يقبل شطب لبنان من خريطة العالم».

لم يعجب هذا الطرح الادارة الاميركية وعدّته «غير واقعي». وأشارت إلى وجود مصالح سياسية وأمنية لسوريا في لبنان، وإلى الدور الحيوي الذي تؤديه في حل الأزمة اللبنانية. وقد نقل عن لورنس ايغلبرغر، نائب وزير الخارجية الاميركية وهو احد تلامذة كيسنجر، قوله: «ان خروج سوريا من لبنان يزيد الأوضاع سوءاً وان الجنرال عون هو أشبه بقائد ميليشيا». وبدأت مرحلة التدهور في العلاقات بين الجنرال وواشنطن والتي ستصل إلى حدّ القطيعة الكاملة.

باشر السفير الاميركي الضغط على ميشال عون واتصل بعدد من السياسيين والفاعليات المسيحية، وأبدى لهم انزعاج إدارته من اعتماد عون العنف وسيلة لحلّ الأزمة اللبنانية، ودعا إلى اتباع سياسة التهدئة والحيلولة دون تأزم الوضع العسكري. وأقنع السفير الاميركي البطريرك الماروني نصر الله صفير ان يدعو إلى لقاء مسيحي موسّع لكبح جماح عون وانفلاته. وبالفعل عقد اجتماع في ١٨ نيسان (ابريل) ١٩٨٩ في بكركي حضره ثلاثة وعشرون نائباً مسيحياً اصدروا في اثره بياناً دعوا فيه إلى وقف اطلاق النار والعودة إلى لغة العقل والحوار، واغفلوا الاشارة إلى انسحاب الجيش السوري من لبنان. وعلى الفور ايّدت الخارجية الاميركية هذا البيان ودعت جميع الاطراف إلى القبول به. وكان هذا البيان سبباً للخلاف الاول بين العماد عون من جهة والبطريركية المارونية والنواب المسيحيين من جهة اخرى. ولم يتمالك عون نفسه فبدأ حملة عنيفة على واشنطن متهماً اياها بالمشاركة في «مؤامرة الصمت» تجاه ما يحدث في لبنان، وانها «لن تستطيع ان تغسل يديها من دم اللبنانيين» وقال: «نحن نعي انها بيلاطس البنطي القرن العشرين».

في ٢٦ نيسان (ابريل) ١٩٨٩ عقد وزراء الخارجية العرب في تونس اجتماعاً طارئاً

مخصصاً للازمة اللبنانية شهد مواجهة عنيفة بين وزيري الخارجية العراقي طارق عزيز والسوري فاروق الشرع. واسفر هذا الاجتماع عن دعوة إلى وقف اطلاق النار ورفع الحصارات البرية والبحرية والجوية، وفتح كافة المعابر، ونشر مراقبين عرب على خطوط التماس وايفاد احمد عبد العزيز الجاسم سفير الكويت في سوريا، والاخضر الابراهيمي مساعد امين عام جامعة الدول العربية، إلى بيروت انفاذاً لهذه القرارات.

وبرز منذ اللحظات الاولى لمهمة الموفدين خلافان. يتعلق الأول بمدى شمولية القرار وهل ينطبق على كل المرافىء البرية والبحرية والجوية العاملة وغير العاملة، الشرعية وغير الشرعية. ويتعلق الثاني بمدى حق المراقبين العرب في تفتيش السفن للتأكد من عدم جلبها اسلحة للمتقاتلين. وتصاعدت موجات القصف العشوائي وتعرّض الموفدان لقصف متعمّد. وجرى اغتيال الشيخ حسن خالد مفتي الجمهورية اللبنانية وأحد أبرز الرؤساء الروحيين في الطائفة السنّية في منطقة نفوذ السوريين.

امام هذه العراقيل الامنية والسياسية وجدت اللجنة السداسية نفسها «محاصرة بكثير من العقبات في الداخل والخارج» كما جاء في التقرير الذي رفعه رئيسها الشيخ صباح الاحمد الصباح إلى الملوك والرؤساء العرب الذين عقدوا في ٢٣ أيار (مايو) ١٩٨٩ قمة عربية في الدار البيضاء في المغرب.

اتفق العرب في هذه القمة على كل شيء واختلفوا على لبنان. بدأت القمة اعمالها بمصالحة مصرية ــ سورية ــ ليبية وبترحيب اجماعي بمشاركة حسني مبارك في هذا اللقاء، بعد غياب مصر عن جامعة الدول العربية ما يقارب العشر سنوات. وتحوّلت القمة إلى مجموعة لقاءات مصغّرة بغية توحيد الموقف حيال الامور المطروحة. وعقد الاسد وعرفات اجتماعاً برعاية جزائرية ــ ليبية. واتفق المؤتمرون على تأييد خطة السلام الفلسطينية التي طرحها ابو عمار وتحقيق السلام الدائم في الخليج وفق المنظور العراقي، غير انهم اصطدموا في شأن لبنان.

واجهت سوريا اعنف حملة عربية عليها وكانت معزولة ومحصورة وقد شنّ صدام حسين هجوماً على حافظ الاسد وطالب بانسحاب الجيش السوري من لبنان. وتبادل الزعيمان اللدودان كلاماً قاسياً. طالب ياسر عرفات ومعه مجموعة من الرؤساء والملوك بتشكيل قوة سلام عربية تحلّ تدريجياً بالتعاون مع الجيش اللبناني محلّ الجيش السوري بدءًا بمنطقة بيروت الكبرى. وكان الملك حسين ابرع من طرح هذا الموضوع في الجلسات المغلقة. اشار في مداخلته إلى ان لبنان «جرح نازف ومأساة دامية»، وحذّر من خطورة «بلقنة

منطقة شرق المتوسط ابتداءً من لبنان وانتقالاً إلى بقية الدول العربية... واذا كان لبنان يدفع ثمناً باهظاً لهذا المخطط الآن فإن الشعوب العربية الاخرى ستدفع الثمن في المستقبل». وطالب بأن تقرر الدول العربية ارسال «قوات عربية مشتركة تنتشر على الاراضي اللبنانية بشكل مؤقت ولزمن محدد معلوم، اذ انه قد آن الاوان لكي يتحمل العرب، عن الشقيقة سوريا وقواتها التي دخلت لبنان اصلاً لايقاف النزيف وتحقيق الوفاق الوطني، عبء ومسؤولية معالجة الوضع». وهكذا اجمع العرب بلهجات مختلفة على سحب المسألة اللبنانية من يد سوريا وأكدوا ان الأزمة اللبنانية «مسؤولية عربية». واقترح وفد الجمهورية العربية اليمنية «نقل المسألة اللبنانية برمّتها إلى مجلس الامن الدولي» في حال فشل الحلّ العربي.

بعد أربعة أيام من المباحثات الحامية كادت القمة ان تنتهي من دون نتيجة: المحور العراقي يشدّد على ضرورة انسحاب الجيش السوري من لبنان واحلال قوات عربية محله، وسوريا ترفض اي انسحاب لجيشها قبل انسحاب الجيش الاسرائيلي دون قيد او شرط واتمام الاصلاحات السياسية الداخلية. وتدخّل الملك فهد في اللحظات الاخيرة فأخذ وعداً من الرئيس السوري بتعديل موقفه لاحقاً شرط ان لا يصدر اي قرار عربي علني يُشْتَمُّ منه ادانة دمشق. فأبدى الاسد استعداده للتعاون مع لجنة عربية مؤلفة من السعودية والمغرب والجزائر بغية ايجاد حلّ للازمة اللبنانية في غضون ستة اشهر. عندها اصدر المجتمعون توصية بتشكيل لجنة ثلاثية من العاهل المغربي حسن الثاني والملك السعودي فهد بن عبد العزيز والرئيس الجزائري الشاذلي بن جديد، واناطوا بها ايجاد حلّ للازمة اللبنانية دون الاشارة إلى وجود الجيش السوري او إلى ارسال قوات عربية. وهكذا اسفرت قمة الدار البيضاء عن محاكمة سوريا من دون ان يصدر اي حكم بحقّها.

اثر انتهاء القمة عقدت اللجنة الثلاثية في الرابع من حزيران (يونيو) اجتماعاً في الرباط تبنّت خلاله خطة عمل على المستويين الامني والسياسي. ودعت إلى وقف فوري لكل اعمال العنف ورفع الحصارات وفتح المعابر. ووضعت وثيقة وفاق وطني لحلّ الازمة اللبنانية بشكل «متوازن وعادل وشامل». واوكلت إلى وزراء خارجية الدول الثلاث مهمة القيام بالاجراءات اللازمة لتنفيذ خطة العمل. وقررت ان يتفرغ الاخضر الابراهيمي لمتابعة كل المواضيع مع كل المعنيين، وهذا ما سيقوم به بقدر كبير من البراعة والحنكة.

ولم يتوقف التدهور الامني وأخّرت دمشق فتح المعابر وامتنعت عن فك الحصار البحري المضروب على الشرقية مما حدا بميشال عون على رفض السماح بفتح مطار بيروت الدولي قبل رفع الحصار. وتوجّه وزراء خارجية الدول الثلاث إلى دمشق حيث التقوا

الرئيس السوري الذي ابدى استعداده للمساعدة في وقف اطلاق النار، مشترطاً لرفع الحصار البحري تفتيش السفن المتجهة إلى الشرقية للتأكد من عدم نقلها سلاحاً. ولم يكن هذا الشرط قد ورد في قرارات قمة الدار البيضاء. وايّد الاسد الاصلاح السياسي من حيث المبدأ دون التعرض لبنوده وتفاصيله مكرراً انه «شأن لبناني». لكنه استفاض في شرح العلاقات اللبنانية ــ السورية، ورأى ان النص الوارد في وثيقة اللجنة الثلاثية لا يفي بالغرض على الاطلاق. كما طالب بتبديل الصيغة المتعلقة ببسط سلطة الدولة اللبنانية وانسحاب الجيش السوري كي لا يبدو وكأنه جيش احتلال او كأنه ينسحب تحت وطأة الضغط. واشترط اخيراً ان يعلن العراق التوقف عن امداد الجيش اللبناني والقوات اللبنانية بالسلاح والاعتدة.

غادر وزراء الخارجية العرب دمشق وقد ايقنوا ان السوريين لا يريدون ان تؤدي اللجنة الثلاثية اي دور في اتفاق اللبنانيين في ما بينهم، ولا في موضوع بسط السيادة اللبنانية قوتها الذاتية والانسحاب التدريجي للجيش السوري، ولا في صياغة العلاقات اللبنانية ــ السورية. وظهرت حقيقة الموقف السوري الذي يرفض كل تدخل عربي في الشأن اللبناني.

في اواخر حزيران (يونيو) ١٩٨٩ تدارست اللجنة الثلاثية المجتمعة على مستوى القمة في وهران كيفية ايجاد مخرج للمأزق الذي تواجهه مع دمشق. وقرّر القادة الثلاثة ان يحمّلوا وزراء خارجيتهم رسالة خطية إلى الرئيس السوري يشرحون له فيها تعارض تصورهم لسيادة لبنان وعلاقته بسوريا مع تصوُّره، ويقترحون سحب الجيش السوري إلى البقاع خلال ستة اشهر.

وثارت ثائرة دمشق وصبّت حممها على الشرقية، وبصورة خاصة على الاحياء السكنية في الاشرفية. فسارع وزراء خارجية الثلاثية إلى زيارة دمشق للمرة الثالثة. وكانوا يحملون رسالة شفوية إلى الرئيس السوري تؤكد «ان موضوع بسط سيادة الدولة اللبنانية الكاملة على كل التراب اللبناني يشكل مبدأً رئيسياً غير قابل للتعديل لأن هناك التزاماً عربياً جماعياً بهذا المبدأ». ورفض الاسد التباحث معهم واحالهم على وزير خارجيته فاروق الشرع الذي عارض أيّ اشراف عربي على تنظيم العلاقات اللبنانية ــ السورية، ورفض الاشارة إلى تحديد اي فترة زمنية لسحب الجيش السوري إلى البقاع، وطالب بتأجيل البحث بهذين الموضوعين إلى ما بعد اقرار الاصلاح السياسي وانتخاب رئيس جمهورية وقيام حكومة الوفاق الوطني.

بموازاة اعمال اللجنة الثلاثية نشطت فرنسا مجدداً واوفدت إلى لبنان الوزير المكلف

بالشؤون الفرنكوفونية آلان دوكو، وتوجّهت قطع بحرية فرنسية إلى المنطقة. وبذل الاتحاد السوفياتي بالتنسيق مع فرنسا مساعي التهدئة، فأرسل نائب وزير الخارجية غينادي تراسوف في زيارة إلى بيروت ودمشق وبغداد. ودعا الرئيسان فرنسوا ميتران وميخائيل غورباتشوف في ٥ تموز (يوليو) ١٩٨٩ إلى وقف نار فوري في «بيان مشترك مخصص للوضع في لبنان». وأيّد الجانبان مهمة اللجنة الثلاثية وطالبا بوقف تزويد الاطراف اللبنانية بالسلاح وابديا استعدادهما للعمل لاعادة السلام إلى لبنان بـ «اعتماد كل الطرق بما فيها طرح الموضوع على مجلس الامن الدولي». وفي ٢٨ تموز (يوليو) ١٩٨٩ لم يستبعد وزير خارجية الاتحاد السوفياتي ادوار شيفارندزه امكانية انعقاد «مؤتمر دولي» لحلّ الازمة اللبنانية. وفي الاول من آب (اغسطس) خرجت اللجنة الثلاثية عن صمتها واعلنت في تقرير لها انها اوقفت جهودها الرامية إلى تسوية المشكلة اللبنانية وحمّلت سوريا مسؤولية وصولها إلى الطريق المسدود على الصعيدين الامني والسياسي.

رفعت دمشق من وتيرة ضغطها العسكري. ففي العاشر من آب (اغسطس) قصفت المدفعية السورية المنطقة الشرقية بشكل لم يسبق له مثيل تمهيداً لشنّ هجوم من الحزب التقدمي الاشتراكي على جبهة سوق الغرب. لكن الجيش اللبناني تمكن من صدّ الهجوم مع العلم ان اصابات المدنيين الذين سقطوا من جراء القصف بلغت ما يقارب مئة وخمسين قتيلاً وثمانمائة جريح. عندها اطلق البابا يوحنا بولس الثاني صرخة استغاثة، واتهم دمشق بانها تريد تدمير بيروت وخاصة الاماكن السكنية التي يقيم فيها المسيحيون. كما اعلن لاحقاً عن رغبته في زيارة لبنان. اما الولايات المتحدة فكانت تدين القصف والعنف علناً لكنها تحاول في السرّ التخفيف من هول الاحداث وتعارض تدويل الازمة اللبنانية ومناقشتها في مجلس الامن الدولي بحجة ان هذه الخطوة تعرقل الحلّ العربي. وعملت واشنطن على اقناع اللجنة الثلاثية بضرورة احياء مهمتها وتليين موقفها بحيث يزداد اقتراباً من الموقف السوري. كما حرصت على الحدّ من الزخم الفرنسي ــ السوفياتي ــ الفاتيكاني. وقد صارح القائم باعمال السفارة الاميركية السابق في لبنان، دانيال سمبسون، عضو الجبهة اللبنانية شاكر ابو سليمان، فأفهمه ان واشنطن لا تعارض بقاء الجيش السوري حالياً في لبنان ولا توافق على نقل المسألة اللبنانية إلى الامم المتحدة، وقال له: «لن تستطيعوا مهما فعلتم ان تخرجوا الجيش السوري عسكرياً، ولن تتدخل اي دولة لاخراجه. عليكم ان تتقدموا باقتراحات حول الاصلاحات السياسية. ولا حلّ لديكم الا عن طريق دمشق».

سأل عون السفير الاميركي جون مكارثي خلال أحد اجتماعاتهما الاخيرة: «اي مرتبة

يحتل لبنان في اهتمامات الادارة الاميركية؟» اجابه الديبلوماسي الاميركي: «ان الازمة اللبنانية لا تحتل اي مرتبة في الاولويات الاميركية في الوقت الراهن، لكن واشنطن تريد الحفاظ على الكيان اللبناني حتى يحين موعد الحلّ». رد عليه عون: «افهم منك انكم تتفرجون علينا نموت وفق توقيتكم. فاسمحوا لنا على الاقل ان نختار موعد دفننا». وانتهت المقابلة في جو متجهم وانتهى معها كل أمل في التفاهم بين الجنرال وواشنطن.

وفي ٣ أيلول (سبتمبر) ادلى ميشال عون بتصريح، هو الاعنف ضد الولايات المتحدة، اتهمها فيه صراحة انها «باعت لبنان إلى سوريا». وكبر الجو العدائي في الشرقية ضد الولايات المتحدة. واعتصم عدد من المواطنين وعلى رأسهم جبران غسان تويني، رئيس تحرير مجلة النهار العربي والدولي، امام مقر السفارة الاميركية. فاغتاظ السفير الاميركي حيال ما عدّه حصاراً وسافر إلى بلاده في ٦ أيلول (سبتمبر) بعد ان اخلى السفارة بالكامل. وعلّق عون بقوله: «ان قايين الاميركي لم يعد يستطيع تحمل نظرات هابيل اللبناني، فرحل».

وعاودت اللجنة الثلاثية مهمتها واعلنت في بيان صدر في ١٥ أيلول (سبتمبر) عن خطة من سبع نقاط تدعو إلى وقف فوري وشامل للنار، وفك الحصارات، وفتح مطار بيروت، وتأليف لجنة امنية لبنانية للاشراف على وقف النار، ومراقبة الشواطىء، ودعوة النواب اللبنانيين للاجتماع في ٣٠ أيلول (سبتمبر) لبدء مسيرة الاصلاح. وتبنت اللجنة الثلاثية في وثيقة الاصلاح التي عرضتها، مفهوم دمشق للعلاقات اللبنانية — السورية، واستبعدت اي اشراف عربي في تنظيم هذه العلاقة، ان لجهة الصياغة وان لجهة التنفيذ. كما حددت مهلة سنتين لانسحاب الجيش السوري جزئياً إلى البقاع، لكنها ربطت سريان هذه المهلة بالشروط السورية المتمثلة بانتخاب رئيس للجمهورية، وتأليف حكومة اتحاد وطني، واقرار الاصلاحات السياسية دستورياً وحلّ الميليشيات.

وبرز الفارق الشاسع بين بيان الثلاثية في اول آب (اغسطس) وبيانها في ١٥ أيلول (سبتمبر). في آب أدانت الثلاثية الدور السوري في لبنان، وفي ايلول سلّمت بهذا الدور مع بعض الضوابط. ومن خلال البيانين يبدو جلياً تأثير واشنطن التي حملت الثلاثية على ارضاء دمشق بغية التخلص من عون. وستأتي ازمة الخليج في آب (اغسطس) ١٩٩٠ لتعطل اعمال اللجنة الثلاثية فتستأثر دمشق بلبنان من جديد وتسقط الضوابط العربية. وهكذا لزّمت الولايات المتحدة ازمة لبنان إلى العرب ثم إلى سوريا. وبدأ الحلّ عربياً في الطائف وصار في المحصلة سورياً في بيروت.

وكانت تعقد في هذه الفترة سلسلة اجتماعات دورية، بعيدة عن الاضواء برئاسة

البطريرك، تضم النواب جورج سعاده ورينيه معوض وبطرس حرب وفؤاد نفاع وميشال ساسين ونصري المعلوف وخاتشيك بابكيان بالاضافة إلى عامر شهاب ممثلاً قائد الجيش وجورج عدوان ممثلاً قائد القوات. وفي احد الاجتماعات أطلع البطريرك الحاضرين على مشروع وثيقة اصلاح لم يشأ توزيع نسخة عنها واكتفى بتلاوتها على مسمعهم. وتميَّز اثنان بكثير من الصراحة. كان رينيه معوض يؤكد وفق معلومات توفرت لديه «ان هذا المشروع غير قابل للتعديل: فإما ان يذهب النواب للاجتماع ويقبلوا به كما هو، وإما أن لا يذهبوا ويرفضوه». وكان عامر شهاب يكرر: «اذا وافق النواب على هذا المشروع سيرى الجنرال في هذه الموافقة اعلان حرب عليه».

رحّب الخارج والداخل ببيان اللجنة الثلاثية، عدا ميشال عون الذي تحفظ، وسمير جعجع الذي صمت. والتقيت في هذه الفترة قائد القوات اللبنانية، الذي اختزل لي الوضع بكثير من الواقعية ووضوح الرؤيا وقال: «المواجهة مع ميشال عون اصعب واكبر من المواجهة مع ايلي حبيقة. اللعبة شديدة التعقيد. لقد سقط ميشال عون في لعبته ولن اضطر إلى مواجهته. ففي حال رفض اجتماع الطائف واستمرّ في حرب التحرير فانه سيخسر عسكرياً. وفي حال وافق فانه سيخسر سياسياً اذ سيتم انتخاب رئيس للجمهورية ويفقد شرعيته وموقعه. خسر الجنرال في كل الاحوال والمسألة عملية وقت وصبر».

من جهته وافق ميشال عون خلال اجتماعه في ١٨ أيلول (سبتمبر) مع موفد اللجنة الثلاثية، الاخضر الابراهيمي، على الشق الامني من البنود وتحفّظ على الشق السياسي. وشرح الموفد العربي ان البنود السبعة كل لا يتجزأ؛ لا يمكن قبول بعضها ورفض بعضها الآخر، وحذّر الابراهيمي بدبلوماسيته الذكية عون من مغبة الرفض. بعدها علق الجنرال: «ان الابراهيمي يذكرني بريتشارد مورفي الذي جاء قبل عام يحذّرنا باللهجة ذاتها، مع فارق واحد انه يلبس قبعة اميركية والابراهيمي يرتدي عباءة عربية».

واخذ القلق يساور ميشال عون الذي باشر سلسلة واسعة من الاتصالات انتهت إلى عقد اجتماع في قصر بعبدا للنواب المسيحيين قبيل سفرهم إلى الطائف. لفتهم الجنرال إلى خطورة الموافقة على وثيقة الوفاق الوطني المعروضة دون ادخال تعديلات اساسية عليها. ولم يبد عون الكثير من الملاحظات في شأن الاصلاحات السياسية، لكنه شدد على موضوع الانسحاب السوري وحثّهم على ان لا يؤخذوا بالخجل او بالاغراءات، مما حدا بالياس الهراوي إلى القول: «لا احد يستطيع ان يزايد علَى وطنيتنا وعنفواننا يا جنرال».

في نهاية الاجتماع جرى الاتفاق على ان يشارك النواب في مؤتمر الطائف وان لا يقبلوا

اي مشروع قبل التشاور مع العماد واخذ موافقته في ما يتعلق خصوصاً بموضوع السيادة وانسحاب الجيش السوري.

في ٣٠ أيلول (سبتمبر) ١٩٨٩ وصل إلى الطائف ثلاثة وستون نائباً واعتذر عشرة نواب عن الحضور. واعلن وزير الخارجية السعودي منذ اليوم الأول: «ان الفشل ممنوع». وبعد خمسة عشر يوماً وافق المؤتمرون على الشق الاصلاحي من الوثيقة المعروضة، لكنهم اختلفوا حول موضوع الانسحاب السوري من لبنان والعلاقات المميزة بين البلدين. واشار ممثلو اللجنة الثلاثية إلى أنّه لا مجال لادخال تعديلات حول الشق المتعلق بسوريا لأن هذا النص قد جرى بحثه مع دمشق والتفاهم عليه واصبح غير قابل للتبديل، واقصى ما يمكن عمله هو تقديم بعض «الايضاحات» او بعض «الضمانات». وارتفع صوت العماد عون يهدد النواب بالبقاء حيث هم في حال موافقتهم على الوثيقة حيناً، ويطالبهم بالعودة إلى قواعدهم الشعبية احياناً. في المقابل كبرت المداخلات والضغوط العربية والدولية لانجاح مؤتمر الطائف مهما يكن الثمن ومهما تكن العقبات. وبعد ثلاثة وعشرين يوماً وافق ثمانية وخمسون نائباً على وثيقة الوفاق الوطني التي اطلق عليها تسمية «اتفاق الطائف».

أدّى الامير سعود الفيصل دوراً رائداً في تذليل العقبات وتقريب وجهات النظر وطمأنة المتخوفين وتخفيف تعنت المتشددين وقد عرف ان يكسب ثقة الاطراف كلها. وما كان لهذا المؤتمر ان ينجح لولاه ولولا اربعة لبنانيين، اثنان شاركوا مباشرة في اعمال الطائف وهما حسين الحسيني وجورج سعاده، واثنان شاركوا من بعيد هما رفيق الحريري وسمير جعجع.

في الواقع يمكن النظر إلى حسين الحسيني رئيس مجلس النواب بمثابة الاب الروحي لاتفاق الطائف. فهو الذي مهّد له وساهم في جمع النواب وحرص ويحرص على تنفيذه بالكامل. وما تجهله الكثرة ان الحسيني حضّر لاتفاق الطائف عن طريق اتصالات سرّية اجراها مع البطريرك الماروني ونقل عنه ملاحظات إلى الرئيس السوري الذي اخذ ببعضها. واثناء مؤتمر الطائف ادار الجلسات بكثير من الحنكة والاتزان. ولاحق تنفيذ الاصلاحات كي يصوّت مجلس النواب عليها في ٢١ آب (اغسطس) ١٩٩٠، فتتحوّل إلى جزء من الدستور اللبناني. وما يزال يصرّ على بسط سلطة الدولة وإلغاء الميليشيات ونشر الجيش اللبناني والتفاهم الدائم مع سوريا.

يتسع صدره للجميع ويتحمّل كل شيء. عانى مراحل صعبة عندما اقيل من حركة أمل. وعُزل داخل طائفته في السبعينات وعاد فتبوأ في الثمانينات المركز الثاني في لبنان.

شديد التهذيب، بطيء الحركة، يجامل محاوره، ولو لم يكن متفقاً معه، فلا يصدّه مباشرة بل يعارضه، بلباقة وهدوء. لا يثير ولا يستثير ويعرف من أين تؤكل الكتف وكيف يصل إلى اهدافه ولو طال الزمن. انه مقتنع بالسلطة الشرعية مخرجاً للجميع، ويراهن على عودة الدولة، ويتصرف وكأن الدولة اللبنانية اصبحت مسؤولية شيعية. يعدّ نفسه الابن الشرعي لموسى الصدر والاب الشرعي للجمهورية الثانية.

كان جورج سعاده رئيس حزب الكتائب اللاعب الآخر المهم الذي شكّل بحق الموقف المسيحي في مؤتمر الطائف، والغطاء المسيحي للاتفاق. يعمل جاهداً على انهاء الحرب والعنف، ويحمل همّ الحفاظ على وحدة الصف المسيحي نيابياً وقيادياً. انه امين وصادق وكثيراً ما يضحي بذاته ليغطي الآخرين. ولم يفتأ يردد ان تصرف ميشال عون الارتجالي هو الذي اوصل إلى اتفاق الطائف ويضيف: «في البداية لم اكن موافقاً على هذا المشروع ولم اصوّت عليه الا بعد ان استحصلت على موافقة مسيحية جماعية وعلى ضمانات عربية اضافية».

اما رفيق الحريري فكان «دينامو» الطائف الذي لم يهدأ ولم يبخل بشيء من عقله وماله لانجاح مشروع الوفاق الوطني. وكثيراً ما كان يردد «ان مال الدنيا وجاه العالم لا يعوضان فقدان وطن». ويبقى سمير جعجع القوة الخفية التي شجعت النواب على المضي في اتفاق الطائف. ولولاه لما تجرأ كثيرون على اقراره في ظل معارضة ميشال عون الشرسة. ورأى سمير ان اتفاق الطائف يحمل في طياته شقاً دولياً يتعلق بإجراء انتخابات رئاسة الجمهورية. اما النواحي الاخرى فكان يرى انها قابلة للتعديل لاحقاً، وان هذا الاتفاق هو في المحصلة «اهون الشرور». وقد حرص على ان لا يؤيد علناً الاتفاق كاملاً وان يراعي موقف الجنرال وقاعدته الشعبية وكان يكرر في كل مناسبة: «ما دمت قائداً للقوات اللبنانية فإنّي لن اقبل ان تسقط نقطة دم واحدة بين الجيش والقوات». ولاذ في صمت صعب.

والواقع ان اتفاق الطائف كرّس في جزء منه مجمل الاعراف الدستورية والاصلاحات المقبولة من كل الاطراف. لكنه نصّ في جزء آخر على بنود متنازع حولها. لقد قلّص الاتفاق صلاحيات رئيس الجمهورية واناط سلطاته الاجرائية بمجلس الوزراء الذي يترأسه «عندما يشاء دون ان يشارك في التصويت». ولم يتضمن الاتفاق بنداً صريحاً يتعلق بانسحاب الجيش السوري بل نصّ على انسحاب جزئي إلى البقاع خلال فترة سنتين، تبدأ بعد تنفيذ مجموعة من الشروط.

سارع العماد عون إلى وصف الاتفاق بأنه خيانة كاملة، وفشل لبناني، وتراجع عربي، وتآمر دولي. واتهم النواب بأنهم ارتكبوا خطأً فادحاً يضيفونه إلى سجلاتهم المليئة بالاخطاء، وباتفاقات الذل والاذعان. ودعا الشعب للتعبير عن رأيه. وتجاوبت معه المنطقة الشرقية في تظاهرات لم تشهد لها مثيلاً من قبل. وكرر تأييده لوقف اطلاق النار وانصاف اللبنانيين لكنه رفض التساهل في موضوعي السيادة والاستقلال. وحذّر النواب من مغبة اقدامهم على انتخاب «رئيس عميل»، والمح إلى احتمال حل مجلس النواب، ورفضه سلفاً كل الخطوات التي قد تنتج عن وضع اتفاق الطائف موضع التنفيذ.

وتوالى الدعم العربي والدولي لاتفاق الطائف. وصفه الملك فهد بـ «المشرّف» وحيا الرئيس بوش «جهود العاهل السعودي وشجاعة النواب». ورأت فرنسا فيه «مرحلة مهمة في عملية السلام». وابدت سوريا ومصر ودول عربية اخرى «ارتياحها». وفي الاول من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٩ دعت الدول الخمس الدائمة العضوية في مجلس الامن الدولي اللبنانيين إلى تنفيذه وانتخاب رئيس للجمهورية. وفي الرابع من تشرين الثاني (نوفمبر) فجراً، حلّ ميشال عون مجلس النواب بعد ان تأكد له ان النواب سيجتمعون خلال ساعات لانتخاب رئيس للجمهورية. ولم يحل هذا القرار دون التئام مجلس النواب في الخامس من تشرين الثاني (نوفمبر) في مطار القليعات العسكري في شمال لبنان وانتخاب رينيه معوض رئيساً للجمهورية. وعشية الانتخاب استهدفت عبوات ناسفة منازل او مكاتب النواب الياس الخازن وسالم عبد النور واوغست باخوس، وشهدت الشرقية قرع اجراس وقطع طرقات وتظاهرات اطلقت فيها هتافات مؤيدة للجنرال ومنددة بالنواب. واعتدى بعض المتظاهرين على البطريرك الذي اضطر إلى مغادرة بكركي والتوجه إلى مقرّه الصيفي في الديمان. واعلن ميشال عون ان انتخاب رينيه معوض غير دستوري. ورفض تسليم القصر الجمهوري ووزارة الدفاع، مما حمل الرئيس المنتخب على الاقامة المؤقتة بين بيروت الغربية وبلدته اهدن في شمال لبنان.

وفي يوم ذكرى الاستقلال في ٢٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٩ استشهد رينيه معوض فانتخب النواب بعد يومين في شتورة الياس الهراوي رئيساً للجمهورية الذي اعلن في خطاب القسم التزامه باتفاق الطائف. ودعا اللبنانيين إلى خوض معركة انقاذ الوطن، واصدر في اليوم نفسه مراسيم تأليف حكومة جديدة برئاسة سليم الحص، هذا الرجل الذي قال فيه المحلل السياسي البارع باسم السبع في جريدة السفير انه «رجل ثقة وليس رجل سلطة».

دخل سليم الحص نادي رؤساء الحكومات مصادفةً عام ١٩٧٦ في عهد الياس سركيس وبقي فيه بالاقتدار في نهاية عهد امين الجميل وبداية عهد الياس الهراوي. تعرف الرئيس الراحل سركيس عندما كان هذا الاخير حاكم مصرف لبنان، فنمت بينهما علاقة احترام وثقة. وعندما انتخب سركيس رئيساً للجمهورية، كان سليم الحص يطمح إلى ان يكون رئيس مجلس الانماء والاعمار — وهذا المجلس وليد افكاره — او وزير تصميم يشرف على الانماء والاعمار. لكن الظروف السياسية حملت سركيس على تأليف اول حكومة لعهده من غير السياسيين، فاختاره دون تردد رئيساً لها اقتناعاً منه بكفاءته الاخلاقية والوطنية. وهكذا انتقل سليم الحص دفعة واحدة من الاقتصاد إلى السياسة ومن الارقام الحسابية المبسطة إلى المعادلات اللبنانية المعقدة. دخل السياسة بقفزة واحدة فاحتل المرتبة الاولى. لم يدخ ولم يهتز: عقله بحجم مهمته واخلاقه بحجم عقله.

لم يرث السياسة من احد وتعلمها بسرعة. استوعب الظروف والمؤثرات المحيطة بالقرار. وغالباً ما لم يأخذ الموقف الذي يشتهيه بل الموقف الذي تفرضه المعطيات. لا يزايد خوفاً على شعبية ولا يتنازل حفاظاً على مقعد. جعلته الظروف السُّنِّيّ الاول في لبنان، بعد اعتزال صائب سلام، واغتيال رشيد كرامي، ووفاة تقي الدين الصلح. كل مرة يتم تعيينه رئيساً للحكومة يأتي هذا التعيين بالاجماع، وكل مرة يعتزل الرئاسة يبقى في نظر الجميع رئيساً في الاحتياط او البديل الجاهز.

تمرّس في الحكم في عهد الياس سركيس واستمر رئيساً للحكومة ما يناهز الاربع سنوات، تقرّب في البداية من منظمة التحرير الفلسطينية، وبعدها من سوريا، ولم يبتعد عن السعودية وباقي العرب. وفي عهد الجميل خلف رشيد كرامي بعد اغتياله عام ١٩٨٧، وبقي رئيساً مقاطعاً لحكومة منقسمة على نفسها حتى نهاية العهد في ايلول (سبتمبر) ١٩٨٨. ولم يعترف بحكومة ميشال عون العسكرية. واستمر رئيساً للحكومة الثانية وكانت اصعب مراحل رئاساته.

رأى في اتفاق الطائف «قفزة عملاقة» في طريق حلّ المشكلة اللبنانية وصيغة لا بديل لها للانقاذ و«اهم ما في اتفاق الطائف انه اتفاق». نظر إلى موقف العماد عون الرافض بأنه مشروع انتحار وقال: «ليس من حق احد ان يتخذ قرار الانتحار عن شعب ووطن». اختاره الرئيس الياس الهراوي في ٢٤ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٩ رئيساً لاول حكومة له وبقي في مهمته إلى ما بعد سقوط ميشال عون فقدم استقالة حكومته في الشهر الأخير من عام ١٩٩٠.

يمقت العنف ويؤمن بسلاح الكلمة ويؤكد: «كنت اقدس الكلمة عندما كان للكلمة دويّها الذي يهز العروش... وازددت تقديساً للكلمة عندما لم يعد للانسان في لبنان من انسانيته الا كلمة يقولها». ويرى ان سلاح الموقف اقوى من سلاح المدفع، خصوصاً اذا كان الموقف نابعاً من الشرعية. انه على يقين مطلق من ان الشرعية اقوى من الجميع، شرط ان تتخذ موقفاً موحّداً وعادلاً ومتوازناً. وفي غياب الشرعية الموحّدة والعادلة والمتوازنة، تدخلت القوى الاجنبية ووقعت الحرب واستولت الميليشيات على السلطة وسقطت الدولة وانهار الوطن.

يحلم بنظام لبناني قائم على الحرية والمساواة. ويفترض ان النظام الديمقراطي اللبناني يجب ان ينطوي في المستقبل على قدر من المرونة يسمح له باستيعاب الازمات والتلاؤم مع المتغيرات. يرى ان لبنان قبل الحرب عاش «ازدهاراً صاخباً» و«نمواً شاحباً» و«نظاماً متحجراً». ويعتقد ان ما بعد الطائف يجب ان يكون مرحلة «الانفتاح على التغيير الدائم». ينادي بالغاء الطائفية تدريجياً وبإقامة كيان وطني محصّن في وجه التطورات الخارجية والتفكك الداخلي فلا يبقى لبنان معرضاً للسقوط من جراء اية هزة اقليمية او دولية. ويؤكد ان مستقبل لبنان مرتبط بقدرته على التنمية وتثمير ثروته البشرية وهو معجب بالحرية الفردية التي خرجت من تحت الركام سليمة. ويفخر بأن الاقتصاد اللبناني الحر اظهر قدرة مذهلة على تخطي الاعصار الذي دمّره. هذا ما يعدُّه «خصوصية لبنان»، وهو يدرك «خصوصية دوره» في هذا المجال. انه المثقف الحاكم في عالم متوحش.

معبر الألغام

خفتُ من جديد على الوضع وعادت تنتابني هواجس الصدام، ورأيتُ ان ما تحقق في الطائف يحمل في طياته احتمالات حرب جديدة. الياس الهراوي يهدد بالحسم العسكري ويدعو عون إلى التنحي ويصف ما يحدث في الشرقية بـ «هستيريا لن تستمر». ومجلس الوزراء يقرّر اعفاء العماد عون من مهماته العسكرية ويعيّن العماد اميل لحود قائداً للجيش. ميشال عون يردّ بتعبئة الجيش والشعب في مظاهرات واعتصامات لا تهدأ ولا تنتهي، فينصب الناس الخيم في قصر بعبدا الذي تحول إلى «بيت الشعب» حيث تمضي الحشود الليل والنهار في الاحتفالات والصلوات في العراء وتحت المطر. سمير جعجع يتحرك ليأخذ موقعه ودوره فيعلن عن استعداده للقتال دفاعاً عن الشرقية ويبدأ باستقبال الوفود وينظّم مهرجاناً شعبياً حاشداً احياءً لـ «يوم المقاومة» مما يرفع وتيرة الحساسية بين الجيش والقوات. سوريا تنذر «الضابط المتمرد عون» بالحسم وتعمل على استكمال شروطها الاقليمية والدولية للاطاحة به. عبد الحليم خدام يؤكد ان الحرب واقعة حتماً بين «دويلة عون» و«جمهورية الهراوي». الولايات المتحدة تطلب من عون الانصياع ومن اللبنانيين الالتفاف حول الهراوي، وتحرّض الفاعليات المسيحية على عون، وتستغرب صمت القوات اللبنانية. ووزراء خارجية اللجنة الثلاثية يزورون دمشق وبغداد وفرنسا والفاتيكان، طالبين المساعدة لازالة «عقبة عون» من امام مسيرة الطائف. الولايات المتحدة وسوريا توقدان للحرب، والاتحاد السوفياتي وفرنسا والفاتيكان تحاول تهدئة الجنون. وقد ناشد فرنسوا ميتران وميخائيل غورباتشوف الاطراف المعنية استبعاد العنف، واعتماد الوسائل السلمية لحلّ المشكلة. باريس تبلغ دمشق مباشرة معارضتها لأي عمل عسكري يستهدف مناطق ميشال عون، وتتحفظ حول بعض بنود الطائف. الفاتيكان يرى في اتفاق الطائف اساساً صالحاً للحوار وليس قراراً غير قابل للمناقشة، ويستهجن استخدام دمشق اتفاق الطائف بغية «تعيين» رئيس جمهورية لبنان وحكومته. ويطوي عام ١٩٨٩ ايامه الاخيرة ولبنان يتأرجح بين ظاهرة عون ومرارة الطائف، والانفجار يدق ابواب الشرقية.

في نهاية عام ١٩٨٩ وبداية عام ١٩٩٠ قمت بزيارتين: احداهما لياسر عرفات في تونس

والاخرى لميشال عون في بعبدا. كنت افتش عن امكانية تطوير حالة عربية تستبعد في المرحلة الاولى الحسم السوري حيال الجنرال، وتستوعبه في المرحلة الثانية من خلال الحوار. كما كنت استشف حظوظ تنمية حالة لبنانية تقرّب في البدء بين عون وجعجع وتخطو لاحقاً باتجاه تسوية سياسية في ظلّ الشرعية الدستورية المتمثلة بالرؤساء الهراوي والحسيني والحص.

التقيت رئيس دولة فلسطين يوم ٢١ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٨٩ في تونس، وكان مشدوداً إلى ما يحصل في اوروبا الشرقية وبصورة خاصة في رومانيا. وبادرني بالقول: «لولا الطائف لكانت القوات العربية حلّت منذ فترة محل القوات السورية ولكانت دمشق اليوم في ورطة كبيرة». واطلعني ابو عمار على ان وزراء خارجية اللجنة الثلاثية طلبوا من صدام حسين ان يوقف امداد ميشال عون بالسلاح والمال فأجابهم الرئيس العراقي: «انا غير مقتنع ان اتفاق الطائف يحلّ المشكلة اللبنانية. لكن اريد ان اتجاوب معكم. لقد تعهدت بعدم ارسال السلاح وسألتزم بكلامي. ولكن لا تطلبوا مني اكثر من ذلك». تمنى اعضاء اللجنة العربية على صدام حسين ان يتدخل سياسياً لاقناع ميشال عون بالموافقة على اتفاق الطائف فأجابهم: «انا لست سياسياً». كلّفوا ابو عمار بهذه المهمة».

وبالفعل سعى وزير الخارجية الجزائري للاجتماع بياسر عرفات وطلب منه التدخل لدى ميشال عون. واخبرني ابو عمار انه عارض صراحة اتفاق الطائف، ودافع عن العماد عون امام الديبلوماسي الجزائري من المنطق الفلسطيني بالذات، وقال: «لا يمكنني الاعتراف باتفاق الطائف الذي لم يعترف بي. لقد طرح هذا الاتفاق موضوع الوجود السوري والايراني والاسرائيلي وتجاهل الوجود الفلسطيني». وشرح عرفات للموفد الجزائري المخاطر الناتجة عن إلغاء اتفاقية القاهرة. وطعن بقانونية القرار اللبناني الذي الغى من طرف واحد اتفاقية اقرتها جامعة الدول العربية. وأضاف ابو عمار على مسامع وزير خارجية الجزائر: «لقد حلّ اتفاق الطائف مشكلة الجميع عدا صاحب المشكلة وصاحب القضية وهو العماد عون، واذا اردتم حلاً فعليكم التعامل مع هذه المشكلة، والحوار مع صاحب القضية».

وابدى ابو عمار قلقاً كبيراً لتدهور العلاقة بين ميشال عون وسمير جعجع. واكد لي ان دمشق تراهن على خلافهما وتحضّر للصدام بينهما. وطلب مني ان انقل رأيه إلى كل منهما. كانت نصيحته إلى ميشال عون هي: «طوّل بالك يا عماد، وحافظ على الوحدة

الداخلية فهي الاهم». أما نصيحته إلى سمير جعجع فاستمدها من حكاية الاسد والثورين الابيض والاسود من كتاب كليلة ودمنة وقال: «انا صاحب تجربة طويلة مع السوريين. فلا تخطىء يا دكتور، وتذكّر أن الثور الاسود قد أكل عندما أُكل الثور الابيض.»

في الثامن من كانون الثاني (يناير) ١٩٩٠ صعدت للمرة الأولى منذ أيلول (سبتمبر) ١٩٨٨ إلى القصر الجمهوري الذي تحوّل إلى «بيت الشعب»، برفقة جبران تويني. رأيت معالم الفاجعة متلازمة ومظاهر الفرح. كل شيء في القصر مهدم ومحطم: لا زجاج، لا اضواء، لا كراسي، لا حيطان واثار الحرب في كل رقعة وبقعة. في المقابل: الخيم، الزهور، اليافطات، المنصات، مكبرات الصوت، اثار المهرجانات في كل مكان وصور الجنرال والاعلام اللبنانية في كل الزوايا. انه مشهد سريالي: الحجر يشهد على الفاجعة والبشر يعيشون حالة فرح. نزلنا إلى الطبقة السفلية حيث يقيم الجنرال. كان مطبخاً في عهد الياس سركيس وصار ملجأ خلال ولاية امين الجميل وتحوّل إلى مخبأ محصّن ايام ميشال عون. انه زاروب طويل يحتشد فيه حرس عون بالثياب المرقطة؛ هنا يعيش الجنرال ومن هنا تخرج القرارات. و لم اتمالك نفسي فنظرت إلى الضابط المرافق وقلت له: «لا يجوز اعادة بناء هذا القصر. بعد عشرين سنة يصبح هذا المكان متحف حرب يروي للاجيال ملحمة مقاومة ولعنة وطن، يؤمه الناس كأهم موقع سياحي في لبنان». في تلك اللحظة فرض عنوان هذا الكتاب نفسه عليّ.

استقبلني عون ببساطة وتكلم معي بلهجة الصداقة. شددت على ضرورة تحاشي الصدام الداخلي واشرت إلى امكانية تثمير حلّ يبدأ بالتفاهم بين الجيش والقوات وينتهي بالتلاقي تحت مظلّة الشرعية. لم يجبني مباشرة لكنه رسم صورة واقعية عن الوضع القائم. وشرح لي انه يواجه دائرة حصار من اربعة خطوط. الحصار الأول مسيحي ويعتمد على النواب وبكركي وخصوصاً على القوات اللبنانية. الحصار الثاني لبناني ويرتكز على الياس الهراوي وحكومة الحص والميليشيات المؤيدة لسوريا، وخصوصاً على الاجراءات الادارية والمالية الهادفة إلى عدم دفع رواتب العسكريين والموظفين الملتحقين به. والحصار الثالث عربي، يقوم على اهل الطائف، وخصوصاً على سوريا التي تستخدم هذا الاتفاق للامساك من جديد بالوضعية اللبنانية. والحصار الرابع دولي، تقوده الولايات المتحدة التي تمنع الاتحاد السوفياتي واوروبا، وبالتحديد فرنسا والفاتيكان من التدخل لمصلحة لبنان. واضاف: «الحصار الدولي لا يخيف. الحصار العربي يتعثر. والحصار اللبناني تمكنت من اختراقه بواسطة فكرة التحرير والسيادة، فالتقيت مع الطرف الآخر. يبقى الحصار الداخلي وهو الأصعب واحاول ان اسقطه عن طريق الشعب، لا بل ان الشعب هو الذي سيسقطه».

صمت الجنرال برهة وفجأة قدحت عيناه وقال: «لو وافق الشعب على اتفاق الطائف لكنت استقلت فوراً. كما لو لم يمسّ الجيش في حرب التحرير لكنت تركت القيادة منذ البداية». وسكت ثانية ثم رفع رأسه وقال: «يجب ان يتذكر سمير ان كل واحد يمشي بالطائف يصير في القبر. الطائف يقتل كل من يمشي فيه». لم افهم مراده وسألته اذا كان يوجه تهديداً إلى سمير، اجابني: «ابداً. هذا كلام قلته لسمير مباشرة، واريد ان تذكّره به تسهيلاً للتفاهم في ما بيننا». عندها قلت للجنرال: «اتمنى عليك ان تتذكر على الدوام شيئاً واحداً وهو ان سقوط احدكما يعني سقوط الآخر عاجلاً ام آجلاً».

وتوجهت على الفور إلى قائد القوات اللبنانية واطلعته على تفاصيل اجتماعي بعون فعلّق قائلاً: «التعايش مع الجنرال صعب والتفاهم معه اصعب. ولكني سأجرّب». وفي ٣١ كانون الثاني (يناير) ١٩٩٠ حصل ما كان في الحسبان، واصطدم الجيش بالقوات، واندلعت «حرب الشرقية».

اطلق عليها العماد عون تسمية «حرب توحيد البندقية» واسماها قائد القوات «حرب الالغاء». وفاجأ سمير المراقبين السياسيين والعسكريين بسيطرته السريعة على ثكن الجيش في عمشيت وصربا وعلى مطار حالات وعلى القاعدة البحرية في جونيه. واعلن انه لن يسمح بـ «ذبح القوات» واتهم عون بـ «شهوة السلطة». ورأى عون ان القوات «حصان طروادة اميركي» لتمرير اتفاق الطائف وردّ عسكرياً بإسقاط منطقة الضبيه. ولم تنفع نداءات القادة الروحيين والسياسيين في الداخل والخارج. ولم تفلح الوساطات المتعددة وخصوصاً الجهود التي بذلها الاباتي بولس نعمان وشاكر ابو سليمان وجورج عدوان وروجيه ديب ومن حين إلى آخر المطران خليل ابي نادر، راعي ابرشية بيروت المارونية.

اتسعت دائرة القتال. دخل الجيش عين الرمانة، معقل القوات منذ عام ١٩٧٥، واسقطت القوات معقل المغاوير في ادما. ودارت معارك طاحنة في اعالي كسروان. خلال ثلاثة اشهر احصي وقوع اكثر من الف قتيل وثلاثة الاف جريح. وانسحب حزب الاحرار من قيادة القوات اللبنانية، ودعا داني شمعون في العاشر من نيسان (ابريل) إلى انشاء «جبهة لبنانية جديدة». وانقسم حزب الكتائب بدوره بين جناح مؤيد لعون وآخر مؤيد لجعجع. وحاصرت القوات منطقة عون بحراً واغلق عون المعابر بين الشرقيتين. انها الحرب الشاملة التي لن تنتهي الا بغالب ومغلوب.

ما ان اندلعت حرب الشرقية حتى سارع مجلس الوزراء في ٣ شباط (فبراير) إلى احالة ميشال عون وعضوي حكومته اللواءين ادغار معلوف وعصام ابو جمرة على المحاكمة بجرائم

اغتصاب السلطة، واثارة حرب اهلية، واختلاس الاموال العامة. وفي منتصف شباط (فبراير) طالبت واشنطن بـ «رحيل عون فوراً» واعلنت لبنان منطقة منكوبة، في حين اوفدت الحكومة الفرنسية إلى لبنان وزير الدولة لشؤون العمل الانساني برنار كوشنير الذي صرّح ان القوات اللبنانية «تعتدي» على المدنيين. وبرز الخلاف الاميركي — الفرنسي من جديد إلى العلن. واشنطن تدعم جعجع وباريس تؤيد عون والدولتان تعلنان وقوفهما إلى جانب الشرعية. وتكثفت الاتصالات بين بيروت ودمشق وقابَلَها وصول وفد فلسطيني إلى الشرقية لوقف اطلاق النار. وسادت حالة من الحقد والشراسة لا سابقة لها، وعمّ اليأس والحزن بشكل كامل، وانتابت المواطنين موجةٌ من الخوف والاحباط، وبدأ نزيف الهجرة الذي لن يتوقف، وسال جرح لم يلتئم بعد. ومع اني بقيت خارج دوائر القرار غير أني كنت في عمق المأساة. احس بأن الحرب تدور في قلبي ولحمي. اتوجع مع كل مصاب أكان مقاتلاً أم مواطناً، وأُدفن مع كل قتيل أكان من الجيش أم من القوات. انها لعنة المسيحيين الكبرى.

في ٢٧ آذار (مارس) ١٩٩٠ التقيت سمير في الكرنتينا. كان واثقاً من نفسه ويتصرف على اساس انه ربح المعركة بمجرد انه لم ينهزم، وان الجنرال خسر بمجرد انه لم ينتصر، وقال لي: «ما يحدث كارثة كبيرة حاولت ان اتجنبها حتى اللحظة الاخيرة، فلم اوفق». وروى لي انه صبيحة بدء المعارك في ٣١ كانون الثاني (يناير) لم يكن يعرف بالتحديد ما اذا كان يجب ان يردّ او ان يسكت. ولكن عندما بلغته المعلومات بأن وحدات من الجيش سيطرت على «بيت المستقبل»، وتتجه إلى موقع «الصندوق الوطني» في الضبيه، اعطى الاوامر بالتحرك. وكان سمير قد اعدّ مسبقاً خطة عسكرية شاملة لمواجهة الجيش. وكان المسؤولون العسكريون في القوات على بينة منها وبدأوا فوراً في تطبيقها. واضاف سمير: «جاءت النتيجة اكبر من التوقعات. لقد استطعنا ان ننفذ خطتنا في حدها الاقصى. وانتشرنا في اوسع رقعة تسمح بها قدراتنا الذاتية. ثبّتنا خطوط التماس الاكثر ملاءمة لنا. والحقنا بوحدات ميشال عون خسائر فادحة. الثغرة الوحيدة كانت خسارتنا عين الرمانة التي لم تسقط بالقتال بل بالخدعة». ولمعت عينا سمير بنشوة الانتصار وراح يردد: «يللي صار ما بيتصدق. خلص ظبطت. ظبطت معنا كثير»(٭)

(٭) كلام بالعامية يعني: «ما حدث لا يصدق. لقد نجحنا. ونجحنا باكثر مما كنا نحلم به».

وانتقل سمير إلى تقويم الوضعين العسكري والسياسي. واكد لي ان الآلة العسكرية داخل الجيش قد انكسرت ولا مجال لاعادة تركيبها. ورأى انه كما انتظر عدة اشهر علّ أحداً غيره يتدخل لحمل ميشال عون على التنحي بالقوة او بالتفاهم فانه سيصبر بضعة اسابيع كي يطلق الآخرون على الجنرال رصاصة الرحمة ويجهزوا عليه. واطلعني ان الاميركيين مستشرسون ضد ميشال عون، ويريدون التخلص منه بأي شكل من الاشكال، وانهم يرون ان الالوية التابعة له هي ميليشيا، وان الجيش اللبناني هو الذي يقوم ببنائه العماد اميل لحود في ظلّ الشرعية اللبنانية. ثم نظر اليّ بكثير من التصميم وقال: «حلّت الكارثة الكبيرة. لا يجوز ان نعمل تسويات مؤقتة. ربحنا بنسبة ثمانين في المئة؛ خلّنا نصبر بعض الشيء فنربح مئة بالمئة. خلّنا نخلص من الفلكلور والتهريج و«التجليط». ميشال عون يعيش حالة انهيار. انه معزول سياسياً ومهزوم عسكرياً، ولا يقدر ان يستمر. لقد انتهى الجنرال».

وعرضت على سمير من جديد ان يحاول التفاهم مع عون على ما بينهما، تمهيداً للاتفاق مع الشرعية، مؤكداً ان قوة الشرقية والشرعية لا تتأتى من انتصار القوات على الجيش بل من توحدهما. اجابني سمير: «انت لم تتلوث بهذه الحرب ومعك وقت للتأمل. نحن على مشارف مرحلة جديدة. فكّر في مرحلة ما بعد عون».

صعدت بعد يومين إلى عون علّني اجد ثغرة صغيرة في الحائط السميك. وصلت إلى نقطة العبور بين الجيش والقوات في سن الفيل. فوجئت ان هذا المقر مقطوع بالغام متحركة. فك مقاتلو القوات الالغام لكي امر وقالوا لسائقي: «فتح عيونك يمكن ان نكون نسينا لغماً بالغلط». لقد شهدت من قبل «بوابات» عبور و«جسور» عبور و«حيطان» عبور لكن لم اشهد بعد «الغام» عبور او «معبر الغام». كانت الطريق مقفرة ومدمرة بين الاشرفية وبعبدا. القصر كان معتماً وحزيناً. انتهت حقبة فرح الشعب وحلّ البغض محلّ الغضب.

بادرني الجنرال المحبط والمتربص في آن: «انا صاحب حلم كبير للبنان وجاء سمير يحطم هذا الحلم. لقد اخترت واحداً من امرين: اما ان احقق الحلم الكبير، واما ان اصل إلى نهاية سريعة ولو مأساوية تختصر العذاب».

شرح لي الجنرال انه لا يريد الغاء القوات اللبنانية بل يريد توحيد البندقية المقاومة. وهو لن يضرب القوات مجاناً من دون افق سياسي. واكد انه قادر على الاستمرار والصمود. والمح انه يواجه صعوبات جمة لكن سمير، برأيه، يعاني من الصعوبات نفسها واكثر. صحيح انه محاصر على كل الجبهات لكنه يرى ان سمير محاصر من قبل ايلي حبيقة على جبهة بيروت ومن قبل سليمان فرنجية على جبهة الشمال.

وروى لي انه امر مرتين بتأجيل اقتحام عين الرمانة. في كل مرة كانت تحضره صورة تلك العجوز التي كانت تأتي مع حفيديها من عين الرمانة لتتصدر المهرجانات وهي تلصق على صدرها صورته. وكان يفكر في ان احدى القذائف قد تصيبها وتقتلها مع حفيديها، واضاف: «في المرة الثالثة اعطيت الامر باقتحام عين الرمانة، واختليت في غرفتي وبكيت». ما افظع الحرب وما اكرهها!

شرحت لعون قناعتي بأن الجيش والقوات ضرورتان وان التفاهم بينهما ضرورة اكبر. واخبرته انّي تنحيت عن السياسة كي لا اكون من قريب او من بعيد سبباً لخلاف بين الجيش والقوات، واني لن اشارك في مشروع ضرب الواحد بالآخر مهما تكن المغريات، وانّي اخترت ان يكون دوري توفيقياً، وانّي ما زلت افتش عن قواسم مشتركة ولو من خرم الابرة.

اجابني الجنرال انه لم يصل بعد إلى نقطة اللارجوع مع القوات، وانه يعي ان سوريا تريد اسقاطه وسمير وتصفهما بـ «السيىء والاسوأ». وانه احياناً يكون هو الاسوأ في نظرها، واحياناً سمير. وقال: «انت ضميرك مرتاح. وانا في وضع صعب، ومشكلتي الرئيسية مع دمشق لا مع القوات. اذا ارادت سوريا اقتحام المنطقة فإنّي افضّل ان اخسر امام حافظ الاسد، ولا اتراجع امام سمير جعجع». والواقع ان الجنرال خسر «حرب التحرير» ضد سوريا لأنها كانت اكبر منه وخسر «حرب الشرقية» ضد القوات لأنه عدّها اصغر منه.

وانتظرت شهرين لاعاود الكرة. في ايار (مايو) ١٩٩٠، شعرت بأن الفريقين اقتنعا بأن التوازن العسكري القائم لا يمكن لاحدهما اختراقه، وان المشاريع السياسية تجمدت، وان الاوضاع الحياتية اصبحت ضاغطة في شكل لا يطاق، وان الشرقيتين اصبحتا ضعيفتين ومرتهنتين لسوريا التي راحت تتحكم بالوضعين العسكري والسياسي. وتزامنت هذه الحالة مع طلب ملحّ، وان غير علني، صادر عن صدام حسين لوقف اطلاق النار قبل انعقاد قمة بغداد في نهاية ايار (مايو). وكان الفاتيكان ينشط دون هوادة. وقد وجّه البابا يوحنا بولس الثاني في ٢٥ ايار (مايو) ١٩٩٠ رسالة سمعية ـــ بصرية حازمة إلى القمة الروحية المجتمعة خصيصاً في بكركي أدان فيها حرب الشرقية مطلقاً صرخة مدوية: «كفى قتال. كفى عنف. كفى آلام».

فور هذه الرسالة اعلن القاصد الرسولي «هدنة دائمة وثابتة». وفي خضم هذه التطورات اجتمعت ما بين ٢٢ و٢٦ أيار (مايو) مرتين مع الجنرال، واربع مرات مع قائد القوات اللبنانية. وقد شاركني في هذا التحرك داني شمعون ومارون حلو وجبران تويني وبيار غانم.

وافق عون وجعجع على الهدنة، غير ان الجنرال اصرّ على ان ترفع القوات حصارها البحري عن مرفأ الـ «غولدن بيتش». ورفض قائد القوات مؤكداً «ما لم اخسره بالمعارك، لن اعطيه في المفاوضات». وعلى الرغم من استمرار الحصار استمرت الهدنة.

حاولت ان اطوّر الهدنة العسكرية إلى حوار سياسي، واقترحت ثلاث آليات: «الحوار المباشر» بين وفد يمثّل الجيش وآخر يمثّل القوات، او «الحوار الموسّع» من خلال هيئة تضم كل الافرقاء المتنازعين في الشرقية، او «الحوار غير المباشر» عن طريق مرجعية تضم كل الافرقاء المتنازعين او غير المتنازعين بالاضافة إلى شخصيات مستقلة مؤهلة لرأب الصدع بين الجيش والقوات. وكنت انطلق من معادلة بسيطة: ان التعاون مع سمير هو «ارخص» ثمن يدفعه عون وان التفاهم مع عون هو «اضمن» طريق يتبعه سمير.

وفي لقاءين مع عون اقرّ هذا الاخير انه مخنوق ميدانياً لكنه مرتاح سياسياً، في حين كان رأيه ان سمير مرتاح ميدانياً لكنه محصور سياسياً وقال: «اذا خسر سمير امامي يكون قد دمّر القوات. واذا انتصر عليّ فسيُفرض عليه الطائف ويضطر إلى الغاء القوات. لا افهم حسابات سمير. لا مصلحة له في ان اسقط. لن يرثني كما يعتقد. فبيني وبينه وريث هو الطائف. ولا مصلحة له ان اتفاهم مع سوريا، فلماذا يكمل الحصار البحري حيالي، فيجبرني على اللجوء إلى سوريا، ماذا يجني من كل ذلك؟» وعندما اجبته ان المصالحة مع سمير رغم كل المآخذ عليه، تبقى ارخص الحلول، قال لي الجنرال: «انا لا اثق بسمير؛ انه لا يلتزم بشيء ولا بأحد. انه المشكلة. لقد اختلف مع الكل وانا آخر واحد اختلفت معه. فليتصالح مع الآخرين وانا اكون آخر واحد اتصالح معه».

واجتمعت اربع مرات مع سمير الذي وصف المرحلة بـ «الضبابية» وانه يفضّل التيقظ والتأني والسير على مهل، ورأى ان القوات لم تصل في أي وقت مضى إلى الحجم الذي وصلت اليه اليوم، ولا تقدر ان تتوسع اكثر كي لا تصير ضعيفة وهشة، وقال: «اريد ان اكسب الوقت من دون ان اتنازل عن اي شيء. التفاهم مع عون لم يعد وارداً والحوار معه لن يوصل إلى نتيجة. الجنرال لا يفهم الا منطق القوة، ولن تُحلّ مشكلته الا بالقوة».

وفهمت أنّ لا مجال للتقارب بين الجنرال والقائد ورحت ارصد التحولات والوساطات. وكانت القيادتان العراقية والفلسطينية تعقدان الاجتماعات المكثفة في بغداد مع فؤاد عون موفداً لقائد الجيش، وبيار رزق موفداً لقائد القوات. ولم تسفر الوساطة العراقية عن اي نتيجة. ونقل لي رفيق ابو يونس، عضو القيادة القطرية اللبنانية في حزب البعث العربي الاشتراكي المؤيد لبغداد، خيبة أمل المسؤولين العراقيين الذين كانوا يرددون انهم لم يعطوا

السلاح للمسيحيين كي يتقاتلوا في ما بينهم، بل ليحرروا وطنهم من اسرائيل وسوريا. وعلّق طارق عزيز حول استمرار القتال بين الجيش والقوات: «لا استطيع أن أصدق ان هناك عقلاً بشرياً يعرف انه لا يقدر ان يربح ويبقى مصرّاً على القتال كي يخسر». واخذت القيادة العراقية ترى في حرب الشرقية، وما سبقها من اتفاق الطائف، وما لحقها من اقتتال بين حليفيها الجيش والقوات، معالم سياسة اميركية ترمي إلى تحجيم دور العراق في لبنان وفي المنطقة.

وتدخّل ابو عمار اكثر من مرة بغية توحيد الصف في الشرقية، وقال لموفدي الجيش والقوات: «انا عندي تجربة مريرة في الانقسامات الداخلية. المنشقون بدعم سوري عهروني وطردوني، لكني اصررت على استيعابهم. مهما تكن الاسباب لا يجوز ان يصل الخلاف في ما بينكم إلى هذا الحد. هذا لا يجوز على الاطلاق، ولا يفهمه احد. لا تنتظروا الحلول من الآخرين لأنهم لم يعودوا يهتمون بكم. الرابحان الوحيدان من حرب الشرقية هما سوريا واسرائيل، اما انتم فكلكم خاسرون وماذا بعد؟» وبقي سؤال ابو عمار من دون جواب.

قررت قمة بغداد الطارئة التي انعقدت في نهاية ايار (مايو) ١٩٩٠ انشاء «صندوق دولي لاعادة اعمار لبنان»، على الرغم من عدم مشاركة الدولة اللبنانية فيها تضامناً مع سوريا التي قاطعتها بسبب خلافها مع العراق. ودعا البيان الختامي اللجنة الثلاثية العربية إلى متابعة اعمالها لتنفيذ اتفاق الطائف. وشجعت نتائج قمة بغداد الرئيس الياس الهراوي على القيام مع رئيس حكومته سليم الحص بجولات عربية شملت المرحلة الاولى منها مصر والجزائر وليبيا وتونس، والمرحلة الثانية الكويت وقطر والبحرين ودولة الامارات العربية المتحدة.

واجرى السفير البابوي في شهر حزيران (يونيو) سلسلة لقاءات في الشرقية وفي الغربية، طرح خلالها مشروع حلّ يقوم على تأليف حكومة وفاق وطني، تضم فيها عون نائباً لرئيس الوزراء وسمير وزيراً، وتجميد العمل باتفاق الطائف، ريثما يتم درسه داخل الحكومة الوفاقية. واوفدت الادارة الفرنسية الامين العام لوزارة الخارجية فرنسوا شير حاملاً مجموعة افكار للوصول إلى تسوية سياسية. وعقد الرئيسان الاسد والهراوي اجتماعاً في اللاذقية، رفضت بعده الدولة اللبنانية الاقتراحات الفاتيكانية والفرنسية، على اساس ان المجال مفتوح امام الجميع من دون استثناء للانضمام إلى اتفاق الطائف من دون شروط مسبقة. وفي ١١ تموز (يوليو) ١٩٩٠ وجّه مجلس الوزراء دعوة علنية إلى مجلس النواب لاقرار التعديلات الدستورية المنصوص عليها في اتفاق الطائف، وطلب من القائد السابق للجيش العماد ميشال عون إنهاء تمرده على الشرعية، ومن قائد القوات اللبنانية الانسحاب من بيروت الادارية، وإعادة العتاد الذي استولى عليه في المعارك إلى الجيش اللبناني. ووصل المندوب المتفرغ للّجنة الثلاثية، الاخضر الابراهيمي، إلى بيروت، واجتمع بالمسؤولين والقادة اللبنانيين. والتقى سمير جعجع الذي وافق على بيان الحكومة من دون اي تحفظ. واجتمع اربع مرات بميشال عون الذي اقترح إما اعادة مشاريع التعديلات الدستورية لتنظر فيها حكومة الوفاق الوطني المقبلة، واما تجميد البت بهذه المشاريع إلى حين انتخاب مجلس نيابي جديد. وعُدَّ موقف الجنرال رفضاً لدعوة الشرعية اللبنانية واللجنة الثلاثية العربية،

وكانت هذه آخر محاولة لايجاد تسوية سلمية معه. وبدأ حصار ديبلوماسي ومالي ونفطي على منطقته.

في ٢ آب (اغسطس) ١٩٩٠ وقع الزلزال العربي الذي هزّ العالم، اذ دخل الجيش العراقي إلى الكويت في اقل من ١٢ ساعة وغيّر صدام حسين الخريطتين السياسية والاستراتيجية في الشرق الاوسط. وصرّح ميشال عون ان اجتياح الكويت يمكن ان تكون له انعكاسات ايجابية على لبنان. وتداخلت من جديد الحسابات الدولية والاقليمية في الازمة اللبنانية. وحضر الرئيسان الهراوي والحص القمة العربية الطارئة التي انعقدت في القاهرة، وقررت في ١٠ آب (اغسطس) ارسال قوات عربية إلى السعودية والخليج، وفرض عقوبات على العراق. وفي اليوم التالي اشترط صدام حسين لحلّ الازمة الكويتية انسحاب اسرائيل من الاراضي العربية المحتلة والجيش السوري من لبنان وحلّ المشكلة الفلسطينية.

في منتصف آب (اغسطس) استقبل حافظ الاسد مساعد وزير الخارجية الاميركية لشؤون الشرق الاوسط، جون كيلي، الذي سلّمه رسالة من جورج بوش. وفي ٢٠ آب (اغسطس) صرّح السفير الاميركي في دمشق ادوارد دجرجيان بأنّ واشنطن تريد تنفيذ اتفاق الطائف فوراً. وفي اليوم التالي صوّت مجلس النواب على هذا الاتفاق الذي ادخل اهم تعديلات عرفها الدستور اللبناني منذ عام ١٩٤٣ وصادق عليها رئيس الجمهورية في ٢١ ايلول (سبتمبر) ١٩٩٠، وأعلن في هذه المناسبة قيام «الجمهورية الثانية».

واشادت الادارة الاميركية بهذا التصويت. وتوجّه الرؤساء الهراوي والحسيني والحص، في نهاية آب (اغسطس)، إلى دمشق التي تعهدت بتقديم الدعم الكامل للشرعية، وتفعيل المؤسسات اللبنانية، وترقب المستجدات الاقليمية والدولية. والواقع ان التطورات الاقليمية والدولية بين ١٣ أيلول (سبتمبر) و١٣ تشرين الاول (اكتوبر) ستسرّع في سقوط ميشال عون.

في ١٣ أيلول (سبتمبر)، زار دمشق للمرة الأولى وزير الخارجية الاميركي جيمس بايكر، وعقد لقاءً مطولاً مع الرئيس السوري، تمّ خلاله التفاهم حول كيفية معالجة ازمتي الخليج ولبنان. واعطت واشنطن موافقتها على الاطاحة بميشال عون وفق الشروط السورية. وبعد اسبوع تم اجتماع في عنجر، في البقاع بين العميد غازي كنعان رئيس جهاز الامن والاستطلاع في القوات السورية العاملة في لبنان ووفد من القوات اللبنانية، قوامه نادر سكر وجورج كساب. وفي نهاية ايلول (سبتمبر) زار الرئيس اللبناني دمشق، وتلقى من

الرئيس السوري وعداً قاطعاً باستعداد الجيش السوري لاقتحام مناطق عون بالقوة بناءً على طلب خطي تقدِّمه الحكومة اللبنانية. وفي ٢ تشرين الأول (اكتوبر) استقبل جورج بوش سليم الحص في البيت الابيض. وفي اليوم التالي طلب مجلس الوزراء اللبناني من دمشق تقديم مساعدتها لانهاء تمرد عون وشدد على التدابير الآيلة إلى احكام الحصار على منطقته. ولم يملك ميشال عون للرد على احتمالات الحسم العسكري الا تحريك التظاهرات والمسيرات باتجاه خطوط التماس احتجاجاً على الحصار. وبذل القاصد الرسولي والسفير الفرنسي محاولات اخيرة ويائسة لايجاد تسوية سلمية. لكن المحدلة السورية كانت قد انطلقت بضوء اخضر اميركي.

في الحادي عشر والثاني عشر من تشرين الأول (اكتوبر) توافرت لدى المراجع الفرنسية معلومات تؤكد ان العملية العسكرية باتت مسألة ساعات. وبطلب من الرئيس ميتران تحركت الديبلوماسية الفرنسية. فاتح السفير الفرنسي في دمشق السلطات السورية بالامر فلم يتلق جواباً واضحاً. واتصل وزير الخارجية رولان دوما بالرئيس الهراوي الذي نفى علمه بالامر. وامعاناً في التضليل اعلنت الخارجية الاميركية، بعد اتصال فرنسي، انها لن تعطي سوريا ضوءًا اخضر لضرب المنطقة المسيحية. وصرّح مسؤول اسرائيلي ان تل ابيب لا تؤيد استعمال العنف لازاحة العماد عون.

ولم تطمئن نفس الجنرال لكل هذه التصريحات ونظر اليها كعملية تمويه لما قد يحدث. وامضى الجزء الاكبر من ليل ١٢ ــ ١٣ تشرين الأول (اكتوبر) وهو على اتصال بالسفير الفرنسي رينيه الّا. صباح يوم السبت ١٣ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٩٠ شنّ الجيش السوري، يؤازره الجيش اللبناني بقيادة اميل لحود، هجوماً برياً على كل المحاور المحيطة بقصر بعبدا ووزارة الدفاع الوطني. وحوالى الساعة السابعة قام الطيران السوري، وللمرة الاولى في حرب لبنان، بغارة جوية استهدفت القصر الجمهوري. وفهم عون الاشارة، وقال لمرافقه: «صدر القرار، فلنمش». وخرج من القصر داخل ملالة عسكرية. والجنرالات في الشرق يدخلون عادة القصور على ظهر ملالة.

وصل تحت القصف الشديد إلى السفارة الفرنسية، حيث اجرى السفير رينيه الا الاتصالات بالمراجع اللبنانية التي اشترطت لقبولها وقف اطلاق النار ان يعلن عون الامر بصوته. وتردد الجنرال بعض الشيء، لكنه سرعان ما قال للسفير الفرنسي والألم في الحنجرة: «لقد غلبوني». نظر إليه رينيه الا بكثير من المحبة والاحترام واجابه: «ايها الجنرال، حافظ على الارواح وقلّص من الخسائر». وافق الجنرال وقرر انقاذ الجيش والناس من دون ان يعترف باتفاق الطائف،

فدعا ضباطه والجنود إلى الالتحاق بقيادة العماد إميل لحود وتلقي الأوامر منها. وهكذا سقط العماد وبقيت «ظاهرة عون». وانتهت «حقبة الجنرال» التي بدأت في ٢٣ أيلول (سبتمبر) ١٩٨٨، وطلب عون حق اللجوء السياسي ووافقت باريس على هذا الطلب. ورفضت الحكومة اللبنانية ترحيل الجنرال واحالته إلى المحاكمة، مما حدا بالرئيس فرنسوا ميتران على الاعلان ان «شرف فرنسا» بات مرتبطاً بهذه المسألة.

شعرت فرنسا ان واشنطن ودمشق وبيروت قد خدعتها، ولمست مدى التلاقي بين اميركا وسوريا لابعادها عن القرار اللبناني. وتأكد لها ان الولايات المتحدة تسعى إلى تقليص دورها في لبنان كما في المنطقة، عن طريق سياسة «الأمركة». ولا يقرّ المسؤولون الاميركيون بنظرية العلاقات المميزة بين لبنان وفرنسا. وقد سأل الرئيس الاميركي رونالد ريغان البطريرك السابق انطونيوس بطرس خريش اثناء زيارته واشنطن «لماذا علاقات الموارنة مميزة مع فرنسا دون سواها؟».

يشعر اللبنانيون وخصوصاً الموارنة منهم بخيبة أمل حيال السياسة الفرنسية. فمنذ غياب شارل ديغول فَقَدَ لبنان درعه الحقيقي. ويعتقد الكثيرون، عن خطأ او عن صواب، انه لو بقي حياً لما تجرأ احد على المس بسيادة لبنان او وحدته او حدوده المعترف بها دولياً.

والحقيقة ان ديغول كان يتعامل مع لبنان من منظار تاريخي واسع وليس من زاوية نفعية ضيقة. كان مقتنعاً ان بين لبنان وفرنسا علاقة مميزة نابعة من تاريخ البلدين، وان دور فرنسا في الشرق الاوسط مرتبط إلى حد بعيد بحضورها في لبنان. ولم يتردد في كانون الاول (ديسمبر) ١٩٦٨ في اتخاذ قرار بحظر السلاح وقطع الغيار عن اسرائيل بسبب اعتدائها على مطار بيروت. كما لم يتردد خلال حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ من التصويت إلى جانب قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ الذي طالب اسرائيل بسحب جيشها من الاراضي العربية المحتلة. وانتقد الثنائية الاميركية ــ السوفياتية التي تعطل قيام الدول الاخرى، ومنها فرنسا، بدور فعال على صعيد مشاكل العالم وقضاياه. انه آخر العمالقة الفرنسيين الذين اختطوا لبلادهم سياسة مستقلة وطموحة.

ولم يغير جورج بومبيدو كثيراً في الرؤيا الديغولية وحاول ابان حرب تشرين (اكتوبر) ١٩٧٣ ان يطوّر سياسة اوروبية مستقلة عن اميركا، وفاعلة في البحر الابيض المتوسط. وبتبوء فاليري جيسكار ديستان رئاسة الجمهورية عام ١٩٧٤ ابتدأت السياسة الديغولية تتبدل تجاه لبنان وان استمرت ثابتة حيال الدول العربية وخصوصاً البلدان الخليجية والنفطية. عرف جيسكار ديستان ان يقطف ثمار الديغولية اقتصادياً ومالياً في العالم العربي،

لكنه لم يحافظ على المنظور الديغولي تجاه لبنان واستعاض عنه بمفهوم عقلاني يعتمد حساب الربح والخسارة.

رأى جيسكار ديستان في الازمة اللبنانية، عام ١٩٧٥، حرباً اهلية بين اللبنانيين، متجاهلاً ابعادها الدولية والاقليمية، والمداخلات غير اللبنانية فيها. ومن حسنات هذا التصور انه برر تقصير فرنسا في معالجة الازمة اللبنانية، واتاح لباريس المحافظة على صداقاتها ومصالحها مع القوى التقدمية والاسلامية في لبنان والعالم العربي، ولو ضحى ببعض الشيء بسيادة لبنان وسلامة المسيحيين فيه. وقد ترافقت ولاية جيسكار ديستان مع اول صدمة نفطية عالمية؛ فتقلّص حجم فرنسا الاستراتيجي بالنسبة إلى الدولتين الكبريين وتراجع دورها بتراجع وزنها.

وسعت باريس عام ١٩٧٦، بكثير من الخجل والتردد، إلى نشر وحدات عسكرية رمزية إلى جانب الجيش السوري في لبنان. وجاء رفض حافظ الاسد قاطعاً. كما افشلت دمشق دعوة الرئيس الفرنسي إلى عقد «طاولة مستديرة» بين المتحاربين لايجاد تسوية سياسية. وانصاعت فرنسا وتراجعت عسكرياً وسياسياً، وتخلّت عن دور «حامي الموارنة ولبنان» وسلّمته إلى سوريا. وهكذا حقق حافظ الاسد الثأر التاريخي على فرنسا، التي اقامت، عام ١٩٢٠، انتدابها على سوريا ولبنان معاً، فحلّ محلها بعدما يقارب نصف القرن وبسط انتدابه على لبنان.

وكان الرئيس السوري اول من وعى تبدّل السياسة الفرنسية تجاه لبنان، اثناء زيارته باريس في صيف ١٩٧٦، اذ سأله الرئيس جيسكار ديستان عمّا اذا كان المسيحيون اللبنانيون يتكلمون اللغة العربية فأجابه الاسد: «لو لم يكونوا عرباً، لما تحمّلت سوريا كل هذه الاخطار للدفاع عنهم». وفهم الرئيس السوري ان فرنسا لم تعد تعير لبنان الاهتمام الذي كان سائداً ايام شارل ديغول.

ولا يعني تدني الاهتمام انعدامه تماماً. فقد شاركت فرنسا عام ١٩٧٨، بشكل فعّال، في تشكيل القوات الدولية التابعة للامم المتحدة التي انتشرت في جنوب لبنان، بغية انسحاب الجيش الاسرائيلي منه. كما سهّلت الادارات والجامعات والشركات استقبال اللبنانيين المهاجرين إلى فرنسا. وقد تكون دولة فرنسا، على تفاوت قياداتها واختلاف نزعاتهم، هي الدولة الغربية الوحيدة التي تتمسك فعلياً بالكيان اللبناني، ويتعاطف شعبها وجدانياً مع اللبنانيين.

استهلّ الرئيس فرنسوا ميتران حكمه عام ١٩٨١ بالعودة إلى الخطاب الديغولي في

الشؤون والقضايا الخارجية. وهو يحاول على الدوام ان يميّز موقعه وموقفه حيال واشنطن، وخصوصاً في ازمتي الشرق الاوسط ولبنان، لقد اعترف بمنظمة التحرير الفلسطينية، وطالب بمؤتمر دولي للسلام في الشرق الاوسط، والامران يتعارضان مع السياسة الاميركية. وهو يبادر دوماً تجاه ازمة لبنان، فيحرّك اوروبا حيناً، ويتعاون مع الفاتيكان احياناً، ويتقارب مع دمشق في بعض الاحيان، لكنه يصطدم في كل حين بالموقف الاميركي المتحالف مع اسرائيل والمنسّق مع سوريا. تل ابيب تتهم فرنسا بأنها «فلسطينية اكثر من اللازم»، ودمشق تراها «لبنانية اكثر من اللزوم»، والاثنتان تفضّلان التعاطي مع واشنطن.

تراجع الحضور الفرنسي في عهد امين الجميل ما بين عام ١٩٨٢ وعام ١٩٨٨ بسبب الهيمنة الاميركية على القرار اللبناني في بداية العهد، والهيمنة السورية في نهايته. وكبر الدور الفرنسي ما بين عام ١٩٨٨ وعام ١٩٩٠، في مرحلة ميشال عون، الذي كسب تأييد الاوساط الفرنسية الرسمية والشعبية. دعمت فرنسا الجنرال في «حرب التحرير» ووقفت اميركا ضدّه، وفي «حرب الشرقية» كانت باريس إلى جانب قائد الجيش في حين كانت واشنطن إلى جانب قائد القوات. وبعد سقوط ميشال عون، استقر عهد الياس الهراوي بعض الشيء، وتقلّص الدور الفرنسي بشكل كبير، وسادت البرودة العلاقات اللبنانية — الفرنسية، بسبب مسألة لجوء ميشال عون إلى فرنسا، التي ما زالت ترى فيه ورقتها المفضلة لاستعادة نفوذها قبالة النفوذ الاميركي المتنامي في لبنان.

لقد بيّنت حرب لبنان مدى عجز فرنسا عن تحمل مسؤولياتها كقوة كبرى، وتراجعها المستمر امام الولايات المتحدة. وجاءت حرب الخليج عام ١٩٩١ لتكشف في العلن مدى التبعية الفرنسية لاميركا، ومدى انبهار التيار الاشتراكي الفرنسي بالنموذج الاميركي، وابتعاده عن مفهومي التوازن والاستقلال اللذين اعتمدهما شارل ديغول. انطلق فرنسوا ميتران في بداية الثمانينات من الخطاب الديغولي ليقع في بداية التسعينات في التبعية الاميركية.

ما ان سقط الجنرال عون في ١٣ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٩٠ حتى تلاحقت الدعوات إلى الهدوء. وجّه الياس الهراوي رسالة إلى اللبنانيين، ناشدهم فيها توحيد الصفوف والتعالي فوق الاحقاد. ودعا سليم الحص وحسين الحسيني الشعب إلى بلسمة الجراح، والالتفاف حول الشرعية الواحدة. ورأى سمير جعجع ان الفترة القاتمة قد مرّت، وعلينا الافادة من اخطاء الماضي. وذكّر البطريرك صفير ان في الاتحاد قوة، وفي الانقسام خراباً.

ولم تهدأ الامور بسرعة. وكان الذهول قد امتلك الوية عون العسكرية بسبب تسليمه السلطة من دون قتال، وعمّ الاحباط لدى انصاره، وكبرت الشماتة عند خصومه. وجاءت

التجاوزات التي واكبت العملية العسكرية، لتحرِّك السكين في الجرح. دخل الجيش السوري وللمرة الأولى حرم القصر الجمهوري ووزارة الدفاع الوطني والقى القبض على مجموعة من الضباط اللبنانيين الكبار، وجرى نقلهم إلى دمشق للتحقيق معهم. كما وضع الجيش السوري اليد على كل ما عثر عليه من اوراق وارشيف واسرار. وانتشر مسلحو ايلي حبيقة والحزب القومي الاجتماعي السوري في المتنين، واعتدوا على بعض عناصر حزبي الكتائب والقوات اللبنانية. واطلق القوميون الاجتماعيون السوريون سراح الموقوف حبيب الشرتوني، المتهم باغتيال بشير الجميل عام ١٩٨٢. وفيما كان الرئيس الهراوي يزور دمشق، في ٢١ تشرين الاول (اكتوبر)، اغتال مجهولون، في منطقة بعبدا، داني شمعون وزوجته وولديه. وغيَّبت لعنة الوطن زعيماً لبنانياً مقاوماً. حزنت عليه وبكيت صداقتنا والابتسامة. وبادر وليد جنبلاط، في حركة ذات مغزى، إلى نقل جثمان داني وعائلته إلى دير القمر، في مأتم شعبي حاشد، رأى فيه الكثيرون بداية مرحلة جديدة من التعايش الدرزي ـــ المسيحي في الجبل.

شيئاً فشيئاً ابتدأت تظهر بعض مؤشرات التحسن على الصعيد الامني. شرع الجيش اللبناني في بسط سلطته على بيروت الكبرى، بعد ان سحبت ميليشيات امل وحزب الله والقوات اللبنانية عناصرها وسلاحها منها. وتمّ فتح كل المعابر والطرق بين شطري العاصمة، وسقطت خطوط التماس التي مضت عليها سنوات طويلة. ووصل إلى لبنان في تشرين الثاني (نوفمبر) السفير الاميركي الجديد، ريان كروكر. بالمقابل اقام الحزب الشيوعي اللبناني للمرة الاولى منذ نشوب الحرب اللبنانية عام ١٩٧٥، حفلة استقبال في انطلياس على شرف السفير السوفياتي الجديد غينادي ايليتشيوف. وفي اول زيارة يقوم بها رئيس عربي إلى لبنان منذ ستة عشر عاماً، وصل في ١٦ كانون الاول (ديسمبر) الرئيس الجزائري، الشاذلي بن جديد، إلى بيروت، ليلتقي نظيره اللبناني. وانتهى عام ١٩٩٠ بتشكيل «حكومة المصالحة الوطنية» برئاسة عمر كرامي. وقدّم وليد جنبلاط لاحقاً استقالته واطل عام ١٩٩١ والعالم مشدود إلى أزمة الخليج.

هبت فجر ١٧ كانون الثاني (يناير) «عاصفة الصحراء»، واغارت الطائرات الاميركية والحليفة على العراق ودخل لبنان على خط الزلازل المفتوح على كل الاحتمالات والرهانات. ووظف الحكم اللبناني ازمة الخليج لصالح المشكلة اللبنانية واتخذ قرارين في غاية الاهمية: ارسال الجيش إلى الجنوب وحل كل الميليشيات اللبنانية وغير اللبنانية. وبدت الظروف مناسبة للرئيس اليـاس الهراوي الـذي بـدا مستعـداً لاستغـلالها مهمـا كانت. ولم يتـردد الرئـيس

اللبناني عن الاعلان في نيسان ١٩٩١ ان حرب لبنان قد انتهت، وان السلام قد عاد اليه بعد ستة عشر عاماً من اللعنة.

الفصل السادس

الخليج في العصر الأميركي

لم اصدق لحظة ان حرب الخليج ستقع، وقد اخطأت التقويم والتقدير. ربح ريغان الحرب الباردة في مواجهة ميخائيل غورباتشوف في نهاية ولايته، وانتصر جورج بوش في الحرب الساخنة على صدام حسين في بداية عهده. وفاقت شعبيةُ جورج بوش الذي كانت اوساط واشنطن تصفه بـ «المتردد» شعبيةَ رونالد ريغان المعروف بـ «الكاوبوي». ريغان حضّر «لأمركة» العالم وبوش نفذها. صار المتردد «رامبو»، والولايات المتحدة امبراطورية عظمى ووحيدة تفرض قانونها في كل مكان من دون شريك أو رقيب.

ما زالت حرب الخليج من اسرار الدول وسيكشف المستقبل عن الكثير من الحقائق المخفية. ان السبب الظاهري والمباشر لهذه الحرب يعود الى احتلال العراق للكويت في ٢ آب (أغسطس) ١٩٩٠. اما السبب الحقيقي فيرجع الى نهاية عام ١٩٨٨ حين خرج العراق من الحرب مع ايران منتصراً وممتلكاً لسلاح الدمار الشامل. وما احتلال الكويت الا فخ أميركي نصبه جورج بوش فور انتخابه في خريف ١٩٨٨، ووقع فيه الرئيس العراقي مع انه كان يدرك تمام الادراك ان العراق مستهدف. إسرائيل حرَّضت والولايات المتحدة حضَّرت والتحالف الغربي ــ العربي أطبق على صدام حسين. إنها حرب مدبرة ومبرمجة قبل ٢ آب (أغسطس)، وهذا ما أكدَه البابا يوحنا بولس الثاني علناً بقوله: «ان الرغبة في الحرب كانت موجودة في الواقع قبل آب (أغسطس) ١٩٩٠ بفترة طويلة». وبتقديري انه لو اعطي الرئيس العراقي بعض الدور في لبنان لما كان دخل الكويت، ولو اعطي بعض المطالب في الكويت لما كان اجتاحها. وهذه بعض الأضواء عن حرب ما زالت من اسرار الدول.

منذ توقيع اتفاقية كمب ديفيد عام ١٩٧٨ بين مصر واسرائيل، ركزت تل أبيب اهتمامها على سوريا والعراق، واتّبعت دمشق سياسة المداورة والتخفي في حين نمّت بغداد علناً قوةً عسكريةً كبيرةً. وأفادت اسرائيل من نشوب الحرب العراقية ـــ الايرانية فدمّرت عام ١٩٨١ مفاعل تموز النووي. وتوسطت عام ١٩٨٦ بين واشنطن وطهران لتزويد ايران بالسلاح الاميركي مقابل الافراج عن الرهائن الاميركيين، في ما عرف لاحقاً بفضيحة «ايرانغيت». وراهنت تل ابيب على انتصار عسكري ايراني على العراق، او على الاقل على اطالة الحرب بشكل يرهق الدولتين عسكرياً ومالياً وسياسياً. وتمنى هنري كيسنجر ان «يشهد العالم، ولاول مرة في تاريخه، حرباً دون منتصر»، ورأى ان الورطة ستكون كبيرة اذا كسبت بغداد. واشتدت الحملة على العراق عندما تبين انه قادر على تطوير الصواريخ واطلقت عليه الاجهزة الاسرائيلية وصف «العدو الاستراتيجي رقم واحد».

والواقع ان العراق تمكن من خوض الحرب وتحقيق التنمية معاً. وانكب الحكم العراقي على تنفيذ مخططات سريعة في التطوير الصناعي والعسكري. وربط بين التصنيع المدني والانتاج الحربي. وشرع في استيعاب التكنولوجيا الحديثة. وادخل تعديلات على المدافع والدبابات والصواريخ. واطلق اول قمر صناعيّ واستأنف برنامجه النووي.

ازاء هذا التقدم النوعي، ساد القلق الاوساط الحاكمة الاسرائيلية وشاركتها الولايات المتحدة بعض قلقها عندما تبين ان الحكم العراقي مصمم على ردم الثغرة التكنولوجية التي تفصله عن الدول الصناعية. كل شيء مسموح في نظر واشنطن عدا امتلاك دول العالم الثالث للتكنولوجيا المتقدمة. ومجرد التفكير في الخروج من التبعية التكنولوجية يُعدّ خطيئة لا تغتفر وتجاوزاً للخط الأحمر الدولي. هذا هو السبب الأهم وغير المباشر لحرب الخليج؛ اذ لا تتحمل واشنطن رؤية أسلحة الدمار الشامل تنتشر في دول العالم الثالث، خصوصاً في الدول الخارجة عن مناطق نفوذها، وأهمّها الدول ذات النظام الفردي وغير الديمقراطي، حيث يتمتع شخص واحد بسلطة القرار المطلق، او الدول التي تصر على استقلالها الوطني، ولا تخضع لمشيئة اي من الدولتين العظميين.

وعى صدام حسين مخاطر انتصاره على ايران عندما لحظ: «ان انتصارنا يشكل خطراً علينا يوازي خطورة استمرار القتال». وقال لي طارق عزيز في اواخر عام ١٩٨٨: «لا اسرائيل، ولا الدول الكبرى، ولا حتى بعض الاقطار العربية مرتاحة لانتصارنا العسكري، وهي تخطط لافشالنا». لقد حملت سابقة انتصار العراق بقواه الذاتية في طياتها بذور خروج على النظام الاميركي العالمي. وكان لا بد من ضربه وتلقين الدول الاخرى درساً لا تنساه، وهذا ما سيتم تدريجياً: لن تتوقف حرب الخليج التي اندلعت عسكرياً، في كانون الثاني (يناير) ١٩٩١، الا بعد تدمير الجزء الأكبر من بنية العراق الصناعية والعسكرية، ولن يعلن وقف رسمي لاطلاق النار الا بعد اشتراط ازالة بغداد اسلحتها الكيميائية والبيولوجية.

ما ان حطت الحرب العراقية ـــ الايرانية اوزارها في صيف ١٩٨٨ حتى ابتدأت الاجواء تتحضر، فقامت حملة اعلامية فجائية تندد باستخدام الجيش العراقي للاسلحة الكيميائية ضد الاكراد في مدينة حلبجه، وبتطويره صواريخ سكود التي تحمل الرؤوس الكيميائية والنووية وتصل إلى عمق اسرائيل، وباقتنائه المدفع العملاق وبانتاج اليورانيوم. ونجحت هذه الحملة في تشويه صورة العراق الدولية. وظهر صدام حسين بمظهر الغول، وكثر الكلام على خلل استراتيجي في توازنات الشرق الاوسط.

ترقى اسباب هذه الحملة إلى أن البيت الابيض كان يتوقع ان ترسل بغداد إلى واشنطن فور انتهاء حربها مع ايران اشارات ايجابية تنمُّ عن مدى قبولها بالسياسة الاميركية. لكن صدام حسين تصرف عكس ذلك وراح يتدخل في الازمة اللبنانية وكأنه دولة عربية كبرى دون استئذان الولايات المتحدة او التنسيق معها فتصدت له واشنطن وحصلت اول مواجهة اميركية ـــ عراقية في لبنان قبل الخليج.

دخلت بغداد على خط الازمة اللبنانية في مواجهة سافرة مع الولايات المتحدة. وايدت في ايلول (سبتمبر) ١٩٨٨ المحور اللبناني المعارض لاتفاق مورفي ـــ الاسد، واصرت على حل الازمة اللبنانية في اطار عربي وبمعزل عن الاتفاق الاميركي ـــ السوري. ودعمت حرب التحرير التي اعلنها ميشال عون ضد دمشق في آذار (مارس) ١٩٨٩، وزودت الجيش اللبناني والقوات اللبنانية بكمية ضخمة من الاسلحة فاقت قيمتها ٣٠٠ مليون دولار. وطالب صدام حسين في القمة العربية المنعقدة في الدار البيضاء في ايار (مايو) ١٩٨٩ بسحب الجيش السوري من لبنان، مشيراً إلى انه لا يجوز ان يحكم منطق القوة العلاقات الدولية فتحتل كل دولة كبيرة جارتها الصغيرة، والا فماذا يمنع العراق من احتلال الكويت؟!

تصدت واشنطن للزخم العراقي، وراحت دبلوماسيتها تبرز سيئات التدخل العراقي الذي «يزيد الاوضاع اللبنانية تعقيداً» حسب تعبيرها. وحذرت القيادات المسيحية المتعاطفة مع العراق من مغبة نشوب نزاع عراقي ـــ سوري في لبنان. وسرت فجأة اخبار تفيد ان الجيش اللبناني تسلم من بغداد صواريخ «فروغ» البعيدة المدى القادرة على ضرب دمشق. وجاء الرد مزدوجاً: سوريا هددت واسرائيل حذّرت. وكبرت الحملة، مما دفع الرئيس العراقي بناء على طلب عربي، إلى اصدار بيان يلتزم فيه بعدم تزويد اي طرف لبناني بالسلاح. واحس صدام حسين بمدى الانحياز الاميركي ضده: مسموح لسوريا ان يكون لها جيش بكامل عتاده ينتشر في ثلثي لبنان واكثر، ومسموح لاسرائيل ان تحتل جنوب لبنان وتقيم فيه شريطاً حدودياً خلافاً لقرارات الامم المتحدة، وممنوع على العراق ان يتعاطى الشأن اللبناني ولو عن طريق ارسال بعض الاسلحة لفريق لبناني يدافع عن نفسه؛ انه الصيف والشتاء تحت سقف واحد.

وفهم الرئيس العراقي الرسالة وراح يراقب الولايات المتحدة تضع كل ثقلها لانجاح مؤتمر الطائف في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٨٩ وانتخاب رئيسين للجمهورية محسوبين على سوريا في الشهر التالي. وايقن ان واشنطن تريد تحجيمه واقصاءه عن اي دور في لبنان والمنطقة. وكان يصارح الذين التقاهم في تلك الفترة فيقول: «تريد اميركا تحجيمنا. مسموح لنا ان نبني دولة الفنادق والاوتوسترادات ولكن غير مسموح ان نبني دولة بجيش قوي او بصناعة متقدمة. لقد بدأت الحرب علينا، والصدام حاصل حتماً». وشرع الرئيس العراقي يرسم معالم المرحلة المقبلة، وادرك انه سيبقى هامشياً اذا لم يمس المحرمات والتوازنات القائمة ويقتحم الخطوط الحمر. واتجهت انظاره صوب الخليج حيث حضوره السياسي في تصاعد ووزنه العسكري لا جدال فيه. اقصوه عام ١٩٨٩ عن لبنان فرد عليهم عام ١٩٩٠ في الكويت.

مع اطلالة عام ١٩٩٠ كان الرئيس العراقي يعاني مرارتين: مرارة اميركية بسبب افشاله في لبنان، ومرارة عربية بسبب تجاهل حاجاته الاقتصادية. كان العراق يرزح تحت ثقل ديون خارجية، بلغت ما يقارب السبعين مليار دولار، اقل من نصفها مستحق للسعودية والكويت ودول الخليج. وكان يحتاج ما يقارب الستين مليار دولار لاعادة بناء اقتصاده الذي هدته الحرب مع ايران، في حين كانت اسعار النفط منخفضة بسبب تخطي بعض دول منظمة اوبيك ومنها الكويت ودولة الامارات العربية حصص الانتاج المخصصة لها.

اغتنم صدام حسين فرصة انعقاد قمة «مجلس التعاون العربي» الذي يضم كلاً من العراق

ومصر والاردن واليمن في عمان في شباط (فبراير) ١٩٩٠، ليطرح تصوراً كاملاً للمستجدات العالمية بأسلوب يوحي بأنَّ العراق في طور تسلم زمام القيادة العربية. اشار في مستهل مداخلته إلى ان الحرب العالمية الأولى انتجت اتفاق سايكس بيكو الذي قسَّم الامة العربية إلى دول ومجموعات عدة، وان الحرب العالمية الثانية انتهت بإقامة دولة اسرائيل، وان الحرب العالمية الثالثة، وهي الحرب الباردة، حُسمت لصالح واشنطن وقد تؤدي إلى إقامة اسرائيل الكبرى التي لاحت اولى بوادرها مع هجرة اليهود السوفيات إلى الدولة العبرية. ولاحظ ان الولايات المتحدة اصبحت وإلى حين في موقع «الارجحية» في السياسة الدولية، وتتبع سياسة مريبة تجاه العرب بدليل بقاء اساطيلها في الخليج على الرغم من انتهاء الحرب العراقية ـــ الايرانية، وزوال خطر العدوان الايراني على الكويت؛ وطالب بانسحاب هذه الاساطيل. وحذّر من محاولة واشنطن وضع يدها على النفط العربي، والتمادي في غيّها فيحلو لها يوماً ان تتدخل في تحديد كمية انتاج النفط وتحديد سعره وحتى الجهة التي تشتريه، وأضاف: «ان منطقة الخليج العربي ستصبح محكومة بالارادة الاميركية ان لم ينتبه ابناء الخليج ومنهم كل العرب... وان السلام بعيد في الشرق الاوسط من وجهة النظر الاميركية التي تحتاج إلى اسرائيل عدوانية لا مسالمة». وخلص إلى نتيجة في غاية الوضوح: «ان اميركا ستبقى قادرة على ان تنفلت خارج ضوابط ما جرت عليه العادة في المحيط الدولي خلال السنوات الخمس القادمة». وكأنه ينبِّه الآخرين إلى ان يكونوا حذرين خلال السنوات الخمس المقبلة فلا يتورطوا. لكنه هو الذي تورط بعد اقل من ستة اشهر.

ولم يعف ما اسماه بـ «العرب المرتجفين» من النقد لأنهم يخضعون للولايات المتحدة ويدعون الآخرين للاقتداء بهم. وغضب الرئيس المصري حسني مبارك الذي شعر ان الانتقاد موجّه اليه، وتدخّل الملك الاردني لمصالحتهما. وفهم الحاضرون ان العراق يهيىء نفسه للامساك بالخليج بدل أميركا، وان صدام حسين يشعر بأنه مستهدف من قبل واشنطن التي تمهد لحرب في المنطقة. وكان العاهل الاردني هو الاكثر استشفافاً لخطورة المرحلة. فقام فور انتهاء القمة بجولة على القادة الخليجيين نقل خلالها مطالب بغداد الثلاثة: رسم الحدود مع الكويت بحيث يحتفظ العراق بكامل حقل الرميله النفطي، واستئجار جزيرتي وربه وبوبيان غير المأهولتين واللتين تشكلان منفذه المباشر على البحر، وإلغاء الديون المترتبة عليه. جاء الرد الكويتي سلبياً. وقرأ فيه صدام تحريضاً اميركياً للتضييق عليه وتطويقه. ولم يخف الرئيس العراقي هذا الاستنتاج امام البرلمانيين العرب في نيسان (ابريل) ١٩٩٠ عندما قال لهم: «وصل العراق إلى حال يبدو وفق تقديراتهم بأنها حال غير مسموح بها،

وربما هناك حالات اخرى في الوطن العربي مماثلة. لكنهم اختاروا العراق حلقة بين الحلقات القوية وركزوا عليه، وتصوروا انه بالامكان اضعافه ليكون درساً لباقي الحلقات في الوطن العربي». غريب امر صدام حسين، كان يستشف وبشكل واضح الفخ الاميركي المنصوب له ووقع فيه على الرغم من كل يقظته وتنبهه.

حزم الرئيس العراقي امره: تراجع مرة في لبنان لكنه لن يتراجع ثانية في الكويت. ورفع وتيرة المواجهة عندما فاجأ العالم في نيسان (ابريل) ١٩٩٠: «ليسجلوا هذا الاعلان: لدينا الكيماوي المزدوج... من يهددنا بالقنبلة الذرية سنرد عليه بالمزدوج... فوالله لنجعلن النار تأكل نصف اسرائيل اذا حاولت القيام بأي شيء ضد العراق». وهبت عاصفة اعلامية وسياسية تندد بكلام صدام حسين وتصدرت اسرائيل وواشنطن الحملة. وفي ٢٥ نيسان (ابريل) ١٩٩٠، اي قبل اكثر من ثلاثة اشهر من احتلال الكويت، ادلى وزير الخارجية الاميركي جيمس بيكر بتصريح لافت كشف فيه ان واشنطن تبحث في فرض العقوبات على العراق بسبب جهوده لامتلاك اسلحة غير تقليدية وتهديده امن اسرائيل.

طغى في ربيع ١٩٩٠ على العالم العربي موضوعان: هجرة اليهود السوفيات إلى اسرائيل والحملة على العراق. ودعا الرئيس العراقي إلى عقد قمة عربية في بغداد في ٢٨ ايار (مايو) لبحث الموضوعين. ولبَّت الدول العربية الدعوة باستثناء سوريا وتضامن معها لبنان. وبلغ صدام حسين في هذا المؤتمر اوج تألقه: لم يعد رجل العراق القوي بل اصبح رجلٍ العرب القوي. وطلب في نهاية المؤتمر عقد جلسة مغلقة للرؤساء صارحهم خلالها بأنَّ «بعض الاشقاء العرب» الذين لم يسمهم، حفاظاً على تقاليد الضيافة العربية، لا يلتزمون بمقررات اوبيك، مما ادى إلى انخفاض سعر النفط الذي وصل احياناً حدود سبعة دولارات للبرميل الواحد بدل ثمانية عشر دولاراً. ولفت نظر المستمعين إلى ان كل تدنٍّ بقدر دولار واحد للبرميل يخسر من جرائه العراق مليار دولار في السنة. واشار إلى ان ما يحدث هو نوع من الحرب على العراق. وساوى بين الحرب العسكرية والحرب الاقتصادية عندما قال: «ان الحرب تحصل احياناً بالجنود ويحصل الايذاء بالتفجيرات وبالقتل وبمحاولات الانقلاب واحياناً اخرى يحصل بالاقتصاد. ان قطع الارزاق من قطع الاعناق». ولمس امير الكويت خطورة الموقف فاختلى بالرئيس العراقي وكرر دعوته له لزيارة الكويت وعرض عليه تحديد الموعد. اجابه صدام: «لا حاجة إلى تحديد موعد. سوف ازورك قريباً وانت لا تدري الا وتراني قد اصبحت في الكويت». كانت الرسالة في غاية الوضوح لكن امير الكويت لم يصدقها ومال إلى تصديق الضمانات الاميركية.

وتسارعت الاحداث: العراق يطالب، والكويت بايحاء اميركي ترفض، وصدام حسين ينفعل. في حزيران (يونيو) ١٩٩٠ دعا الرئيس العراقي الدول الاعضاء في اوبيك إلى ابرام اتفاقية شاملة تلزمهم بالحصص الانتاجية. واكد حق العراق في الصدام مع العرب الذين لا يلتزمون بالحد الادنى الذي تم الاتفاق عليه في قمة بغداد. وفي الذكرى الثانية والعشرين للثورة العراقية في ١٧ تموز (يوليو) ١٩٩٠، فجَّر علناً ما كتمه سراً، واتهم بعض دول الخليج بـ «طعن العراق في الظهر بخنجر مسموم» وبالتآمر مع الولايات المتحدة التي تريد «ان تستأثر بمركز القوة العظمى، وان تضمن تدفق النفط بأبخس الاسعار، وان تتحكم بمصير مصدِّري النفط والمستهلكين وخصوصاً الدول الاوروبية واليابان وربما الاتحاد السوفياتي». وفي اليوم التالي بعث وزير الخارجية العراقي طارق عزيز مذكرة إلى جامعة الدول العربية اتهم فيها الكويت ودولة الامارات العربية المتحدة بتنفيذ مخطط لتدمير الاقتصاد العراقي. واشار إلى ان الكويت نصبت منذ عام ١٩٨٠ تجهيزات نفطية في حقل الرميله العراقي وسرقت كمية من النفط توازي مليارين واربعمائة مليون دولار وطالب باستعادتها، وانَّها اقامت المنشآت العسكرية والمخافر داخل العراق، «وتعمدت الاعتداء على ارضه وسرقة ثروة من حموا ارض الكويت وعرضها وثروتها». وخلص إلى ان اعتداء الكويت على العراق مزدوج: اعتداء عسكري على الارض واعتداء اقتصادي «لا يقل في تأثيره عن العدوان العسكري». انه اعلان حرب صريح اتبعه العراق بحشد ثلاثين ثم مئة الف جندي على حدوده مع الكويت. وقارب الجميع الفخ ودخلوا زمن الحسابات الخاطئة.

لم تكترث الكويت في بادىء الامر للتهديدات الكلامية ولا للحشود العسكرية، وتعاملت معها على انها مجرد «عملية ابتذاذ» يقوم بها العراق لالغاء الديون والحصول على بعض المساعدات المالية ورفع سعر النفط. وزاد في تعنّت الكويت تصريح رسمي اميركي اكدت فيه واشنطن انها ملتزمة بحماية اصدقائها بـ «صورة فردية وجماعية». واستدعى صدام حسين سفيرة الولايات المتحدة في بغداد ابريل غلاسبي يوم ٢٥ تموز (يوليو) ١٩٩٠، وحمَّلها رسالة إلى جورج بوش حول العلاقات الاميركية العراقية وحول نزاعه مع الكويت. وكان جواب السفيرة ان الرئيس الاميركي لا ينوي شن حرب اقتصادية على العراق على الرغم من مطالبة العديد من اعضاء مجلس الشيوخ، وحول النزاع الحدودي مع الكويت اشارت ان الخارجية الاميركية دأبت منذ الستينات على ارسال توجيهات تؤكد ان «لا علاقة لأميركا بهذه القضية»، وأن جيمس بيكر طلب من المتحدث الرسمي ان يؤكد مجدداً هذا التوجيه. وتمنت ان يتم حل هذا النزاع «في اطار الجامعة العربية او عن طريق الرئيس مبارك». وأكد لها الرئيس العراقي ان الاتصالات جارية وان الرئيس مبارك يمهد

لعقد لقاء عربي في جدّة بغية ايجاد حل سلمي للنزاع مع الكويت. واستنتج صدام ان الولايات المتحدة لن تتدخل عسكرياً، واستخلصت الديبلوماسية الاميركية ان الرئيس العراقي لا ينوي احتلال الكويت. ولا اريد انصافاً ان اتهم ابريل غلاسبي التي اعرفها شخصياً انها خدعت صدام حسين عمداً، فهي في ظني لم تكن بالضرورة مطلعة على مخططات ادارتها. وقد حصل هذا الامر في السابق فلم تزود الخارجية الاميركية دبلوماسييها بكل خلفيات السياسة التي تتبعها.

ما ان حشد العراق قواته على الحدود الكويتية حتى ادركت واشنطن ان الوقت قد حان لحمل العراق على ارتكاب «الهفوة الضرورية» التي تفتح امامها مجال التدخل العسكري. فرسمت خطة تقوم على ما يمكن تسميته بـ «لعبة البلياردو»: تحرض الكويت على عدم القبول بمطالب صدام، وفي الوقت ذاته توحي لصدام انها غير معنية بنزاعه مع الكويت. وتأتي النتيجة المتوخاة: العراق الواثق من عدم التدخل الاميركي يجتاح الكويت المعتمدة على الحماية الاميركية. وهذا ما حصل بالفعل مع مفاجأة ساهمت في تسريع الحدث وهي ان العراق احتل كل الكويت دفعة واحدة في حين كانت الاستخبارات الاميركية تتوقع دخول الجيش العراقي إلى المناطق المُتَنَازَعِ عَلَيْهَا فقط.

وارتفعت حمى الاتصالات العربية. رتب حسني مبارك لقاء عراقياً — كويتياً في جدّه واستحصل على وعد من صدام حسين بعدم الاقدام على اي عمل عسكري قبل انعقاد هذا الاجتماع في ٣١ تموز (يوليو). وطمأن الرئيس المصري المسؤولين الكويتيين حول النوايا العراقية، مما زاد في تصلبهم ورفضهم كل مطالب العراق. ونصح ياسر عرفات الكويتيين بتقديم بعض التنازلات إلى صدام حسين للحيلولة دون اجتياحه الكويت لكنهم لم يستمعوا إلى النصيحة. ولم يحمل ولي عهد الكويت إلى جدّه اي اقتراحات واكتفى بتعليمات الامير الذي قال له: «نصحنا اصدقاؤنا بألّا نعطي شيئاً...» يقصد الاميركيين طبعاً. وفشل الاجتماع ورأى صدام في هذا التصرف إهانة شخصية وقال غاضباً: «سيدفعون الثمن غالياً». وعرض البنتاغون إثر فشل اجتماع جدّه على وزير الدفاع الكويتي إرسال قوة اميركية للحماية. فجنَّ جنون صدام واعطى الامر باجتياح الكويت. وهكذا حثت اميركا الكويت على الرفض واتكلت على انفعالية الرئيس العراقي وعنفوانه. وبدأت المصيدة تشد على صدام حسين كلما حاول الخروج منها.

عند دخوله الكويت اكد الرئيس العراقي التزامه باتفاقية عدم الاعتداء الموقَّعة مع السعودية، وابلغ القادة السعوديين عن استعداده لتقديم اية ضمانات تزيل قلقهم وتجعلهم

يطمئنون. واستدعى، في غياب السفيرة الاميركية، القائم بالاعمال الاميركي جوزف ويلسون في ٦ آب (اغسطس) وحمّله رسالة إلى جورج بوش اكد له فيها نية العراق في ضمان تدفق النفط مشيراً إلى ان المصلحة الاميركية تتأمن مع الانظمة القوية، اكثر منها مع الأنظمة الضعيفة، واضاف: «اذا كنتم فعلاً قلقين على السعودية فإن قلقكم غير واقعي. واذا كنتم تتظاهرون بالقلق لكي تدفعوا السعودية إلى القلق، فهذا شيء آخر». والواضح انه لم يكن في نية صدام حسين ان يقوم بأي عمل عسكري ضد السعودية. ولم يتصور لحظة ان السعودية في وارد استقدام جيش اجنبي لحمايتها. اما حسابات الرئيس الاميركي فكانت مغايرة. لقد قرر بعد يومين من اجتياح الكويت ارسال قوات اميركية إلى السعودية. واوفد في ٦ آب (اغسطس) وزير دفاعه ديك شيني لاقناع المسؤولين السعوديين. ولم يوافق قادة المملكة على العرض الاميركي الا مضطرين بعد ان اوهمهم الوزير الاميركي بواسطة صور التقطتها الاقمار الصناعية ان العراق يستعد لغزو السعودية. وفي ٨ آب (اغسطس) وصلت طلائع الجيش الاميركي التي كانت جاهزة قبل موافقة السعوديين واخذت تنتشر في ارجاء اغنى منطقة نفطية في العالم. ردَّ صدام في اليوم ذاته على وصول الوحدات الاميركية بإعلان «ضم الكويت»، وتورطَ اكثر في الفخ الاميركي.

في هذه الاثناء واصل الملك حسين مساعيه لايجاد مخرج عربي للازمة. واستحصل من الرئيس العراقي على وعد بسحب جيشه من الكويت شرط تلبية كل مطالبه بالاضافة إلى امتناع جامعة الدول العربية عن اتخاذ قرار علني ضده.

وفيما كان الرئيس الاميركي يشجع العاهل الاردني على متابعة مساعيه، اتصل بالرئيس المصري طالباً منه استصدار قرار عربي سريع يدين العراق. ولم يعط بوش الوساطة العربية الوقت اللازم للتوصل إلى تسوية عربية كانت تلوح في الافق. وفي ١٠ آب (اغسطس) التأمت قمة عربية في القاهرة في اجواء من الوجوم والخلافات والحسابات المتضاربة. واقترح ياسر عرفات تأليف وفد عربي من مصر والجزائر واليمن والاردن وفلسطين يتوجه إلى بغداد لمقابلة الرئيس العراقي، واكد ان حل الازمة في هذا الاطار ممكن جداً. لكن الرئيس المصري رفض المشاركة في هذا الوفد بحجة ان صدام حسين نكث بتعهداته سابقاً، وأصرّ ان يطرح على التصويت مشروع توصية تدين العراق وتدعو إلى ارسال قوات عربية إلى الخليج. وتمَّ التصويت في جو ساده اللغط والانقسام ولم يؤيد الاقتراح الا احدى عشرة دولة من اصل واحدة وعشرين. وفي اليوم ذاته اعلن صدام «الجهاد المقدس» ضد الاميركيين وحلفائهم. وبعد يومين اتخذ موقفاً هزّ العالم عندما طالب بالربط بين انسحاب

العراق من الكويت وانسحاب اسرائيل من الاراضي العربية التي احتلتها في فلسطين وسوريا ولبنان بالاضافة إلى انسحاب الجيش السوري من لبنان. وارتعشت الجماهير العربية من المحيط إلى الخليج وهدرت وشرعت تؤيد صدام حسين وكأنه «ناصرها» الجديد. وحطّم الرئيس العراقي كل القيود وتجاهل كل الحسابات واعترته مسحة من الاندفاع القومي وراح يصدِّق ان كل شيء ممكن، وصار مُهَيَّأً نفسياً للانزلاق السريع. ووصلت شعبيته إلى اقصى الحدود عندما طالب بالتوزيع العادل لعائدات النفط العربي على كل البلدان العربية، فبلغ قمة التألق ودخل عمق المأزق. صدام تصلّب، وبوش أجهض الوساطات والفخ انغلق على اللاعبين؛ أما اللعبة الاميركية فأخذت مداها.

لا شك ان حرب الخليج حملت وستحمل في طياتها الكثير من النتائج الخطرة، لكنها تنطوي من وجهة نظري على تصور اميركي لا يقل خطورة. فمنذ انتخاب الرئيس بوش ارتفعت بعض اصوات مستشاريه تزعم ان الأمن القومي الاميركي مهدد في هذا العقد من قبل بعض دول العالم الثالث وخصوصاً تلك التي تمارس سياسة الاستقلال الوطني كما كان مهدداً من قبل الاتحاد السوفياتي قبل تقلص نفوذه. وفي ضوء ما جرى في الخليج بمقدوري ان اطرح نظرة اميركية جديدة ستتضح معالمها اكثر في السنوات المقبلة وسأطلق عليها منذ الآن تسمية «مذهب بوش تجاه العالم الثالث». ويمكن عرض هذا المذهب وفق خمسة توجهات هي:

١ ــ ان التهديدات التي تواجه الولايات المتحدة في الحقبة المقبلة لن تصدر فقط عن الدول العظمى بل ايضاً عن دول العالم الثالث القادرة والطامحة إلى أداء دور اقليمي لا يخضع للضوابط الاميركية. ويشكل الاستقلال الوطني في ضوء هذا المنطق العامل الرئيسي الذي يصعب على واشنطن التعامل معه.

٢ ــ ان العالم الثالث ينقسم في ضوء هذا التصور إلى ثلاث فئات: الدول النفطية ودول اوروبا الشرقية والدول الباقية. وتترتب على الولايات المتحدة مسؤولية الامساك بالدول النفطية بصورة مباشرة، واذا اقتضى الامر عن طريق إقامة قواعد عسكرية فيها. وتولي واشنطن المانيا واليابان مهمة تحمُّل اعباء اوروبا الشرقية وتحويلها إلى منطقة تشابه ما هي عليه دول اميركا اللاتينية. اما الدول الباقية فيمكن مراقبتها عن طريق المساعدات او الضغوط الاقتصادية، واذا لزم الامر عن طريق العمل العسكري المحدود.

٣ ــ ان التخلص من عقدة فيتنام بشكل نهائي صار ضرورة، وتقبُّل فكرة استخدام القوة التقليدية لفرض الحلول على العالم الثالث اضحت حاجة ماسة. ويفترض في المواجهة

العسكرية، وبصورة خاصة الاولى من نوعها، لا تحقيق النصر السريع فقط بل تدمير الآخر تدميراً كاملاً، وتحميله نتائج هذا التدمير، واجباره على تقديم التعويضات التي ترهقه على المدى البعيد. ولا يتم في هذا السياق وقف نهائي لاطلاق النار الا بعد تحقيق الاهداف كاملة واخضاع العدو بشكل مطلق بحيث يشكل عبرة لمن اعتبر.

٤ ــ ان المواجهة بين الولايات المتحدة واحدى دول العالم الثالث تخلق حالة بديهية من التعاطف الدولي مع الدولة الضعيفة لا من قبل دول العالم الثالث وحسب بل من قبل معظم الدول الصناعية الغربية. وللحيلولة دون ارباك الولايات المتحدة او عزلها يقتضي ابراز المواقف المبدئية والحقوق الاساسية بشكل واضح لا يقبل الجدل، واظهار الآخر في موقف المعتدي والظالم والمتمرد. كما يقتضي ان تخوض الولايات المتحدة المعركة في ظل تحالف واسع يضم دولاً غربية ودولاً من العالم الثالث فلا تبقى منفردة. ومن المستحسن اتخاذ القرارات في اطار مجلس الامن الدولي بحيث تبدو المواجهة بين الامم المتحدة واحدى الدول العاصية وليس بين الولايات المتحدة واحدى دول العالم الثالث.

٥ ــ ان تحويل معركة سهلة إلى انتصار سياسي كبير شيء ممكن، اذا أحسن استعمال الاعلام. وينبغي بادىء ذي بدء اخذ الوقت الكافي لتعبئة الرأي العام الداخلي واشعاره بالخوف عن طريق تضخيم حجم المعركة وقدرات الخصم واحتمالات المخاطر، فيتم تحقيق هدفين متلازمين: تحويل اهتمام المواطن الاميركي من الأمور الداخلية المتردية والصعبة إلى الأمور الخارجية، وانعاش الاقتصاد الاميركي.

في مواجهة «مذهب بوش» المبتكر والذي يطبق للمرة الاولى، تصرَّف صدام حسين وفق الحسابات المعهودة والمعادلات التقليدية، فأخطأ في التقدير وفي التوقعات، ولم يعرف ان يخرج من الفخ قبل اندلاع المعارك ولا بعدها، ولم يفسح له بوش في المجال في اي وقت من الاوقات. ولا يعود خطأ القيادة العراقية إلى جهل في السياسة، بل إلى جهل بشخصية الرئيس الاميركي الحقيقية وعدم الاطلاع على سياسته الجديدة. كان مُقَدَّراً للحسابات العراقية ان تصح لولا سياسة الانفتاح التي اتبعها الاتحاد السوفياتي وانشغاله بمشاكله الداخلية مما اطلق يد واشنطن في الشؤون العالمية، ولولا رغبة سيد البيت الابيض في إظهار نفسه بصورة الرئيس المصمم وليس الرجل المتردّد. وظن القادة العراقيون ان اميركا ما زالت تعاني من عقدة فيتنام وانها اعجز من ان تتدخل عسكرياً، وان فرنسا لن تشارك في الحملة العسكرية، والاتحاد السوفياتي سيستخدم حق الفيتو في مجلس الامن الدولي، واسرائيل ستدخل المعركة فيتحول النزاع إلى حرب عربية ــ اسرائيلية، وان

الشارع العربي سينفجر بركاناً ضاغطاً يؤثر في موقف الحكام، وفي أسوأ الأحوال ان العراق سيتعرض لهجوم عسكري فيصمد بعض الوقت إلى حين تعلو أصوات تطالب بوقف فوري لاطلاق النار، فينسحب الجيش العراقي بكرامته بعد ان يكون قد واجه اضخم آلة عسكرية عرفها التاريخ.

ولم تتحقق أيّة من هذه التوقعات. قرر بوش ان يخلص اميركا نهائياً من عقدة فيتنام وكان بحاجة إلى حرب الخليج ليشفيها تماماً. ولم تميز باريس موقفها عن واشنطن لا بل خضعت كلياً للمشيئة الاميركية. ولم تستخدم موسكو حق الفيتو بل وافقت على كل العقوبات الاقتصادية والعسكرية. وتحرك الشارع العربي بحماس وقوة لكنه لم يبدِّل في موقف الحكام. ولم تتورط اسرائيل في المعركة على الرغم من قصفها بصواريخ سكود. ومرد الالتزام الاسرائيلي ان واشنطن تعهدت بأن الحرب لن تقف عند حدود تحرير الكويت بل ستتعداها إلى تدمير العراق عسكرياً واقتصادياً وإزالة اسلحة الدمار الشامل التي يملكها. وفي الواقع لم يوقف الجيش الاميركي المعركة الا بعد ان دمر الجزء الاكبر من آلة العراق العسكرية وبنيته الصناعية والاقتصادية، وبعد أن فجَّر حربين اهليتين: واحدة شيعية واخرى كردية. وبدا العراق على شفير «اللبننة». وانتقلت لعنة الوطن من لبنان إلى الخليج. وانتصر جورج بوش ــ الرجل الذي كانوا يصفونه بالضعيف ــ على صدام حسين، الرجل الفولاذي.

في ٢٨ نيسان (ابريل) ١٩٣٧، ولد صدام حسين يتيم الاب في قرية العوجه جنوب قضاء تكريت التي تعني بالرومانية «قلعة دجلة». عاش طفولة فقيرة في اطار عائلة من الفلاحين الصغار. كان عليه ان يختط قدره بنفسه: مشاعر اليتم تشده إلى الانكفاء على الذات، ونزعة القيادة تدفعه إلى اقتحام الآخرين.

اكتشف، وهو في العاشرة من العمر، ان ابن عمه يتعلم القراءة والكتابة. فاستيقظت فيه غريزة المعرفة وطلب من اهله ان يتعلم، فمانعوا لأن الفلاحين اعتادوا في تلك الحقبة ألاَّ يرسلوا ابناءهم إلى المدارس. فهرب مشياً على الاقدام. وساعده بعض اقربائه في الوصول إلى تكريت حيث يقيم خاله الذي اعتنى به عناية الاب، وقدّموا له على سبيل الحيطة مسدساً. وحمل صدام المسدس قبل ان يحمل القلم. وبدأت مسيرة رجل سيغيِّر تاريخ العراق ويؤثر في احداث الشرق الاوسط والعالم.

لولا تصميمه وعناده لبقي تائهاً في الريف يمارس الزراعة على غرار اهله. وقد أثَّرت فيه تجربة الطفولة. وما ان تسلم الحكم حتى فرض الزامية التعليم على الاولاد، ووضع مخططاً لمحو الأمية نفَّذه في فترة قياسية مما ادهش اختصاصيي الاونيسكو. لم تبعده هموم الحكم ومشاغله عن فضيلة القراءة، وهو ما انفك ينصح رفاقه والمسؤولين: «يجب ان تطالعوا كتاباً واحداً على الاقل كل شهر».

في تكريت انهى دروسه الابتدائية وانتقل إلى بغداد حيث تابع المرحلتين المتوسطة والثانوية في مدرسة الكرخ. وانضوى عام ١٩٥٧ في صفوف حزب البعث العربي الاشتراكي. وكانت المرحلة تعبق بالرومنطقية الثورية. جمال عبد الناصر، العملاق القومي، يؤمم قناة السويس. بريطانيا وفرنسا واسرائيل تشن عام ١٩٥٦ هجوماً على مصر وتضطر إلى التراجع. مصر وسوريا تعلنان الوحدة عام ١٩٥٨، وعبد الكريم قاسم مع مجموعة من الضباط الاحرار ومنهم احمد حسن البكر يطيحون في تموز (يوليو) من العام ذاته بنظام الملكية في العراق. لكن سرعان ما غرق الانقلاب العسكري في العنف والاضطرابات والمحاكمات والمشانق وملاحقة البعثيين واعتقالهم.

في العام ١٩٥٩ كلَّفه الحزب بمهمة اغتيال عبد الكريم قاسم، ونفذ في ٧ تشرين الأول

(أكتوبر) العملية مع اربعة رفاق. وفشلت المحاولة واصيب صدام برصاصة في قدمه اليسرى. وكان الانتقال الى المستشفى او استدعاء طبيب بمثابة تسليم النفس الى المشنقة. طلب صدام من رفيق له سحب الرصاصة: «احضر شفرة حلاقة جديدة ومقصاً معقماً، قص اللحم بالشفرة واسحب الرصاصة بالمقص. هذا كل شيء». نفَّذ رفيقه الطلب، ولشدة الألم اصيب صدام بالاغماء. وما ان استعاد وعيه حتى قرر مغادرة المكان الذي وصلته الشرطة بعد فترة قصيرة. ومشى وحيداً، كشأنه دائماً، باتجاه الحدود السورية وفي جيبه ثلاثة وعشرون ديناراً. امضى اكثر من عشرة أيام يسير على قدمه المصابة حيناً، ويعبر النهر في عز صقيع الليل أحياناً، ينام يوماً في العراء او يلتحف خيمة راعٍ، يأكل التمر ويشرب مياهاً نتنة. ومكث في دمشق ثلاثة أشهر فقط انتقل بعدها الى القاهرة حيث انتسب الى كلية الحقوق. لم تستهوه مصر الصاخبة واللاهية بل مصر الثقافة والتاريخ والنضال. وانكب يدرس ويطالع ويزور الآثار وينظِّم سرِّياً الخلايا والفروع البعثية. فتميز عن رفاقه وحاز على احترامهم واعجابهم.

في ٨ شباط (فبراير) ١٩٦٣ نجح حزب البعث في اسقاط عبد الكريم قاسم وعاد صدام الى بغداد حيث عين عضواً في مكتب الفلاحين المركزي. وهاله انقسام القيادة وتفشّي الامراض في الجسم الحزبي. واغتنم فرصة انعقاد المؤتمر القومي السادس في دمشق ليتكلم ما يقارب الثلاث ساعات منتقداً بشدة علي صالح السعدي رجل العراق القوي الذي كان يرتعد الكل امامه. وتنبأ بنهاية قريبة لحكم الحزب في العراق: «لا اعتقد أن المؤتمر القومي القادم سينعقد والحكم البعثي مستمر في القطر العراقي».

على أثر هذا المؤتمر لمع نجمه واعجب به ميشال عفلق، مؤسس الحزب وأمينه العام، ونشأت بين الرجلين علاقة متينة وثابتة الى حين وفاة المؤسس. كما حاز على اعجاب العديد من البعثيين اللبنانيين المشاركين في المؤتمر، وفي مقدمهم عبد المجيد الرافعي ونقولا الفرزلي. ومنذ ذلك التاريخ ابتدأ يؤثر فيهم ويتأثر بالموضوع اللبناني.

ولم تمضِ بضعة أسابيع حتى صحَّت توقعات صدام فنفَّذ عبد السلام عارف في ١٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٣ انقلاباً عسكرياً وشرع بتصفية حزب البعث. واستخلص صدام الامثولة: حكم العراق يفترض حزباً قوياً يلتف حول قيادة قوية. ودخل مجدداً العمل السري، واعاد تنظيم الحزب داخل العراق بتكليف من ميشال عفلق، ونجح في عمله. واقدم على محاولتي انقلاب فاشلتين فأُلقي القبض عليه وأُحيل على المحاكمة. وامضى فترة اعتقاله يثقف ذاته ويعتني برفاقه ويحضِّر خطة الفرار. ولم يقطع اتصاله برفاقه خارج

السجن، وخصوصاً مع احمد حسن البكر. وكان ابنه عُدّي البالغ من العمر بضعة اشهر هو الواسطة. تأتيه زوجه ساجده، ابنة خاله الذي رباه، في الزيارات الدورية مصطحبة ابنها، فيحتضنه لفترة وجيزة ويسحب من ملابسه رسالة ويدس محلها أخرى. وما لبث ان كسب ود حرسه الذين سهَّلوا له ولرفاقه الفرار في تموز (يوليو) ١٩٦٦ ليدخل الحكم في تموز (يوليو) ١٩٦٨.

عند خروجه من السجن، وجد الحزب في حال احباط كامل: خيبة امل لا توصف بسبب فشل تجربة الحكم، اضطهاد عنيف من قبل النظام القائم، وانشقاق عميق ادى الى قيام بعثين: واحد في العراق يلتزم خط القيادة التاريخيَّ، والثاني في سوريا يسير على خطى صلاح جديد وحافظ الأسد ورفاقهما. وانبرى صدام يعيد بناء الحزب فرعاً فرعاً وفرداً فرداً بهدوء وصبر وعناد. وشرع يعقد التحالفات الضرورية لاسقاط النظام مع التصميم المسبق على تصفية الحلفاء فور نجاح الانقلاب حفاظاً على وحدة القيادة. وفي ١٧ تموز (يوليو) ١٩٦٨ اخترق صدام القصر الجمهوري على ظهر دبابة وباللباس العسكري. وسلَّم السلطة لأحمد حسن البكر وصار هو نائبه. وشرع يكتب تاريخاً لا يرحم.

في ١٧ تموز (يوليو) ١٩٧٩ تنحّى احمد حسن البكر، «الاب القائد» وسلّم صدام حسين، وهو ابن الاربعين، مقاليد الحكم. وانتقل صدام من مرحلة القيادة الى مرحلة الزعامة، وقال في اول خطاب له كرئيس للجمهورية: «انني لن ادعو رفاقي في القيادة والحزب واخواني ابناء الشعب الى فعل امر لا افعله ولن اجعلهم يمتنعون عن امر لا امتنع انا عنه». منذ البداية طرح نفسه نموذجاً يحتذى وحالة مستجدة هادفة. وهو يتعمد ان يظهر بشخصيتين: الرجل البدوي والرجل العصري. يعتمر اليشمك ويرتدي القمباز ويجالس الرعاة ويشرب حليب الغنم، فيتلبس صورة ابن البلد المحببة والقريبة من المواطن. في المقابل يتأنق في اختيار بذلته وربطة العنق ويفرض على من حوله ان يكونوا حالقين ومهندمين على شاكلته، وهم يقلدونه في مشيته وحركاته واطلاق شاربيه. تحلو له الابهة والفخامة والعظمة ويمارس البروتوكول والطقوس. دخن السيجارة باكراً وانتقل بعدها إلى الغليون ومنذ ان تذوق سيجار هواري بو مدين عاد لا يدخن الا السيجار الكوبي. قبل تسلّمه الرئاسة كان يرتاد بين الفينة والفينة المطاعم ويصطحب احياناً زوجته خروجاً على العادات. يروي مازحاً انه استقدم طباخاً اجنبياً ليعلم اولاده آداب الطعام وشيئاً من الانكليزية. وفاجأهم مرة جالسين كلهم على الأرض يأكلون على الطريقة البدوية ويتكلمون العربية.

أُعطي موهبة الادارة والقيادة وطالما سمعه اعوانه يردد: «ان التنظيم بأهمية العقيدة، ولا ينفصل عنها». مواعيده دقيقة والانضباط جزء من طبيعته. يملك القدرة على التخطيط والتنفيذ وتحمّل التبعات. يرى ان سر نجاحه ونجاح كل عمل يكمن في «التشدد في الأمور المبدئية والمرونة في التنفيذ». يشتغل بجدية ورصانة، يحترم الكل ولا يتهيب احداً. شديد اللياقة مع مساعديه لا ينهر أحداً ونادراً ما ينفعل. كل شيء عنده مدروس ومحسوب. اذا ابتسم يشيع الارتياح، واذا عبس يثير الرعب ويعكس قساوة لا حدود لها. يمشي مشية المقتدر. ويتكلم بهدوء كلام الواثق. يحدق بانتباه وكأنه يريد بالفراسة ان يكتشف الآخرين. يهوى الحوار الفكري ويستمتع بالشعر. يضجره تكرار المسلّمات والعموميات والثرثرة، فهذا ترف يستغني عنه. في المقابل تلفته الافكار غير المألوفة والطروحات الجديدة والاقتراحات المبتكرة. يبسِّط العقائد والمشاكل ليستوعبها المثقف والفلاح معاً. لا يحب اللغة المتعرجة والملتوية بل يفضِّل الخطاب الصريح والمباشر. لا يفاوض بالمفرق بل بالجملة. يقبل كل شيء او يرفض كل شيء، انه رجل كلي على غرار العراقيين الذين وصفهم ابن خلدون منذ ستمائة سنة بأنهم اصحاب العواطف الكلية.

ولد في اليتم والفقر، ولم يعرف حنان العائلة ولا طيب الحياة. عاش شبابه في القهر والاضطهاد والخطر، فلم يدرك فضيلة التسامح ولا معنى الديمقراطية. ونما فيه ميل جارف الى الشك والتطرف والعنف. وتعمّق في عقله الباطني منطق القوة والغلبة. وبدا له العالم غابة والناس ذئاباً: اما ان تكون قاتلاً او مقتولاً، غالباً او مغلوباً. وفهم تاريخ العراق على صورته وتاريخ الامة العربية على صورة العراق، وقال: «ان شعب العراق في كل تاريخه القديم والحديث، قبل الاسلام وبعده، لم يكن حالة وسطاً ابداً؛ فهو اما ان يقود او ان ينسحق تحت سنابك الخيل. ولم يكن حالة اعتيادية اطلاقاً؛ فإما ان يصل الى القمة او الى الهاوية مع ثقل كبير فوق رأسه». هذا ما قاله عام ١٩٨٠ وما سيطبقه في حربه مع ايران فيصل الى القمة عام ١٩٨٨، وهذا ما سيصيبه في مواجهته مع التحالف الغربي ـ العربي فينسحق عام ١٩٩١ تحت السنابك. انه بطل مأساوي، وشخصية شكسبيرية.

لا يمكن فهم حرب الخليج بمعزل عن شخصية صدام حسين الذي يمثل نموذج البداوة المفرطة في الشجاعة وفي المزاجية. طُموح جامح لا حدود له، واعتداد كبير بالذات. يمارس المشورة الى اقصى الحدود، لكنه عندما تأتي ساعة القرار يحسم وحيداً وعلى هواه. يبادر، يقدم، يغامر، واحياناً يقامر غير آبه بالخسائر والنتائج. يكابر ويتجبر ولو كلفه ذلك غالياً. وحين يمسي الخيار بين الاهانة والكرامة فإنه لا يتردد ولا يتراجع ويصبح انتحارياً. وحين

تصل الامور الى حد الاذعان او الموت فإنه يفضل الاستشهاد. دمَّروه لكنه لم يستسلم، وسقط دون ان يركع.

صحيح ان التاريخ يكتبه المنتصرون، وان الناس تحمِّل المهزوم كل الاخطاء وتضفي على المنتصر كل المزايا، بيد ان الانصاف يحملنا على عدم اختزال ثلاثين سنة من النضال وعشرين عاماً وَنَيِّفاً من الحكم في معركة واحدة مهما كانت مدمِّرة. ليس صدام حسين رجل حرب فاشلة فقط بل انه رجل عقيدة ورجل دولة ناجح.

انه بعثي حتى العظم. لم ينظر الى الحزب كمجرد آلة انقلابات ناجحة، بل آمن برسالة البعث العربية والانسانية. اخصب الفكر البعثي ومبادئه، وترجمها حقائق سياسية. انجز في حزبه ما فعله لينين بالماركسية. كتب وحاضر وناقش وطوَّر في العقيدة والتاريخ والتراث والدين.

عارض تسييس الدين، وحذَّر من ان الدولة التي تقحم نفسها في صراع ديني تحت غطاء سياسي او في صراع سياسي تحت غطاء ديني تخسر في النهاية وحدة شعبها، وقال: «ان حزبنا ليس حيادياً بين الالحاد والايمان، وانما هو مع الايمان دائماً. لكنه ليس حزباً دينياً ولا ينبغي ان يكون كذلك». طوَّر مفهوماً لا يتبنى العلمانية الغربية التي تلامس الالحاد، ولا التديُّن الشرقي الذي يقود مباشرة الى الجمهورية الاسلامية. وابرز الشخصية العراقية المميزة. يفخر باصول العراق الاسلامية والعربية وخصوصاً العباسية. ولا يهمل حضارة ما بين النهرين وهي اولى حضارات العالم وتعود الى ما قبل نهضة الاغريق. وقد خصص الجهد والمال اللازمين لاحياء تراث العراق القديم والحديث والتنقيب عن الآثار وتنشيط الاعمال السياحية والعمرانية والفكرية. ويرى ان الالتزام بالتاريخ هو الطريق الفضلى لرؤية المستقبل. ووعى منذ البداية ان نجاح الثورة الايرانية قد يجذب شيعة العراق ويحرك النعرة المذهبية تجاه السنّة. وبادر يوم وصول آية الله الخميني الى طهران، وكان العالم مذهولاً والارض تميد تحت اقدام الجماهير، فزار مدينة البصرة الشيعية المتاخمة للحدود الايرانية وجال في شوارعها ليقول للناس: «لا تنسوا انكم ابناء حضارة عمرها ستة آلاف سنة».

طوَّر مفهوم الاشتراكية لتتوافق والخصوصية العراقية. ودعا الى نبذ الدغماتية واستلهام ما اسماه بـ «المرونة الثورية». واطلق مخططاً انمائياً شاملاً اسند فيه الى القطاع الخاص حيزاً مهماً. واكد انه لا يمكن الاستغناء عن القطاع الخاص في البناء الاشتراكي، فالمبادرة الفردية اقدر من القطاع الاشتراكي في ميادين معينة ولحظ: «اننا نحتاج الى عقل القطاع الخاص وانامله».

وطبّق في البعث مفهوماً قومياً جديداً هو «الحكم الذاتي» الذي منحه للاكراد في آذار (مارس) عام ١٩٧٠، وجعل منه نظرية بعثية لحل مسألة الاقليات بالطرق السلمية. ورأى ان الحكم الذاتي لا يتعارض مع الوحدة العربية لا بل يكملها وينميها داخل صفوف الاقليات الدينية والاثنية وكتب يقول: «اذا احس صاحب الخصوصية الذي هو شعبنا الكردي او تصور ان خصوصيته تُقتل في العمومية التي هي الوحدة العربية فسوف يقف ضد العمومية... نحن نعتقد ان الخصوصية في الحكم الذاتي ليست حالة متعارضة مع العام الذي هو تحقيق الوحدة العربية».

وافرد للقضية اللبنانية في هذا السياق حيزاً مهماً. وزار لبنان مرة واحدة في خريف ١٩٧٠، وفي السر، ليبحث مع ميشال عفلق في احداث ايلول (سبتمبر) بين الجيش الاردني والمنظمات الفلسطينية. والتقى القيادة القطرية اللبنانية في بيت امين سرها آنذاك نقولا الفرزلي. وكانت انظاره مشدودة دائماً الى ما يحدث في هذا البلد العربي. وساوره قلق كبير عند اندلاع حرب لبنان وخشي ان تنتهي الى قبرصته. ونصح رفاقه اللبنانيين بـ «ألاّ ينساقوا الى الصراع المسلّح» وأن يتنازلوا عن بعض مطالبهم ولو تشبثت الاطراف المسيحية ببعض امتيازاتها الدستورية، طالما ان هذا التنازل يحافظ على وحدة لبنان وسيادته». ورأى ان الانقلاب العسكري لا ينجح في لبنان والثورة المسلحة تتحول الى فتنة طائفية. ودعا الى ضرورة سحب الورقة المسيحية من يد اسرائيل وطمأنة الاقليات. وأشار في لقاءاته الخاصة الى ان لبنان هو اقل بلد عربي يحتاج الى تغيير في نظامه لأن الحريات فيه متوفرة، وقال ممازحاً: «لا تستعجلوا التغيير في لبنان. حافظوا على وحدة لبنان ولو بنظام رجعي. واتركوا لنا بلداً عربياً واحداً نقدر ان نلجأ اليه عند الضرورة».

وما قاله بتكتم في بداية الازمة اللبنانية ردده جهاراً عام ١٩٧٧ في حديث إلى الحقوقيين العرب: «لن نستطيع ان نحل مشاكل لبنان إلاّ إذا مرّت الامة العربية كلها بمرحلة نهوض واصبح هناك وضع صحي في كل من سوريا والاردن والعراق... فلا يصح ان نطلب من لبنان ان يكون شمعة مضيئة في الوقت الذي يحيطه ظلام دامس... ان العودة إلى حالة ما قبل الحرب الاهلية افضل من استمرار الصراع الدموي الذي يفضي إلى كيانات طائفية تكون مستودعاً لتصدير الخراب إلى الوطن العربي بأسره. فاليوم يكون الصراع بين المسيحيين والمسلمين، وغداً بين مسلمين ومقاومة فلسطينية، وبعد ذلك بين سنّة وشيعة، ثم دروز وشيعة...» وانتهى إلى القول: «اهم ما يجب ان تحرصوا عليه هو الا تشعر القلة بأنها مهددة مصيرياً من خلال انتزاع ضماناتها الدستورية». انه منطق لم يجرؤ اي زعيم

عربي على طرحه. وقد وضعه موضع التنفيذ عندما أيّد عام ١٩٨٢ ترشيح بشير الجميل لرئاسة الجمهورية، وساعد عام ١٩٨٨ الجيش اللبناني والقوات اللبنانية بالمال والسلاح.

عندما تسلّم ورفاقه السلطة عام ١٩٦٨، كان العراق لا يملك اي رصيد مالي في الخارج وميزانية الدولة في حالة عجز، فاضطروا الى ارسال وفد كبير الى دول الخليج لاقتراض خمسة الى عشرة ملايين دولار. في الاول من حزيران (يونيو) ١٩٧٢ اعلنت قيادة الثورة تأميم شركات النفط، وتحركت مسيرة عمرانية شاملة تهدف الى جعل العراق دولة صناعية متقدمة. وعكف على محو الامية بصورة شاملة، واعطاء المرأة حقوقها، وانشاء مراكز البحوث والكوادر، وتنمية الزراعة، واستقدام التكنولوجيا الحديثة، والتركيز على عملية التصنيع المدني والحربي وربطهما برؤيا استراتيجية تهدف الى تحقيق الاستقلال الوطني، وقال عام ١٩٧٩: «الاستقلال الوطني على درجات، اقواها في عالم اليوم ان يكون لديك اقتصاد قومي لا يسمح بالضغوط التي تقود الى المساومات، وان يكون لديك جيش قوي قادر على الدفاع عن سيادتك وسياستك، وان تكون لديك قدرة عالية وهي حصيلة كل بنائك السياسي والاقتصادي والاجتماعي والعسكري، وحصيلة وضعك الداخلي وعلاقاتك الخارجية العربية والدولية... ونحن في العراق استخدمنا الثروة لتقوية الاستقلال الوطني... ان الثروة يمكن ان تكون طريقاً للاستعباد ويمكن ان تكون سلاحاً للسيادة». لقد اختصر كل مشروعه السياسي كرجل دولة: اقتصاد قوي وجيش قوي وقيادة قوية. هذا ما حققه، وهذا ما كلّفه الضربة الأميركية القاسية.

في بداية رئاسته للجمهورية عام ١٩٨٠ امر باعدام اربعة عراقيين ادينوا بالرشوة وكان يكرر: «نريد ان يشعر المواطن انه يعيش في بلد فيه عدالة وليس فيه وساطة». لا يتقبل الخطأ ولو من اقرب المقربين اليه ويؤمن بسياسة الثواب والعقاب. يكافىء بكرم ويعاقب بلا رحمة. ولا يخفي استعداده للبطش والتنكيل وقطع الرؤوس وتنفيذ الاعدام اذا اقتضى الأمر، ويقول: «ان قلوبنا ترتجف من جراء ابسط مظهر من مظاهر العنف عندما لا يكون مبرراً. لكننا نمتلك في الوقت ذاته قلباً يتحمل قطع رؤوس الذين يخونون وطنهم ويتآمرون على شعبهم مهما كان عددهم». وقد وضع كلامه موضع التنفيذ مرات عديدة، وكان آخرها بعد هزيمته عام ١٩٩١ عندما قمع بالنار والحديد الفتنة في الجنوب وتمرد الاكراد في الشمال حفاظاً على وحدة العراق وعلى استمراره في الحكم.

صحيح انه مستبد لكنه مستبد عادل. يعتني بصورته الشعبية ويمارس سياسة الاتصال المباشر بالشعب على طريقة الخلفاء الاولين. يتوقف في الشارع ليصطحب تلميذاً الى

مدرسته او عجوزاً الى منزلها. يفاجىء عائلة فقيرة في الصباح ليتناول الفطور معها. يسأل عن احوال الشيوخ ويداعب الاطفال ويفتح الثلاجة ويأمر بتأمين ما يراه ناقصاً. هديته المفضلة للناس الثلاجة والتلفزيون. يطير الى اقاصي الموصل ليطمئن الى حالة دير اثري ويستعرض مع الرهبان تاريخ المسيحيين في مواجهة الفرس، ويقدِّم الى احد المسنين منهم مساعدة لكي يتم علاجه خارج البلاد. يُكثر زيارة المدارس، ويدعو الاولاد الى القصر الجمهوري، ويروي لهم تاريخ العراق ومستقبله، كما فعل في ذكرى تأميم النفط عام ١٩٨٠. حدد يوماً في الاسبوع يتقبل فيه مراجعات المواطنين، وخصهم برقم هاتف مرتبط مباشرة بمكتبه الشخصي. لا يحب التشبُّه بمعاوية، لكنه يوحي بأنه عادل كعمر بن الخطاب، ومقدام كعلي بن ابي طالب.

اختط سياسة خارجية طموحة. وفي اول اطلالة خارجية له بعد اسابيع معدودة من تسلمه الرئاسة، اعلن خلال مؤتمر عدم الانحياز المنعقد في هافانا، في ايلول (سبتمبر) ١٩٧٩، ان العراق سيقدِّم الى الدول النامية قروضاً طويلة الاجل وبلا فوائد تعادل مبلغ الزيادات الناتجة عن ارتفاع اسعار النفط. ودفع في الواقع ما يقارب الربع مليار دولار فروقات اسعار عن عام ١٩٧٩. وبدا فجأة وكأنه الزعيم العربي المؤهل لقيادة حركة عدم الانحياز بعد غياب قادتها التاريخيين نهرو وتيتو وعبد الناصر. وذهب به الطموح الى التفكير بالمطالبة يوماً بتعديل ميثاق الامم المتحدة واضافة عضو سادس يمثل العالم الثالث الى الخمسة الدائمي العضوية في مجلس الامن الدولي. وتصوَّر ان العراق هو الاكثر اهلية لاحتلال هذا الموقع فيتحول الى مرتبة الدول الكبرى التي تملك حق الفيتو والقنبلة الذرية.

لم تستقم علاقته بشكل ثابت مع الولايات المتحدة ولا مع الاتحاد السوفياتي. فقد أدان منذ البدء الاحلاف العسكرية والقواعد الاجنبية. وهذا ما يفسر بعضاً من عزلته الدولية في حرب الخليج. واتصور ان اكثر ما يؤلمه حالياً رؤية الجيوش الأجنبية تحتل اجزاءً من العراق وهو الذي اعلن يوماً: «اني اميز بين الاتحاد السوفياتي واميركا ولا اضعهما على قدم المساواة. ولكن في التبعية لا افرق بين من يتبع اميركا وبين من يتبع الاتحاد السوفياتي. هذه مسألة لا نجامل فيها ولا نخفيها... ان الذي يعطي قواعد للاتحاد السوفياتي كالذي يعطي قواعد للولايات المتحدة». الكرامة الوطنية لديه شديدة الحساسية.

يتوجس شراً من الولايات المتحدة ويظنها تدبر له المكائد والمؤامرات. ويأخذ عليها دعمها المطلق لاسرائيل وتسليحها المستمر لايران من ايام الشاه الى عهد الخميني. يجهل آلية القرار الاميركي، وقد أخطأ الحساب عندما تحدى واشنطن في لحظة إمساكها بالقرار

الدولي في غياب الامبراطورية السوفياتية التي اصبحت الرجل المريض في نهاية هذا القرن. واقتنع بالمقولة الشائعة ان واشنطن لا تحمي أحداً. وفوجىء بالتدخل العسكري وبحجم الآلة العسكرية. وتحوَّل من حالة العداء النسبي تجاه اميركا الى حالة العداء المطلق. لن يغفر صدام حسين ابداً لجورج بوش، وسيتذكر العراقيون، ولزمن طويل، ان الولايات المتحدة صبَّت عليهم ثلاثمائة الف طن من الحديد والنار اي ما يعادل عشرين مرة قنبلة هيروشيما.

في المقابل ادار الرئيس العراقي مباشرة العلاقات مع الاتحاد السوفياتي ووقَّع معه اتفاقية صداقة وتعاون عام ١٩٧٢. لكنه لم يتردد في تصفية الحزب الشيوعي عندما اكتشف انه ينظِّم خلايا عسكرية داخل الجيش العراقي، مما اثار حفيظة موسكو. وادان الغزو السوفياتي لأفغانستان ووصف العملية بأنها «ظاهرة خطيرة لا يجوز تبريرها وايجاد الذرائع لها، انها تصرف خاطىء». وقامت بين الكرملين وبغداد علاقة مصالح لا حرارة فيها، خصوصاً وان موسكو لا تستسيغ الانتقادات التي تأتيها من دول العالم الثالث. ولم يتورع صدام من تحريك السكين في الجرح عندما قال: «نحن لسنا البلد الذي عندما يزعل من الاتحاد السوفياتي يصبح أميركياً، او عندما يزعل من الولايات المتحدة يصبح سوفياتياً. نحن عندما يحدث هذا او ذاك نبقى عراقيين فقط». وتخلى ميخائيل غورباتشوف الغارق في مشاكله الداخلية عن صدام حسين، خصوصاً، وان الزعيم السوفياتي لا يكن وداً خاصاً للزعيم العراقي. ووصل التخلي بموسكو الى درجة صوتت فيها على العقوبات الاقتصادية والحملة العسكرية في مجلس الامن الدولي، وتركت العراق ضحية سهلة بين مخالب النسر الاميركي.

تطلع صدام حسين بكثير من الثقة الى اوروبا وشجع قيام محور عربي — اوروبي يضم دول العالم الثالث، ويشكل قطب التوازن في ظل الثنائية الدولية، والقطب الآخر في ظل الاحادية الاميركية. وتتصدر فرنسا المجموعة الاوروبية وتليها المانيا وايطاليا. وقد أولى الرئيس العراقي باريس عناية فائقة وزاد في حجم التبادل التجاري معها. ولم يخفِ يوماً اعجابه بفروسية شارل ديغول وشموخه وكان يكرر قول القائد الفرنسي للانكليز: «سجلوا ما تعطوه لفرنسا لكي نوفيه بعد التحرير». هذه مواقف تستهوي القائد العراقي الذي راهن على تحرك فرنسي قبل اندلاع حرب الخليج، وفُجع بسياسة فرنسوا ميتران اثناءها ولم يقدر ان يتقبَّل موقفه.

لا يغيب عن ذهنه المفهوم القومي في كل ما يقدم عليه. وهو يعرف بالتمام حال العرب

والتناحر الذي اصابهم: «اثنتانْ وعشرون دولة، واثنان وعشرون نظاماً، واثنتان وعشرون سياسة، واثنان وعشرون قائداً». ويلحظ ان العالم شهد انفصال امة إلى شطرين او ثلاثة على الاكثر لكن «لا توجد أمّة في الكون تجزأت الى اثنين وعشرين جزءًا وما زال العمل مستمراً على تجزئتها الى اكثر، وهذا مؤشر لحيويتها». والأكثر ايذاء في نظره الفصل المتعمد بين البشر والثروة. فالدول العربية ذات الكثافة السكانية لا تملك نفطاً، والدول النفطية لا تملك كثافة سكانية. وانقسمت الامة العربية بين شعوب فقيرة تنقصها القدرة الاقتصادية على الخروج من التبعية الخارجية، ودول غنية لا تقدر ان تحمي ثروتها بقواها الذاتية فتحتاج ايضاً الى الحماية الخارجية، مما اوقع العرب الفقراء كالعرب الاغنياء في التبعية الخارجية. ورأى في العراق الدولة الوحيدة التي تجمع بين النفط والعدد والمهيأة للتخلص من التبعية الاقتصادية والتبعية العسكرية. من هذه الزاوية طالب بتوزيع الثروة العربية على كل العرب، وايجاد صيغ تكاملية بين النفط والسكان. ولم تخطىء اسرائيل في التعامل معه على قاعدة «العدو الاستراتيجي رقم واحد». وهو يبادلها المنطق ذاته. ويرى ان المعركة مع اسرائيل ليست عسكرية صرفة بل هي معركة حضارية شاملة تتبدل نتائجها بمدى تقدم العرب التكنولوجي وتوحدهم السياسي: «لا نتصور ان اليهود يخشون الجياع المتخلفين ثقافياً وتقنياً وعلمياً. ان اسرائيل لا تخشى جيش العرب المؤلف من ثلاثة ملايين في وضعهم الراهن، انما تخشى جيش العرب المكون فقط من نصف مليون جندي والذي ينطلق من ارض اقتصادية متينة وفي ظل مجتمع متجانس ومقدرة علمية وتقنية متقدمة». ولفت الى سياسة اسرائيل العاملة على تفرقة العرب بكل الوسائل: «عندما يرى العدو هذا التناقض الصارخ داخل الامة بين من هو جائع الى الحد الذي يبدو فيه مستعداً لأن ينتزع لقمة العيش بالخنجر، وبين من هو متخم لا يجد مكاناً لوضع الفائض من الأموال، فإنه لا يمكن الا ان يستغل ذلك ويعمل على توزيعنا الى حصص واستخدامنا ضد بعضنا بعضاً». انه وصف في غاية الواقعية والوضوح.

ولج العمل العربي المشترك بكل قواه وبإيمان قومي راسخ، لكنه حصد الكثير من الخيبات. تطلع إثر كمب ديفيد الى وحدة تجمع العراق وسوريا ومنظمة التحرير الفلسطينية وسرعان ما انكشفت محاولة إنقلابية رعتها دمشق فإنهار مشروع الوحدة. أُعلِن، عام ١٩٨٠، ميثاقاً قومياً ينظِّم العلاقات العربية، لكن اندلاع الحرب مع ايران اسقط هذا الاعلان في مهده. وما ان توقفت الحرب حتى انضم عام ١٩٨٩ الى مجلس التعاون العربي الذي انفرط عقده بانفجار حرب الخليج. حرص دوماً على طمأنة السعودية غير ان الحذر ظل قائماً مع انهما وقَّعا اتفاقية عدم اعتداء. كما وثّق العلاقة مع مصر في السنوات

الاخيرة واطلق مشاريع مشتركة للتصنيع الحربي وافسح في المجال واسعاً امام العمال المصريين الذين فاق عددهم في العراق المليون ونصف المليون، لكن احتلال الكويت اطاح بهذا التحالف المحوري. ولم تتحسن قط العلاقة مع سوريا، بل على العكس كبر الخلاف واشتد، وتحوّل من نزاع بين حزبين ودولتين الى خلاف شخصي لا ينتهي بين زعيمين قويين. وظلت نجاحاته محدودة في المجال العربي، ساهم في توحيد اليمنين، وتمكن من التفاهم العميق مع الاردن، ودعم دون هوادة منظمة التحرير. انها نتائج متواضعة بالنظر الى طموحاته الكبيرة.

وتبقى القضية الفلسطينية هي المحور والمفصل لديه، بالرغم من تقلبات العلاقة مع منظمة التحرير. وما تزال فلسطين تحرك فيه الرومنطيقية الثورية التي يحتاجها، على حد قوله، كي لا تأسره رتابة الحياة. ويعمل لتلتقي الثورة العربية بمعناها الشمولي والثورة الفلسطينية في خصوصيتها الوطنية. ويرى «ان الهدف المركزي في عقل كل عربي وفي ضميره ومنهجه هو تحرير فلسطين... اذا تحررت فلسطين يتحرر الانسان العربي في كل مكان». من هذا المنطلق ربط مصير حرب الخليج بحل القضية الفلسطينية.

لقد طغت صورته كرجل حرب على صورته كرجل حزب ورجل دولة. خاض حربين طاحنتين: واحدة ربحها في وجه ايران وواحدة خسرها ازاء اميركا وحلفائها. وهو يخوض حرباً ثالثة ضد الفتنة والتقسيم. بنى جيشاً، قيل فيه عن حق او عن مناورة، انه رابع جيش في العالم. ورسم له دوراً قومياً فهو «جيش الامة»، ودوراً عراقياً فهو «تاج الشعب وليس طبقة فوق الشعب». وفّر له كل التجهيزات اللازمة والمتقدمة، ونوّع مصادر الأسلحة فيه، وطوّر ترسانة الصواريخ، واستحصل على السلاح غير التقليدي، الكيميائي والبيولوجي وحتى النووي. وجعل من «الحرس الجمهوري» مجموعة محترمة تضاهي احسن الوحدات العسكرية في الشرق الأوسط تدريباً وتجهيزاً. وانشأ «الجيش الشعبي» وهو الجيش الرديف الذي يحمي الجبهة الداخلية، واخضع المنتمين اليه لتدريبات قاسية، وشاركت المرأة من خلاله في الجهد الحربي. كما اولى اجهزة المخابرات عناية مباشرة. وقد اتقن في حياته التخفي والعمل السري وعرف كيف يبسط اجهزته في كل مكان، وامسك بالعراق وكأنه القدر الذي لا يرد.

لم يتلق صدام اي تربية عسكرية، غير ان العسكريين، ضباطاً وجنوداً، يشعرون بأنه قريب منهم ويهتم بهم ويتفهم اوضاعهم، وهو يحس بارتياح داخلي وبكثير من الاعتزاز عندما يرتدي بذلته العسكرية ويجول على الثكنات والمواقع. ويؤكد العارفون به انه متى

رفع نبرة صوته فهذا يعني انه استحوذ على سلاح جديد او اكتسب قدرة جديدة. القوة في نظره هي البداية والنهاية، انها شرط البقاء، لا بل البقاء بعينه. شدته قوة الحلم وهو يناضل في الحزب، وحقق حلم القوة وهو يبني الدولة: على القوة نشأ، وبالقوة حَكَمَ، وبفضلها يستمر.

أنّى تكن النهاية فقد دخل صدام حسين التاريخ العربي كباني العراق وحامي العروبة. ومهما تدمرت البنى والانجازات يبقى شيء ثابت وهو انه حوَّل العراق من دولة مستضعفة الى دولة مهابة. ومهما تكن الذرائع والاسباب فإنه خسر عسكرياً بأسرع مما كان يتوقع أصدقاؤه، لكن طروحاته قد تبقى أطول مما يظن اعداؤه. لقد اطلقت حرب الخليج العرب من سُباتهم وبشكل دراماتيكي. وستتمسك الشعوب العربية، والى زمن قد يطول، بشعارات الزعيم العراقي الثلاثة: الاستقلال الوطني والحق الفلسطيني وتوزيع ثروة العرب على كل العرب. انه يجمع بين البداوة والحضارة، ومزيج من العبقرية وجنون العظمة؛ ومع فارق الزمان والمكان والسيرة والمسار فإنه في العرب بطرس الأكبر.

المتَغيرات

شهد العالم العربي منذ الحرب العالمية الثانية حقبتين رئيسيتين، وهو على ابواب حقبة ثالثة. إثر نكبة عام ١٩٤٨ وقيام دولة اسرائيل، قاد جمال عبد الناصر نظاماً عربياً جديداً، وهذا ما يسمى بـ «العصر المصري». وساد هذه الحقبة مناخ ثوري نزع إلى الوحدة والاشتراكية والاستقلال الوطني والتقارب من الاتحاد السوفياتي. وتميز بالكثير من الخضات والانقلابات والمتغيرات. انها حقبة الرومنطيقية السياسية. واثر نكسة ١٩٦٧ وانهيار الجيش المصري في صحراء سيناء واحتلال اسرائيل قناة السويس والجولان وغزة والضفة والقدس الشرقية، بدأ العصر المصري بالافول، وانتهى بوفاة جمال عبد الناصر في ايلول (سبتمبر) ١٩٧٠. وقام مقامه «العصر السعودي». وحلّت في الحقبة الثانية الواقعية مكان الثورية، والاستقرار مكان الاهتزاز، والنفط مكان الايديولوجيا. واتجه العرب إلى التقليل من الاعتماد على الاتحاد السوفياتي والتوجه إلى الغرب عموماً. وكاد العراق اثر انتصاره على ايران عام ١٩٨٨ ان يدشّن «العصر العراقي» لكن حرب الخليج أدخلت العالم العربي في «العصر الاميركي». وهكذا ادت نكبة ١٩٤٨ إلى بزوغ العصر المصري، ونكسة ١٩٦٧ إلى قيام العصر السعودي، وهزيمة ١٩٩١ إلى نشوء العصر الأميركي.

لا يقدر احد ان يجزم حول ماهية سمات العصر الجديد، لكن الكل يقر ان مصير الشرق الاوسط اضحى مرتبطاً بشكل وثيق بالولايات المتحدة وان كلمة الفصل في مشاكله تعود اليها. ويتمنى الكثيرون — وانا منهم — ان يعبىء الرئيس الاميركي قدراته الضاغطة لاحقاق حل سياسي بالزخم والتصميم اللذين اظهرهما في تنفيذ الحل العسكري ضد العراق، فيزيل بسرعة آثار حرب الخليج من الارض ومن الضمائر، وينهي النزاع العربي — الاسرائيلي بتطبيق القرار ٢٤٢ الصادر منذ ٢٤ سنة من مجلس الامن الدولي، وهو مطلع على كامل خلفياته وتفسيراته، اذ كان يشغل في حينه منصب المندوب الاميركي الدائم في الامم المتحدة. ويصبح النجاح السياسي الاميركي بحجم النجاح العسكري اذا طبق الرئيس الاميركي مبدأين متلازمين لحل ازمات الشرق الاوسط: جلاء الجيوش الاجنبية من جهة وحق الشعوب في تقرير مصيرها من جهة ثانية. من هنا نرى ضرورة انسحاب الجيش الاميركي والحليف من العراق والخليج، والجيش الاسرائيلي من لبنان والجولان والضفة وغزة والقدس،

والجيش السوري من لبنان. ولا بد من اجراء انتخابات حرة بإشراف دولي وعربي في لبنان والضفة وغزة والقدس، لتقرر هذه الشعوب مصائرها وعلاقاتها مع الجوار. عندها يتحقق «سلام العدل» الذي تنادي به فرنسا، و«السلام مقابل الارض» الذي اعلنه جورج بوش في خطاب النصر الذي القاه في ٧ آذار (مارس) ١٩٩١.

عدا هذا الخطاب الذي لم يعجب اسرائيل والذي رحبت به منظمة التحرير الفلسطينية، اخشى ــ وكم ارغب ان اكون على خطأ ــ ان تفضل واشنطن مرة اخرى المفهوم الاسرائيلي للحل وهو «السلام بالقوة». وتفترض هذه النظرة قيام قواعد عسكرية في الخليج للامساك بالنفط وضبط انتاجه واسعاره وتصديره، وحمل العرب على القبول بإعطاء السلام الكامل لاسرائيل مقابل الاسترداد غير الكامل لبعض الارض. كما تفترض تأجيل حل المشكلتين اللبنانية والفلسطينية بحيث تقوم سوريا في المستقبل المنظور بإدارة لبنان او اكثرية اجزائه، وتقوم اسرائيل بإدارة الاراضي المحتلة او اكثريتها. ان المدافعين عن الحل بالقوة يلتقون مع الذين اصابتهم نشوة الانتصار. لقد اثبتت اميركا انها الاقوى والافضل. وراح الرئيس الاميركي يتصرف من منطق ما اطلق عليه ويليام فولبرايت في الستينات تسمية «غطرسة القوة». وترى واشنطن ان الكون اصبح «احادي» الزعامة وان الولايات المتحدة هي المرجعية العالمية: الدولار هو عملة التبادل التجاري في العالم، واللغة الاميركية هي واسطة التخاطب بين الشعوب، والقرار الاميركي ارادة لا ترد. ويبدو جورج بوش اقرب إلى قساوة تيودور روزفلت منه إلى تسامح ابراهام لنكولن. اميركا ضد اميركا: اميركا الحريات والعدل والتحرر وحق الشعوب في تقرير مصيرها في مواجهة اميركا القوة والتكنولوجيا والليبرالية المتوحشة والامبراطورية المتغطرسة. ان العرب يراهنون على اميركا العادلة، في حين ان اسرائيل تدعو إلى اميركا المستبدة. وفي حال تجاوب البيت الابيض مع المطلب العربي ــ وهذا ما نتمناه ــ فإن «السلام الاميركي» العادل سيعم الشرق الاوسط. اما في حال لبى المنظور الاسرائيلي ــ وهذا ما نخشاه ــ فإن الشرق الاوسط سيدخل «زمن اللبننة»، ويأخذ الصراع منحى الجهاد الاسلامي ضد الصليبية الاميركية. عندها تنتصب الحركات الاسلامية لتترجم حالات الخيبة والاذلال والفقر إلى اضطرابات وانقلابات وثورات تطيح بالأنظمة وتبدّل في الخرائط. فتتداعى حدود تبدو اليوم ثابتة، وتبرز حدود الأمر الواقع غير المعترف بها وغير المتوقعة. وتتبدل انظمة تظهر حالياً مستقرّة، وتطل معالم جمهوريات اسلامية جديدة إلى جانب اسرائيل الكبرى. هكذا، وفي غياب الحل الاميركي العادل، تسيطر على الشرق الاوسط حالة فوضى وانفلات من كل الضوابط والموانع. وتبرز اصوليتان: اليهودية والاسلامية. وتنقلبُ الغلبة على الغالب، ولو بعد زمن،

وينهار «العصر الاميركي» ليحل محله «العصر الاصولي».

مما لا شك فيه ان حرب الخليج ستطبع ببصماتها الشرق الاوسط والبحر الابيض المتوسط خلال التسعينات. وقد اسفرت في المدى القريب عن منهزم ومنتصر، وما بينهما من مستفيدين وخائبين. المنهزم هو العراق والمنتصر هي الولايات المتحدة. ويندرج على لائحة المستفيدين كل من اسرائيل وايران وتركيا وسوريا ومصر، وبدرجة اقل السعودية ودول الخليج وبريطانيا وفرنسا. اما الخائبون فهم: منظمة التحرير الفلسطينية والاردن وبدرجة اقل السودان واليمن وموريتانيا والمغرب العربي.

لقد شكلت هزيمة صدام حسين انتصاراً كاسحاً لجورج بوش، غير ان سقوط الرئيس العراقي قد يسبب مشكلة للرئيس الاميركي. والواقع ان بوش يكن كرهاً شديداً لصدام حسين ويعمل على القضاء عليه، كما قضى روزفلت على هتلر. لكن انفجار الفتنة في الجنوب والتمرد في الشمال تخطيا السيناريو الاميركي ووضعا بوش امام حسابات جديدة. ان نجاح الحركة الشيعية يعطي ايران كسباً مهماً ويشكل تهديداً مباشراً للسعودية ودول الخليج؛ وتكون ايران قد حصلت على ما تريده من حرب اميركية لم تخضها، في حين لم تتوصل على اي حصيلة من حرب طويلة خاضتها ضد العراق. كما ان قيام كردستان يشكل قوة جاذبة لكل الاكراد مما يربك تركيا التي يقيم على ارضها ما يقارب اثني عشر مليون كردي. ويحاول بوش الحفاظ على وحدة العراق واسقاط صدام والاستعاضة عنه بشخصية مدنية او حزبية او عسكرية قادرة، لكن حظوظ هذا الاحتمال تبقى ضعيفة. اما الخيار الاوفر حظاً فهو بين بقاء صدام ولبننة العراق. وقد حزم صدام امره، وقرر ان يقضي على الفتنة والتمرد، مهما يكن الثمن، وان يتصدى على حد تعبيره لتقسيم العراق «وتحويله إلى لبنان آخر». والغريب ان جيمس بيكر أدلى بتصريحٍ بالاتجاه ذاته فقال: «اننا لا نريد ان نشهد لبننة العراق».

صحيح ان بوش لن يذرف الدمع في الوقت الحاضر على صدام حسين لكنه قد يندم عليه لاحقاً. ان هزيمة بروسيا في الحرب العالمية الاولى حملت في بذورها تصاعد الحركة النازية في المانيا والحركة الفاشية في اوروبا، وقد يحمل تدمير العراق في طياته عراقاً اكثر راديكالية وعالماً عربياً اكثر اصولية.

ويظهر ان المستفيدين الكبار من حرب الخليج هم من غير العرب: اسرائيل وايران وتركيا. ولن تقدر واشنطن على إقامة نظام اقليمي جديد إلّا اذا اعتمدت واحدة على الاقل من هذه الدول او الثلاثة معاً. ولكن لكل دولة نزاعاً جدياً مع احدى الدول العربية

الحليفة للولايات المتحدة مما سيعقّد مهمة الديبلوماسية الاميركية. في المقابل ايقظت «عاصفة الصحراء» أحلام الامبراطوريات وصراع الأديان. تل أبيب تحلم بإسرائيل الكبرى القائمة على التوراة واليهودية ديناً ودولة. وطهران تفتش عن الامبراطورية الفارسية وتصدِّر باسم المذهب الشيعي الجمهوريات الاسلامية. واسطنبول تستعيد ايام السلطنة العثمانية وخلافة المسلمين في منطقة حكمتها ثلاثمائة سنة واكثر. وعندما تختلط الاحلام بالصراعات وتصطدم الامبراطوريات والأديان فإن ما هو غير متوقع وغير محسوب يصير الاكثر حدوثاً، فقد نقترب من فوضى اقليمية جديدة بدلاً من نظام اقليمي جديد.

اما المستفيدون العرب على وجه التحديد فثلاثة: السعودية ومصر وسوريا. لقد اعادت السعودية نفوذاً معنوياً اهتز لحظة. واثبتت بما لا يقبل الشك ان التصادم معها لا ينفع صاحبه. واستعادت مصر دورها المحوري على الصعيدين الدولي والعربي. وانتعشت اقتصادياً بعض الشيء من خلال شطب الديْن الاميركي المترتب عليها والبالغ اكثر من سبعة مليارات دولار. اما سوريا فهي المستفيدة الاولى، والرئيس السوري الرابح الاكبر. لقد تبدلت نظرة العالم إلى سوريا: ففي حين كانت دمشق مدرجة على لائحة «الدول الارهابية» أصبح الرئيس السوري في نظر الاميركيين «المرجع» الواجب الاستماع إلى نصائحه والافادة من حكمته وثقله. وبرز الاسد وكأنه المرشح الجديد ـــ القديم للزعامة العربية. ارتاح من شبح صدام حسين الذي كان يقلقه، وتراجع موقع ياسر عرفات الذي كان يعارضه. وخرج من عزلة عربية دامت سنوات، وهو يرسم اسس تحالف قوي يضم سوريا ومصر والسعودية. حسّن موقعه في لبنان بشكل سافر، بتحسن علاقته مع واشنطن، مما وفر له فرصة الاطاحة بميشال عون بلا صعوبة، والامساك المُحْكم بلبنان بلا منازع. وترجم نجاح سياسته على المستوى السوري بالحصول على ما يقارب الملياري دولار من المساعدات الخليجية منذ اندلاع الازمة وفتح افق تعاون اقتصادي ملحوظ مع اوروبا والولايات المتحدة.

اثر توقف القتال في الخليج اخذت مصر وسوريا والسعودية على عاتقها إقامة نظام أمني عربي جديد وحل النزاع العربي ـــ الاسرائيلي والقضية الفلسطينية. وخطت الدول الثلاث خطوة اساسية بصياغة ما يسمى بـ «اعلان دمشق» الذي وقَّعته بالاضافة إلى دول الخليج في ٦ آذار (مارس) ١٩٩١. ونص هذا الاعلان على انشاء قوة سلام عربية تحل محل القوات الاميركية في الخليج لضمان أمنه تمهيداً لضمان الامن العربي الشامل. ودعا إلى تعزيز التعاون وصولاً إلى «تجمع اقتصادي» يحقق التنمية الاقتصادية والاجتماعية. وتبنى

قرارات الامم المتحدة لحل النزاع العربي ـــ الاسرائيلي والقضية الفلسطينية، ورأى في المؤتمر الدولي «اطاراً مناسباً» لهذا الحل.

مهما تكن الفوارق فالعبرة في التنفيذ لا في الاعلان عن النوايا. وترتبط مصداقية هذه القيادة الثلاثية الجديدة للعالم العربي بمدى سحب الجيوش الاجنبية من الخليج والحلول محلها، وبامكانية ازالة اسلحة الدمار الشامل لا من العراق وحده بل من كل دول المنطقة بما فيها اسرائيل، وبالتوصل إلى حل ازمات الشرق الاوسط: فلسطين ولبنان والخليج. وعلى نجاح او فشل هذا المثلث العربي الجديد يتعلق مصير الحرب والسلام في الشرق الاوسط. ففي حال منيت مصر والسعودية وسوريا بالفشل سيهتز الشرق الاوسط ويضطرب ويقترب من شفير الحرب وننتقل من «العصر الاميركي» إلى «العصر الاصولي». وفي حال نجاحها فإن حقبة من السلام ستلوح في الافق وسيحل تدريجياً «العصر العربي» محل «العصر الاميركي».

يبقى السؤال حول مستقبل الخائبين العرب، وفي طليعتهم منظمة التحرير الفلسطينية والاردن والمغرب العربي. لقد اظهرت الشعوب العربية قدراً كبيراً من الحماسة والتعلق بالحقوق العربية والتوق إلى مستقبل افضل. وابدى الحكام المغاربة الكثير من روح التضامن العربي والنزعة الاستقلالية. ففي حين تجاهل «اعلان دمشق» الاشارة إلى منظمة التحرير الفلسطينية، تعمَّدَ القادة المغاربة ـــ الذين التقوا في ليبيا في آذار (مارس) ١٩٩١ لتقويم مرحلة ما بعد حرب الخليج ـــ دعوة ياسر عرفات للتباحث معه قبل اصدار بيانهم الختامي الذي اشار صراحة إلى ان منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني.

وخلافاً للاعتقاد السائد فالاردن يعاني ضيقاً اقتصادياً اكثر منه سياسيًّاً. لقد اعتاد الملك حسين في الماضي ان يهتم بتعزيز موقعه في الخارج ولو على حساب شعبيته في الداخل، لكنه اختار في حرب الخليج ان يدعم وضعه الداخلي ولو اهتزت صورته الدولية. ربح ثقة الفلسطينيين والاردنيين وخسر اموال الخليجيين. واحتلت صوره الصدارة إلى جانب صورتيْ صدام حسين وياسر عرفات في قلب المظاهرات والمتظاهرين. وهو يدرك دون كثير عناء الطرق الملائمة لاعادة اعتباره في المحافل الغربية والعربية والحصول مجدداً على المساعدات التي يحتاجها. وقد بدأ اتصالاته وجولاته في هذا الشأن. انه يؤهل نفسه ليكون يوماً رئيس الكونفدرالية الاردنية ـــ الفلسطينية في حال قيامها.

واخيراً لا اجاري الكثيرين من المطلعين والاختصاصيين الذين يعتقدون ان ياسر عرفات

قد انتهى بوصفه الخاسر الآخر مع صدام حسين، وان بدا للوهلة الاولى وبنسب مختلفة في حالة من الحرج العربي والتراجع الدولي والشح المالي. ولا تغيب عن ذهني المحاولات الاميركية والاسرائيلية الصاخبة والضاغطة بشدة لاقصاء منظمة التحرير عن الحل او على الاقل لشطب ياسر عرفات داخل منظمة التحرير. وما يلفتني في المقابل انه، باستثناء اسرائيل، الكل بما فيهم الولايات المتحدة اصبح يربط بين حل ازمة الشرق الاوسط والمشكلة الفلسطينية وحرب الخليج. وهذا ربط نادى به صدام حسين ورفضه التحالف الغربي ــ العربي المناهض. وقد تكشف حرب الخليج في المدى المنظور عن ثلاث حقائق: ان القضية الفلسطينية هي العقدة، وان منظمة التحرير هي الحل، وان ياسر عرفات هو الرمز. ومن يتبصر في الاحداث يدرك انه ليس من السهل تصور حل ازمة الشرق الاوسط بمعزل عن اعطاء الفلسطينيين حقوقهم المشروعة والمعترف بها دولياً بموجب قرارات الامم المتحدة. ولن يكون من اليسير تجاهل منظمة التحرير كممثل للشعب الفلسطيني سواء المقيم تحت الاحتلال او خارجه. ولن تتم بسهولة عملية استبدال ياسر عرفات من داخل المنظمة او من خارجها. انه الرمز، والرموز لا ترتجل ارتجالاً.

أيتها الديمقراطيّة !

ان القرن العشرين هو عصر التقدم التكنولوجي المذهل، خلاله حقق الانسان تسعين في المئة من الاكتشافات التي عرفها منذ بداية الانسانية. انه عصر الذرة والكمبيوتر وعلم الحياة. في بدايته انهارت الامبراطورية العثمانية، وفي نهايته تفسخت الامبراطورية السوفياتية، وكان الشرق الاوسط واوروبا هما المدى الحيوي لهاتين التجربتين، وكأن هذا البحر الابيض المتوسط الذي يجمع على ضفتيه اوروبا والعالم العربي ما زال يمثل قلب التاريخ النابض: حتى الولايات المتحدة، تلك الامبراطورية العظمى، لم تدخل قلب التاريخ الا عندما دخلت اوروبا في الحرب العالمية الثانية والصحراء العربية في حرب الخليج، فاستحقت لقب روما العصر الحديث.

صحيح ان العصر الاميركي اقتحم الخليج كالعاصفة دفعة واحدة، لكن الصحيح ايضاً ان العالم العربي سيستعجل الخروج منه ولو على دفعات. وقد يكون من الصعوبة بمكان تصور انعكاسات العصر الاميركي ولم يمض عليه الا بضعة اشهر. لكن بمقدورنا ان نجزم في أمر واحد وهو ان «أمركة» الشرق الاوسط ستؤثر في كل انظمة المنطقة وشعوبها. فبفعل الوهج الاميركي ستدق الديمقراطية ابواب الانظمة العربية، في حين ان الشعوب العربية سترتد ضد النظام الاميركي الجديد: موجة التأمرك ستهز الانظمة، وفي الوقت ذاته ستنبري الحركة العربية والاسلامية المعادية للتأمرك ضد هذه الانظمة ذاتها. وهكذا سيواجه الوضع العربي القائم تيارين متناقضين في ما بينهما لكنهما يسيران في اتجاه مطلب واحد: التغيير.

وفي ظني ان عوامل التغيير في العالم العربي في طور الاكتمال. وما الجمود الظاهري الا فترة الهدوء التي تسبق العاصفة. وقد لا نصل إلى مشارف عام ١٩٩٥ إلاّ ويكون الشرق الاوسط قد شرع في دخول مرحلة التحولات الجذرية. وكما فاجأت رياح التغيير دول اوروبا الشرقية فتهاوى النظام الشيوعي بسرعة لم يكن يتوقعها أحد، فإن عاصفة التغيير ستهب على الدول العربية وتصدم الجميع ولن يقدر احد على التصدي لها. ان التغيير كالشمس والموت، لا يمكنك ان تنظر اليهما مواجهة: الشمس تبهر، والموت يصعق، والتغيير يجرف.

من حرب لبنان إلى حرب الخليج مروراً بالحروب العربية ــ الاسرائيلية والحروب العربية ــ العربية، ما تزال اللعنة تلاحق الشرق الاوسط الذي يحبس في كل مرة انفاسه ويلهث وراء سلام يفلت منه وتغيير لا يدركه. سلام لبنان يبدأ بانسحاب الجيش الاسرائيلي من جنوبه وينجز بانسحاب الجيش السوري وكل المنظمات غير اللبنانية من ارضه. وسلام الشرق الاوسط يتحقق بانسحاب اسرائيل من الاراضي العربية المحتلة، ويكتمل بإقامة الدولة الفلسطينية وتدويل القدس عاصمة الاديان السماوية الثلاثة. والسلام العربي او السلام بين العرب ينطلق من مفهوم التضامن ويتجسد في النظام الديمقراطي.

والواقع ان العرب يلجون القرن الواحد والعشرين في حالة مخجلة من التفسخ والتباعد والتقاتل. والقرن القادم يشهد منذ اليوم نزعتين عالميّتين لن ترحما المقصِّرين: نشوء التكتلات الاقتصادية العملاقة، وقيام الكيانات السياسية المميزة. التكتل الاقتصادي شرط الخروج من التخلف إلى التقدم، والتمايز السياسي شرط انهاء النزاعات واستتباب السلام.

في ضوء هذا التصور تبدو مشكلة العرب مزدوجة: لم يعرفوا حتى اليوم استثمار ثرواتهم مجتمعين ولا الحفاظ على خصوصياتهم منفردين. صار النفط لعنة بدل ان يكون نعمة تنقلهم من مجاهل التخلف إلى رحاب التقدم. واصبحت الفوارق الاتنية والدينية مصادر حروب لا تنتهي بدل ان تتحول إلى منابع غنى وانفتاح. التكامل الاقتصادي يؤدي إلى التنمية الشاملة والتمايز السياسي يوصل إلى الاستقرار الثابت، والاثنان يشكلان نظاماً عربياً جديداً يؤمن وحدة عربية اقتصادية عملاقة ويحافظ على كيانات سياسية مميزة. انها الوحدة في التنوع. انه منطق القرن الواحد والعشرين.

ويفرض مفهوم الوحدة في التنوع طريقاً الزامياً لا غنى عنه ولا بديل له هو طريق الحرية والديمقراطية. لقد تبيَّن ان الدول المتقدمة والمتماسكة هي الدول ذات النظام الديمقراطي، حيث يشارك الشعب في تقرير المصير ونهوض الامة اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً، وحيث يتم التعاقد الحر بين المجموعات الاتنية والدينية على اختلافها. اما الدول غير الديمقراطية فيبقى تقدمها فوقياً ووحدتها قسرية. هذا ما حدث للعالم العربي الذي استبعد بكل تياراته الفكرية والسياسية النظام الديمقراطي. رأى الاصوليون في الديمقراطية نموذجاً غربياً مستورداً، وتخوَّف المحافظون منها لأنها تشرك الشعب في الادارة والقرار، وقفز الثوريون من فوقها باعتبارها ترفاً يمكن الاستغناء عنه، فسقط العرب في ويلات الحروب والتخلف والانقسام وحكموا على انفسهم ان يختاروا بين الاستبداد والحرب الاهلية. إما حكم الرجل الواحد والحزب الواحد والعائلة الواحدة وإما التقاتل والتجزئة

والتقسيم. انه الخيار المرّ الذي يجعل الاستبداد السياسي النظام البديل والمفضل لحالات الفتنة الاتنية والدينية والمذهبية. انها محنة العقل العربي ومأساته الحديثة. لم يعرف الانسان العربي ان يوفق بين الوحدة والديمقراطية وكأنه محكوم عليه ان يفاضل بين الاستقرار والحرية فأصبح لا يطيق مرضه ولا العلاج.

حان الوقت لنرفع الصوت عالياً بدل ان نرفع الايدي استسلاماً. لم اعد اشك لحظة في ان الهدف غير المعلن والمخزي لمأساة لبنان هو نحر الديمقراطية فيه. ما كانت اسرائيل لتتحمل طويلاً النموذج الديمقراطي اللبناني حيث يتعايش المسلمون والمسيحيون كي لا تضطر يوماً إلى القبول بالدولة الديمقراطية حيث يتعايش الفلسطينيون واليهود. فشنّت عليه حرباً لتدمير صيغته: بدل ان يكون نموذج حل سلمي لمشكلة الأقليات، جعلت مفهوم «اللبننة» حالة اقتتال دائم وهمجي بين الاديان والطوائف. ففي حين كان العالم يستشهد في الخمسينات بلبنان كنموذج تعايش صارت اللبننة اليوم مثال الفتنة.

واقترفت الأنظمة العربية خطأً فادحاً عندما ضاقت ذرعاً بالديمقراطية اللبنانية ولم تعِ اهميتها في الحاضر والمستقبل. وراحت تعمل في السر والعلن، مباشرة او بالواسطة، لتحجيم الحرية في لبنان بدل ادخالها في النظام العربي وتحويله إلى نظام ديمقراطي يحفظ حق الاقليات الاتنية والدينية في التمايز وحق الاقليات السياسية والعقائدية في المعارضة في اطار وحدة الارض والدولة. لقد تعرّض لبنان لحرب وقائية لاسقاط نموذج التعايش الديمقراطي فيه ولمنع انتقال عدوى الديمقراطية إلى جواره.

لاح فجر التغيير. وارى شرارته الاولى تنطلق من لبنان لتعمّ المنطقة من المحيط إلى الخليج، على غرار ما انطلقت من بولونيا فعمّت اوروبا الشرقية. واسمع اصوات الحرية ترتفع من جديد في وطني فتقضي على لعنة الحرب. واشم رائحة الديمقراطية تعبق في هذا الشرق الحزين.

غدراس في ١٣ نيسان ١٩٩١

الفهرس

فهرست

ـ أ ـ

ـ ب ـ

— ت —

— ج —

— ح —

— خ —

— غ —

— ف —

— ق —

— ك —

— ل —

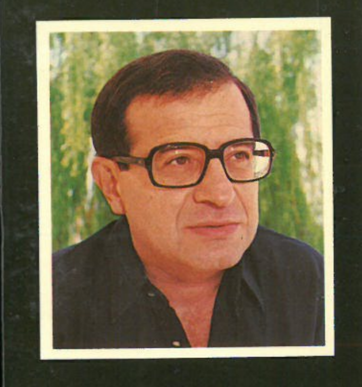
— م —

— ن —

— هـ —

— و —

— ي —



ولد المؤلف في بيروت عام ١٩٤٤ ونال اجازة في الحقوق والعلوم السياسية واخرى في التاريخ. يمارس مهنة المحاماة ومتأهل من منى الناشف وله ولدان جهاد وجواد. ترأس عام ١٩٦٨ مصلحة الطلاب في حزب الكتائب وانتخب منذ عام ١٩٧٠ عضواً في المكتب السياسي. عمل مستشاراً لرئيس الجمهورية الياس سركيس وكان من ابرز معاوني بشير الجميل. أصبح عام ١٩٨٦ نائب قائد القوات اللبنانية ورئيس الدائرة الاعلامية فيها وعضواً في الجبهة اللبنانية. اشتهر بعلاقاته العربية وخصوصاً مع دمشق وبغداد والقاهرة ومنظمة التحرير الفلسطينية. نشر عام ١٩٨٤ كتاباً عن الفترة ما بين ١٩٧٦ و١٩٨٢ تحت عنوان «السلام المفقود».